

محمد البعلاوي

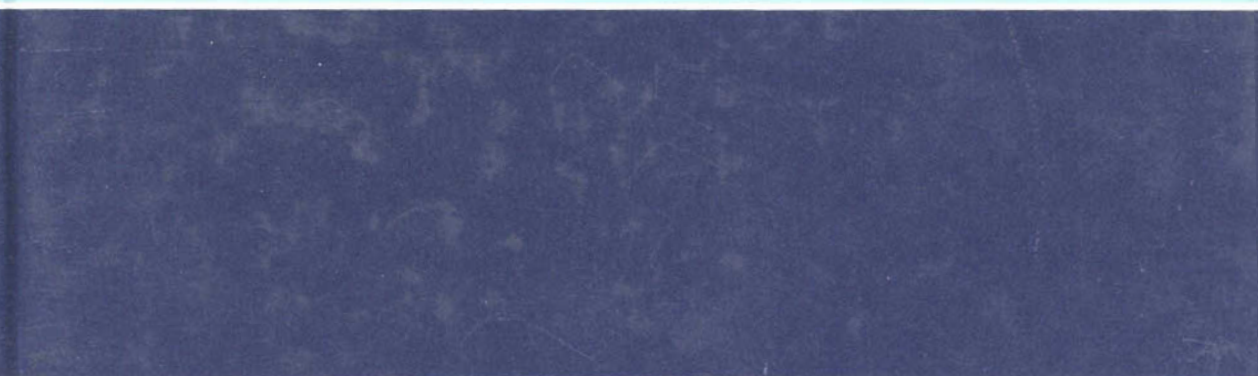
ابن هانئ للمعز بن الأندلسي

[973/362 - 931/320]

شاعر الدولة الفاطمية

دار الغرب الإسلامي





ابن هانئ المغربي الأندلسي

[973/362 - 931/320]

ابن هانئ المغربي الأندلسي

[973/362 - 931/320]

شاعر الدولة الفاطمية

تأليف

محمد العلوي

أستاذ بكلية الآداب بالجامعة التونسية



دار الفرب الإسلامي

جَمِيعُ الْحَقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

دار الغرب الإسلامي

ص.ب.: ٥٧٨٧/١١٣

بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تمهيد

ترتكز شهرة الشاعر المغربي محمد بن هانيء على أسس متنوعة . فقد شهد له المغاربة ، ومن بعدهم أهل المشرق ، بالشاعرية الفائقة ، بل رفعه أهل المغرب ، حسب عبارة ابن خلكان ، الى المرتبة التي بلغها في المشرق معاصره المتنبي ⁽¹⁾ .

هذا الجمع بين الرجلين لا يعني بالضرورة أنهما صنوان ندان متشابهان ، أو أن صاحبا مدين للآخر بالتبعية والتلمذة والتقليد . فالفروق بينهما كثيرة ، في السلوك وفي الطريقة الشعرية ، كما سنبين في الفصل العاشر من هذا الكتاب . بل الحكم ، هذا الحكم الذي جعل عبارة « متنبي الغرب » لقباً لاصفاً الى اليوم بابن هانيء ، ناتج في رأينا عن أمرين : أولاً ، ميل الناس الى الاختصار ، وذلك بصوغ المقارنة السريعة في العبارة الوجيزة ، أو الجمع بين المتلازمين في الواحد منهما ، فقالوا : العمران والحسنان والقمران . ثانياً ، ميل أهل الأندلس والمغرب قديماً الى مطاولة المشاركة في ميادين الحضارة والفنون والأدب ، حتى يقارعوهم فرداً بفرد ، وعلماً بعلم ، كلما افتخر المشرق بشاعر أو أديب ، أو أعتز بملك مظفر أو أمير ، أو تباهى بمغني زاهر أو قصر منيف . على أن هذا التفسير لأسس المقارنة بينهما لا يمنع

(1) وفيات الأعيان ، ترجمة 640 : « وهو عندهم كالمتنبي عند المشاركة » .

من التماس النواحي المشتركة في شعرهما ، كما فعل المستشرق إ. قارنيا - قوميت في تعليقه على القصيدة الحادية والعشرين⁽¹⁾ من ديوان ابن هانيء ، وهي بالذات القصيدة التي تعرّض فيها شاعرنا المغربي الى ديوان معاصره الكبير⁽²⁾ .

فجدير بنا إذن أن نهتمّ بهذا الرجل الذي اعتبره ابن خلكان « أشعر المغاربة على الإطلاق » ، فقدمه على السابقين منهم والمتأخرين ، وأن نحلل عناصر شاعريته وعوامل ذبوع شعره ذبوعاً تشهد به كثرة النسخ المخطوطة من ديوانه ، وقد بلغت فيما عرفنا ، الثلاثين .

وحتى تلك « المنافسة الثقافية » التي كانت تحرّك الأندلسيين في وجه الأفارقة وإزاء الشرق ، والتي خفّت حدّتها اليوم فصار كلّ إقليم يهتمّ بأعلامه أولاً وبالذات وأمجاده ، هذه الإقليمية الثقافية قد تدعونا الى توضيح ما غمض من شخصية ابن هانيء ، وإنارة ملامح هذا الأندلسي الغريب الذي « تغرّب » إلى إفريقية وانبرى لخدمة الدولة الشيعية .

ذلك أن محمد بن هانيء لم يكن « أشعر المغاربة » فحسب ، فهو أيضاً شاعر متحرّب للعقيدة الإسماعيلية ، متطوّع لخدمة الأئمة الفاطميين ، يُعلي بشعره كلمتهم ويدحض احتجاج خصومهم ، فتصبح دراستنا له ، بفضل انتماؤه هذا ، متجاوزة لحدود الدراسة الأدبية ، فتتعلّق بالجوانب التاريخية من القصائد ، وخاصة بمقوّمات الدعاية الشيعية أثناء القرن الرابع ، ذلك العصر الذي أسماه لويس ماسينيون « القرن الإسماعيلي للإسلام » .

وبالفعل ، يمتاز ابن هانيء عن شعراء البلاط العاديين : فليس يحركه

(1) نعين القصائد من الآن فصاعداً ، بالأرقام الترتيبية التي أسندها اليها زاهد علي في شرحه للديوان .

(2) المتنبي وابن هانيء ، بحث بالفرنسية ضمن مجموع فصول على شرف وليام مرسي ، باريس

رجاء الرfid ، ولا طمُع في جاه . بل تحدوه عقيدة دينية وسياسية قوية جعلته يتعلّق بأحفاد المهدي عبيد الله تعلّقاً تلقائياً نهائياً ، وميّزته حتى عن غيره من شعراء آل البيت ، سواء كانوا مغاربة مغمورين كعلي الإيادي التونسي وسعدون الورجيلي ، أو مشاركة مشهورين كالسيد الحميري أو دعل الخزاعي .

وهناك ظاهرة أخرى تدعو الى الانكباب على شعر ابن هانيء : وهي « خفوت المغربية » عند هذا الشاعر المغربي ، نعني قلّة ظهور البيئة الأندلسية ، والإفريقية ، بل انعدامهما ، من شعره ، وهو الذي قُسمت حياته نصفين بين الأندلس والمغرب : فلن تجد في كامل ديوانه ذكراً لمدينة إفريقية⁽¹⁾ أو جبل مغربي أو نهر أندلسي . بل ، إذا مسّت الحاجة ، يتّجه الى الشرق البعيد ، ويفضّل النيل والفرات ، ويؤثر رضوى وثبراً ، ويذكر بغداد وحلب ويعرض تماماً عن إشبيلية والقيروان ، فينصرف عن البيئة الحقيقية الى بيئة مجتلبة بالحفظ والتحصيل . وإن هذا الانعتاق من البيئة والنشأة لجدير أيضاً بالدراسة .

كما سنحاول أن نبّد الغيوم التي لا تزال تكتنف شخصية هذا الشاعر وتغشي ديوانه أيضاً : فهو شاعر « واقع » لا يشك أحد في وجوده ، وديوانه انتشر في العالم العربي الإسلامي منذ القرن الخامس ، ولا يخلو كتاب أدب من مختارات من شعره ، لكن ، بالرغم من هذا الذبوع ، فإن الضباب يغطي فترات شاسعة من حياته ، ولا سيّما الفترة الأندلسية ، فهي لغز محير : سبعة وعشرون عاماً قضاها بالأندلس ولا نجد لها صدى في شعره ، ولا حتى بيتاً واحداً ! وكذلك وفاته ببرقة : فما هي ظروفها وأسبابها ؟ أكان ذلك اغتيالاً سياسياً أو انتقاماً شخصياً ؟ أم كان حادثاً عادياً وموتاً طبيعياً ؟

ثمّ هناك لغز آخر يختصّ بالديوان : فعلى الرغم من انتشار هذا الشعر

(1) ذكر مرة رقادة وأحياناً إقليم الزاب دون قصته المسيلة .

وشهرة صاحبه في حياته وبعد مماته ، وعلى الرغم من حظوته عند الأئمة الفاطميين ، لم يتطوّر الشراح لدرسه ولا المعلقون لشرح غوامضه . كما نستغرب أيضاً اختلاف نسّخه ، وتفاوت مادّتها : هذا مخطوط يتضمن قصائد ومقطوعات يخلو منها مخطوط آخر . وهذه نسخة اقتصرت على كبرى المدائح ، وتركت باقي شعره ، علاوة على التناقض الكثير في عزو المدائح الى أصحابها ، واختلاف الترتيب من أبجدية الروي الى التبويب على الممدوحين . وهي أمور تحتاج إلى محاولة تفسير .

هذه هي إذن الدوافع التي تدعونا للاهتمام بابن هانيء الأندلسي المغربي ، على قلة « مغربيته » وانعدام أندلسيته ، وتحدونا للبحث في آثار هذا الشيعي الذي جعلته العاطفة الحزبية القوية الصادقة مثلاً للشعراء المناضلين الذين يهبون للدعوة فتهمّ وعبريتهم ، بل أنفاسهم وحياتهم⁽¹⁾ .

(1) الكتاب الذي تقدّمه هو ترجمة من الرسالة التي تقدّمنا بها إلى جامعة السربون بباريس يوم 19 ماي 1973 فأسندت إلينا بها شهادة دكتوراه الدولة . وقد طبع الكتاب سنة 1976 في لغته الفرنسية ضمن منشورات كلية الآداب بالجامعة التونسية . وشرعنا في تعريبه منذ ذلك التاريخ وحالت مشاغل التدريس والمسؤوليات دون إنجاز الترجمة قبل اليوم .

الفصل الأول

مصادر ترجمة ابن هاني

لو وصلتنا ترجمة مدققة لحياة الشاعر أو شرح مفصل لديوانه ، لأمكننا أن نتبّع كافّة مراحل حياته بدقّة وأن نتعرّف على ممدوحيه وعلى الأشخاص الذين ذكرهم في شعره ، قصداً أو عرضاً ، ولأمكننا بالخصوص أن نقف على الظروف التي نظمت فيها القصائد والمقطوعات فنبدّد الغيوم التي تحول دون فهم قسم وافر من شعره .

وازاء هذا الفقر ، فسيبّلنا أن نستعين بكتب الطبقات والتراجم ، المغربية والشرقية ، وأن ننظر في كتب التاريخ ، وبالخصوص في الأقسام التي تتعلّق بخلافة المعزّ الفاطميّ ، وأن نستقرئ أيضاً كتب الأدب والمختارات الشعرية ، ولا سيّما المجموعات المغربية : فقد تنقل إلينا شيئاً من شعره ، وتردّفه ، الى جانب الأحكام التقييميّة التي لا تهّم ترجمته مباشرة ، ببعض المعلومات أو التعليقات التي تساعد على سدّ الفراغ في بنائنا لترجمته .

ونستعين كذلك بما قد يرد في مخطوطات الديوان من تعاليق وتوطئات . فبعض النسخ تتضمّن مقدّمة في حياته ، وتمهّد للقصائد أحياناً بتوطئة في ظروف نظمها ، فلعلّ هذه الإشارات تساعد على فهم شعره ، ولا سيّما القصائد العقائديّة النضاليّة .

ولا يخفى أننا سنضطرّ أخيراً ، بعد مقابلة هذه الجزئيّات ونقدها وقبول

بعضها وطرح بعض، الى الافتراض الشخصي في شأن فترة ما من حياته، أو في التعريف بأحد ممدوحيه أو تأويل إشارة غامضة في بعض أبياته . على أننا كلما تجاسرنا على مثل هذا التدخل ، نبهنا اليه القارئ ، في انتظار أن يأتي ما يخالف الرأي الذي ذهبنا إليه .

كتب الرجال الأندلسية

لقد ألف علماء الأندلس كتباً كثيرة جمعوا فيها تراجم الأعلام وأخبارهم ، وتدرج هذه القواميس في سلسلتين من الكتب عمل أصحابها على متابعة مجهودات سابقهم باصلاح خطئهم وتدارك سهوهم وإكمال نقصهم .

فالسلسلة الأولى تتركب من كتاب ابن الفرضي (1013/403)⁽¹⁾ « تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس » وقد خصّصه للفقهاء ورجال الدين أولاً وبالذات ، وتتواصل بقاموس ابن بشكوال (1182/578) ، الذي سمّاه « كتاب الصلة » لأنه صاغه كـ « صلة » ، أي متابعة ومواصلة لتاريخ ابن الفرضي ، ويأتي بعدهما ابن الأبار (1260/658) فيؤلف « تنمّة » لصلة ابن بشكوال ويسمّيها لهذا الغرض « التكملة لكتاب الصلة » .

وهذه الكتب الثلاثة تهتمّ برواة الحديث وعلماء الدين وأهل الجاه والسلطان أكثر منها بأهل الأدب والشعر ، لذلك لا نجد ذكراً لابن هانئ عند ابن الفرضي ، رغم قصر الفاصل الزمنيّ بينهما - أقلّ من خمسين عاماً - ولا عند ابن بشكوال ، وأوّل من يذكره هو ابن الأبار فيخصّص له ترجمة من تراجم التكملة⁽²⁾ .

(1) نذكر سنة الوفاة بالتاريخين الهجري والميلادي .

(2) الترجمة رقم 350 .

أما السلسلة الثانية فتركّب من كتاب الحميدي (1095/488) « جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس »، ومن تكملته « بغية الملتبس في رجال الأندلس » للضبي (1203/599) ، وهما كتابان يتضمّنان أخبار الشعراء والكتاب أيضاً ، الى جانب الولاية وأصحاب السلطان ، كما يصرّح به كلا المؤلفين في التوطئة ، إلّا أنّ الضبيّ أتى مواصلاً لتراجم الحميدي ، وقد وقفت عند حدود سنة 450 للهجرة ، فلذلك لا نجد فرقاً كبيراً بين الكتابين فيما نقلاه من أخبار محمد بن هانيء ، رغم ما صرّح به الضبيّ من أنّه « زاد ما أغفله الحميدي وغادره » .

ومهما يكن موقف الضبيّ من الحميدي ، فإنّه اكتفى ، فيما يخصّ ترجمة شاعرنا ، بنقل نصّ الجذوة بحذافيره ، حتى المختارات الشعرية لم يزد عليها شيئاً . وهذه الترجمة وردت في غاية الاختصار : « محمد بن هانيء شاعر أندلسيّ ، خرج عن الأندلس فشهّر شعره في الغرب ، وصحب المعزّ صاحب المغرب ومدحه وغالى . . . » . فما هو سبب هذا الاقتضاب ؟

ألّا أنّ الحميديّ لم يعتبره أندلسيّاً بحقّ ، نظراً لهجرته الى المغرب ؟ لكنّ الحميدي صرّح في خطبة الكتاب بأنه يعتزم الحديث عن كل من نبّه له ذكر بين الأندلسيين ، حتى من وفد عليهم أو خرج عنهم . أم لأنّ الحميدي - وقد ألّف الجذوة وهو مهاجر ببغداد - لم تكن لديه معلومات أخرى ، بسبب انقطاعه عن المصادر الأصلية ؟

هذا التفسير ، ان صحّ في شأن الحميديّ ، فإنّه لا ينطبق على الضبيّ ، لأنّ صاحب البغية ألّف كتابه بعد قرن تقريباً من كتاب الحميدي ، فكان لديه من المادّة في خصوص الأعلام الذين ترجمت لهم الجذوة ، ما لم يكن لسابقه ، كما تدلّ عليه ترجمة ابن درّاج القسطليّ⁽¹⁾ وقد زاد فيها الضبيّ على

(1) في البغية ، ترجمة رقم 342 . وترجمة ابن هانيء تحمل رقم 301 .

ما وجده في الجذوة⁽¹⁾ .

فلا نبعد ، والحال هذه ، إن نحن عزونا هذا الاقتضاب في نقل أخبار محمد بن هانيء ، الى شيء من التحفظ لدى كتاب سنيين ، إزاء شاعر اعتبره الأندلسيون مارقاً عن الدين ، نظراً لخروجه عن سلطان الأمويين ودخوله في خدمة العبيديين ، وهو في نظرهم خروج عن عقيدة السنة والجماعة الى فرقة كافرة ضالة .

هذا ، بقطع النظر عما نُسب اليه من تحدّ للقيم الأخلاقية في شبابه بإشبيلية ، وانسياق مع نزوات الهوى وتجروء على الدين في شعره آنذاك .

ومعلوم أن الإفراط في التعصّب العقائدي قد يؤدي الى مثل هذه العداوات الفكرية ويجرّ إلى تضيق الخناق على حرية الفكر والمعتقد ، ولقد كبت السلطان الفاطمي كافة خصومه وأرهق هل السنة بالخصوص وحملهم على أتباع طقوس ضالة في نظرهم ، فلا نستغرب أن يردّ أهل السنة بالمثل ، بعد انهيار الدولة الشيعية ، بل أن يضاعفوا النقمة والنكال ، بقدر ما صبروا على التعذيب والإرهاق طيلة السنوات والأجيال : انفجرت نقمة أهل القيروان بعد قطع الولاء الفاطمي بأفريقية ، فانقلبت تفتيلاً ذريعاً للـ « مشاركة » ، وستعرض إليها بشيء من التفصيل في الفصول القادمة⁽²⁾ . وانفجرت نقمة المصريين بعد قهر الأيوبيين للحكم الفاطمي ، فامتدّت الأيدي ، لا الى الأرواح والمال فحسب ، بل الى المباني والمكتبات ، فهذمت القصور وأحرق الأثاث ، وأتلفت المكتبات الفاطمية ومزقت أسفارها لتصنع من جلدها النعال للعساكر ، يقول المقرئزي (1441/845) راثياً مستنكراً : « ... وأحرق ورقها تأولاً منهم أنها خرجت من قصر السلطان أعزّ الله أنصاره ، وأن فيها كلام المشاركة (الشيعة) الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحُمِل الى

(1) في الجذوة : ابن درّاج : ترجمة رقم 186 . و ترجمة ابن هانيء : رقم 157 .

(2) انظر الفصل الخامس .

سائر الأقطار . وبقي منها ما لم يحرق وسُفّت عليه الرياح التراب ، فصار تلالاً باقية الى اليوم في نواحي آثار تعرف بتلال الكتب»⁽¹⁾ .

فلا غرابة ، إزاء تصاعد العداوات أن ننسب الى هذا أو ذاك شيئاً من التحفظ إزاء شاعر المعزّ ، فهذا مؤرّخ الأيوبيين ، العماد الأصفهاني (1201/597) تحدّثه نفسه بـ « تطهير » كتابه من تراجم شعراء الفاطميين أمثال ابن الضيف⁽²⁾ فيقول : « . . . وكنت عازماً لفرط غلوّه على خطّه ، لأنّه أساء شعراً وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفراً ، فلم يستحقّ لإساءته كفراً ولا غفراً » .

وهو ، إن لم يطرحه برمته ، فقد « طهر » الأبيات التي نقلها له من كل إشارة إلى الخلفاء الفاطميين .

وقد تعرّضت بعض النسخ المخطوطة من ديوان الشاعر الى عمليّة التطهير هذه ، فالنساخ يطرحون القصائد التي تبدو لهم مغرقة في الإشادة بفضائل المعزّ ، وخصوصاً القصيدة الرابعة والعشرين .

وبعد ، قد لا نستغرب من الحميدي تحفظه إزاء ابن هانيء ولا استنكاره لمغالاته في أوصاف المعزّ التي « أنكرت واستعظمت » كما يقول ، فهو فقيه سنيّ ، وربّما ظاهريّ ، اليه يُنسبُ كتاب « الجمع بين الصحيحين » في التوفيق بين مسلم والبخاري ، فلا ينتظر منه أن يكون من مجبّدي الشعر الشيعيّ !

ومثل هذا الاستنكار نجدهُ عند أندلسيّ آخر ، وهو الفتح بن خاقان (1334/529) . فقد خصّص لابن هانيء إحدى تراجم كتابه « مطمح

(1) المقرئزي : خطط ج 2 ص 254 ، انظر محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطميّة ص 29 .

(2) العماد الأصفهاني : الخريدة ج 1 ص 285 (القسم المصري) .

محمد كامل حسين : في أدب . . . ص 138 .

الأنفس»، فمزج فيها، وراء بهرج اللفظ وكلفة السجع، بين الاستنكار لمروق الشاعر عن جادة الدين وغلوّه في مدح المعزّ، والاستحسان لبلاغته في نظمه الذي «تتمنى الثريا أن تتوجّج به وتقلّد، ويودّ البدر أن يكتب فيه ما اخترع وولّد»⁽¹⁾. ويفيدنا نصّ المطمح ببعض المعلومات، كاشتراك ابن هانيء وأمراء المسيلة في الأصل الأندلسي، كما يمدّنا ببعض من أسباب خروج الشاعر من الأندلس الى العدوّة.

ولم يعدّ الفتح بن خاقان الى شاعرنا في كتابه الثاني، «قلائد العقيان»، ولا غرابة في ذلك، فالقلائد تكملة للمطمح ومواصلة له.

ونقل المقرّي (1631/1041) نصّ المطمح بدون زيادة ولا نقصان في «نفع الطيب».

أما ترجمة التكملة، فهي أكثر تفصيلاً من سابقتها، وخصوصاً من نصّ الجذوة الذي صرّح ابن الأبار بأنّه نقله، فقد زاد عليه تفاصيل أخرى، مثلاً في اتصال نسب الشاعر بنسب آل المهلب بن أبي صفرة، ونزوح أبيه هانيء من المهدية الى الأندلس واستقراره نهائياً بالبيرة، وتلقّي الشاعر «أكثر تأدبه بقرطبة»، ثمّ خروجه من الأندلس الى العدوّة واتّصاله بأميري المسيلة جعفر ويحيى ابني الأندلسية، ثمّ مصاحبته للمعزّ وأخيراً موته ببرقة سنة 361 هـ. ويظهر أن ابن الأبار لم يرتح لهذا التاريخ فأضاف: «... وذكر أبو الحسن ابن رشيق في «قراصة الذهب» من تأليفه أنّه توفي سنة 362...» ولكن هذه الرسالة النقدية لا تذكر، في صورتها التي وصلت بها إلينا⁽²⁾، سنة وفاة الشاعر.

وتلفت انتباهنا، في كلام ابن الأبار، عبارة «غلب عليه ذلك» إثر لقب

(1) الفتح بن خاقان: مطمح الأنفس 84.

(2) ابن رشيق: قراصة الذهب - الطبعة القديمة ضمن «الرسائل النادرة»، القاهرة 1926 والطبعة الجديدة من تحقيق الشاذلي بويحيى تونس 1972.

الشاعر « الأندلسي » ، فكأنه لا يقرّ استحقاق ابن هانيء لهذا اللقب ، أما لخروجه عن الأندلس وأما لانضمامه الى الدعوة الشيعة .

ونجد ترجمة قصيرة عند أندلسي آخر ، استقرّ مثل الحميديّ بالمشرق ، وهو ابن دحية (1265/663) في كتابه : « المطرب من أشعار أهل المغرب » ، ولكنها لا تمدّنا بشيء جديد ، حتى استنكارها لغلوّ الشاعر صار أمراً معروفاً معهوداً .

ومن الكتب المغربية والأندلسية التي ترجمت لصاحبنا ، نذكر أخيراً كتاب « المغرب في حلى المغرب⁽¹⁾ » لابن سعيد المغربي (1286/685) ، وكتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة »⁽²⁾ للسان الدين بن الخطيب (1375/776) .

في « المغرب » نجد ترجمة صالحة مفيدة في بعض التفاصيل التي لا يذكرها ابن خلكان ، وسنستثمر هذه المعلومات في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، حين نعيد بناء حياة الشاعر ، معتمدين أولاً وبالذات على نصّ « الوفيات » . ولكنّ ابن سعيد أفسد كلامه بما ارتضى نقله من خبر دخول ابن هانيء على أمير الزاب ، جعفر بن حمدون ، وهي حكاية سخيفة وضعت ولا شكّ للتفكّه على حساب الشاعر الفاطميّ كما وضعت خرافات مماثلة في شأن أبي نواس وغيره .

أما نصّ الإحاطة ، ففيه أولاً ترجمة وجيزة لا جدّة فيها إلّا بما ينسبه ابن الخطيب الى شاعرنا من « المشاركة في العلوم والنفوذ في فكّ المعمى » أي في علوم الطلاسم والألغاز . ثم ينقل لسان الدين نصّاً من رسالته المسماة « تخليص الذهب » وهي رسالة لم تصلنا ضمن آثار الأديب الغرناطي ، وهذا النصّ المزخرف المسجّع على عادة ما يكتبه لسان الدين ، يتضمّن حكماً أدبيّاً

(1) ابن سعيد : المغرب ، ترجمة رقم 409 .

(2) ابن الخطيب : الإحاطة 212/2 .

في شعر ابن هانيء نقله ابن الخطيب من « مقامات » ابن شرف القيرواني التي تعرف بعنوان « مسائل الانتقاد » .

كتب الرجال الشرقية

ترجم لصاحبنا ، من المؤلفين المشاركة ، ياقوت (1230/627) في معجمه « ارشاد الأريب »⁽¹⁾ وابن خلكان (1262/681) في « وفيات الأعيان » ؛ الترجمة عندهما مفصلة فيها معلومات جديدة بالنسبة الى نصّ ابن الأبار في التكملة ، فقد ذكرنا مسقط رأسه بتدقيق : اشبيلية ، وفصلا الحديث عن علاقته المتينة بأمير المدينة ، واضطرار هذا الوالي إلى إقصائه لما تألب أهل البلد على الشاعر بسبب مجونه واستهتاره بالدين في شعره . ثم لخصنا حكايته مع القائد جوهر بالمغرب وحاولا ضبط سنّ الشاعر عند وفاته ببرقة يوم 23 رجب 362/29 أبريل 973 : إمّا سنة 36 سنة وإمّا 42 سنة (بحسب تاريخ ولادته إن كان سنة 320 أم سنة 326) .

ويقول ابن خلكان انه خرج من الأندلس في سنّ السابعة والعشرين . وهو خبر سيذكره ابن الخطيب في ترجمته بالإحاطة . وقد صرح ابن خلكان أنه اعتمد على قراضة الذهب لابن رشيق لضبط تاريخ وفاته ، كما اعتمد على كتاب « أخبار القيروان » ، وهذا الكتاب النفيس يظهر أنه تاريخ ابن شدّاد (1186/582) أحد أمراء بني زيري ، المعنون بـ « الجمع والبيان في أخبار القيروان » ، وهو كتاب مفقود .

أمّا الكتب المتأخرة كـ « مرآة الجنان »⁽²⁾ لليافعي (1367/768) و « شذرات الذهب »⁽³⁾ لابن العماد الحنبلي (1678/1089) فهي تنقل نصّ الوفيات ، وتزيد عليه خرافة مماثلة للحكاية التي نقلها ابن سعيد في شأن

(1) ياقوت : ارشاد الأريب ، 92/19 .

(2) اليافعي : مرآة الجنان مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس عدد 13443 ورقة 230 وج 375/2 من المطبوع .

(3) ابن العماد : شذرات ... سنة 362 ، 42/3 .

اتّصال ابن هانئ بصاحب المسيلة : ويفهم من هذه الحكاية أن المتنبي (الشرقي) قصد أمير قابس بجنوب أفريقية لينال رفته ، فتصدّى له ابن هانئ فلقيه بجانب البحر فأحبط عزائمه بحيلة مضحكة ، ويرفض اليافعي الحكاية وينكر أن يكون وقع لقاء بين الشاعرين .

وبعد ، فمن تحليلنا لهذه المصادر المختلفة ، المغربية والشرقية ، يظهر أن أضفى ترجمة لشاعرنا ، هي ترجمة الوفيات . فهي لهذا السبب ، حقيقة بأن نتخذها أصلاً ومنطلقاً في محاولة تخطيط حياة ابن هانئ : ولعلها اكتسبت هذه التفاصيل من هذا المصدر النفيس المفقود الذي اطلع عليه كثير من المؤرّخين واستثمروه ونقلوا عنه : أخبار القيروان لابن شدّاد الصنهاجي⁽¹⁾ .

كتب التاريخ

قد تمدّنا كتب التاريخ ببعض الإرشادات الصالحة لاستكمال معلوماتنا عن حياة الشاعر ، وذلك بفضل الفقرات التي تخصّصها للأشخاص الذين اتّصل بهم ، كالمعزّ الفاطمي وكبار قوّاده وأمراء دولته ، أو للحوادث التاريخية التي نجد لها صدى في شعره ، كحروب الفتوحات في أرض الإفرنج أو في مصر ، أو الفتن التي تحدّثها القبائل البربرية النائرة ضدّ السلطان الشيعي .

وهكذا يحدّثنا أقدم المؤرّخين الأندلسيّين ، ابن حيّان (1076/469) في كتابه «المقتبس»⁽²⁾ عن خروج أمير المسيلة جعفر بن حمدون عن المعزّ وإعلان ولائه للخليفة الأمويّ ، الحَكَم الثاني ، ووصول موكبه إلى قرطبة ،

(1) ابن شدّاد : فيما يخصّ هذا المؤرخ ، انظر فصل الاستاذ محمد الطالبي بدائرة المعارف الإسلامية . وانظر كذلك : لويس ماسينيون : قائمة ... عدد 31 . ويبدو أن الباحث خلط بين الأمير الصنهاجيّ وأمير زيديّ توفّي عام 1115/509 .

(2) المقتبس (حقّي) 32 .

وهذا الحديث يأتي عرضاً لأنّ كتاب المقتبس هو ملخص لخلافة الحكم المستنصر ، فلا يتصل بأفريقية والمغرب إلّا بقدر مشاركة السياسة الأموية في شؤونهما .

وكذلك ابن الأثير (1233/630) في « الكامل »⁽¹⁾ ، يفيدنا عن ظروف مقتل الشاعر أثناء حديثه عن هجرة المعزّ الى مصر ، فيقول ، خلافاً لما سيذكره ياقوت وابن خلكان ، انه لقي حتفه أثناء تشييعه للمعزّ في طريق مصر ، لا بعد توديعه للمعزّ ورجوعه الى افريقية لاستصحاب عياله ثمّ السفر نهائياً الى القاهرة ، العاصمة الجديدة .

أمّا المؤرّخ الصنهاجي ، ابن حمّاد (1230/628) فيفيدنا ، في كتابه « تاريخ ملوك بني عبید »⁽²⁾ ، ببعض الملاحظات في خصوص مراسيم البلاط الفاطميّ ، علاوة على الحوادث والفتن والحروب التي تخلّلت خلافة الأئمة الفاطميّين بداية من انتصاب عبید الله المهدي الى خروج المعزّ الى مصر .

وكذلك ابن عذاري (1312/712) ، يلقي في « البيان المغرب » أضواء على بعض الأعلام الذين خالطهم شاعرنا ، مثلاً ، أمير الزاب جعفر بن حمدون ، فيقصّ علينا بالتفصيل تقسّمه بين طاعته للمعزّ وصدافته القديمة للثوّار الزناتيين وشقّه عصا الطاعة أخيراً في وجه المعزّ ، ثم دخوله في خدمة خلفاء قرطبة الى أن كاد له الحاجب ابن أبي عامر فدرس له من قتله⁽³⁾ .

ونجد لسان الدين بن الخطيب مؤرخاً في كتاب « أعمال الأعلام » فتّضح لنا بفضل بعض الجوانب من الصراع السياسي والحربيّ الجهاديّ الذي دار في جنوب إيطاليا وفي جزيرة صقلية بين الفاطميّين والروم البيزنطيّين ، كما يقدّم لنا الكتاب عرضاً لولاية الأمراء الكلبيين على صقلية ،

(1) الكامل 46/7 ، سنة 361 .

(2) ص 28 .

(3) 242/2 و 280 .

وَمُلَخَّصاً لَخَلَاْفَةِ الْمَعَزِّ .

أَمَّا ابْنُ خَلْدُون (1406/808) ، فَإِنَّ الْفُصُولَ الَّتِي خَصَّصَهَا فِي تَارِيخِهِ ، لِلدُّوْلِ وَالْإِمَارَاتِ الَّتِي قَامَتْ بِالْمَغْرِبِ ، وَبِالْخُصُوصِ إِمَارَاتِ صَنْهَاجَةَ وَزَنَاتَةَ وَإِمَارَةَ بَنِي حَمْدُونِ بِالسَّيْلَةِ ، هَذِهِ الْفُصُولُ تَسَاعِدُنَا كَثِيراً عَلَى فَهْمِ الْحُرُوبِ وَالْفِتَنِ الَّتِي تَغْذِيهَا الْعَصَبِيَّاتُ الْقَبَلِيَّةُ ، وَالْعِدَاءُ السِّيَاسِيُّ بَيْنَ الْأُمَوِيِّينَ وَالْفَاطِمِيِّينَ . وَهِيَ حَوَادِثُ كَثِيراً مَا يَشِيرُ إِلَيْهَا الشَّاعِرُ فِي مَدَائِحِهِ لِلْمَعَزِّ أَوْ قَوَادِهِ .

وَفِي مَا يَتَعَلَّقُ بِخَلَاْفَةِ الْمَعَزِّ بِالذَّاتِ ، فَإِنَّا نَجِدُ عَرْضاً مُفَصَّلاً لَهَا عِنْدَ مُؤَرِّخِي مِصْرَ : الْمُقْرِيزِي (1441/845) وَابْنُ تَغْرِي بَرْدِي (1470/874) اللَّذَيْنِ يَفْضَلَانِ كَذَلِكَ أَعْمَالَ الْقَائِدِ جَوْهَرَ فِي سِيَاسَتِهِ لِمِصْرَ بَعْدَ فَتْحِهَا ، وَأَعْمَالَ بَعْضِ مُسَاعِدِيهِ مِنَ الْقَوَادِ الْأَفَارِقَةِ ، مِثْلَ جَعْفَرِ بْنِ فَلَاحِ الْكُتَامِيِّ (1) .

أَمَّا بَقِيَّةُ الْمُؤَرِّخِينَ الْمَشَارِقَةِ ، مِثْلَ أَبِي الْفَدَاءِ (732 / 1831) (2) ، وَالذَّهَبِيِّ (3) (1848/748) وَالصَّفْدِيِّ (4) (1363/764) ، فَإِنَّهُمْ لَا يَفِيدُونَنَا إِلَّا بِمَا يَدْخُلُونَهُ مِنْ تَنْقِيحَاتٍ عَلَى تَرْجُمَةِ شَاعِرِنَا كَمَا أَثْبَتَهَا ابْنُ خَلِّكَانَ : فَالصَّفْدِيُّ مِثْلاً ، فِي « الْوَافِيِّ بِالْوَفِيَّاتِ » ، رَغْمَ أَنَّهُ يَنْقُلُ نَصَّ ابْنِ خَلِّكَانَ ، يُؤَرِّخُ وَفَاةَ الشَّاعِرِ بِسَنَةِ 365 ، وَهُوَ تَارِيخٌ غَرِيبٌ لَمْ نَقِفْ عَلَيْهِ عِنْدَ غَيْرِهِ ، وَلَعَلَّهُ خَلَطَ بَيْنَ تَارِيخِ وَفَاةِ الْمَعَزِّ (976/365) وَتَارِيخِ وَفَاةِ شَاعِرِهِ ، وَعِلَاوَةً عَلَى هَذَا الْخَطَأِ ، فَهُوَ يَسْمِيهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَانِيءٍ ، وَفِي هَذَا أَيْضاً ، يَخْلُطُ الصَّفْدِيُّ بَيْنَ شَاعِرِنَا مُحَمَّدَ بْنَ هَانِيءٍ ، وَشَاعِرٍ مِصْرِيِّ مِنْ أَهْلِ الْقُرْنِ السَّادِسِ يَرْجِعُ نَسَبُهُ إِلَى صَاحِبِنَا ، وَيَسْمِيْ ابْنَ هَانِيءٍ الْحَفِيدَ أَوْ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ بْنِ هَانِيءٍ .

(1) اتعاط الحنفاء 136-134 . الخطط 155/2 .

النجوم الزاهرة 28/4 .

(2) مختصر ... 212/2 .

(3) تاريخ الإسلام ورقة 300 ب .

(4) الوافي ترجمة عدد 240 .

ويخبرنا الذهبي في « تاريخ الإسلام » أن عداء أهل اشبيلية لابن هانيء
كاد يودي بحياته ، فلم ينج منهم الا بالهروب الى برّ العدو .

بقيت الكتب المتأخرة ، مثل « المؤنس » لابن أبي دينار (1698/1110) ،
و « الحلل السندسية » للوزير السراج (1736/1149) ، و « كتاب الاستقصاء »
للسلاوي الناصري المغربي (1895/1312) ، فمادّتها منقولة عن المصادر
الأصليّة التي استعرضناها ، فلا نرتجي منها حينئذ اكتشافات جديدة .

ولنفس السبب ، فأننا لا نذكر كتب المعاصرين ، من عرب
ومستعربين ، لأنهم يستمدّون مادّتهم أيضاً من هذه المصادر القديمة التي بنينا
عليها معرفتنا بحياة ابن هانيء وبالبيئة التي عاش فيها . ولكن ، اذا ما احتجنا
الى مقارنة المصادر ومقابلة المعلومات ، فاننا نعتد على هذه البحوث
المعاصرة ، حتى نغلب فكرة على أخرى ونرجح مصدراً على مصدر . وبهذا
الصدد لا بدّ من الإشارة إلى الفائدة التي جنيناها من بحوث ثلاثة من العلماء
الأوروبيين : أولاً ، ج . شلمبرجي⁽¹⁾ في رسالته الضخمة عن الأباطور
البيزنطي نقفور فقاس عدوّ الإسلام في الشرق والغرب ، فقد وصف بالتدقيق
القتال بين أسطول الروم وأسطول الفاطميين في مضيق مسينا وبحر صقلية .
ثانياً ، م . أماري⁽²⁾ الذي جمع كل النصوص العربية القديمة المتعلقة بجزيرة
صقلية واهتمّ خاصّة بالتطاحن بين النفوذ الإسلامي فيها والنفوذ المسيحي .
وأخيراً ، ماريوس كانار الذي قاده بحوثه عن البيزنطيين الى التنقيب عن كل
من لاصقهم وقاومهم من أمراء الإسلام ، فألف رسالته القيّمة في سيف الدولة
الحمداني وجمع كل النصوص الخاصّة بإمارة حلب ، ثمّ اهتمّ بالخلافة
الفاطمية فكتب فصلاً عديدة في علاقاتها مع الروم ، ومراسيم البلاط ،
وأحوال بعض الولاة الفاطميين كأسرة بني حمدون بالمسيلة ، ويكفيها دليلاً

(1) شلمبرجي : Un empereur . . . G. Schlumberger .

(2) أماري : M. Amari : B.A.S. .

على سعة معرفته بالميدان الفاطمي ، ترجمته لـ « سيرة الأستاذ جودر » مع ما تضمّنته من تعليقات وتوضيحات نفيسة .

كتب الأدب

قد نعثر في كتب المختارات الأدبية ، وفي كتب النقد ، على أبيات لابن هانيء ، ينقلها المؤلفون للاستدلال على غرض شعري ما ، أو الاستشهاد بصورة بلاغية ، أو للمقارنة بينه وبين شعراء آخرين من الشرقيين خاصة . ولا تأتي هذه الشواهد منفردة جافة ، بل تصحبها عادة تعليقات من المؤلفين وأحكام تقييمية ، وأحياناً ، إشارات تتعلق بترجمة الشاعر فتزيدنا تعريفاً مثلاً ببعض ممدوحيه أو بعض من عرفهم وذكرهم في شعره .

فالحصري (1061/453) مثلاً ، يقارن في « زهر الآداب »⁽¹⁾ بين شاعرنا وشاعر إفريقي آخر معاصر له يسمّى « عليّ بن محمد الإيادي » ، في وصفهما للأسطول الفاطمي ، كما يمدّنا بقسم مجهول من قصيدة لابن هانيء في مدح أمير الزاب .

كذلك ابن رشيق (1063/456) يروي لنا خبراً عن الإيادي هذا وابن هانيء ، فيقول في « العمدة »⁽²⁾ ان ابن هانيء دُعي الى مهاجمة شعراء إفريقية ، فقال : لن أهجو الّا الإيادي اذا هجاني فقال الإيادي : كيف أهجوه بعد أن رفعني على الشعراء كافة ؟

وقد عرّجنا على ما كتبه ابن شرف (1067/460) في إحدى مقاماته الأدبية⁽³⁾ في خصوص غلّو شاعرنا وتنكبه الجادة القويمة ، وهو الحكم الذي

(1) 133/1 .

(2) 111/1 .

(3) مسائل الانتقاد ، 40 .

نقله ابن الخطيب في الإحاطة وأضاف اليه ترجمة وجيزة لفتت انتباهنا بتاريخها
لوفاة الشاعر بسنة 361 عوض 362 .

ولكن لا تُغَرَّنَا كثرة هذه المصادر وتنوعها ، فالمعلومات التي نستقيها
منها لا تمكِّن من ترجمة صحيحة مدققة للشاعر ، نملأ فيها مثلاً فراغ الفترة
الأندلسية من حياته ، وهي فترة طويلة دامت سبعاً وعشرين سنة ، ونقدِّر فيها
المدة التي لازم فيها أمير المسيلة ، ونحقِّق ظروف وفاته أو مقتله ببرقة ، كما لا
تسمح هذه المعلومات بالوقوف على هويّة كثير من ممدوحيه .

فلذلك نتَّجه الى الديوان نفسه ، والى نُسخه المخطوطة لنستمدّ منها ما
قد يساعد على مزيد من الفهم والتعرّف ، وذلك ضمن ما نجده من مقدّمات
للقصائد أو تعليقات عليها ، وأحياناً ضمن ما نكتشفه من قطع مجهولة لم يسبق
نشرها .

المخطوطات

نجد في الديوان المطبوع أو في النسخ المخطوطة منه تقديماً لبعض
القصائد والمقطوعات ، ولكنه لا يفيد كثيراً لأنّه لا يذكر الشخص الذي أهديت
اليه القصيدة ، وإنّ يذكره ، فلا يعرفه بل يقتصر على اسمه ، مثلاً : أبو الفرج
الشيبياني ، ولا يتعرّض الى ظروف النظم الآ نادراً ولا يذكر تاريخ النظم بتاتاً .
وما دمنا لا نعرف من الشيبياني الا اسمه ، ونجهل مهنته أو وظيفته ، والظروف
التي مدحه فيها الشاعر ، والصنيع الذي استحقّ به هذا المدح ، وما دامت
القصيدة نفسها مبهمّة غامضة لا يضبط فيها زمان ولا مكان ولا حادث معروف
تاريخياً ، قلنا : ما دمنا في هذا الغموض ، فأننا مضطرون الى الافتراض
والتخمين في تقسيم حياته الى ثلاث فترات : أندلسية ومغربية وأفريقية ، وفي
التعريف بممدوحيه ، وضبط علاقاته بالبلاط الفاطميّ . ولعلنا كنا نستفيد
كثيراً من تاريخ ابن شدّاد المفقود ، أو من شرح الديوان الذي نسهه ح . ح . عبد

الوهاب⁽¹⁾ الى التيفاشي القفصي بعنوان : « الديباج الخسرواني في شرح ديوان ابن هاني » ، ونستفيد على الأقل ظروف النظم ، كما نستفيد اليوم من شروح ابن جني والواحدي والعكبري على ديوان المتنبي ومن تعليقات ابن خالويه على شعر أبي فراس الحمداني .

هذه النسخ المخطوطة تُفتَح أحياناً بترجمة للشاعر منقولة عن ابن خلكان غالباً ، الا أنها تنفرد في بعض المخطوطات بإشارات جديدة ، مما يدل على أن مادتها أخذت من نصّ الوفيات ومن غير الوفيات . فهذه مثلاً مخطوطة دار الكتب الوطنية بتونس التي رقمناها بـ « تونس 1 » - وهي أوفر مادة من جميع النسخ المعروفة - تفيدنا بأمرين :

1- الإشارة الأولى تتعلق بدخول الشاعر في خدمة أمير المسيلة : فتقول ، نقلاً عن فقيه يدعى « الزهراني » - الزهراني لا الوهراني كاتب الأمير - أن جعفر بن حمدون سمح لابن هاني بالانتفاع من مكتبته . فهذا يوهّم بأن الشاعر قد استكمل تعلّمه عند ممدوحه الأندلسيين بالمسيلة ، ونحن نميل الى رفض هذا الخبر لأن المؤرخين لم يلفتوا انتباهنا الى وجود مثل هذه المكتبة بعاصمة الزاب . غير أن الإشارة قد تدلّ على أن مقام الشاعر بالمسيلة لم يكن قصيراً ، ممّا يفسّر كثرة القصائد التي نظمها هناك في مدح بني حمدون .

أما الإشارة الثانية ، ففيها تبرير لطيف للغلو الذي تتسم به مدائح الخليفة فيطبعها بطابع الكفر ، يقول صاحب النصّ : « ... وله فيه غلو عظيم كفر فيه ، اذ كان لا يجوز عند الممدوح الا به ... » .

فنفهم أن ابن هاني ما كان يرتضي هذا الإغراق في إجلال الامام ، وأنه كان يدفع اليه دفعاً . وهي فكرة خاطئة ، فالمعاني والأساليب التي يعبر بها شعراء الشيعة - ولا سيّما صاحبنا - عن احترام الأئمة ومحبتهم والتعلّق بهم ،

(1) الورقات ، تونس 1966 ، 458/2 .

تبدو لجمهور السنين كقرأ محضاً وإغراقاً في الضلالة ، فلذلك راح صاحب المخطوطة يلتمس له الأعذار حيث لا موجب للاعتذار .

هذا المخطوط الذي نحن بصدده ، يتضمن كل القصائد والمقطوعات التي نجدها في الطبقات الثلاث للديوان ، ولا سيما في الثالثة منها ، وهي أكملها وأتقنها ، ونعني بها الشرح الضافي الذي نشره الباحث الاسماعيلي زاهد علي الحيدر آبادي بالقاهرة سنة 1352/1933 بعنوان : « تبين المعاني في شرح ديوان ابن هاني » . إلا أن مخطوطنا يحتوي على مجموعة أخرى من القصائد والمقطوعات لم تبلغ الى علم الباحث الهندي ، وقد نشرناها بعددين من « حوليات الجامعة التونسية »⁽¹⁾ .

ونجد ، من بين هذه الأبيات التي تنفرد بها نسخة تونس 1 ، مقطوعتين غزليتين نظمهما الشاعر في « غلام فائق الجمال » يدعى عبد الله بن سليمان ، والمقطوعتان تسترعيان الانتباه من ناحيتين :

1- فهما تصوّران جانباً مجهولاً من شخصية الشاعر ، وهو جانب الانحراف الجنسي والمجون والعريضة ، الذي يغاير تماماً الصورة « الرسمية » التي ألفناها لشاعر المعز في تعلّقه بالدعوة الاسماعيلية وانصرافه الى الدفاع عنها بشعره الجدّي القويّ . هذا الجانب المجهول ، إن تحقّق وجوده ، لا يتنافى اذ ذاك مع الرأي القائل بأنّ موته ببرقة كان قتلاً إثر خصومة فاحشة : « ... وقتل ببرقة في مشربة على صبي »⁽²⁾ .

2- هذا الغلام المخنث كان يتعشّقه أيضاً الأمير تميم بن المعز ، وإنما نظم ابن هاني القطعتين ليغيظ الأمير . هذا ما تصرّح به المخطوطة . ولئن كان تميم معروفاً بفسوقه وميله عن شؤون الدولة الى الشعر واللهو والشراب ،

(1) العدد السادس 1969 ، والتاسع 1972 .

(2) ابن سعيد : المغرب ، ترجمة رقم 409 .

مما أدى الى عزله عن ولاية العهد⁽¹⁾ فإن خبر هذه المنافسة بينه وبين شاعرنا ، أي خبر منافسة غرامية ، وربما شعرية ، لم يبلغنا إلا عن طريق هذه المخطوطة ، وعن طريق أحد مؤرخي الفاطميين ، وهو الدواداري (1335/736) الذي يقول إن قتل ابن هانئ كان بإيعاز من تميم⁽²⁾ .

ولا وجه لدفع هذه الصورة الماجنة عن شاعرنا ، فالمجان والمُنحرفون ، من الشعراء ومن غير الشعراء ، كثيرون ، في القديم والحديث ، عند العرب وغير العرب . ولعلنا نرجحها ونقبلها اذا ما دققنا النظر في قصيدتين من الديوان المنشور مدح بهما القائد الفاطمي المجهول الذي يدعى « أبا الفرج الشيباني » . فقد استهلّ المدح على عادة القدماء ، بالنسيب التقليدي ، إلا أنه خلط فيه بين المعاني الغزلية والصور الحربية خلطاً يحمل القارئ على التساؤل في هذا الممدوح : أبطل مغوار هو ، أم عذراء خجول ؟

ففي الأولى ، بعد أن يستغرب من قدرة الممدوح على حمل الرمح ، مع رقة قوامه ولين قدّه ، قائلاً : [كامل]

17/4 وَيُكَلِّفُ الْأَرْمَاحَ لِسِنَ قَوَامِهِ قَيْدُ ذَا يَزْنٍ وَيَظْلُمُ قَعْضَبًا⁽³⁾
يتمنى لنفسه سيفاً مثل لحظ الممدوح قائلاً ، وقلباً مثل دلالة جريئاً
فاتكاً :

24/4 ... قُمْ فَاخْتَرِطْ لِي مِنْ حَوَاشِي لَحْظِهِ سَيْفًا يَكُونُ ، كَمَا عَلِمْتُ ، مُجَرَّبًا
25 وَأَعْرِ جَنَانِي فَتَكَةً مِنْ دَلِّهِ كَيْ مَا أَكُونَ بِهَا ، الشَّجَاعَ الْمَحْرَبًا

أما استهلال الثانية ، فأمره أغرب ، اذ يبادر فيه الشاعر ، من البيت الأول ، الى تشبيه الممدوح بالغزال اللطيف الذي ليس من شأنه أن يحمل

(1) سيرة الأستاذ جوذر 115 و 123 . والترجمة الفرنسية 181 .

(2) الدرة المضئية (من كنز الدرر) 254 .

(3) ذويوزن : أحد أقبال اليمن - وقعضب : جاهلي يصنع الرماح .

الرمح ولا الحسام : [بسيط]

1/60 قُولَا لِمُعْتَقِلِ الرَّمْحِ الرُّدْنِيَّ والمُرْتَدِي بِالرِّدَاءِ الْهِنْدُوَانِيَّ
2 ضَعِ السِّلَاحَ ! فَهَلْ حَدِثْتَ عَنْ رَشٍ فِي مَشْرِفِي صَقِيلٍ أَوْ رُدْنِيَّ ؟

هذا المعنى الغريب ، وهذه المقابلة عند الغلام ، بين الجسم الناعم والحديد الصارم ، كثيراً ما يعود اليهما الشاعر ، كأنه يتذوقهما أو يساير بهما ذوق الجمهور ، ويستخدم لهما كل وسائل الصنعة ، مثلما نراه في المقطوعة التالية ، وهي من زوائد مخطوط تونس 1 : [كامل]

كَمْ قَلْتُ اذْ نَزَهْتُ فِي وَجَنَاتِهِ طَرْفِي ، فَمَا رَجَعْتُ إِلَيَّ مَحَاجِرِي
ذَا - وَيَحْكَمْ ! - مَاءٌ وَجَمْرٌ مُحْرِقٌ فَقَدْ احْتَرَقْتُ ، وَمَا تَرَوَى نَاطِرِي !⁽¹⁾

فاستعارة الروض للخذ المورّد ، والمطابقة بين ماء البشرة الصافية والتهاب الوجنة ، كل هذا معروف ، أنما الطريف هو هذا التساؤل الكاذب ، أو ما يسمّى عند أهل البلاغة بـ « تجاهل العارف » : كيف يدوم الاحتراق مع توفر الماء ؟ كيف يستمرّ الظمأ والماء متدفق ؟

وفي مقطوعة أخرى من زيادات تونس 1 ، نراه يدافع ، في غير ما احتشام ، عن هذا المذهب الجنسي ، فيفضل الصلة بالمدكر على الصلة العادية بين أجناس مختلفة ، ويحتجّ لها فيعدّد مزاياها : لا حيض ، ولا نسل ولا حجاب ! ومما يزيد الأبيات جرأة ، أنها موجهة الى امرأة : [سريع]

لَا تَلْحِنِي يَا هَذِهِ ! إِنَّنِي لَمْ تُصْنِنِي هِنْدٌ وَلَا زَيْنَبُ !
لَكُنَّنِي أَصْبُو إِلَى شَادَنٍ فِيهِ خِصَالُ جَمَّةٍ تُرْعَبُ :
لَا يَرَهْبُ الطَّمْتُ ، وَلَا يَشْتَكِي حَمَلًا ، وَلَا عَنْ مَقْلَتِي يُحْجَبُ !⁽²⁾

(1) حوليات 1972/9 ص 84 .

(2) حوليات 1972/9 ص 78 . وقد أورد ابن سعيد الأبيات الثلاثة ، وسها عنها زاهد علي .

وفي قطعة أخرى ، نراه يدعو صيقلاً يصنع السيوف الى الاثتار له من « غلام مليح » قام بين يديه يَحْتَبِرُ سيفاً ، ولكن يتوسل اليه أن يصون مواطن حسنه الأربعة ، ولا سيمّا العجيزة : [بسيط]

... خُذْهُ بِثَارِي جِزَاءٍ بِالَّذِي فَعَلَا وَاقْتُلْهُ عَنِّي ، فَإِنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلَا
أَقِذْهُ بِي ! وَتَجَنَّبْ مِنْهُ أَرْبَعَةً : الْجِيذَ ، وَالْخَذَّ ، وَالْأَلْحَاطَ ، وَالْكَفْلَا! ⁽¹⁾

هذه القطع التي لم تنشر في الديوان تكشف لنا كما قلنا عن صورة مجهولة لابن هانئ : صورة شاعر له « غنائية » ككل الشعراء الحقيقيين ، ألا أنها غنائية خرجت عن الغزل التقليدي الجاف الذي لا يترجم عن واقع ، الى غزل تعودت التقاليد الأخلاقية أن تنبذه . فالشعور بالجمال ، والإحساس بالفتنة ، والانسياق مع العاطفة القوية ، كل هذا اتخذ في قلب الشاعر طوقاً شاذةً ، فلذلك عمل على إخفائها في جل شعره ، ولم يظهرها الا في بعض الاستهلاكات الملتوية أو بعض المقطوعات شبه السرية التي لم تتجاوز الندامى والخلان في مجلس الأنس ، فلذلك غابت عن جامعي الديوان ولم تظهر الا في نسخ قليلة ، كنسختنا هذه النفيسة التي فتحت لنا بفضل زوائدها ، هذه الآفاق المجهولة من شخصية ابن هانئ .

وكما وجدنا في الديوان هذه النماذج المكشوفة من الغزل بالمدكر ، فإننا نجد كذلك نماذج من الشعر الخمرى ، تتمثل في مقدّمات خمرية لقصائد المدح ، على غرار استهلاكات الأعشى أو أبي نواس . هذه الاستهلاكات توجد حتى في القصائد « الجدّية » مثل مدائح المعزّ ، وتتمثل أيضاً في مقطوعات قصيرة تصف مجالس الطرب والشراب ، مثل هذه الأبيات التي يقترن فيها وصف الخمرة بالشره الجنسي : [وافر]

وليلٍ بَثَّ أَسْقَاهَا سُلَافَا مَعْتَقَةً كَلُونِ الْجُلُنَارِ

(1) حوليات 1972/9 ص 89 .

كَأَنَّ حُبَابَهَا خَرَزَاتُ دُرٍّ عَلَتْ ذَهَباً بِأَقْدَاحِ النَّضَارِ
بَكْفٍ مُقَرَّطٍ يُزْهِى بِرَدْفٍ يَضِيقُ بِحَمْلِهِ وَشُعُ الْإِزَارِ
أَقَمْتُ لَشْرِبِهَا عَيْشاً ، وَعِنْدِي بَنَاتُ اللّٰهُوَ تَعَبْتُ بِالْعُقَارِ
وَنَجْمُ اللَّيْلِ يَرْكُضُ فِي الدِّيَاجِي كَأَنَّ الصُّبْحَ يَطْلُبُهُ بَشَارُ⁽¹⁾

وقد نظم الشاعر أيضاً مطوّلة على غرار قصص أبي نواس الا أنها وحيدة من نوعها ، كأنها « تمرين » قلّد فيه أبا نواس وأمثاله⁽²⁾ .

وكما لم ندفع عن شاعرنا صفة الشذوذ الجنسي ، لا يسعنا أن ندفع عنه تهمة التعلّق بالخمير ومستلزماتها : فالميل الى اللّٰهو أمر طبيعي ، ولا سيما عند الشعراء ، وهذا الميل لا ينقص شيئاً من موقفه كشاعر رسمي للبلاط الفاطمي . فالجانب الرسمي من شعره يتمثل في القصائد السياسيّة النضاليّة . أما هذه المقطوعات وهذه المقدمات ، فهي فرصة ينتهزها الشاعر ليعبر عن غنائتيه المكبوتة .

ولا يخفى أن هذا الشعر الخمريّ يَدْعُمُ هو الآخر ما رُوِيَ عن شبابه الماجن باشبيلية أو عن ليلته الأخيرة ببرقة .

هذا ما استفدناه من مخطوط تونس 1 . أمّا بقيّة النسخ التي تحتوي على مقدّمة ، فلا نجد فيها ما يلفت النظر ، إلّا ما نقله مخطوطا باريس⁽³⁾ ومدرّيد⁽⁴⁾ في شأن سنّ الشاعر عندما قُتِلَ : الخامسة والثلاثين ، ولكنهما ينقلان نصّ ابن خلّكان الذي لم يذكر إلّا امكانيتين : 36 سنة أو 42 سنة ؛ فهذا الرقم سهوٌ حينئذٍ أو غلط .

وتزيد مخطوطة مدرّيد على نسخة باريس - رغم تشابه نصّ المقدّمة -

(1) ص 334 من طبعة زاهد عليّ .

(2) القصيدة 34 .

(3) باريس رقم 3108 .

(4) مدرّيد رقم CCX 5271 .

بنقلها لخرافة اللقاء بين ابن هانئ والمتنبّي ، وروايتها لحكم المعزّ بين الشعارين ، وهو يفضّل طبعاً شاعره على شاعر سيف الدولة .

*

وبعد ، فهذه هي المصادر التي نستقي منها معلوماتنا عن ابن هانئ وبيئته وممدوحيه ، وهي كما يلاحظ القارئ ، معلومات جزئية غير ثابتة ، ولا سيّما في القضايا الأساسية من حياته ، كنشأته الأندلسيّة وأحوال أسرته ، وتكوينه وتعلّمه ، وأحواله العائليّة ، وظروف وفاته .

بقي لنا أمل العثور على شيء من الإرشادات المفيدة خلال استعراضنا لشعره ، في محاولة لضبط تاريخ القصائد والتعريف بالأعلام المذكورين فيها وبالأحداث التي تشير إليها : فإذا تمّ لنا ذلك - وهو محور الفصل الثاني والثالث من هذا الكتاب - فإننا سنقترح بعد ذلك ترجمة مفصّلة للشاعر .

الفصل الثاني

ديوان ابن هانيء

يبلغ عدد النسخ المخطوطة من ديوان ابن هانيء ثمانين وعشرين نسخة ، بين كاملة وجزئية . هذا العدد يضبط المخطوطات المعروفة ، أي المحفوظة في كبريات المكتبات في العالم ، أو الباقية على ملك بعض الخواص من رجالات الشيعة الاسماعيلية في بلاد الهند .

ولا يخفى أن هذا العدد قد يرتفع بما قد يكشف من مخطوطات مخبأة مجهولة .

وقد اطلعنا منها على نحو عشر نسخ ، بما فيها مخطوطات دار الكتب الوطنية بتونس وهي خمس نسخ . أما البقية ، فعرفناها بالوصف : إمّا من الفهارس التي تسجل فيها المكتبات الوطنية كنوزها ، وإمّا من نقل الدارسين ، كوصف ناشر الديوان ، زاهد عليّ ، للنسخ الهندية التي يحتفظ بها رؤوس طائفة البهرة في سرت وحيدرآباد بالهند⁽¹⁾ ويغارون عليها ويضنون بها على عامة الدارسين ، ولئن تمكّن المرحوم زاهد علي من الاطلاع عليها ، فلأنه كان

(1) انظر فصل « البهرة » في دائرة المعارف الإسلامية 2 ، كتبه آساف فيضي وهو أيضاً اسماعيلي ، وانظر كذلك ما يقوله المرحوم محمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية . . . المقدمة ص

اسماعيلياً ، بل كان أحد رجالات هذه النحلة في بلاده⁽¹⁾ .

وستحدّث في هذا الفصل ، عن النسخ التي عرفناها بالممارسة الفعلية ، ثم نقابلها بالتي عرفناها بالوصف والرواية ، وبعد ذلك ، نحاول أن نرتّب كافة النسخ ترتيباً زمنياً ، أي بحسب تاريخ نسخها . وفي قسم ثان نتحدّث عن طبعات الديوان .

النسخ المخطوطة :

يظهر أن أقدم النسخ المخطوطة هي النسخة المحفوظة بالمكتبة الوطنية ^{مخطوط (ب)} بباريس تحت رقم 3108 . ويرجع تاريخ صنعها الى سنة 858 للهجرة / 1455 للميلاد ، حسب ما يذكره الناسخ في نهاية المخطوطة .

يتركّب المخطوط من 189 ورقة ، والقصائد مرتبة فيه بحسب حرف الروي ، الهمزة ، الألف ، الباء ، التاء . . . ويتضمّن مقدّمة نجد فيها ، بعد الحمدلة ، ترجمة للشاعر يظهر أنها ، كما قلنا ، نقلت عن نصّ الوفيات ، وان كانت تختلف عنه ببعض الجزئيات ، كحكاية اللقاء بين ابن هانيء والمتنبّي ، تلك الخرافة التي نقلها اليافعي ، وينقلها ابن العماد الحنبلي ، ممّا يبعث على الاعتقاد بأن كلاً من مؤلف هذه المقدّمة وهذين المؤرّخين قد أخذوها من مصدر واحد .

ونلاحظ أخيراً أن القصيدة 24 من ترتيب زاهد عليّ - وهي مدحة للمعزّ لا يزال الناس يستنكرون غلوها - قد طرحت أصلاً من هذه المجموعة ، فكأنّ أيدي « التطهير » قد امتدّت الى هذا المخطوط فحذفت منه ما قد يُستعظم .

(1) زاهد علي : تبين المعاني . . . ص 14 من المقدّمة ، وراجع ما ذكره عنه فيضي في الفصل المذكور عن « البهرة » .

النسخة الثانية توجد بالمكتبة الوطنية بمديرية تحت رقم 210 ج 233 .
تفتح هي أيضاً بمقدمة مماثلة ، ولكن ترتيب القصائد مختلف : فهو ترتيب
بحسب الممدوحين : القصائد الأولى هي مدائح المعز ، بدون أن يكون
ترتيبها خاضعاً لنظام ما : فالقصيدة الأولى لامية ، والثانية نونية ، والثالثة يعود
فيها اللام الخ . . . ولم يذكر تاريخ النسخ ، على أنه ذكر تاريخ التملك باسم
شخص يدعى عبد الرحمان الحسيني . التاريخ متأخر : 1668/1080 ، ونسبة
« الحسيني » توهم بأن صاحب المخطوط هذا ، كان من نسل فاطمي أو كان
على الأقل شيعياً .

وهذه النسبة نفسها ، يتصف بها صاحب مخطوط الاسكوريال الآتي
الذكر ، وهو رجل يدعوه الناسخ باسم « زيد ابن أمير المؤمنين المنصور بن
أحمد الحسيني » ، فهل كان هؤلاء أمراء وملوكاً ، أو أفراداً من أسرة مالكة ؟
لعلها إحدى الأسر العلوية التي حكمت البقاع المقدسة قبل حركة الوهابية⁽¹⁾ .

واسم الحسيني هذا أكثر انتشاراً في الزمان والمكان من أن نستطيع
معرفة عبد الرحمان الحسيني معرفة صحيحة .

ومهما يكن من أمر المالك ، فإن المخطوط لا يجمع كامل شعر ابن
هانيء ، بل تنقصه أربع قصائد ، علاوة على القصيدة 24 التي أشرنا إليها ، ولا
يمكن هذه المرة ، أن نتهم « المحافظين » بتطهير المجموعة : فمن هذه
القصائد المطروحة - وهي المرتبة عند زاهد علي تحت أرقام 21 و 26 و 32 و
35 - ما لا يتصل أصلاً بالمذهب الشيعي ولا بالحكم الفاطمي ، كالقصيدة 21
التي يتعرّض فيها الشاعر الى ديوان المتنبي . ونجد على هامش القصائد
الأولى من النسخة ، بعض الشروح اللغوية المقتضبة .

Zambaur: Manuel de chronologie et de généalogie, Hanovre 1927 (1)

مخطوط (م. ب) أما نسخة المتحف البريطاني⁽¹⁾ ، فلئن ذهبت منها ورقنا البداية والنهاية ، فهي تزيد على النسختين السالفتين بالقصيدتين 61 و 62 من ترتيب زاهد علي ، اللتين تخلو منهما جلّ المخطوطات : فلذلك لم تردا في الطبعات الأولى من الديوان ، وأول ظهورهما كان في طبعة الباحث الهندي الذي اعتمد هذا المخطوط فيما اعتمد .

ويقول زاهد علي ، معتمداً على نوع الورق ، ان تاريخ نسخها يرجع الى القرن السابع / الثالث عشر ، وبذلك يكون مخطوط المتحف البريطاني أقدم نسخ الديوان ، ولكننا نحفظ بفكرتنا في أسبقية نسخة باريس التي ضبط تاريخ نسخها .

في هذه النسخة ، لا نتبين ترتيباً واضحاً للقوائد ، فلا هو بحسب الممدوحين ، ولا على الأبجدية : فالقصيدة الأولى قافية وهي في مدح ابن أمير المسيلة ، والثانية ثائية في مدح جعفر ، والأخيرة فائية في مدح المعز .

وكذلك الأمر بالنسبة الى مخطوط مكتبة الاسكوريال باسبانيا⁽²⁾ ، فهو يبدأ بالقصيدة رقم 13 الدالية ، ولا نعرف كذلك تاريخ انجاز هذه النسخة التي لا تتضمن مقدمة ولا خاتمة .

النسخ التونسية

مخطوط (ت 1) ونصل بعد هذا الى نسخ دار الكتب الوطنية بتونس التي لم يطلع عليها زاهد علي . هذه النسخ الخمس تتفاوت قيمتها ، فأهمها هو المخطوط رقم

(1) عدد B. M. 3767 .

(2) عدد 443 .

13746 الذي لقبناه « تونس 1 » ويتألف من 124 ورقة رتبت عليها القصائد ترتيباً أبجدياً على حرف الروي .

ولهذا المخطوط ميزتان : قدم العهد أولاً ، فقد نسخ سنة 1594/1004 ، وهو تاريخ قريب نسبياً ، إلا أن الأصل الذي نقل عنه يرجع تاريخه الى سنة 1211/608 ، وهو أقدم تاريخ يشهد بوجود ديوان مصنف لشعر ابن هانيء . فالمخطوط يعتمد على نسخة قديمة جداً ، وإن كانت مفقودة ، من ديوان ابن هانيء .

والميزة الثانية هي اشتماله على 8 قصائد و 18 مقطوعة غير مذكورة في بقية النسخ المعروفة . فالقصائد مهداة الى ممدوحين ، منهم المعروف كالخليفة المعز وأمير المسيلة ، ومنهم المجهول كالكاظم «أحمد بن زائدة» . أما المقطوعات ، فقد لفتت انتباهنا بما كشفت لنا من مخبآت ميول الشاعر وطباعه . هذه الزيادات التي ينفرد بها مخطوط تونس 1 تضيف الى طبعة زاهد علي - وهي أكمل من سابقتها ومن لاحقاتها كما سنرى - 368 بيتاً من شعر ابن هانيء .

وقد صرح ناسخ المخطوط بأنه نقل هذه القطع الإضافية « من غير الأصل المنقول عنه » : يعني هذا أنه اعتمد أصليين : الأصل العادي إن صح التعبير ، وهو مخطوط سنة 608 الذي نتوقع أنه لا يختلف عن النسخ الموزعة اليوم في العالم ، والتي كانت مصدراً لطبعات الديوان ، ثم الأصل المجهول الذي فقد هو الآخر ، وبقينا نجعل في شأنه هل كان يتضمن كل شعر ابن هانيء أم هو يقتصر على هذه الإضافات لا غير ، والأقرب الى الظن أنه كان نسخة كاملة من الديوان ، أو على الأقل نسخة أكمل من نسخة سنة 608 .

هذا ، وقد أشرنا الى المعلومات الطريفة التي أفادتنا بها الترجمة الواردة في ذيل المخطوط ، مما يبعث على الاعتقاد بأنها ترجمة سابقة حتى لنص ابن الأثير في التكملة ، نظراً لقدم الأصل المعتمد .

وخاتمة القول في مخطوط ت 1 ، أنه صالح ، بفضل هذه الزيادات
أولاً ، وبفضل وجوده في تونس أي افريقية موطن الشاعر ثانياً ، أن يكون أصلاً
يعتمد لطبعة جديدة للديوان ، تجمع كامل الشعر المعروف حتى اليوم .
وسنحاول تحقيق هذه الأمنية ان شاء الله .

مخطوط (ت 2) المخطوط الثاني - ونسميه ت (1)2 - نُقل سنة 1847/1264 عن ت 1 ،
الذي كان قد حُبِس على مكتبة الجامع الأعظم ، أي جامع الزيتونة ، ابتداء
من سنة 1839/1256 ، كما يشهد به عقد التوقيف المثبت في صدر نسخة ت
1 . غير أن هذه النسخة ت 2 تنقطع عن نقل ت 1 ابتداء من ورقة 74 وجه ، فلا
تنقل اضافات ت 1 الواردة ابتداء من قافية اللام ، وقد أهمل الناسخ كذلك
المقدمات التي تعلقو القصائد ولم يحسّن خطّه ، كأنّه أتقن العمل في أول
النسخ ، فاعتمد نسختين ، منهما ت 1 ، ثم أعجله أمر فطرح النسخة
الطويلة - ت 1 - واكتفى بنقل الأصل القصير الذي لا يتضمّن اضافات ، بهذا
يمكننا أن نبرّر وجود بعض زيادات ت 1 في هذه النسخة وفقدان الأخرى .

ثم نجد ، في مخطوطات دار الكتب التونسية ، نسختين متشابهتين وان
مخطوط (ت 3) اختلفتا عن السابقتين : أولاهما - ونسميها ت (2)3 - نقلت سنة 1695/1107 ، وقد
كانت على ملك الفقيه التونسي الشيخ ابراهيم الرياحي (ت 1849/1266) ،
ولعلّه كان اقتناها بالشرق أثناء إحدى سفراته - أو سفاراته - لأنّ خطّ النسخة
مشرقيّ واضح أنيق مطعّم بالمداد الأحمر ، وان كان ناسخها - واسمه محمد
الشرابي - نُسِب في المقطوعة التي نظمت بمناسبة اختتام النسخ ، الى
المغرب . ويبدو أنّ المخطوطة كانت ، قبل وصولها الى الشيخ ابراهيم
الرياحي ، على ملك رجل يدعى « أحمد الدلنجاوي » ، تقول المنظومة إنه

(1) ت 2 : رقم 2231 قديم .

(2) ت 3 : رقم 15850 .

هو الذي قام بتزيين المخطوطة بالتزاويق الحمراء . وأحمد الدلنجاوي هذا ليس مجهولاً تماماً ، فقد كان على ما يقول بروكلمان ورضا كحالة⁽¹⁾ ، شاعراً مصرياً ، عاش حتى سنة 1711/1123 ، وخلف ديوان شعر طبع ببلاق سنة 1885/1303. فتكون المخطوطة مرّت بأيدي شاعرين ، الدلنجاوي والشيخ الرياحي الذي كان ينظم الشعر في المناسبات ، ولا سيّما السفارات لدى الباب العالي .

خطوط (ت 4) النسخة الأخرى - ت 4 - نقلت بحذافيرها عن ت 3 ، سنة 1834/1250 ، فقد نقلت حينئذ في حياة الشيخ ابراهيم الرياحي صاحب النسخة المنقول عنها ، وأوقفت هي الأخرى على مكتبة الجامع الأعظم ابتداء من صفر 1873/1291 ، ويفهم من الإشارة الواردة في ذيل المخطوطة أنها كانت على ملك المؤرّخ التونسي أحمد بن أبي الضياف المتوفى في شعبان من نفس السنة / أكتوبر 1873 ، فيكون صاحب الاتحاف قد تخلّى عنها لغيره أو جعلها من أحباس الزيتونة خمسة أشهر قبل وفاته .

مطوط (ت 5) أمّا بقية المخطوطات التونسية ، فهي جزئية لا تجمع كامل الشعر ، بل مختارات منه ، فالنسخة التي ورثتها دار الكتب عن العلامة التونسي ح . ح . عبد الوهاب قبيل وفاته سنة 1968 ، وتحمل رقم 18624⁽²⁾ ، هذه النسخة تنقل بعض المطولات فقط برمتها ، أمّا بقية القصائد ، فتشير إليها بالبيت الأول منها الذي يصبح هكذا عنواناً لها ، فالقصيدة 24 مثلاً لا يعرف وجودها الا ببيتها الأول : [كامل] .

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فآحكُم فأنث الواحد القهار
ورأى صاحب النسخة في خصوص هذه القصيدة بالذات أن يبرّر

(1) بروكلمان 260/2 والملحق 388/2 . كحالة : 220/1 .

(2) انظر قائمة المخطوطات المهداة الى دار الكتب الوطنية في الحوليات 1970/7 .

اقتصاره على هذا المطلع بما يوجد في القصيدة من شرك ، فنقل لنا حكماً قاسياً لابن شدّاد صاحب تاريخ القيروان على كفر ابن هانئ . فهذه فرصة أخرى نتحرّس فيها على فقد هذا الكتاب .

ونسخة ح . ح . عبد الوهاب هذه - ت 5 - صُفّت سنة 1859/1275 : وتشتمل على 102 ورقة تتقدّمها بعض الاشارات في ترجمة الشاعر وبعض الأحكام في شعره ، منقولة عن مطمح الأنفس لابن خاقان ، وعن الوفيات ، وعن « عيون التواريخ » لابن شاكر الكتبي (1362/ 764) .

أما النسخ الموالية ، فتكتفي بنقل بعض القصائد المختارة ولا تنقلها كاملة، وهكذا نجد في مخطوط (ت 6)⁽¹⁾ فقرات من القصائد: 31 و 40 و 48 و 53 ، جمعت مع فقرات أدبية أخرى مختلفة المناهج والأغراض ، ضمن « كشكول » نسخه أو انتسخه سنة 1862/1279 الفقيه التونسي محمد بيرم الثاني . والقصيدة الأولى من هذه المجموعة اشتهرت عند القدماء والمحدثين بوصفها للتجوم الذي يستهله الشاعر بقوله : [طويل]

أَلَيْلَتْنَا إِذْ أَرْسَلَتْ وَارِداً وَخَفَاً وَبِتْنَا نَرَى الْجَوْزَاءَ فِي أُذُنِهَا شَفَاً
فصاروا يتناقلونها ويتمثلون بها .

فلا بدع حينئذ أن لا نجد في ثلاثة كنانيش إلا هذه القصيدة « الفلكية » من شعر ابن هانئ ، الى جانب مختارات مختلفة من شعراء وأدباء آخرين⁽²⁾ .

وشبيه بهذه المجموعات التونسية ، مجموع تحتفظ به مكتبة

(1) ت 6 : رقم 436 .

(2) ت 7 وت 8 وت 9 : رقم 3920 و 18768 و 18458 .

الأمبروزيانية بميلانو⁽¹⁾ ، الا أنه لا يتضمّن الأبيات الفلكيّة ، بل فقرات من القصيدتين 20 و 26 ، مع منتقيات لغير ابن هانئ .

النسخ الأخرى

هذه هي النسخ التي تسنّى لنا أن نطلع عليها بنفّسنا ونمارسها ممارسة فعلية . ولم نتمكن من الاطلاع على بقيّة المخطوطات التي بنى عليها زاهد علي طبعته للديوان سنة 1352/1933 ، فاضطررنا إلى الاكتفاء بما نقلته عنها الفهارس المختصّة كفهرست أهلوارت أو روزين ، أو ما وصفها به زاهد علي في مقدّمته⁽²⁾ . هذه الأصول الأخرى تتوزّع كما يلي :

- نسخة بالمتحف البريطاني ، وهي غير التي عرفناها .
- نسختان باكسفورد .
- نسختان بالمتحف الآسيوي بليننغراد .
- نسختان ببرلين .
- نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

هذا الى جانب النسخ الأربع التي يملكها جماعة من البهرة بسُرت وحيدرآباد ، ومنهم بعض أقارب الناشر .

ولنذكر أخيراً مخطوطاً آخر تحتفظ به المكتبة الوطنيّة بباريس ، مع كُنش يتضمّن قطعة مختارة من شعر ابن هانئ⁽³⁾ .

ترتيب القصائد في المخطوطات :

هذه النسخ كلّها حديثة العهد نسبياً ، وقد رتّبت القصائد في معظمها

(1) رقم 118 من فهرست قريفي ج 1 ص 593 .

(2) تبين المعاني ... ص 12-16 من المقدّمة .

(3) رقم : 6031 و 6034 من فهرس Blochet .

بحسب الممدوحين ، ولا نجد ترتيباً أبجدياً مثلما هو الشأن في (ت 1) و
(ب) غير أن بعض النسخ تفتتح بالقصيدة الثالثة عشرة : [طويل]

1/13 أَلَا طَرَقْتَنَا وَالشُّجُومُ رُكُودٌ وفي الْحَيِّ أَيْقَاضٌ ، وَنَحْنُ هُجُودٌ
على غرار مخطوط (م . ب) .

هذا ونحاول ، في الجدول الذي نقدّمه في آخر هذا الفصل ، أن نرتّب
المخطوطات ترتيباً زمنياً تقريبياً ، بالاعتماد على تاريخ التصنيف كلّما ذكر ، أو
على تاريخ الوقف أو التملّك ان وجد : في الوادي الأولّ والوادي الثاني ،
نعرف المخطوط بمصدره وعلامته ، ونذكر التواريخ في الواديين الثالث
والرابع ، ونشير في الوادي الخامس إلى أنواع الترتيب ، وهي في الواقع
متباينة لا تجمع بينها وحدة . أما الوادي السادس فخصّصناه للملاحظات :
نلفت الانتباه الى كون المخطوط كاملاً يجمع كل الشعر ، أو جزئياً يقتصر على
مختارات منه ، وإلى وجود مقدّمة مثلما في (ب) و (م) . وإنّ وجود هذه
المقدّمة لا يشكّل حجة على تشابه المخطوطات وانحدارها من أصل واحد :
يشارك (ب) و (م) مثلاً في المقدّمة ولكنهما يختلفان في الترتيب .

وحتى الترتيب لا يشكّل حجة : ف « ب » و « ت 1 » يتبعان الترتيب
الأبجدي ، ولكنهما يفترقان بالنقص والزيادة . والترتيب بحسب الممدوحين لا
يخلو نفسه من بعض الفوضى : هناك نسخ تبدأ بمدائح المعزّ ، ثم تتركه الى
مدائح بني حمدون ، ثم تعود الى الخليفة في أواسط الديوان او حتى في
نهايته . وكذلك الأمر بالنسبة الى أمراء المسيلة : بعض مدائحهم يرد في
المرتبة 20 من الديوان ، (أي القصيدة العشرون من النسخة تكون في
مدحهم) ، ثم تنقطع فتعود في المرتبة 51 ، وتنقطع من جديد ، فتعود في
القصيدة 63 . فلا تميّز بين هذه الأنواع من التنظيم ، ترتيباً يراعي مثلاً أفضليّة
الخليفة فيقدّم مدائحه على مدائح ولاته وقوّاده . ولئن توسّمنا في بعض النسخ
مثل هذا الترتيب ، فسرعان ما يخيب الظنّ فنلاحظ الخلل .

ولا نتميّز كذلك ترتيباً ما ، أبجدياً أو تاريخياً ، ضمن القصائد الموسومة باسم الشخص الواحد : نعني أن مدائح المعز مثلاً ، اذا وردت مجموعة متتابعة ، فإنها لا تتوالى بتوالي حرف الروي ولا بتوالي الأحداث والزمان ، بل ترتب كما يطيب للناسخ أن ينقلها أو يرتبها .

غير أننا نجد أحياناً ، ضمن الترتيب الأبجدي المتبع في (ت 1) و (ب) تبويباً ثانوياً يعتمد الاشتراك في الممدوح ؛ نعني أن القصائد الهمزية ، أو البائية ، أو الدالية ، اذا اجتمعت في نسخة ، فقد تتقدمها مدائح المعز ، ثم تليها مدائح جعفر بن حمدون ، وهلمّ جرّاً ، ولكن هذا التبويب سرعان ما يختل فتعود الحرية المطلقة ابتداء من قافية الرّاء .

وواضح ، إزاء هذا الاختلاف في الترتيب ، أنه يتعذر علينا أن نعّين للقصائد وللمخطوطات تاريخاً صحيحاً ولا مصدراً ثابتاً ، فنجزم بأن قصيدة كذا نظمت في بلد كذا وفي تاريخ كذا ، وأن المخطوط الفلاني نسخ في تونس أو في مصر . وأنما نضطرّ ، في كل هذا ، الى الافتراض والتخمين ، وغاية ما نتجاسر عليه ، في البحث عن أصول المخطوطات ، هو أن نرجّح أنّ النسخ التي تفتتح بمدائح المعز هي نسخ فاطمية أو منقولة عن أصل فاطمي ، لأنها تقدّم الخليفة فتجعله في الديوان ، أوّل الممدوحين ، وان لم يكن في الترتيب التاريخي الا ثالثهم أو رابعهم .

طبقات الديوان :

لقد طبع ديوان ابن هانيء ثلاث مرّات قبل الطبعة المحقّقة التي قام بها زاهد علي سنة 1933/1352 . طبع أوّل مرّة ببولاق سنة 1857/1274 ، ثم طبع ببغروت سنة 1886 ، وظهرت الطبعة الثالثة ببغروت أيضاً سنة 1907/1326 .

طبعة بولاق :

تألّف من 160 صفحة مسبوقة بترجمة للشاعر منقولة عن ابن خلكان ،

ويقول الناشر انه رأى من الصالح أن يرتب القصائد ترتيباً أبجدياً ، ممّا يبعث على الاعتقاد بأن الأصل الذي بنى عليه طبعته لم يكن مرتباً بمثل هذا الترتيب : ولعلّه انطلق فعلاً من النسختين المحفوظتين اليوم بدار الكتب بالقاهرة : فهما مختلفتا التبويب بعيدتان كلّ البعد عن الترتيب الأبجدي .

والأبيات فيها غير مشكولة ، وقد تكلف الناشر نقل بعض الشروح اللغوية في الهوامش ، ألا أنّ الطباعة رديئة جداً لا تكاد تتضح حروفها ، والديوان بعد هذا خال من كل فهرسة .

طبعة بيروت الأولى :

ظهرت سنة 1886 في 232 صفحة ، والطبع أقلّ اختلافاً منه في السابقة ، وبالرغم من إلغاء التعاليق الهامشية ، فإنها منقولة عن طبعة بولاق : فالترتيب هنا أيضاً أبجديّ وعنونة القصائد مماثلة وكذلك القراءات الخاطئة . إلا أنها تزيد عليها بفهرس للغلط المطبعي .

وقد صرّح ناشرها « شاهين عطية » بأنه طبع الديوان على نفقة « لطفي الزهّار » و « عمر هاشم » وهما رجلان يحترفان تجارة الكتب بدمشق ، ولا شيء في الإشارة يبعث على الظن بأن هذين الكتّيبين كانا شيعيين وأنّ طبع الديوان كان بدافع مذهبيّ .

طبعة بيروت الثانية :

طبعت سنة 1907/1326 على مطابع جريدة « الإقبال » وهي إحدى الصحف الإسلامية الثلاث التي كانت تصدر آنذاك ببيروت⁽¹⁾ ، ولا تختلف عن السابقتين إلا برُجوعها الى الشروح اللغوية القليلة التي كانت نقلتها طبعة بولاق .

(1) ف . طرازي : تاريخ الصحافة العربية . . . ص 8-9 من الفهرس العام .

شرح زاهد علي

هذه النقائص المنجّرة عن فقدان كل عمل تحقيقي من الطبقات الثلاث وبالخصوص عن انعدام المقابلة بين المخطوطات حملت أحد أساتذة المعهد النظامي بحيدرآباد بالدكن في القطر الهندي ، على الشروع في تحقيق الديوان وشرحه ، والتقديم له بمقدّمة ضافية . أنجز هذا الباحث - واسمه زاهد علي ، وهو سليل أسرة شيعيّة اسماعيليّة بحيدرآباد - عمله ، فشفعه بترجمة انجليزيّة للديوان ، تقدم بهما سنة 1350/1932 لنيل شهادة الدكتوراه البريطانيّة من جامعة اكسفورد . ثم نشر الديوان بالقاهرة سنة 1352/1933 تحت عنوان : « تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء » ، فالعمل ليس ضبطاً للنصّ فحسب بل هو أيضاً شرح وتقديم .

بنى الشارح تحقيقه على طبقات الديوان الثلاث ، وعلى عدد كبير من المخطوطات ، واعتمد منها خاصّة نسخة المتحف البريطاني التي تحدّثنا عنها (م . ب) : فقد اتخذها أصلاً لضبط النصّ نظراً لما ارتآه فيها من قدم العهد واكتمال المادّة . واعتمد أيضاً النسخ المحفوظة في الهند عند طائفة البهرة بسُرت ، وعند بعض أفراد عائلته ، واستخدم بالخصوص شرحاً للقصاصد المعزيّات - أي مدائح ابن هانيء للمعزّ - صنّفه على النهج الباطنيّ أحد أقاربه ، الشيخ حميد الدين عليّ ، فقال انه اعتمد عليه كثيراً لفهم الأبيات المتعلّقة بالعقيدة الاسماعيليّة وبالقاب الأئمّة وصفاتهم ، ثم شرحها⁽¹⁾ وأضاف الى مادّة الديوان بعض المقطوعات وأبياتاً منفردة اكتشفها في مطمح الأنفس لابن خاقان وفي نفح الطيب .

وبهذا كانت تكون طبعته أكمل طبقات الديوان وأجمعها لشعر ابن هانيء ، لولا اغفاله للمخطوطات التونسيّة ، ولا سيّما (ت 1) بزياداتها

(1) زاهد علي : تبين - ص 9 من المقدّمة .

الهامة ، وانا لنستغرب هذا السهو من زاهد علي ، وقد كان رحمه الله باحثاً رصيناً وأديباً عارفاً ، اذ كان عليه ، أثناء استقرائه للنسخ المخطوطة ، أن يتجه أولاً وبالذات الى تونس وارثة الحضارة الافريقية التي زانها مجد الشاعر . ونستغرب كذلك أن يسهو أستاذه المشرف على بحثه - وهو المستشرق مرغليوث المعروف بحملته على الشعر الجاهلي - عن النسخ التونسية فلا يدعوه الى التحقق من وجودها .

هذا الشرح الضخم يتألف من 818 صفحة من الحجم الكبير ، مصدرة بمقدمة ذات 61 صفحة . في هذه المقدمة ، يشرح الناشر أولاً دوافعه الى هذا العمل ، ثم يصف الطبعات الثلاث التي سبقت الديوان ، وكذلك المخطوطات التي حقق بها طبعته ، وهي ثمانية عشر مخطوطاً ، تأتي بعد ذلك ترجمة للشاعر مستوحاة من كلام ابن الأبار وابن خلكان وابن الخطيب ، وتليها جملة من الأحكام في قيمة الشاعر للقدماء وبعض المستشرقين يشفعها زاهد علي برأيه هو في ابن هانيء مع مقارنته بالمتنبي .

وفي قسم ثان من هذا التصدير ، يترجم الناشر لأهمّ مددوحي الشاعر ويسلط أبرز الأحداث التي تخللت خلافة المعزّ . ثم يشرح عناصر العقيدة الإسماعيلية مستشهداً بأبيات من الديوان ، مبرراً ما اعتبره السيّون غلوّاً من الشاعر ومروقاً عن الدين ، ومُبرّئاً ساحته من تهمة الكفر .

ولا يخفى أنّ هذا الباحث الاسماعيليّ معجب بابن هانيء ، فهو يعادله بأعظم الشعراء ، ولا سيّما المتنبي .

ويختم المقدمة بقاموس قصير جمع فيه ثلاثين كلمة من غريب الديوان ، ممّا لا يخضع حسب رأيه لمقاييس اللّغة ، وينقل أخيراً نصّ المقدمة التي تنصّدّر نسختي (ب و) (م) .

أمّا الشرح ، فقد صرّح الناشر نفسه بأنّه احتذى فيه حذو العكبري (1219/616) شارح ديوان المتنبي . هذه المجازاة تظهر من عبارة العنوان :

« التبيان في شرح الديوان » عند العكبري ، و « تبيين المعاني في شرح ديوان ابن هاني » ، أي في مشابهة « تبيان » و « تبيين » . غير أن المشابهة لا تقف عند هذا الحد : فهو يتبع منهج العكبري في الاهتمام أولاً بـ « الغريب » أي باللفظ الذي يحتاج الى شرح معجمي ، غير أن شرح المادة يجر ، كما هو الشأن عند العكبري وغيره من الشراح القدامى ، الى الاستشهاد الكثير على معانيها واستعمالاتها بشواهد من القرآن والحديث والأمثال والشعر القديم ، وبالتالي يتضح هذا القسم الأول من الشرح ، على حساب القسم الموالي الذي يبدو هزياً أحياناً .

في هذا القسم الثاني يأتي بسط الفكرة والتعليق عليها ، ويقدمه الشارح بعنوان « المعنى » : هذا الشرح المعنوي كثيراً ما يقتصر على تلخيص الفكرة او إعادتها بعبارة أخرى ، دون ما تعمق ولا إفهام حقيقي : وربما غاب المعنى عن فطنة الشارح تماماً ، فينبهنا تارة الى تعذر التأويل متهماً التحريف في البيت ، وتارة يسكت عن المعنى أصلاً ويكتفي بالغريب ، ويلتجئ أحياناً الى الشرح الإجمالي ، ولا سيما في القصائد الأخيرة ، فيجمع خمسة أبيات وحتى ستة فيقدم تأويلاً لها إجمالياً . واذا وقعت في البيت قراءات مختلفة ، فهو يذكرها مع الرمز الى مظانها من المخطوطات ، ويشتتها على سطر خاص بين نص القصيدة والشرح . ولم يحاول الشارح تأريخ القصائد ، وإنما اكتفى بنقل الاشارات القليلة الواردة في المخطوطات . فلا تنفعنا هذه الطبعة في تبويب القصائد بحسب تاريخ نظمها ، ولا تغنينا عن محاولة الترتيب الزمني التي نقدم عليها في الملحق الثاني من هذا الفصل . الترتيب في هذا الديوان أبجدي والأبيات مشكولة كلها ، والطباعة حسنة واضحة أنيقة . وينتهي الكتاب بفهارس ثلاثة : للأعلام ثم للأماكن ثم للمراجع ، ولكنها تقريبية لا تفي بكل الأسماء المذكورة في المقدمة أو في الشعر وشرحه . أما فهارس المقدمة وفهارس الديوان فتصدر الكتاب ، على الطريقة الانجليزية ، عوض أن تذيله .

ولكن ، بالرغم من هذا النقص المتمثل في انعدام الترتيب التاريخي للقصائد أولاً ، وفي استمرار الغموض في شأن بعض الممدوحين والأشخاص وبعض الأحداث التي تشير إليها الأبيات ، ثم في إغفال الشعر الإضافي الذي تضمّنه مخطوط (ت 1) ، بالرغم من كلّ هذا ، فإنّ طبعة زاهد علي هي أتقن طبعة ظهرت حتى اليوم .

ولعلّ محاسنها الكثيرة هي التي أغرت الناشرين المتأخرين بنقلها مع شيء من الحيلة ، دون ما إشارة الى الناشر الهندي فضلاً عن الاعتراف بجميله : وهكذا فإنّ طبعة بيروت التي ظهرت سنة 1952 ثمّ تكرّرت كما هي مراراً ، لئن احتفظت في الظاهر بالترتيب المتبع في طبعة سنة 1886 ، واقتصرت على المادّة المنشورة فيها ، بدون استيلاء على إضافات زاهد علي ، فهي في الواقع تستثمر مجهوداته ، في شكل الأبيات وفي تصحيح القراءات وحتى في الشروح ، على قلة غنائها هنا ، دون أن تذكر اسمه ولو مرة واحدة .

محاولة ترتيب القصائد ترتيباً زمنياً :

لا نتوقّع من هذا العمل أن يفضي بنا إلى نتائج ثابتة يوثق بها . ذلك أن ندرة الاشارات التاريخية في ديوان ابن هانيء وفي مقدّمات النسخ ، تحول دون معرفة تاريخ القصائد بصفة مضبوطة . ولكنّ هذه القلة لا تصدّنا عن الاجتهاد في استنطاق الأبيات والتعليقات الماثورة هنا وهناك ، ومقابلتها بما عرفناه في مصادر أخرى عن الشاعر وبيئته ، لتمكّن من وضع هذا الشعر في المراحل الثلاث أو الأربع التي مرّت بها حياة ابن هانيء القصيرة .

ولنقرّ أولاً حقيقة لا مناص منها ، لتتضح لنا الأمور في محاولة ترتيب الشعر وتبويبه بحسب مراحل حياة الشاعر . هذه الحقيقة هي أنّ جميع شعر الشباب ، أي الشعر الذي نظم بالأندلس قد ضاع وتلاشى أو أهمل وألغى ، ولا أدلّ على هذه الحقيقة من سكوت أصحاب التراجم ، وجامعي الشعر ،

ومؤلفي المختارات الأدبية ، سواء كانوا أندلسيين أو مشارقة : فلا أحد منهم يروي بيتاً وينسبه الى الفترة الأندلسية ، فكأن حياة ابن هانئ الأدبية قد بدأت بأرض المغرب ، حوالي سنة 958/347 ، عند بلوغه السابعة والعشرين من عمره .

وعندما وطئت قدماه أرض العدو ، شرع في التنقل عبر أقطار المغرب ، فمرّ بفاس حيث كان جوهر الصقلي يحاصر آخر الأدارسة ، ثم انتقل الى المغرب الأوسط فاستقر مدة بالمسيلة عاصمة الزاب ، ثم دخل افرقية في خدمة البلاط الفاطمي ، وانتهى به المطاف فجأة ببرقة قرب بنغازي الحالية .

فإذا اتضح لنا هذا الخط المنطلق من الغرب نحو المشرق ، وتعيّنت لدينا منه نقط الاستقرار أمكننا أن نقدّر تقديراً أولياً تاريخ بعض القصائد :

فتكون أولاها في التاريخ ، أي أولى قصائد الديوان إن رتبناه ترتيباً زمنياً ، هي القصيدة رقم 10 التي مدح بها جوهرأ أثناء حملته بالمغرب الأقصى بين سنة 347 و 348/59 - 958 . ذلك أن أصحاب التراجم يتفقون على أن أول من مدحه الشاعر عنه وصوله الى المغرب هو القائد الفاطمي . ثم أنّ هذه القصيدة تذكر الثوار الذين قهرهم جوهر ، وتسميهم بأسمائهم فمنهم « ابن واسول » الذي تمرّد على المعزّ وأعلن استقلاله بسجلماسة : [طويل]
33/10 وأدركت سؤلا في ابن واسول عنوةً وزحزحت منه يدبلا فتزحزحاً

ومنهم رئيس قبائل مكناسة حليف الأمويين ، موسى بن أبي العافية :

56/10 وفي آل موسى قد شئت وقائعا أهبّت لهم تلك الزعازع لقحا

ثم تأتي فترة الزاب ابتداء من سنة 959/348 . الى هذه الفترة يمكن أن نعزو نحو 29 قصيدة تتصل كلها بأمرأ المسيلة ، ولكن لا يمكن أن نجزم بأنها نظمت كلّها بالمسيلة : فالقصيدة 16 يبدو أنها نظمت سنة 967/356 ، أي بعد

انقطاع الشاعر عن خدمة بني حمدون بثلاث سنوات ، فلعلّ الشاعر نظمها بالقيروان وأرسلها الى جعفر : ثم إن أمير المسيلة ، حسب ما تنقله توطئة القصيدة 15 ، كان يتردّد على عاصمة الخلافة : فالأصل بين الشاعر وممدوحه السابق ممكن اذن ، ولعلّ ابن هانيء نفسه كان يتردّد على المسيلة وربما كان له بها مقرّ ثابت كما سنرى .

كنا نخاطر اذن لو وضعنا كل هذه القصائد في فترة المسيلة ، خصوصاً وأنه يصعب علينا أن نضبط حدود هذه الفترة ، فلئن أمكن أن نعرف بدايتها بفضل لقاء الشاعر مع جوهر بالمغرب الأقصى ، فلا يمكن أن نحدّد نهايتها الا بالافتراض والترجيح .

وكان من المنتظر أن تدلّنا هذه القصائد على أزمنتها ، لما تتضمّنه من إشارات الى الحروب التي يخوضها الأخوان جعفر ويحيى ضدّ القبائل المتمرّدة ، ومن تفصيل للحوادث السائرة أو المؤلمة التي تقع بالبلاد الحمدونيّ ، ولكنها إشارات ، لئن تدخّل فيها خيال الشاعر ، فعظم الحقيّر وفخم التوافه ، وصعد بالعادي المبتذل الى أجواء الزلازل والخوارق ، فهي لا تملك من التدقيق ما يسمح بتحديد زمانها : فلا المكان يُذكر بالضبط ، ولا الزمان يدقّق ولا حتى اسم الخصم .

ولا نلوم الشاعر في إبهامه هذا : فوظيفته حين يمدح ، أن يزيّن ويضخم ، لا أن يعلم ويحقّق ويتبسّط كما يفعل المؤرّخون .

على أنّ هؤلاء - وحتى المختصّين منهم بأخبار الفاطميّين مثل ابن حمّاد - لم يعيروا بلاط بني حمدون اهتماماً كبيراً حتّى يفصلوا نشاطهم العسكري أو يتفجّعوا على وفاة أمهم أو يبتهجوا بتشيد قصر لإبراهيم ، كما يفعل ابن هانيء .

فكيف نحدّد اذن نهاية إقامة الشاعر بالزاب ؟ قد نحدّدها ببدء اقامته بافريقية عند المعزّ ، أي ببدء نظم المدائح في الخليفة . ولكن من مدائح

المعزّ ما نظم على ما نرجّح سنة 961/350 . فهل نقول أنّ الشاعر انتقل الى افريقيّة سنة 350 ، أي بعد سنتين فقط من دخوله في خدمة أمراء الزاب ؟ لو قبلنا هذا التاريخ ، لحصرنا هذه القصائد التسع والعشرين في فترة لا تتجاوز العامين ، أي بنسبة 15 قصيدة في العام ، وهي نسبة ضخمة لا تتفق مع ما نعرفه من عادات الأمراء ومادحيهم .

فالأغلب على الظنّ أن اقامة الشاعر بالزاب تواصلت أكثر من سنتين ، ولعلّه ترك المسيلة في غضون سنة 964/353 كما سنرى ، ولكنّه مهّد لدخوله في خدمة المعزّ بأن أرسل اليه من المسيلة مدحتين : القصيدة 9 التي تتفق النسخ المخطوطة على أنها « أوّل شعر مدح به المعزّ » دون أن تصرّح بأنّه أنشدها بين يديه ، والقصيدة 11 ، والمرجّح عندنا أنّه نظمها سنة 961/350 .

وسيقع مثل هذا المدح بالمراسلة بعد أن يستقرّ الشاعر ببلاط الخليفة ، فينظم في أمير الزاب القصيدتين 15 و 16 .

ولئن تعذّر علينا أن نحدّد تاريخاً لهذه القصائد الحمدونيّة ، فقد يمكن أن نرتبها بالنسبة الى بعضها بعضاً ، وذلك باستثمار ما يرد فيها من اشارات ، كالأخبار بالوفيات مثلاً : نفهم من القصائد 14 و 19 و 59 أن أمير الزاب أصيب ، أثناء اقامة الشاعر عنده ، في حفيد له ، ثم في والدته ، ويسهل أن نقدّم القصيدة الرابعة عشرة على الآخرين ، أي وفاة الطفل على وفاة الجدّة ، ذلك أن الشاعر يشير في الأولى الى فقيديّين : والد الأميرين ، علي بن حمدون ، ووفاته قديمة نعرفها من المؤرخين (945/334) . ثمّ الطفل ، ابن إبراهيم بن جعفر : [رمل]

58/14 أي مفقوديك تبكيه : أب هبرزيّ أنت منه ، أم ولّد؟

في حين أنه يذكر في القصيدة التاسعة والخمسين ، ثلاثة أموات ، لأن الجدّة التحقت في الأثناء بزوجها وبالحفيد : [متقارب]

قبورُ الثلاثةِ في مصرَع أما كان في واحدٍ ما كَفَى ؟

الى هذا المقياس الممكن في ترتيب القصائد ، يمكن أن نضيف معيارين آخرين : الأول يعتمد أصداء العقائد الشيعية فيها ، والثاني ينظر الى ما قد تتضمنه من اشارات شخصية خاصة بالشاعر .

فالمعيار الأول يمكن أن نلخصه كما يلي : اذا بدت تعاليم الشيعة ضعيفة خافتة في قصيدة ما ، فهي من أول ما نظم ، وان تبد لنا القصائد مفعمة بالمعتقدات الاسماعيلية مغالية في تقديس الأئمة الفاطميين ، فهي متأخرة في الزمن ، وهو معيار يفترض فكرة قد تقبل وقد تدفع : وهي أن ابن هانيء أول دخوله المغرب كان خالي الذهن تقريباً من المبادئ الشيعية ، وأنما تعلمها شيئاً فشيئاً أثناء اتصاله بولاة المعزّ وقواده أولاً ، ثم أثناء خدمته المباشرة للخليفة . فإذا قبلنا هذا الافتراض ، يمكن أن نؤخر القصائد 50 و 69⁽¹⁾ و 28 فنعتبر أنها نظمت في آخر اقامته بالزاب ، لأن العقيدة الشيعية فيها أظهر منها في القصائد الأخرى .

أما المعيار الثاني ، فليس أكثر ثباتاً من السابق : لا نجهل أن الشكاوى التي يضمّنها الشاعر أبياته ، من تحسّر على الشباب الضائع ، وتذمر من الدهر القاسي ، وتألّم من الحساد الكثيرين وبكاء على الحبيب القليل ، قد لا ترجع عن حالات واقعة ، وأنما تكون أغراضاً تقليدية يسترحم بها الشعراء ممدوحهم ، كما يفعلون في النسيب التقليديّ بالبكاء على الأطلال والتفجع على فقد الأحبة ، والتعظيم لمتاعب السفر نحو الممدوح . نعلم هذا ولا ننكره ، ولكن ما دمنا مضطرين الى الافتراض ، فاقدين للوسائل الثابتة ، فلنتبنّ هذا المقياس أيضاً ، ولنقل أن القصيدتين 50 و 52 قد تؤخران أيضاً الى

(1) إن الأرقام 63 إلى 70 تعين القصائد الإضافية التي نشرناها سنة 1969 بالحواليات ، وهي مواصلة ترقيم زاهد عليّ الذي انتهى الى 62 . هذا ، ونفصل بين رقم القصيدة ورقم البيت بخط مائل

[/]

آخر المُقام بالمسيلة ، لأنَّ الشاعر يبدو متألماً شاكياً من الجفوة التي أقصته عن
بلاط الأمير : [متقارب]

73/ 50 وإنِّي وإن تَرَنِي قابضاً جناحي اليَّ ، كظيماً وجِمْ
74 أَقْلُلُ من هَفَوَاتِ المزار وأُبدي الغَناء وأخفي العَدَمُ
75 فإنِّي من العَرَبِ الأكرمين وفي أوَّل الدهر ضاع الكرم

وما دمنّا بصدد تأريخ شعر ابن هانئ ، فلا يفوتنا أن نتعرَّض الى فكرة
أبداها منير ناجي في دراسته عن الشاعر⁽¹⁾ : توقف عند القصيدة الرابعة
والثلاثين ، وهي قطعة لا مدح فيها ولا هجاء ، بل هي تصف رحلة ليلية الى
بعض الخُمارات على طريقة أبي نواس ، فرأى أنها قد تكون من بقايا إنتاجه
الأندلسيِّ ، ودعم رأيه بما لاحظته في بعض مدائح يحيى بن حمدون من هذه
المعاني الخمرية ، كأنَّ هذه القصائد الحمدونية ، لقرب عهدها بالفترة
الأندلسية من حياته ، لا تزال متأثرة بأغراض الشباب والغواية .

ويظهر أن هذا الباحث قد حيَّره هو الآخر السؤال الذي طرحناه وما زلنا
نطرحه في خصوص مصير شعره الأندلسيِّ ، كيف آمَحَى هذا الانتاج الذي
حمل عليه الرواة والمؤرِّخون ؟ أين ذهب هذا الشعر الذي استعظم الأندلسيون
زندقته فأطردوا صاحبه من أجله ؟ فراح يبحث في الديوان فاتخذ هذه المقطوعة
الباهتة شاهداً على شعر اللهو والبهتان . وأنما هي في نظرنا « تمرين » نواسيِّ
قلَّد فيه محمدُ بنُ هانئ الحسنَ بنَ هانئ ، كما يقلِّد اللاحقون السابقين فيما
يعرف بـ « المعارضات » .

ثمَّ ان المعاني الخمرية لم تنقطع فيما بعد من انتاج شاعرنا . فلا يمكننا
أن نرى في هذه الفقرات من قصائد المسيلة صدى بعيداً لسلوك ابن هانئ
باشبيلية ، بل الحديث عن مجالس اللهو يتواصل الى ما بعد فترة المسيلة ،

(1) منير ناجي : ابن هانئ ص 56 .

حتى قصائده الى المعزّ تستهلّ أحياناً بمقدّمة خمريّة ووصف لآلة الخمرة مثلما في القصيدة الخامسة والثلاثين . أليس الأصوب حينئذ أن نعتبر هذه المعاني غرضاً تقليدياً يطرقه الشعراء ، كما يطرقون باب النسيب أو الوصف أو الشعر الحكمي ؟

يتضح بعد هذا ، أنّه يتعذّر على الباحث أن يؤرّخ لهذه القصائد الحمدونيّة ، فيوزّعها على السنوات الخمس التي قضاها ابن هانيء ببلاط المسيلة . وإنّ أقصى ما يمكن أن نقرّه في شأنها ، يتعلّق بالقصيدة الأولى التي ألّفها الشاعر بين يدي جعفر بن حمدون : لقد عيّنها لنا ابن سعيد⁽¹⁾ وغيره ، فقالوا انها القصيدة الحادية والثلاثون ، أي القصيدة « الفلكيّة » .

فلذلك ، لئن أقدمنا على ترتيب هذه القصائد التسع والعشرين في الجدول النهائي ، فمع كامل الحذر والاحتياط .

القصائد الافريقيّة⁽²⁾

هذه اثنتان وعشرون قصيدة نظمها الشاعر بالبلاط الفاطمي ، منها ما يمكن تأريخه بفضل ما يتضمّن من اشارات الى أحداث كبرى معروفة في التاريخ كوقعة الخليج سنة 965/354 بين الاسطولين الفاطمي والبيزنطي ، أو فتح مصر على يد القائد جوهر سنة 969/358 أو انتقال الخلافة الى الشرق سنة 973/362 . ومنها ما يتعذّر معرفة تاريخه لخلوّه من مثل هذه الاشارات أو لأنّ الشاعر يصف فيه أعياداً ومواكب تتكرّر كلّ عام فلا تختصّ بها سنة دون سنة . هذا القسم المبهم يبقى على غموضه ، مثل أغلب قصائد المسيلة .

وقبل استعراض الانتاج الافريقي بالتفصيل ، يجدر بنا ان نبرّر تأريخنا

(1) ابن سعيد : المغرب ترجمة 409 .

(2) نعني بافريقيّة مقرّ الخلافة بالقيروان أصلاً وما يليها مباشرة ، وان كانت ولاية الزاب وولاية طرابلس داخلتيّن في حدود افريقيّة القديمة .

لدخول الشاعر في خدمة المعزّ بسنة 964/353 :

مستندنا في ذلك هو القصيدة الأربعون التي أشادَ فيها بانتصار الجيش
الفاطمي برمطة بصقلية⁽¹⁾ فذكر فيها موت القائد البيزنطي منويل ففاس⁽²⁾ :
[كامل]

26/40 سَلْ زَهْطَ مَنُوِيلٍ ، وَأَنْتَ غَرَرْتَهُ فِي أَيِّ مَعْرَكَةٍ ثَوَى مَنُوِيلُ ؟

وتاريخ موت القائد البيزنطي في هذه المعركة معروف في المصادر
البيزنطية والاسلامية : سنة 964/353 . فلذلك قلنا ان الشاعر كان موجوداً
بالبلط الفاطمي في هذا العام ، ومما يدعم رأينا ، أنه يصف بالتدقيق موقف
الخليفة عند وصول بشير النصر اليه : لقد خرّ ساجداً يحمد الله على نصره
لجيوش الاسلام ، وقبل الأرض تواضعاً وعبادة وعفر وجهه بالتراب : [كامل]
13/40 لِلَّهِ عَيْنًا مَنْ رَأَى إِخْبَاتَهُ لَمَّا أَتَاهُ بِرِيدُهَا الْإِجْفِيلُ
14 وسجوده حتى أَلْتَقَى عَفْرُ الثَّرَى وَجَبِيْنُهُ ، وَالنَّظْمُ وَالْإِكْلِيلُ

غير أنا ، لئن أرّخنا هذه القصيدة بسنة 353 ، وأرّخنا بها وجود ابن هانيء
ببلاط المعزّ، فلا يعني ذلك أنها أول مدحة نظمها في الخليفة، فقد سبقتها
قصيدتان على الأقل : القصيدة التاسعة التي يذكر فيها الشاعر خطباً لحق بني
أمية بالأندلس ، ولا نخاله إلا وفاة عبد الرحمان الناصر يوم 2 رمضان 15/350
أكتوبر 961 : [كامل]

43/9 لَبَسُوا مَعَايِبَهُمْ وَرَزَّ فَقِيدِهِمْ كَاللَّابِسَاتِ عَلَى الْحِذَادِ مُسُوحَا

وكذلك القصيدة الحادية عشرة التي تبدو معاصرة للسابقة ، لأنها تشير
هي الأخرى الى هذا المصاب الذي قهر « أصنام » قرطبة ، أي بني مروان :
[طويل]

(1) رمطة Rametta قرب طبرمين Taormine في الجنوب الشرقي من الجزيرة .

(2) Manuel Phocas .

33/11 لَقَدْ سَارَتِ الرُّكْبَانُ بِالنَّبَا الَّذِي يَشِيبُ لَهُ طِفْلٌ وَيَنْصَاتُ أَجْلَخُ
34 وَضَجَّتْ لَهُ الْأَصْنَامُ إِنَّ ضَجِيجَهَا صَدَى مِنْ بَنِي مروان حَرَّانُ يَصْرُخُ

وقد رجّحنا أن نظمهما وقع بالمسيلة ، فتحلّصنا من المشكلة التي تجعل القصيدة التاسعة والقصيدة الثالثة والخمسين متنافستين في الأسبقية : ذلك أن النسخ المخطوطة تقول في احدهما انها أولى مدائح المعز ، وفي الأخرى انها أول قصيدة أنشدها أمام الخليفة بالقيروان ، فقلنا ان القصيدة التاسعة نظمت سنة 350 بالزبأ وأرسلت الى المعز ، وأن القصيدة الثالثة والخمسين نظمت بافريقية بعد سنة 964/353 وأن الشاعر أنشدها بنفسه أمام الخليفة .

والذي نرجّحه في شأن القصيدة الثالثة والخمسين ينطبق أيضاً على القصيدة الخامسة والثلاثين ، نظمها بمناسبة عيد الفطر : [خفيف]

26/35 وَجَلَا الْفِطْرُ مِنْهُ عَنْ نَبَوِيٍّ أبيض الوجه أبيض الأخلاق
ولكن من أي سنة ؟ غير أن تردّد المعاني الاسماعيلية فيها ، وإشارة الشاعر الى « مظلة » الخليفة لأول مرة :

32/35 فَوْقَهُ خَيْطَةُ اللّجَيْنِ تَهَادَى بِيَدِي كُلِّ بُهْمَةٍ مِصْدَاقٍ
تحملنا على وضعها في بداية مقامه بافريقية .

والى المدة نفسها نرجع المدحيتين السادسة والعشرين ، والثالثة . في الأولى تهجّم على بني أمية خلفاء قرطبة ، وفي الثانية تشنّع على العباسيين ببغداد لأنهم لم يحولوا دون احتلال « الجاثليق » - أي الدمستق البيزنطي - لحلب ونهبها : [طويل]

32/3 وَلَكِنْ لَعَلَّ الْجَاثِلِيْقَ يَغُرُّهُ عَلَى حَلَبٍ نَهَبَ هُنَالِكَ مَنُهَوْبُ

(1) أنصاب (صوت) : استوى بعد انحناء ، الأجلخ : الضعيف الفاتر .

ومعلوم أنّ وطاة الأباطرة البيزنطيين على الثغور الشامية تفاقمت ابتداء من سنة 962/351 .

كذلك القصيدة رقم 1 ، تحمل هي الأخرى على بني العباس ، ولكنها تتضمن إشارة شخصية من الشاعر : بحثه الطويل عن ممدوح أبيض الوجه والأيدي ، ونصح الناس له بالتوجه إلى المعز : [كامل]

27/1 وطفقت أسأل عن أغرّ مُحجّل فإذا الأنامُ جبلةً دهماء
28 حتى دُفعتُ إلى المعزّ خليفةً فعلمتُ أنّ المطلبَ الخلفاء
فهي إذن من المدائح الأولى التي نظمها بعد اتصاله بالمعزّ .

وتأتي بعد ذلك مدحتان - رقم 12 و 44 - يعرض فيهما الى وقعة الخليج ، أي معركة المضيق الذي يفصل صقلية عن جنوب ايطاليا ، ويسمى اليوم مضيق مسينا . دارت هذه المعركة بين الأسطولين الفاطمي والبيزنطي سنة 965/354 ، أي بعد انتصار رمطة مباشرة ، فكان النصر حليف المراكب الافريقية ، ويتهمك الشاعر بالامبراطور البيزنطي : [بسيط]

50/12 فقلّ له : حال من دون الخليج قنا سمر ، وأذرُع أبطالٍ مناجيد
ويجعل الموج حليف الأسطول الإسلامي في هذا النصر : [كامل]

88/44 والمَوْجُ من أنصارٍ بأسِكَ خَلَفَهَا فالمَوْجُ يُغْرِقُهَا ، وسيفك يقتل
أما القصيدة الحادية والأربعون ، فتصف مراسم عيد النحر ، ولكن بدون أن تعين العام ، مثلما في القصيدة رقم 35 . وهي ، ان لم تفدنا في ضبط تاريخها ، أفادتنا بشيء من المعلومات عن حياة البلاط الداخلية . ونظراً لاستحالة تأريخها ، فاننا نضطر إلى وضعها ، مع كثير من المدائح الأخرى ، في الفترة بين 965/354 و 969/358 ، أي في مدة لم يسجل فيها المؤرخون حوادث هامة في حياة الدولة الفاطمية بالمغرب ، وهكذا نفترض - اضطراباً لا اعتباطاً - وجود مدة خالية من الحوادث ، فنحشر فيها ما لا نستطيع له تأريخاً .

يبد أن بعض هذه القصائد ، على قلة وضوح ظروفها ، تلوح لنا فيها إشارات إلى أحداث بعيدة كمصيبة بيضة الإسلام بالجيوش الرومية في الشام . من هذه التلوينات ، ما نجده في القصيدة الثالثة عشرة من تلهف على محاصرة الدمستق لأنطاكية وتوغله في منطقة « العواصم » : [طويل]

61/13 غَضِبْتُ لَهُ أَنْ تُلَّ بِالشَّامِ عَرْشُهُ وَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الْعَوَاصِمِ عِيدُ⁽¹⁾

أو في القصيدة رقم 58 التي يعود فيها إلى التشنيع على العباسيين ، غاصبي الخلافة من مستحقّيها وتاركي الدفاع عنها ، فخمولهم هو الذي أطمع الأباطرة في الإسلام ، فكالوا له الضربات المتوالية ، وهكذا يفسّر سلسلة الانهزامات التي عرفتها الإمارة الحمدانية بين 355 و 68/357-966 .

وقد نستنتج من إشارة وردت في هذه القصيدة ، أن الشاعر ، في هذه المدة ، أي حوالي سنة 357 ، قد بدأ يحسّ بوطأة السنّ ، ولعلّه قارب الأربعين : [متقارب]

4/58 لِبِسْتُ رِداءَ الْمَشِيبِ الْجَدِيدِ وَلَكِنِّهَا جِدَّةٌ لِلْبَلَى

ونلحق بهذه الفترة أيضاً القصيدتين رقم 37 و 67 . في الأولى يتزلف الشاعر إلى الأئمة بتشجيع لهم قديم جعله عرضة لنقمة الأندلسيين : [طويل]

49/37 وَمَا نَقَمُوا إِلَّا قَدِيمَ تَشْيِيعِي فَتَجَنَّى هَزَبَرًا شَدُّهُ الْمَتَدَارِكُ

وفي الثانية يحرض الخليفة على اقتحام الأراضي العباسية ويتنبأ له بالدخول إلى بغداد : [طويل]

27/67 بَنِي الدَّوْلَةِ الْغُرَاءِ شَيِّمُوا سَيُوفَكُمْ فَأَنِّي لَهَا الْمُلْكُ الْعِرَاقِيُّ شَائِمٌ⁽²⁾

(1) العواصم هي منطقة الثغور بشمال الشام ، التي تعصم دار الإسلام من الخطر البيزنطي . والعيد هنا ما يعتاد الإنسان ويعاوده من همّ وفكر وخوف .

(2) حوليات 1969/6 ص 103 .

فقد اقتربت اذن ساعة الفتح ، فهذه مصر مشتاقة الى المعز ، خصوصاً بعد وفاة كافور (21 جمادى الأولى 29/357 ماي 968)

37/67 بمصر صبايات اليك ، وطالما صرمت ، ولهفي من حبيب يصارم
فلا مانع اذن من أن نؤرخ هذه القصيدة بسنة 968/357 .

ونصل بعدها إلى سنة 969/358 ، سنة استيلاء جوهر على مصر . خصص ابن هانيء لهذه الحملة أربع قصائد، بحسب مراحلها المختلفة : القصيدة 27 تصف مرحلة التعبئة للانطلاق نحو الشرق ، وقد شيع الشاعر بنفسه هذا الجيش العرمرم وقائده حين تحرك يوم السبت 14 ربيع الأول 5/358 فيفري 969 : [طويل]

1/27 رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد راعني يوم من الحشر أروع
4 وكيف أخوض الجيش، والجيش لجة وأنّي بمن قد قاده الدهر مولع

وقد عنونها رواة الديوان بـ « مدح جوهر » ، وهي في الواقع مدح مشترك للقائد الصقلي والخليفة مولاه ، فلذلك اعتبرناها من المدائح المعزيات ، وهي ، على كل ، من الانتاج الافريقي ، بل هي من الشعر القليل الذي يمكن ضبط تاريخه بشيء من الدقة .

ثم تأتي القصيدة رقم 46 ، يصف فيها للمعز تشييعه للجيش الفاتح ويذكر له ما رآه فيه من بوادر النصر .

وتليها مباشرة القصيدة رقم 22 التي تعلن عن تحقق النصر ، ونجاح جوهر في حملته ، إلا أن الشاعر يتلطف فيجعل الهزيمة لا للمصريين ، بل لحكامهم العباسيين : [طويل]

1/22 تقول بنو العباس : هل فتح مصر؟ فقل لبني العباس : قد قضى الأمر!

فهذه ثلاث مدائح تؤرخ بسنة الفتح ؛ أما الرابعة - وهي القصيدة رقم

23 - فنؤرخها بالسنة الموالية 970/359 ، لأنّ الشاعر يعدّد فيها الهدايا التي أرسلها جوهر إلى الخليفة بعد استقراره بمصر . هذا ترجيحنا لظروفها وتاريخها ، إذ لا عبرة في نظرنا بما تنقله توطئات القصيدة من أنه « . . . يذكر هدية وصل بها جوهر الكاتب من المغرب إلى الحضرة »⁽¹⁾ أو أنه « . . . يصف هدية القائد جوهر ، وذلك بعد تسخير القائد بلاد المغرب ، وانتهائه إلى البحر المحيط سنة 348 »⁽²⁾ .

ونبني رفضنا لهذه النسبة على حجج داخلية مستقاة من القصيدة نفسها ، وحجج خارجية تتصل بما نقله لنا المؤرخون والرواة عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الفاطمية بالمغرب . فمن الحجج الداخلية أمران :

1 - يظهر من البيت 42 أن هذه الهدايا قد نقلت إلى صاحبها بحراً وبراً ، وتمّ نقلها على أفساط نظراً لكثرتها :

42/23 وَلَوْ لَمْ يُعَجَّلْ بَعْضُهَا دُونَ بَعْضِهَا لَصَاقَ الثَّرَى وَالْمَاءُ طُرْقاً وَمَعْبَرَاً

وقد أفاض المؤرخون في وصف هدايا جوهر من مصر ، ولا سيما المقرئ الذي يقول⁽³⁾ أنها نقلت إلى الاسكندرية بحراً ، ومنها إلى القيروان برّاً ، وقد يكون عنى بالبحر نهر النيل الذي يسمّيه المصريون « بحر النيل » كما هو معروف ، أو البحر الحقيقي ، فتكون المراكب أفلعت من الشام التي تمّ فتحها على يد جعفر بن فلاح ، أو من موانئ شرقي مصر ، إلى الاسكندرية منتهى الخط البري بين افريقية ومصر ، كما سبق أن قرره ابن هانيء في قصيدة الفتح :

2/22 وَقَدْ جَاوَزَ الْإِسْكَانْدَرِيَّةَ جَوْهَرُ تَطَالَعُهُ الْبُشْرَى وَيَقْدُمُهُ التَّصَرُّ

(1) ت 1 ورقة 46 ب .

(2) توطئة القصيدة 3 .

(3) اتعاظ 171 .

هذا ، وما علمنا لدى المؤرخين أنه كانت بين إفريقية والمغرب الأقصى صلة بحرية ، بل هذا جدّ مستبعد ، نظراً لتوفر الخطوط البرية أولاً وتيسرها تحت النفوذ الفاطمي الموحد من المهدية الى فاس ، ونظراً أيضاً إلى تسلط الأعداء الأمويين على جلّ المناطق الساحلية من المغرب الأقصى ، وعلى الحوض الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

2- أهتمّ الشاعر ، من بين هدايا جوهر ، بالخييل خاصّة فخصّص لها فقرة من أبداع الوصف⁽¹⁾ وذكر النوق كذلك ، ويتفق في هذا مع ما يذكره المقرئزي .

أما الهدايا التي توجت حملة سنة 8-347 بالمغرب ، فتمثلت على ما نقله المؤرخون⁽²⁾ في بضعة أسماك من المحيط الأطلسي أرسلها جوهر في جرة من ماء البحر إلى الخليفة ، وهي هدية رمزية بالمعنى الصحيح ، ترمز إلى وضع البحر المحيط أيضاً تحت نفوذ الإمام الفاطمي . وأرسل معها أسرى من رؤوس الثوار في أقفاص من القصب .

ولا نجد ذكراً في القصيدة للأسماك ولا للأقفاص ، فخرجت بذلك عن أن تكون من منظوم سنة 348 ، كما تقول التوططات .

أما الحجة الخارجية ، فهذه :

لو كانت القصيدة تصف هدايا المغرب لا هدايا مصر وهي مع ذلك تمدح المعزّ ، لترتب عليها أن يكون الشاعر قد عرف المعزّ منذ سنة 348 ، أي تقريباً منذ وضع قدميه على أرض المغرب ، أو أن يكون على الأقلّ قد راسله بالمدح منذ ذاك التاريخ . وهذا يناقض تماماً ما علمناه من المترجمين والرواة ، من أن اتصاله بالخليفة كان خاتمة طوافه بأقطار المغرب ، لا بدايته .

(1) الأبيات 4 إلى 23 من القصيدة 23 .

(2) الناصري السلاوي : الاستقصاء 1/199 . وانظر كذلك : المقرئزي : أتعاض 135 .

فلا شكّ عندنا إذن في أن هذه القصيدة 23 إنما تصف هدايا مصر ،
فتؤرّخ اذن بسنة 970/359 كما قلنا .

وبنفس هذا التاريخ ، 970/359 ، تؤرّخ القصيدة الثلاثين التي يشكو
فيها الشاعر ذهاب الشباب ووصوله الى منتصف العمر ، أي الأربعين حسب
المُتعارف : [كامل]

2/30 إِنَّ لَا أَكُنْ بَلَغْتُ بَيَّ السِّنِّ الْمَدَى فَلَقدْ بَلَغْتُ مِنَ الطَّرِيقِ الْمُنْصَفَا

وليس معتمدنا فيها على هذه الاشارة ، بدعوى أنه ان يكن بلغ الأربعين
أو قاربها ، وهو المولود في سنة 320 ، فلا تكون القصيدة الآ وليدة سنة 360 أو
ما قاربها . ولكنّ معتمدنا هو اشارة أخرى : ففي البيت 17 ، نجد صدى
لحصار أنطاكية وسقوطها بأيدي الروم في آخر سنة 358 / أكتوبر 969⁽¹⁾ :

17/30 فَكَأَنَّمَا وَقَعَ الصَّرِيخُ إِلَيْهِمَا بِحِصَارِ أَنْطَاكِيَّةٍ فَاسْتَرْجَفَا

ولا شكّ عندنا في أنه لا يعني الحصار الأول الذي دار سنة 966/355 ،
بل حصار سنة 358 ، لأن البيت 39 يشهد بأن احتلال مصر قد تمّ بعد ، إذ
أصبح الشاعر يحترّض المعزّ على استبقاء جوهر بمصر ودفع جيوشه نحو
بغداد :

39/30 فإِلَى الْعِرَاقِ! وَذَرْ لِمَنْ قَدَمَتَهُ مِصْرًا، فَهَذَا مُلْكُ مِصْرٍ قَدْ صَفَا!

وتناسب السنة الموالية ، سنة 971/360 ، القصيدة رقم 43 ، لأن الشاعر
يعرض فيها إلى نهاية القائد الزناتي محمد بن خزر ، الذي ظفر به بعد لأي
زيري بن مناد الصنهاجي وابنه بلقين ، ونعلم أنّ قتل ابن خزر تمّ في غضون
هذا العام 360 : [بسيط]

22/43 لَقَدْ قَصَمْتُ مِنْ ابْنِ الْخَزَرِ طَاغِيَةً صَعَبَ الْمَقَادَةِ أَبَاءَ عَلَى الْجَدَلِ

(1) M. Canard: Hamdanides 832. (1)

وكذلك القصيدة رقم 24 ، تلك التي استُعْظِمَ غلُؤها حتى طُرِحت من بعض نسخ الديوان . نضعها أيضاً في سنة 360 لأنها تشير إلى غزوة بـ « فراقس » : ولا نخال فراقس هذه إلا تحريفاً لـ « فرقلس » وهي قرية بالشَّام ، فتصبح الإشارة متعلّقة بحملات الجيش الفاطميّ في جنوب الشَّام ضدّ فرق القرامطة⁽¹⁾ : [كامل]

12/24 لِلَّهِ غَزَوْتُهُمْ غَدَاةَ فَرَاقِسِ وَقَدْ اسْتُشِبَّتْ لِلْكُرَيْهَةِ نَارُ!
وقد يستغرب في البيت 61 منها ، ما يفهم من استقرار المعزّ بمصر ونحن نعلم أن الخليفة لم يدخل مصر إلا في رمضان 973/362 ، أي بعد شهرين من وفاة الشاعر ببرقة :

61/24 هَا أَنْ مَصْرَ غَدَاةَ صِرْتَ قَطِينَهَا أُحْرَى لَتَحْسِدَهَا بِكَ الْأَقْطَارُ!
ولا إشكال في البيت إذا فهمنا أن الشاعر إنما يتبنّا بحلول المعزّ الوشيك بمصر ، بعد أن تمّ الفتح ، وأسست العاصمة الجديدة ، فاستعمل صيغة الأمر المقضيّ لما لا يزال في النية .

ونصل أخيراً إلى القصيدة رقم 47 ، أطول قصائد الديوان إذ تبلغ مائتي بيت . يُجمع رواة الديوان على أنها آخر شعر ابن هانئ ، وأنه نظمها بالمغرب وبعث بها الى المعزّ بالقاهرة . لقد فارق الشاعر الخليفة ببرقة في رجب سنة 362 فواصل المعزّ سيره نحو مصر ، وعاد الشاعر إلى افريقية أو إلى الزاب لأخذ عياله ومتاعه استعداداً للحاق بمولاه في القاهرة ، هذا هو رأينا في المرحلة الأخيرة من حياة الشاعر ، كما سيّضح من ترجمته . وعلى أساس هذا الافتراض ، يكون الشاعر قد فرغ من القصيدة وهو ببرقة ، إمّا في طريقه إلى افريقية ، وأمّا في طريقه إلى مصر ، ولا نظنّه إلا راجعاً إلى الزاب حسب ما نجد في البيت 186 من احتجاج بالأهل « القطين في القصي من النوى » :

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفاء 139. وفرقلس يجعلها ياقوت قرب سلمية وكذلك البكري في معجمه . وانظر خطط الشام للمرحوم كرد علي ، 224/1 حيث ذكر أنّ جعفر بن فلاح وصل إلى حمص .

186/47 وَلَوْلَا قَطِينٌ فِي قَصِيٍّ مِنَ التَّوَى لَمَا كَانَ لِي فِي الزَّأْبِ مِنْ مُتَلَمِّمٍ

وعلى كل ، فإن ارتبنا في شأن شهر النظم ، فلا شك في سنة النظم :
362 ، وان في طولها المفرط لشاهدًا على أنها دبجت للقراءة المتأنية لا للإنشاد
أمام الخليفة .

وهكذا يتبين القارئ أن من بين هذه المدائح الثلاث والعشرين ما
يستعصي كذلك على التأريخ المدقق ، شأنه في الإبهام شأن جل قصائد
المسيلة ، هذا بالرغم من أنها تتصل بالخليفة وسياسته ، ووقائع دولته ، مما
أطمعنا في امكانية تعيين تاريخها بدقة .

ويزداد الطين بلة ويتكاثر الضباب في خصوص بقية القصائد التي مدح
بها بعض رجال الدولة ، المذكورين قليلاً عند الأخباريين كأفلح الناشب
قاضي برقة أو واليها ، أو المسكوت عنهم تماماً كالقائد أبي الفرج الشيباني
والكاتب أحمد بن زائدة .

مدحتا أفلح الناشب

هذا الممدوح يعرف عند الاخباريين بأنه « والي » برقة ، وفي توطئة
القصيدة 55 بأنه « قاضيها » ، وفي متن القصيدة بأنه قائد مغوار ساعد على
توطيد النفوذ الفاطمي بالصعيد المصري وبالدلنا ، أثناء حملة جوهر وبعدها ؛
وفي الحقيقة ، تتضارب نسبة القصيدتين ، فالمدحة 55 منسوبة إليه ، أما
المدحة 5 ، فمنسوبة إلى الشيباني ، غير أنهما تصفان نفس الأعمال البطولية
في مصر ، وتشيران الى نفس الرجل ، فلذلك أرجعنا القصيدة 5 إلى أفلح
الناشب كذلك .

وبعد هذا ، لا نخالهما نظمتهما في نفس الوقت ، فالنونية (ق . 55)
تحدث عن فتح مصر بعد وقوعه واستتباب الأمن في وادي النيل ، أما القصيدة

البائية (ق . 5) ، فتحدث عن الفتح كأمر وشيك : [بسيط]

3/5 وَلَوْ أَشْرَتْ إِلَىٰ مِصْرٍ بِسَوْطِكَ ، لَمْ تُخَوِّجْكَ مِصْرُ إِلَىٰ رَكْضٍ وَلَا خَبَبٍ
4 وَلَوْ ثَنَيْتَ إِلَىٰ أَرْضِ الشَّامِ يَدًا أَلْقَتَ إِلَيْكَ بِأَيْدِي الذَّلِّ عَنْ كَتَبٍ

فلذلك رجحنا أن تكون البائية نُظِمت سنة الفتح ، أي 358 والنونية في آخر حياة الشاعر ، أي عند مروره الأخير ببرقة سنة 973/362 .

مدائح الشيباني

القصائد 4 ، 20 ، 33 ، 42 ، 60 و 66 .

يظهر ، من المدائح الست التي نظمها الشاعر في هذا القائد ، أنه كان مكلفاً بإخماد الثورات الخارجيّة بالمغرب الأوسط ، وباستخلاص الجباية من المتلذذين ، وهو عربيّ ينتمي إلى بكر بن وائل ، وقد فخم الشاعر نشاطه العسكريّ وعظمه وأطال في تفصيله . يشهد بذلك وفرة القصائد التي مدحه بها . فلذلك نتعجب من سكوت جميع المترجمين والمؤرخين عن هذا الرجل ، كأنه لم يُوجد قط . وبالتالي لا يمكن أن نؤرخ لهذه المدائح ، وغاية ما نقدره في شأنها ، أنها نظمت أثناء الفترة الإفريقيّة ، لأنّ هذا الممدوح يتصل بالخليفة مباشرة ، على ما يبدو ، لا بواسطة أحد ولاته . ولا مانع أيضاً من تبني رأي معاكس : وهي أنّها نظمت في الفترة المغربية ، بين حائيّة جوهريّ (ق 10) وقصائد المسيلة ، كما سنرى في الفصل الثامن .

القصيدة 65 في أحمد بن زائدة

وهذا ممدوح آخر مجهول تماماً ، نفهم من المدحة ومن المقطوعتين اللتين وُسِمَتَا باسمه⁽¹⁾ أنه من أصل يمنيّ ، مثل بني حمدون ومثل الشاعر

(1) حوليات 1972 . ص. 79 و 90 (مقطوعة 4 و 13) .

نفسه . ولا نعلم شيئاً بعد هذا . وهو مجهول حتى في الديوان إن مطبوع ، أي في كل النسخ المخطوطة ، عدا نسخة (ت 1) : فمنها استقينا الشعر الموجّه اليه .

القصيدة 48 في أبي عبد الله بن المهذب

للشاعر مع هذا الموظف مطارحة أدبية ، ويظهر أنه كان ساهراً على بيت المال ، وقد ذكر المقرئ موظفاً بيت مال المعز ، اسمه ، لا أبو عبد الله ، بل « أبو جعفر حسين ابن المهذب »⁽¹⁾ .

أغراض أخرى

استعرضنا في هذا الفصل خمساً وستين قصيدة من السبعين التي يتضمنها الديوان الموسّع ، أي الذي تضاف إليه زيادات (ت 1) . وهي مدائح كلّها ، إلا المراثي الثلاث . والمراثي عادةً تنشد أمام عظيم أو أمير . وحتى ان غلب فيها الحديث عن الفقيد ، فهو تعداد لمحامده ، أي مدح له .

أما القصائد الخمس الباقية فمنها واحدة - القصيدة 29 - في هجاء كاتب لجعفر بن حمدون يدعي الوهراني ، ورغم تعلّقها بأمر الزاب ، ينبغي أن نؤرخها بسنة 971/360 أي قبيل خروج جعفر عن طاعة المعز ، لأنها تشعرنا بدبيب الشقاق بين الأمير والخليفة .

وتتوزّع الأربع البواقي بين أغراض مختلفة : المغامرة الغرامية (رقم 49) أو الخمرية (رقم 34) ، والوصف الساخر (رقم 56 ، في أكل) ، والنقد الأدبي (رقم 21 في ديوان المتنبي) . وهي تخلو من كل إشارة زمنية ، فلا يمكن تأريخها ، فلذلك نضمّها ، في الجدول النهائي ، الى جملة الشعر الذي لم نتمكن ، في الظرف الراهن ، أي فيما بلغ اليه علمنا بحياة ابن هانيء وبشعره ، من ضبط تاريخ نظمته .

(1) المقرئ : اتعاط ... ص . 138 .

ملحق 1 مخطوطات الديوان مرتبة ترتيباً زمنياً تقريباً

ملاحظات	نوع الترتيب أو أول قصائده	تاريخ الوقف أو التملك	تاريخ نسخه	مصدره ورقمه في الفهارس	علامة المخطوط المدرّوس
مقدمة خاصة به	أبجدي	1839/1256	(1211/608)	13746 تونس	1 - ت 1
مقدمة مشتركة	أبجدي		1495/858	3108 باريس	2 - ب .
	قصيدة 32 بالثاقف		(القرن 7/13؟)	المتحف البريطاني 3767	3 - م . ب
	في إبراهيم بن جعفر				
ناسخها الجوزدي شيوعي؟	ق. 40 لامية في المعرّ		1592/1002	21 أكسفورد	4
ترجمة من الوفيات	ق. 13 دالية في المعرّ	1617/1027	1610/1020	280 ليننغراد	5
مقدمة مثل ب.	ق. 40		1621/1041	212 برلين	6
				(فهرست أهلوارت)	
مقدمة مثل ب.	ق. 40		1655/1067	527 أكسفورد	7
	ق. 12 دالية في المعرّ		1660/1072	القاهرة دار الكتب 1870	8

ملاحظات	نوع الترتيب أو أول قصائده	تاريخ الوقف أو التملك	تاريخ نسخه	مصدره ورقه في الفهارس	علامة المخطوط المدورس
مقدمة مثل ب.	ق . 40		1668/1080	مدير 210 (فهرست روبلس)	9- م .
ملكها زيد الحسيني	ق . 13			الاسكوريال 443	10 - ا س .
	ق . 40	1851/1268	1695/1107	تونس 15850	11 - ت 2 .
	ق . 40		1697/1109	ليننراد 281	12
	ق . 13	1730/1127		المتحف البريطاني 3161	13
مقدمة مثل ب.	ق . 40		1712/1147	برلين 211 7585	14
مقدمة مثل ب.	ق . 40		1770/1185	القاهرة دار الكتب 2204	15
مقدمة مثل ب.	ق . 40	1291/1878	1834/1250	تونس 15890	16 - ت 17 .
ينقل ت 1 إلى اللام .	أبجدي		1847/1264	تونس 2231	17 - ت 4
مقدمة مثل ب.	ق . 13	1852/1269		حيدر آباد . الدكن	18 - عدد 14 من قائمة زاهد علي

19 - عدد 17	سُرت بالهند		ملكها الشيخ عبد العلي (ت. 1857/1274)	40 . ق			
من قائمة زاهد علي	تونس 18624	1859/1275		13 . ق	تنقصه بعض القصائد منها ق. 24		
20 - ت . 5	تونس 436	1862/1279	ملكها محمد بيرم ²	ق. 41 لامية في المعز.	فيه 5 ق. فقط : 48- 53- 31- 40- 41		
21 - ت . 6	سرت (بهرة)		بشرح الشيخ حميد الدين علي (ت. 1880/1300)	يقتصر على المعزّيات			
22 - عدد 18 من قائمة زاهد علي	سرت (بهرة)		ملكها محمد علي الحمداني (ت 1896/1315)	13 . ق			
23 - عدد 15 من قائمة زاهد علي	سرت (بهرة)		نفس المالك	47 . ق			
24 - عدد 16 من قائمة زاهد علي	سرت (بهرة)				فيه ق. 31 فقط.		
25 - ت . 7	تونس 3920				ق. 31 فقط.		
26 - ت . 8	تونس 18768				مختارات فقط.		
27 - ت . 9	تونس 18458				مختارات من 10 و 26		
28 - ميلا .	ميلا 118 فهرست فريفتي						

ملحق 2
قصائد الديوان مرتبة بالتقريب ترتيباً زمنياً

ملاحظات	التاريخ التقريبي ومكان التنظيم	الممدوح أو ما شاكله	عدد الآيات	البحر	طبعة صادر	العدد الرتبي	قافية المطلع
أُنشدَها بالغرب	958- 9/347-8	جوهر الصقلي	67	طويل	75	10	1 تُرَضِّعَا
أولى مدائح جعفر	المسيلة 959/348	جعفر بن حمدون	71	طويل	207	31	2 شَفَا
توجد بـ م. ب. و د 1 فقط	المسيلة 959/348	جعفر	35	منسرح	/	61	3 نَهْد
شباب الشاعر بالبيت 7	المسيلة 960/349	جعفر	61	كامل	49	6	4 رَكَايا
	المسيلة 960/349	جعفر	36	طويل	61	7	5 نَافَتْ
	المسيلة 960/349	يحيى بن حمدون	46	كامل	179	25	6 مُسْتَقَرِّص
	المسيلة 961/350	يحيى	60	طويل	/	64	7 مُقَاوَل
مرض جعفر	المسيلة 961/350?	جعفر	17	بسيط	335	51	8 عَجِمَ
	المسيلة 961/350 ?	يحيى	11	كامل	18	2	9 خَرَاءَ

الشاعر مع يحيى؟ إشارة الى عيد الفطر. القصيدة في ت 1 و ب م. فقط	الزrab 961/350? (بعيد عن المسيلة)	جعفر	90	طويل	/	62	كثير	10
اشارة الى موت عبد الرحمان الناصر	المسيلة 961/350	المعرّ	59	كامل	69	9	صَفِيحًا	11
	المسيلة 961/350	المعرّ	64	طويل	82	11	مُصَنِّعٌ	12
10 أبيات في «ب. م.» الباقى من «ت 1»	961/350 (بعيداً عن المسيلة)	جعفر	90	طويل	/	63	مَشْرُوقٌ	13
قَصْدُ يحيى	المسيلة 962/351	يحيى	50	كامل	110	17	البِيدُ	14
وصف قصر إبراهيم	المسيلة 962/351	ابراهيم بن جعفر	100	كامل	361	57	كُتَمَانَهَا	15
جعفر في حملة حربية	المسيلة 962/351	ابراهيم (وجعفر)	36	كامل	358	54	دَوْنَهُ	16
	المسيلة 962/351?	يحيى	76	سريع	228	36	الشرقي	17
	المسيلة 962/351?	يحيى	43	كامل	252	39	فِيَاكَ	18
جعفر بالقيروان؟	المسيلة 963/352?	جعفر	114	كامل	292	45	خُلَاجِلُ	19
من ت 1 فقط ، وبقية بزهر الاداب ج 1 ص. 312	المسيلة 963/352?	ابراهيم	13	كامل	/	70	نَدِيمٌ	20
إبراهيم في حملة بالمغرب؟ (أبيات 43 و 53-54)	المسيلة 963/352?	جعفر (وابراهيم)	62	طويل	222	32	يُزَقِّفُهُ	21

ملاحظات	التاريخ التقريبي ومكان النظم	الممدوح أو ما شاركه	عدد الآيات	البحر	طبعة صادر 1964	المدد الرتبي عند زاهد علي	قافية المطلع
	963/3522	يحيى	39	طويل	65	8	22 تَبْلِيَا
	963/352	إبراهيم	29	خفيف	249	38	23 مِنْكَ
	؟	رثاء الحفيد	97	رمل	120	14	24 حَسَدُ
	؟	رثاء الأم	61	كامل	166	19	25 النَّذْرُ
تخريض الأخوين على الوفاق.	؟	رثاء الأم	86	متقارب	27	59	26 مُنْهَى
يشفع في يحيى؟ (بيت 73-72)	963/352	جعفر ويحيى	90	طويل	153	18	27 الكَذْرِي
يشفع في يحيى؟ من ت. 1 فقط	963/352	جعفر	14	طويل	/	69	28 نَظْمُ
	964/353	يحيى	65	طويل	337	52	29 حَاكُمُ
شكوى الشاعر	964/353?	جعفر	75	متقارب	329	50	30 الْبُهْمُ
تخديره من الأمرين؟	967/356?	جعفر	35	طويل	188	28	31 (أو 41) رَدْعُ

أول شعر أنشدته آياه	964/353 المنصورية	المعز	87	كامل	350	53	32
	964/353 المنصورية	المعز	41	خفيف	218	35	الأحداق 33
	964/353 المنصورية	المعز	113	كامل	256	40	حجول 34
	964/353 المنصورية	المعز	73	طويل	34	3	عاريب 35
	964/353 المنصورية	المعز	35	بسيط	184	26	يَلْتَقِطُ 36
	964/353 المنصورية	المعز	99	كامل	9	1	السيرة 37
رقعة المضيّق أو الخليج	965/354 المنصورية	المعز	110	كامل	283	44	بتهل 38
الخليج أيضاً	965/354 المنصورية	المعز	78	بسيط	89	12	عباد 39
عيد الإضحى	966/355 المنصورية	المعز	1122	كامل	265	41	ذبول 40
ذكر قلعة كيانة	967/356 من القيروان	جعفر	60	طويل	105	16	الأُسْدُ 41
سفارة رومية ؟	967/356 المنصورية	المعز	96	طويل	96	13	فجود 42
إشارة إلى العمر (بيت 1)	967/356 المنصورية	المعز	86	متقارب	20	58	الفهري 43
	968/357	المعز	78	طويل	241	37	باتك 44
من ت 1 فقط	968/357	المعز	44	طويل	/	67	ماتم 45
انطلاق جوهر نحو مصر	969/358	جوهر	105	طويل	192	27	أزوع 46
وصف جيش الفتح	969/358 المنصورية	المعز	51	طويل	308	46	الصوامع 47
فتح مصر	969/358 المنصورية	المعز	101	طويل	131	22	الأمر 48

ملاحظات	التاريخ التقريبي ومكان النظم	الممدوح أو ما شاكله	عدد الآيات	البحر	طبعة صادر 1964	العدد الرتبي عند زاهد علي	قافية المطلع
يسلّيه عن عزله من قيادة الجيش؟	969/358 برقة؟	أفليح الناشب	22	بسيط	54	5	49 القُفْصِبُ
الأخوان مانا بافريقية	قبل محرم 969	أخوا المعزّ	76	رمل	114	15	50 القَتَاذُ
هدايا مصر	970/359 المنصورية	المعزّ	68	طويل	140	23	51 أَصْدَرَا
إشارة إلى حصار أنطاكية	970/359 المنصورية	المعزّ	56	كامل	202	30	52 أُخْرَفَا
أسر ابن خزر	970/360 المنصورية	المعزّ	95	بسيط	275	43	53 الدُّوَلُ
إشارة الى فرقلس	971/360 المنصورية	المعزّ	69	كامل	146	24	54 القَهَّازُ
بعد فتح مصر	973/362 برقة	أفليح الناشب	91	كامل	369	55	55 الفَرْسَانُ
آخر شعره	973/362 من الزاب؟	المعزّ	200	طويل	313	47	56 مِخْذَمُ

قصائد يصعب تأريخها

ملاحظات	عدد الآيات	البحر	صادر 1964	زاهد علي	القافية
	82	كامل	41	4	57 مطلباً
	38	كامل	161	20	58 المُسفر
الشيبياني ؟	24	بسيط	235	33	59 يفترق
	53	طويل	302	42	60 مقاتلي
	91	بسيط	378	60	61 الهندواني
	35	بسيط	/	66	62 الأسل
ابن المهذب	11	كامل	348	48	63 الإبرام
أحمد بن زائدة	37	منسرح	/	65	64 عاذلها
هجاء الوهراني قبل 360؟	42	خفيف	214	29	65 الشريف
محمد ابن قاضي برقة 362/?	20	خفيف	/	68	66 غرام
ديوان المتنبي	21	بسيط	172	21	67 كَفَرَا
في أكل	18	بسيط	376	56	68 التناين
خمرية	21	رجز	238	34	69 مطروق
غزل	35	طويل	343	49	70 الزلّم

الفصل الثالث

ممدوحو الشاعر

سنحاول في هذا الفصل أن نلقي بعض الأضواء على حياة ابن هانيء ، من خلال دراستنا لعلاقته بالأشخاص الذين خدمهم بشعره ، سواء كانت خدمته لهم دائمة مستمرة ، كبنى حمدون أو الخليفة المعزّ ، أو عرضية متقطعة كالشيباني أو أفلح الناشب .

وليس غرضنا أن نصنّف ترجمة ضافية مدققة لهؤلاء وأولئك ، إنّما قصدنا أن نلتقط من كتب التاريخ والتراجم كل الارشادات الكفيلة بتوضيح الظروف التي نظم فيها الشاعر مدائحه فيهم ، وتدقيق المدد التي قضّاها في خدمتهم ، عسانا نتوصّل الى تبديد الغيوم التي تكتنف الإشارات التاريخية والاجتماعية - الحضارية في جلّ القصائد . وهي إشارات ، لعلّها كانت واضحة مفهومة لدى الممدوحين وجمهور المعاصرين ، ولكنها عندنا مستغلقة تستعصي غالباً عن كل محاولة للفهم والشرح .

هذا وأنا نرتّب هؤلاء الممدوحين لا بحسب عدد القصائد التي خصّصها لهم الشاعر ، ولكن بحسب امكان تعرّفنا عليهم والوقوف على أخبارهم في المراجع الأدبية والتاريخية .

المعزّ لدين الله

هو الخليفة الفاطمي الرابع ، ترجمت له المصادر التالية :

- 1 - سيرة الأستاذ جوذر : نشرها محمد كامل حسين بالقاهرة ، ونقلها الى الفرنسية ماريوس كانار بالجزائر .
- 2 - ابن حمّاد : (1231/628) أخبار ملوك بني عبيد .
- 3 - ابن الأثير : (1233/630) الكامل في التاريخ .
- 4 - ابن الأبار : (1259/658) التكملة لكتاب الصلة .
- الحلّة السيرة : ترجمة عدد 216
- 5 - ابن خلّكان : (1282/681) وفيات الأعيان : ترجمة رقم 398 .
- 6 - ابن عذارى : (1312/712) : البيان المغرب .
- 7 - ابن الخطيب : (1375/776) : أعمال الأعلام .
- 8 - ابن خلدون : (1428/832) : كتاب العبر (تاريخ البربر) .
- 9 - المقرئزي (1441/845) : الخطط ، واتعاظ الحنفاء .
- 10 - ابن تغري بردي : (1470/874) : النجوم الزاهرة .
- 11 - ابن أبي دينار : (1698/1110) : المؤنس .
- 12 - فرنال (Fournel) : البربر (Berbers) .
- 13 - كاترمير (Quatremère) : حياة الخليفة المعزّ Vie de calife Moezz .
- 14 - حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعزّ لدين الله .
- 15 - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية .
- 16 - ماريوس كانار : حياة الأستاذ جوذر ، وفصول أخرى .
- 17 - فرحات الدشراوي : الخلافة الفاطمية بالمغرب (بالفرنسية) .
- 18 - القاضي النعمان (974/363) : كتاب المجالس والمسائرات (ملاحظات عابرة فقط) .

ولد أبو تميم معذّ بن اسماعيل بالمهدية سنة 930/319 ، وارتقى الخلافة عند وفاة أبيه المنصور سنة 952/341 ، فاتّخذ لقب « المعزّ لدين الله » . وتشيد

المصادر الشيعة ، مثل سيرة الأستاذ جودر ومجالس القاضي النعمان ، بحسن أخلاقه من تسامح وحلم وتواضع ، كما تشيد بسعة معارفه في شتى أنواع العلوم ، ولا سيما العلوم الباطنية المنبثقة عن العقيدة الاسماعيلية . وقد نسب اليه المستشرق لويس ماسينيون⁽¹⁾ ، في الثبت الذي صنّفه للمؤلفات القرمطية ، رسالة ذات نزعة قرمطية سماها « الرسالة الى حسن القرمطي » وأخرى ذات نزعة عقائدية جدلية ازاء النصرانية سماها « الرسالة المسيحية » ، وقد أرّخها ماسينيون بسنة 969/358 . والواقع أنّ هذه الرسالة المسيحية إنّما هي فصل من « مقالة مسيحية » منسوبة الى المعزّ ، ولكنها لغيره بدون شكّ ، لأنّ هذا الفصل من المقالة قد نسخ سنة 920/308 ، أي ، قبل ميلاد المعزّ بأكثر من عشر سنوات . هذا ما يطلعنا عليه فهرست المخطوطات بالمكتبة الوطنية بباريس⁽²⁾ . أمّا الرسالة الى الثائر القرمطيّ ، فتتضمّن قبل كلّ شيء دعوة الى وضع السلاح والاعتراف بالحكم الفاطميّ الذي أقرّه جوهر بالقاهرة . وقد احتفظ لنا القاضي النعمان من جهة أخرى برسائله الى امبراطور بيزنطة - أو طاغية الروم كما يقول - التي يدعوه فيها الى اعتناق الإسلام⁽³⁾ .

هذا السعي الدائم الى نشر الإسلام مع التمسك المستمرّ بفريضة الجهاد المقدّس قد ميّز حكم هذا الملك العظيم ، وقد قضى معظم مدّته بافريقية ، وهو منشغل بتوطيد السلطان الفاطمي بعد أن كادت تودي به ثورة أبي يزيد الخارجية . ولئن ظفر المنصور بأبي يزيد سنة 947/336 ، فإنّ تبعات فتنته قد استمرّت حتّى خلافة المعزّ ، إذ كانت القبائل البربرية ، وخاصة زناته ومغراوة ، تتمرّد بين الفينة والفينة على الحكم الشيعيّ مستندة الى السلطة الأموية بالأندلس التي كانت تحوّل الدسائس وتشجع الثورات ضد الفاطميين ، انطلاقاً من

(1) الببليوغرافيا القرمطية : رقم 19 .

(2) فهرست دي سلان (De Slane) : رقم 191 .

(3) انظر فصل الدشراوي : جزيرة قريطش ... وفصل ماريوس كانار : المصادر ... ص . 289 . وانظر كذلك اتعاظ الحنفاء للمقرئ ص . 251 : نص الرسالة الى القرمطيّ .

قواعدها بالمغرب الأقصى ، مثل طنجة وسبتة اللتين عجز القائد جوهر على افتكاكهما . وكانت سياسة خلفاء قرطبة ترمي الى اقامة قبائل زناته حاجزاً في المغرب بينهم وبين مرامي المعزّ التوسّعية . والمعزّ من جهته لم يكن يخفي عداوته للأمويين ، أو المروانيين كما تقول الدعاية الرسمية ، ويرى أنّ سلطانهم غير شرعيّ ، بل هو ثمرة اغتصابين : أولاً ، اغتصاب معاوية للحكم من عليّ بن أبي طالب الخليفة الشرعيّ ، ثم انتزاع السلالة المروانية للحكم من السلالة السفيانية⁽¹⁾ .

وقد خصّص فرحات الدشراوي صفحات طويلة من رسالته لتحليل أسس هذا الخلاف بين الفاطميين وأمويّ الأندلس ، وتفصيل نتائجه السياسيّة والعسكريّة : فهو مثلاً يعزو الهدنة التي وقعت سنة 8/346- 957 بين المعزّ وقسطنطين إمبراطور بيزنطة لمُدّة خمسة أعوام ، يعزوها الى رغبة المعزّ في توجيه كافّة قوّته وعزمه ضدّ الغاصبين الأندلسيّين والتفرّغ لقتالهم ، ولا يشكّ هذا الباحث كذلك في أنّ المعزّ كان يرسل الدعاة السريّين الى الأندلس ليحدثوا القلاقل والفتن تمهيداً لحملة فاطميّة واسعة على الجزيرة .

غير أنّ المنافسة بين الدولتين ، في انتظار هذه المجابهة ، وجدت مجالاً فسيحاً بأرض المغرب ، فاتخذت من قبائل البربر وسائط لها في القتال ، فكان الأمويون كما أسلفنا يستخدمون قبائل زناته ، وبخاصّة الفرع المعروف منها بقوّة الشكيمة ، وهم بنو خزر من مغراوة . أمّا الفاطميّون ، فيعتمدون ، علاوة على أنصارهم الأوّلين من كتامة ، على قبيلة صنهاجة المعروفة بشدّة عداوتها لزناته الرّحل ، ومعلوم أنّ صنهاجة كانت من القبائل المستقرّة ، خصوصاً بعد تأسيس مدينة أشير بالمغرب الأوسط (جنوب عاصمة الجزائر الحاليّة) .

(1) الدشراوي : الخلافة الفاطميّة . . . ص. 225 . انظر أيضاً : المعزّ لدين الله ص. 322 وما يليها .

وبمجرد أن وصل شاعرنا الى برّ العدو ، وجد نفسه في خضمّ هذا التنافس فانضمّ مباشرة الى حزب الفاطميين كما يظهر من مدحته لجوهر ، وهي أوّل قصائده المغربية :

37/10 أراك بمرآة الإمامة كآسمها على كور غنس والإمام المرشحاً

فعبارة « مرآة الامامة » لا تدع مجالاً للشك في أنه قطع الصلة بالأمويين فأخذ يردّد الشعارات الفاطمية ويتبنّى عداوة صاحب افريقية ضدّ خلفاء قرطبة ، كما سيظهر من شعره الذي ينظمه في المعزّ .

لكنّ المعزّ لم يقصر عداوته على الأمويين المروانيين بالأندلس ، بل كان يوجّه أنظاره أيضاً الى العباسيين لأنهم ، في نظر الأئمة ، ظالمون غاصبون للحكم مثل بني أمية ، ولا بدّ يوماً من إرغامهم على ارجاع الحقّ الى أصحابه الشرعيين : أبناء فاطمة . لذلك لا نراه يصرف نظره عن شؤون المشرق ، كما تدلّ عليه مراسلاته مع الأخشيديين بمصر اثر احتلال نفقور فقّاس الأمبراطور البيزنطي لجزيرة قريطش : فقد فكّر في تجهيز أسطول مشترك بين المصريين والافريقيين لمحاولة استرجاع الجزيرة⁽¹⁾ .

غير أن صدى الأحداث الشرقية لا يبرز في القصائد المعزّية الأولى ، بل يركّز ابن هانيء اهتمامه ، أي حملاته الكلامية ، على المروانيين بالأندلس : هم العدو الذي يجب أن يقهر ويمحق ، أما العباسيون فيبقى ذكرهم خافتاً الى ما بعد سنة 962/351 ، أي بعد الهزائم النكراء التي يلحقها الروم بسيف الدولة الحمداني على حدود الخلافة العباسية العاجزة المقهورة ، فعندئذ لا تتوانى الدعاية الفاطمية - وبالتالي الشاعر - في مقابلة انتصارات الأسطول الفاطميّ في صقلية وجنوب ايطاليا بنكبات العباسيين وأمرائهم في شمال الشام والحوض الشرقي من البحر الأبيض ، فيقول شاعرنا مشيراً إلى صدّ الأمبراطور

(1) الدشراوي : الدولة الفاطمية . . ص . 244-247 . انظر أيضاً له : جزيرة قريطش . . .

البيزنطي - الدمستق - عن صقلية ومعرضاً بخمود العباسيين .

53/40 إِنَّ التي رام الدمستق حربها لله فيها صارم مسلول
54 لا أرضها حلب ، ولا ساحاتها مصر ، ولا عرض الخليج النيل

ويزداد هذا التهجم على بني العباس قوة عندما يستيقن المعز بتوطيد أمره على المغرب ، فيولي نظره شطر بغداد ، ولا سيما بعد وفاة كافور الأخشيدي أمير مصر سنة 968/357 . فلذلك ، اعتماداً على ما ورد في المدائح المعزية من تهجم على العباسيين ومجادلة لهم في شرعية الامامة ، يمكننا أن ندفع النظريتين المختلفتين - وإن كانتا كلاهما خاطئتين - اللتين فسّر بهما بعض الدارسين انتقال الخلافة الفاطمية من إفريقية الى مصر : تقول النظرية الأولى أنّ هذا التحوّل إنّما كان نوعاً من الهروب من عداوة القيروانيين المتمسكين بسنتهم ، الناقمين على البدع الشيعية ، الى أصقاع كان التشيع فيها معروفاً مقبولاً⁽¹⁾ . ويقول الرأي الثاني إنّ المعز لم يقرّر تحويل الخلافة الى القاهرة إلاّ لمجابهة فرق القرامطة التي عاثت فساداً بأرض الشام وتمردت على الجيوش الفاطمية هناك فقتلت قائده الكتامي جعفر بن فلاح⁽²⁾ . فهذان رأيان خاطئان في نظرنا : ذلك أن المعز لم ينقطع تفكيره في اكتساح الشرق والإطاحة بالدولة العباسية . ولا غرابة في ذلك ، ما دام الأئمة الفاطميون يعتقدون أنهم هم وارثو الأرض وسادة الكون ، وأن كلّ سلطة لا تنبثق من وحيهم إنّما هي سلطة مسروقة مغتصبة يجب الإطاحة بها . ولئن لم يشرع في حملته الشرقية الآ سنة 969/358 ، فلأنّه كان مضطراً قبل ذلك الى توثيق قواعده الخلفية وتحصينها من دسائس الأمويين وفتن القبائل الزناتية وتحركات الأسطول الرومي ، فاستخدم لهذا الغرض كبار قواده من عبيد صقالية مثل جوهر ، أو بربر صنهاجيين مثل زيري بن مناد ، أو عرب مثل بني حمدون بالمسيلة أو الكلبيين

(1) حسين مؤنس : مقدمة رياض النفوس . ص. 16-17 . ولنلاحظ عرضاً أن الحملات على المشرق بدأت من عهد عبيد الله ، أي منذ السنوات الأولى من انتصاب الدولة بالقيروان .

(2) الدشراوي : الخلافة ... ص. 266 .

بصقلية . وهذا الحذر من أعداء الخلف هو الذي حرّك الأسطول الفاطمي ضدّ البيزنطيين ، فأنزل بهم هزيمة رمطة بالجنوب الشرقي من صقلية ، ثمّ كارثة الخليج أو مضيق مسينا سنة 965/354 ، وكان الدمستق فاتحه منذ سنة 957/346 في إبرام صلح دائم⁽¹⁾ ، وربّما كانت مهادنة الروم في صالح الفاطميين اذ تمكّنهم من التفرّغ لمآربهم الشرقية ولكنّ تمسّك المعزّ بفريضة الجهاد ، كما أسلفنا ، حمّله على رفض العروض البيزنطية⁽²⁾ وعلى مواصلة قتالهم برّاً وبحراً . وأنا لنجد في مدائح ابن هانيء صدى لهذه المشاغل عند الخليفة : التصديّ للنفوذ الأندلسيّ بشمال أفريقيا ، ودفع الخطر الرومي عن قلورية في جنوب ايطاليا أو «الأرض الكبيرة» كما يقول المؤرّخون ، وعن جزيرة صقلية ، وأخيراً استنكار الركود العبّاسيّ ازاء انتصارات الأباطرة المقدونيين في شمال الشام والجزيرة .

وكان القائد الصقليّ جوهر هو المكلف عادة بالحملات المغربية ضدّ عملاء الأمويّين والثوّار البرابرة . وفيما بين سنة 969/358 و 971/360 ، بينما كان جوهر منشغلاً بفتح مصر وتأسيس القاهرة وبسط النفوذ الفاطمي على وادي النيل ورُبوع الشام ، قامت ثورة جديدة في مغراوة ، يقودها أبو خزر ، فاضطّرّ المعزّ الى ملاحقة الثائر بنفسه ففاد حملة ضدّ زناته حتى جبال الأوراس ، ولا يظهر من كلام ابن هانيء أنّ الشاعر رافق الخليفة في هذه الحملة ، وسكوته هذا يدعونا الى التساؤل عن حقيقة العلاقة التي كانت تربطه بالمعزّ : فلئن صرّح أنّه كان الشاعر الرسميّ للدولة الفاطمية ، المعلي لكلمتها ، المشيد بأحقّيتها لخلافة المسلمين كما يظهر من الشعارات الشيعة التي تطفح بها مدائحه ، فهو فيما يبدو ، لم يكن ملازماً للخليفة ، ولا معاشاً له في بلاطه ولا حتى في عاصمته المنصورية : ذلك أن شعره لا يتعرّض قطّ للأحداث والحالات التي قد تقع في القصر أو عند أفراد الأسرة الحاكمة ، من مرض

(1) نفس المصدر ص 243 .

(2) انظر القاضي النعمان : ك . المجالس والمسايرات ، 367 و 444 .

يطراً على أحد الأمراء ، أو زفافٍ يحمل أميرة الى بعلها ، أو وفاة عظيم . ولا يخلو الأمر من غرابة إذا اعتبرنا أن اثنين من إخوة المعز وأختاً ماتوا في الفترة التي قضاها الشاعر بإفريقية . الأخوان هما طاهر والحسين اللذان مدحهما بالقصيدة الخامسة عشرة ، والأخت يسميها المقرئ (1) سمورة . فصرنا نتساءل هل كان للمعز بلاط ، بالمعنى الذي نفهمه من عبارة « بلاط المأمون » أو « بلاط سيف الدولة » أي حلقة يتوسطها الخليفة بين كبراء دولته وشعرائه ومغنييه وعلمائه ، ويقع أثناءها الانشاد والسماع والمطارحات الأدبية ، ويستطيع الشعراء بفضلها أن يطلعوا على ما ينتاب حياة القصر من حوادث سارة أو أليمة ، تافهة أو جسيمة .

بل لعلّ سكوت الشاعر عن حياة الخليفة الخاصة يحملنا على تصديق الصورة التي يقدمها لنا عن المعز مترجموه : وهي صورة العاهل الوقور الرّصين الذي لا يضيع الوقت في توافه المجالس وثرثرة الحلقات (2) ، فلا يترك التواضع - بل التزهّد - الذي فطر عليه الا عندما تضطرّه الاحتفالات الرسمية الى إظهار آبهة الملك ، في الأعياد مثلاً ، أو عند قبول رسل الملوك أو استقبال قوّاده المظفرين . وحتى هذه المواكب الرسمية لم تحظ بوصف مدقّق عند ابن هانئ ، بل يشير إليها اشارات قليلة سريعة . فكأنّ الخليفة يعتبر أنّ هذا الجانب الرسمي من حياته أعظم قدراً من أن يدعو اليه الشعراء فيجعله على مرتبة المساجلات والمطارحات .

وعلى ذكر الشعراء ، هل يصحّ أن نستعمل هذا الجمع ؟ أو ، بعبارة أخرى ، هل كان عند المعزّ شعراء آخرون غير صاحبنا ؟ صحيح أن المصادر تذكر جماعة ، منهم الفزاري ، والإيادي وابن القتّار ، ولكنها لا تترجم لهم ، ولا تنقل من شعرهم الا التزّزّ القليل . وحتى المصادر الإسماعيلية ككتاب « عيون الأخبار » للداعي إدريس ، لئن ذكرت شاعراً مثل جعفر بن منصور

(1) أتعاط الحنفاء 133 .

(2) المجالس والمساربات 94 ، 442 ، 457 و 514 .

اليمن⁽¹⁾ ، فهي لا تتعرض لعلاقته بالإمام . وصحيح أيضاً أن شاعرنا يتذمر أحياناً من بعض المنافسات ، ولكن لم يصلنا شيء من شعر هؤلاء في المعز ، إن كانوا مدحوه حقاً ، كما لم نجد في كامل ديوان ابن هانيء تصريحاً باسم واحد من هؤلاء الحسدة المنافسين .

فإن خلت المدائح المعزّية من كل إشارة الى حياة المعزّ وإلى حياة الشاعر بجوار المعز ، لم نستغرب الصعوبات التي تعترض سبيل كل من يحاول تصنيف ترجمة صحيحة لابن هانيء . فالغموض الذي يكتنف ميلاده وظروف وفاته هو الغموض الذي يكتنف علاقاته مع ممدوحيه .

أميرا الزاب : جعفر ويحيى ابنا حمدون

نجد ذكراً لهذين الأخوين في المصادر التالية ، علاوة على مصادر ترجمة المعزّ الفاطمي :

- 1 - ابن حيّان : (1076/469) : المقتبس ص . 32 - 34 .
- 2 - ابن الأثير : الحلة السيرة : ترجمة رقم 111 .
- 3 - ابن خلّكان : وفيات : ترجمة رقم 133 .
- 4 - ابن سعيد 1286/685 : المغرب : ترجمة رقم 409 .
- 5 - ابن خلدون : ج . 4 ص . 32 من طبعة بولاق .
- ج . 16 - 21 ، ص . 176 من طبعة بيروت .
- 6 - ليفي بروفنسال : اسبانيا الإسلامية ج . 2 ص . 187 .
- 7 - ماريوس كانار : أسرة بني حمدون . . . ص . 33 - 49 .
- 8 - فرحات الدشرابي : الخلافة الفاطمية بالمغرب ص 238 - 240 .

كان جعفر بن حمدون والي المعزّ على المسيلة ومنطقة الزاب بالمغرب

(1) حوليات 1979/17 ص 69 .

الأوسط . وكان يمّني الأصل ، كما تدلّ عليه نسبة « الجذامي » في اسمه : فهو جعفر بن علي بن حمدون بن سماك الجذاميّ الأندلسي . وقد أكثر ابن هانئ من الاشادة بهذا النسب القحطانيّ الذي يشترك فيه مع أمراء المسيلة ، فنراه يجعل مثلاً من جعفر أصلاً جامعاً لكلّ الخصال اليمينية : [متقارب]

46/50 فلو نُسِبَت يَمْنُ كُلُّهَا اليك ، لقلنا لها : لا جرمَ وربّما عزا العطف الذي لقيه عنده الى هذا الاشتراك في النسب : [طويل]

37/63 وكم لك عندي من يدٍ يمنية لها حسَبٌ في المكرمات عتيقُ

جدّ الأسرة يدعى عبد الحميد ، ولكن النطق الاسباني صغّره فصار « حمدون » كما وقع في « خلدون » و « عبدون » وغيرهما . وكان له ابنان : محمد وعلي . ويظهر أنّه قدم من الشام فاستقرّ بمنطقة البيرة ، فلعلّه سليل إحدى الأسر الشامية التي هاجرت الى الأندلس بعد فتحها فعمرت مدن الجنوب الإسباني وقراه . ولا نستبعد كذلك أن يكون حمدون هذا داعياً من دعاة الفاطميين ، استقرّ باحدى « الكورات المجنّدة » التي توزّعها أجناد حمص وقسرين ودمشق ، فاختر كورة البيرة لما كان يتوقعه فيها من قبول العناصر اليمينية للشعارات الشيعية ، وكانت الدعايات المارقة تجد أرضاً خصبة في هذه المناطق ، بدليل الفتن العديدة التي أثارها فيها الأحياء اليمينية .

ويَدْعُمُ رأينا في انتساب حمدون الى الدعوة الفاطمية ، ما تذكره المصادر من أنّه استقر مدّة بمدينة بجاية بالمغرب الأوسط ، أي على مقربة من مواطن كتامة . ومعلوم أن كتامة هم الأنصار الأولون للداعي أبي عبد الله الشيعي . بل يذهب الدشراوي في رسالته⁽¹⁾ ، مستنداً الى كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان⁽²⁾ الى أن حمدونا هو الذي أوصل أبا عبد الله الى كتامة ، بعد

(1) الدشراوي : الخلافة ... ص 60 .

(2) افتتاح الدعوة ، ص 68-70 .

أن تلقى أمراً بذلك من مركز الدعوة الفاطمية بسلمية بالشام ، مما يؤكد في نظره أنه كان على اتصال وثيق بزعماء الدعوة في المشرق .

ويرى ماريوس كانار⁽¹⁾ أن هذه المهمة كانت من نصيب محمد بن حمدون ، أحد أنصار الداعي الحلواني الأولين : فهو الذي ربط الصلة بين أبي عبد الله والكتاميين ، في حين أن علي بن حمدون ، الابن الثاني ، دخل في خدمة المهدي بمجرد وصوله الى سجلماسة وبقي معه حتى انتقاله مظفراً الى رقادة .

ومهما يكن من أمر ، فلا شك في أن الأسرة الحمدونية قديمة التشيع : فقد خدم حمدون - أو ابنه - الخليفة الأول عبيد الله المهدي . ثم نجد علي بن حمدون في خدمة الخليفة الثاني محمد القائم منذ أن كان ولياً للعهد مكلفاً ببسط النفوذ الفاطمي بالمغرب الأوسط . فأسس معه سنة 926/315 مدينة حصينة سماها باسمه : « المحمدية » . ولكنها عرفت فيما بعد باسم « المسيلة »⁽²⁾ . وكان الغرض من انشاء هذه القاعدة أن تمكن الحكام الفاطميين من مراقبة سهول « شط الحضنة » وجبال « المعاضيد » في آن واحد ، ثم أن تكون محتشداً للعتاد الحربي والمؤن اللازمة في حالة حصار أو حرب طويلة المدى ، وقد استفاد الحكم الفاطمي منها فعلاً : فبفضل ما أدخره علي بن حمدون بالمسيلة من سلاح وعتاد ، تمكن الخليفة الثالث المنصور من محاصرة أبي يزيد صاحب الحمار بجبل « كيانه » حيث كان اعتصم في آخر أيامه ، ثم من القضاء عليه نهائياً .

وقتل علي بن حمدون سنة 945/334 أثناء معركة دارت بين الجيوش الفاطمية وأنصار أبي يزيد بقيادة أبي أيوب ابن صاحب الحمار . فخلفه علي

(1) م. كانار : حياة ... ص. 109 تنبيه عدد 203 . ولنلاحظ أن القاضي النعمان يتحدث عن أبي عبد الله (محمد) الأندلسي ، لا عن حمدون نفسه ، مما يدعم نظرية ماريوس كانار .

(2) انظر فصل بول ماسيرا عن المسيلة .

امارة المسيلة والزاب ابنه جعفر بن علي بن حمدون يساعده على شؤون الولاية أخوه يحيى بن علي . وكان جعفر ويحيى ابنا عليّ قد نشأ ببلاط القائم ثم المنصور تحت رعاية الحاجب جوذر الأبوية⁽¹⁾ . فالعلاقة بين الحمدونيين والأسرة الفاطمية كانت اذن جدّ وثيقة . بل يقول ابن خلدون⁽²⁾ إنّ أمّ معدّ ، أي المعزّ ، كانت قد أرضعت جعفرأ ، فكان أخأ للخليفة الرابع بالرّضاع . ولا يعني هذا أنّهما كانا نّدين تربين أي أنّهما أرضعتهما معاً في نفس الفترة : فالمعزّ ولد سنة 931/319 كما أسلفنا ، أمّا جعفر ، فلا يمكن أن تكون سنّه ، لمّا خلف أباه على اماره الزاب سنة 945/334 ، دون الخامسة والعشرين على أقلّ تقدير ، فيكون مولده حينئذ حوالي سنة 921/310 ، أي قبل ميلاد المعزّ بعشر سنوات .

ولمّا ولي المعزّ الخلافة أقرّ جعفرأ على ولاية الزاب . وتقول المصادر إنّّه أظهر له من العطف الدائم والرفق المتواصل ما لم يكن جعفر به دائماً جديراً : مثلاً كان يسمح له باستبقاء القسط الأوفر من أموال الجباية ، فلا يدفع الى خزينة الدولة إلّا المقادير القليلة⁽³⁾ ممّا يحركّ غير الولاة الآخرين وتذمّروهم من هذا الامتياز . فكانوا يترشّحون لتعويض جعفر ويلتزمون بدفع مبلغ سبعين ألف دينار سنوياً الى بيت المال . فتضافرت هذه الاحتجاجات مع التّهم الموجهة الى جعفر في إغضائه عن فتنة زناته ومحرّكها الأمويين ، حتى إنّ الحاجب جوذر اقترح على الخليفة أن يعزله . لكنّ المعزّ أبى أن يسحب ثقته من أخيه بالمراضعة ، بل دعا جوذرا الى المزيد من التسامح معه ، وهو الذي ربّاه مع الأمراء في قصور الخلافة⁽⁴⁾ .

(1) الدشراوي : الدولة ... ص . 238 .

(2) ابن خلدون : تاريخ ج . 4 ص 82 (بولاق) . وقد حرّفت الجملة في طبعة بيروت الرديئة فصارت لا تفهم . وانظر ترجمة دي سلان ج 2 ص 553 .

(3) الدشراوي : الدولة ... ص 239 .

(4) م . كانار : حياة ... ص . 197 ، 198 ، 200 . تنبيه رقم 435 و 438 .

ولعلَّ تقلّبات جعفر بن حمدون في ولائه للمعزّ كانت ناتجة أساساً عن العداوة التي كان يضمّرها للأسرة الصنهاجية ورئيسيها زيري بن مناد ثمّ بلقين ابن زيري ، وهذه المنافسة بين بني حمدون وبني زيري صورة وصدى للخصومة القديمة بين زناته الرّحل وصنهاجة المستقرّين . وقد حاول المعزّ مراراً عديدة أن يصلح بينهما ، ولكنّ جهوده لم تفلح ، فالعداوة متأصّلة بين القائدين ، ثمّ أنّ الانتصارات المتكرّرة التي أحرزها زيري وابنه في حملاتهما على القبائل المتمرّدة كانت تحزّ في نفس جعفر لأنّها تقوّي مركز الصنهاجيين بالخلافة وتطمس نجم بني حمدون . وبلغت العداوة أوجها يوم أن قهر زيري القائد الزناتي محمد بن الخير ، فأرغمه على الانتحار وحمل رأسه إلى المعزّ⁽¹⁾ . فقطع جعفر ولاءه للمعزّ ورفض أن يمثل أمامه بالمنصورية⁽²⁾ وانضمّ الى زناته وتحالف معهم وساعدهم على الانتقام من زيري بن مناد ، فقتلوه بدوره وقطعوا رأسه ، وركب جعفر البحر مع أهله وأمتعته حاملاً رأس الأمير الصنهاجي الى قرطبة حيث حظي من الخليفة الأمويّ الحكم الثاني بالترحاب والقبول .

ولم يتعرّض ابن هانئ قطّ الى خذلان جعفر للمعزّ ولا إلى المنافسة بينه وبين الصنهاجيين . وبهذا الصدد ، نلاحظ أنّ الشاعر لا يذكر القواد البربريين بخير ولا بشرّ ، إلّا إذا كانوا ، مثل بني خزر ، أعداء معروفين مشهورين للحكم الفاطميّ . في حين أنّه لا يقتصد في الاشادة بحملات بني حمدون على الحدود الغربية من المغرب الأوسط ، ولعلّه رافق يحيى بن حمدون في بعض هذه الغزوات كما يظهر من مدائحه فيه . وبصفة عامّة يبدو أنّه كان يتمتّع عند أمراء المسيلة بحظوة كبيرة صبغت علاقته بهم بنوع من المعاشرة والتعاطف والمودة التي لا نجد لها مثيلاً في علاقته مع الخليفة . وسيعترف الشاعر بصنيع الأخوين ، ويراعي لهما الحَبْو والتبجيل ، فلا يُظهر لهما العداوة

(1) الدشراوي : الخلافة ... ص. 237 .

(2) ليفي يروفسال : إسبانيا ج. 2 ص. 188 .

ولا حتى الاستنكار بعد قطعهما ولاء المعزّ ، مع أنّ إيمانه بالعقيدة الشيعيّة ، ومنصبه الرسميّ في بلاط الخليفة كانا يحتمّان عليه التظاهر على الأقلّ بذرّ الأخوين واستكبار خيانتهم. بل غاية ما نجده عنده من صدق هذه الأحداث ، هو هجاء غامض لكاتب عند جعفر يدعى الوهرانيّ كان متّهماً بالتجسس لفائدة الأمويّين والسعي لكسب أمير المسيلة للحزب المروانيّ .

وقد يعزى هذا الوفاء للأخوين ، رغم شقّهما عصا الطاعة في وجه المعزّ ، إلى اشتراكه معهما في النسب اليمنيّ ثمّ الأندلسيّ. هذا الالتقاء في « الأندلسيّة » لم يغيب عن الفتح بن خاقان في المطمح إذ يقول : « ... وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار ، ... إلى أن وصل إلى الزاب واتصل بجعفر ابن الأندلسيّة ، مأوى تلك الجنسيّة »⁽¹⁾ . فالذي نفهمه من هذه الإشارة : « مأوى تلك الجنسيّة » أنّ بلاط الأخوين كان بمثابة الملجأ للأندلسيّين النازحين عن وطنهم ، وأنّ ابن هانيء ، عند هجرته من اشبيلية ، لم يجد المؤازرة والرعاية إلّا عند « مواطنيه » الحمدونيّين ، والمواطنة هنا مزدوجة : فهم مثله يمنيّو الأصل ، وهم مثله أصيلو كورة البيرة .

جواهر الصقلّي

في خصوص هذا القائد ، انظر ، إلى جانب المصادر السالفة الذكر :

- 1 - ابن خلّكان : وفيات ، ترجمة رقم 141 (145 طبعة بيروت) .
الداعي إدريس (1468/872) : عيون الأخبار ، جزء 6 ، ورقة 56 .
- 2 - علي إبراهيم حسن : تاريخ جواهر الصقلّي .
- 3 - فرحات الدشراوي : الخلافة الفاطميّة ... ص 222 : حملة المغرب . ص 250 : فتح مصر . ص 367 : الصقالبة .

(1) مطمح الأنفس ص. 84 . وانظر نفح الطيب طبعة عبد الحميد ج. 5 ص. 173 .

لعلّ هذا القائد الكبير كان من أصل صقلبيّ ، والصقالبة كما هو معلوم ، هم قاطنو أوربّا الوسطى من بلغار وبولنديين وروس ، وكانوا منذ القدم عرضة للأسر والاسترقاق من قواد الاغريق والرومان ، حتّى أنّ اللفظة اللاتينية Slavus التي تعين الشخص الصقلبيّ قد ولدت لفظ Sclavus التي تعني العبد ، ومنها انتقلت الى الفرنسية في صورة Esclave في المعنى المطلق للعبودية⁽¹⁾ .

ويسمّيه ابن حَمّاد في تاريخه «جوهـر الروميّ» . والمعنيون بالروم عند المؤلّفين العرب هم البيزنطيّون ، سكّان امبراطورية القسطنطينيّة أو روما الشرقية ، ويقال لها أيضاً الامبراطورية المقدونيّة أو الاغريقيّة ، فلذلك ترجم فوندرهايدن عبارة ابن حَمّاد بـ «جوهـر الاغريقيّ»⁽²⁾ . فنسبة الرومي قد تعني إذن أصلاً بيزنطياً ، أو أيضاً صقلبياً ، إذ أن قسماً من جزيرة صقلية بقي الى القرن الرابع/العاشـر خاضعاً لنفوذ الأباطرة البيزنطيّين ، فلذلك لا نستغرب نسبة «الصقلبيّ» التي علقت باسم جوهـر .

ويدعى أيضاً «جوهـر الصقلبيّ» ، دلالة على أنّه كان من العبيد الذين أسروا صغاراً فنشأوا في بلاط الخلفاء كغيرهم من الفتيان الذين قادوا الجيوش العباسيّة أو الفاطميّة . ويدعّم هذه النسبة الى الرقيق لفظ «عبد» الذي تلصقه به بعض المصادر ، والذي نقشه هو بنفسه الى جانب اسمه واسم مولاه المعزّ على منبر الجامع الأزهر حين فرغ من تشييده بالعاصمة المصريّة الجديدة : القاهرة .

وفي مصادر أخرى ، يعرف بـ «جوهـر مولى المعزّ» ، وقد تدلّ عبارة «مولى» على أنّه تخلّص من الرقّ بفضل خدمته الطويلة للدولة الفاطميّة فارتقى الى مرتبة الرجل الحرّ . وتشهد سيرة الاستاذ جوذر بأنّ المعزّ كان يمتّع بحقوق المسلمين الأحرار من نبغ من فتيانه وأحسن الخدمة ، وربّما تنافى هذا

A. Dauzat : Dictionnaire étymologique : esclave .

(1) انظر :

(2) أخبار بني عبيد ... ص 40 .

التسامح مع بعض تراتيب الفقه الإسلامي فأثار شيئاً من الاحتراز عند قاضيه النعمان بن محمد⁽¹⁾ .

أما لقباً « جواهر الكاتب » و « جواهر الوزير » ، فقد يشعران بأنه تقلّد خطة إدارية عند المعزّ . فقد وردت عبارة « الكاتب » مقترنة بعبارة « عبد » في العهد الذي قرأه جواهر على المصريين باسم الخليفة : « هذا كتاب من جواهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر . . . »⁽²⁾ . أما منصب الوزارة بمعناه الديواني فلم يُحدث عند الفاطميين إلا بعد انتقالهم إلى مصر . ولعلّ عبارة الوزير لا تفيد إلا معناها الأصلي ، معنى المؤازرة والمساعدة ، كمساعدة هارون « وزير » موسى عليه السلام لشقيقه ، أو المعنى المتولد عن علو المنزلة ، وقد رأينا مخطوط تونس 1 يلقّب أحد الغلمان الذين تغزّل بهم شاعرنا بلقب « الوزير » .

ولكنّ الخصال العسكرية هي التي أعلت مكانة جواهر عند المعزّ . فبمجرّد ارتقائه إلى الخلافة ، كلفه بالحملة المغربية الكبرى ، فتغلّب على « خليفة » سجلماسة ابن واسول سنة 958/347 ، ثم فتح مدينة فاس بعد حصار طويل ، وأسر أميرها وأمير تاهرت ، وبذلك أرجع المغرب الأقصى كلّ - ما عدا سبتة وطنجة - إلى الولاء الفاطميّ . وفي هذه الفترة بالذات اتّصل به ابن هانيء فامتدحه معلناً ولاءه للفاطميين . وتقول الأخبار ان مكافأة القائد العظيم للشاعر كانت ضئيلة جداً . فلعلّه كان ، مثل معظم العسكريين ، لا يتذوّق الشعر والأدب .

ثم كلفه بأعداد الحملة على مصر ، فتهيأ لها جواهر طيلة ثلاث سنوات ، من سنة 966/355 إلى مستهلّ سنة 969/358 ، وذلك بتجنيد الأنصار من قبائل كتامة وصنهاجة ، وجمع أموال الجباية في قرى المغربين الأوسط والأقصى

(1) إم. كانار : حياة . . . ص 57 (تنبيه 42) وص 185 (تنبيه 411) .

الدشراوي : الخلافة . . . ص 370 .

(2) المقرئزي : اتعاظ . . . ص 148 .

والأرياف⁽¹⁾، وحين فرغ من هذا الاعداد المأدي جَمَعَ جيشه بناحية من أحواز المنصورية ورثبه وجَهَّزه - وكان ، حسب قول الشاعر ، يعدُّ ثمانين ألف مقاتل - حتى تهيأ له الانطلاق نحو الاسكندرية يوم 14 ربيع الأول سنة 5/358 فيفري 969 .

ولما تمَّ له النصر ، أظهر من الخبرة الإدارية والمهارة السياسية ما لا يقلُّ عن خصاله الحربية ، فأمضى عقداً باسم الخليفة مع السفراء المصريين التزم بموجبه بأن لا يدخل تحويراً على الشعائر الدينية ، وكأنه شعر بأن هذه هي نقطة الخلاف بين الشيعة وجمهور السنة . كما أعلن عن إعفاء السَّكَّان من الضرائب التعسَّفية التي كان فرضها الاخشيدون ، وأخذ يتألَّف القلوب ويكسب الأنصار بإغداق الأموال الكثيرة والتلطف في المعاملة ، حتى رجعت الطمأنينة إلى المصريين واستتبَّ الأمن ورجع الرِّخاء ، فصار الشاعر يقارن بين جوهر في سياسته الحكيمة والنيل في إحيائه لأرض مصر : [طويل]

85/27 فان يك في مصرٍ ظمَاءٌ لِمَوْرِدٍ فقد جاءهم نِيلٌ سوى النيلِ يَهْرُعُ
بل يدَّعي أن مصرأ لم تعد في حاجة إلى فيض النيل ما دام هذا السائس
الماهر يُنْعِشُها ويحييها : [طويل]

68/22 ... وما ضرَّ مصرًا حين أَلَقَتْ قيادها اليك ، أمدَّ النيلُ أم غَالَهُ جَزُرُ؟
ويظهر أن جوهرأ كان يكبرُ المعزَّ بنحو خمسة عشر عاماً ، إذ نفهم من
عبارة المقرئ الذي نقلها عن ابن زولاق أنه ولد في مستهلَّ القرن الرابع⁽²⁾ .
هذا وإن المدائح التي وسمت في الديوان باسم هذا القائد لا تتجاوز

(1) هـ. ر. ادريس : بنو زيري ، ج. 1 ص. 29 .

الدشراوي : الخلافة ... ص. 255 .

كانار : حياة ... تنبيه 402 و 467 .

(2) اتعاظ ... ص. 154 .

القصيدتين ، ولكنّ الشاعر أشاد بجوهر في غيرهما ، فكان كلما نظم قصيدة في المعزّ وتعرّض فيها الى انتصارات الجيش الفاطمي بالمغرب أو المشرق ، مدح جوهرأ وأعظم خصاله ورفع من شأنه ، وعبر عن إعجاب به صادق وتقدير له عظيم .

وإنّا ، اذ نلاحظ هذا الصدق في عاطفة الشاعر نحو جوهر ، نستغرب كلّ الاستغراب النغمة المعاكسة التي نجدها في القصيدتين اللتين مدح بهما ابن هانئ والي برقة أفلح الناشب .

أفلح الناشب

هذا الممدوح يعرف في مقدّمات القصائد بـ « قاضي برقة » ، ولكن المصادر المعاصرة للمعزّ كسيرة الاستاذ جوذر ، وكذلك المتأخّرة كالمؤنس لابن أبي دينار تدعوه « والي برقة » . وينسبه الشيخ الطاهر أحمد الزاوي الى أصل بربري كتاميّ ، ولكنّه اشتبه عليه الأمر بين أفلح هذا ، وشخص كتاميّ كان المهدي عبيد الله قد عيّنه على قضاء رقّادة⁽¹⁾ .

ولا تذكر مصادرنا من أخباره وصفاته إلا الأنفة والكبرياء ، فقد استنكف من الانحناء أمام جوهر لدى مروره ببرقة في طريقه الى مصر . وكان الخليفة ، إكراماً لقائده العظيم ، قد أمر الولاة والقوّاد وحتى أمراء الأسرة الحاكمة بتقبيل ركاب القائد اجلالاً له وتبجيلاً . فحاول أفلح أن يستعفي من هذه السّجدة وعرض على جوهر تعويضاً قدره خمسون ألف دينار ، ولكنّ القائد أبي فاضطرّ الوالي مكرهاً الى الانحناء والتقبيل⁽²⁾ .

(1) ط . أ . الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة 1954 ص . 172 . وانظر : حياة جوذر . . . ص . 141 تنبيه 305 والسمي هو أفلح بن هارون الملوسي (انظر : عيون الأخبار للداعي إدريس ، جزء 5/193) .

(2) الفلقشندي : صبح الأعشى ، ج . 3/345 حيث يبلغ التعويض المقترح مائة ألف دينار . وانظر كذلك ابن أبي الضياف : اتحاف ج 1 ص 127 . والتنبيه 305 من حياة جوذر .

والديوان لا يَسْمُ باسم أفلح الا القصيدة الخامسة والخمسين ، ولكننا
بيننا فيما مضى من الصفحات أنَّ هناك قصيدة أخرى - الخامسة - وُسِّمت باسم
الشيبياني ولكنها في نظرنا قيلت في أفلح : ذلك أنَّ القصيدتين تشتركان في
الاشادة بانتصارات أفلح في الصعيد المصري بين أسوان والواحات : [كامل]
48/55 وسمَّت الى الواحات خيلك ضُمراً حتى انتهت قُدماً إلى أسوان

هذا ما يقوله الشاعر متوجَّهاً صراحة إلى أفلح . وقد طرق هذا المعنى
نفسه في القصيدة الخامسة المنسوبة خطأ إلى الشيبياني : [بسيط]
10/5 أَلست صاحبَ أعمالِ الصعيد بها قُدماً ، وقائدَ أهلِ الخَيمِ والطُنبِ ؟

هذا وإنَّ قصائده في الشيبياني لا تشير الى هذه الحروب في مصر . ثمَّ
إنَّ المصادر الشيعة تذكر تحركات الأسطول والجيش الفاطمي انطلاقاً من
برقة⁽¹⁾ . فلا مجال إذن للشكِّ في أنَّ القصيدتين قد نظمتا في أفلح الناشب .
وربَّما كانت صلة الشاعر به قديمة متينة لم تقتصر على ملاقاته أثناء توقُّفه ببرقة
في ركب المعز .

يلحَّ ابن هانئ على العمليَّات الحربيَّة التي قادها أفلح بالصعيد
وبالبحيرة - ويعني بالبحيرة ما يسمَّى اليوم بالـ «دلتا»⁽²⁾ - وكانت تقطن هذه
المنطقة الساحليَّة منذ العهد الأموي قبيلة بني قرَّة ، فيجد فرصة للتلاعب بلفظ
القرَّ ومقابلته بالنار الجهنميَّة التي أنزلها بهم ممدوحه : [كامل]

44/55 ما قرَّ أعين آل قرَّة مذ سُقوا بك ما سُقوه من الحميم الأنبي
ويؤكِّد أن أفلح أجلاهم عن مواطنهم بالدلتا والبوادي :

46/55 أخلَّى البحيرة منهمم والبيد ما خسف الصعيد بشدَّة الرجفان

(1) سيرة الأستاذ جوذر ص 180 ، تنبيه 101 من النصِّ العربي . وانظر : عيون الأخبار ،
101 - 100/6 .

(2) أو : بحيرة الإسكندرية (ياقوت) أو : خلجان النيل (ابن حوقل) .

ولكنه قبل هذا ، أبدى رأياً غريباً ، مفاده أن فضل الفتح يرجع إلى

أفلق :

39/55 إِنَّا وَجَدْنَا فَتْحَ مِصْرٍ آخِراً لَكَ ذِكْرُهُ فِي سَالِفِ الْأَزْمَانِ

ونحن إذ نستغرب هذا القول ، نتساءل عن هذا التعريض الواضح ، ولا نخاله الا تعريضاً بجوهر صاحب الفتح وبطله : فكيف قلب الشاعر ظهر المجنّ فصار ينتقص قائداً كان بالأمس يشيد بانتصاراته؟ وهل كان مدح أفلق يحوجه حقاً إلى مثل هذا التراجع ؟ على أن عبارة « سالف الأزمان » قد تعني أن أفلق شارك في تحرك القائم وليّ العهد نحو مصر ، ومهد بذلك لفتح جوهر على أن اسمه لم يرد عند المؤرخين في حملتي 301 و 306 .

لكنّ الشاعر يعدل بين الرجلين في المدحة الأولى ، أي القصيدة الخامسة ، فيرفع شأن أفلق دون أن يحطّ من قدر جوهر ، فيعتبره صنواً للقائد المظفر ، شريكاً له في مبرة الفتح ، بل ساعداً أيمن له وعضداً مؤازراً في القيادة وتدبير الحرب : [بسيط]

33/5 ان لَا تَقْدُ عَظَمَ ذَا الْجَيْشِ الْلُهَامِ فَقَدْ شَارَكَتْ قَائِدَهُ فِي الدَّرِّ وَالْحَلَبِ

34 فَالْنَّاسَ غَيْرَكَ أَتْبَاعَ لَهُ خَوْلَ وَأَنْتَ ثَانِيهِ فِي الْعَلِيَا مِنَ الرَّتَبِ

35 أَيْدَتُهُ عَضْدًا فِيمَا يَحَاوِلُهُ وَكُنْتُمَا وَاحِدًا فِي الرَّأْيِ وَالْأَدَبِ

وحتى إزاء هذا الاعتدال ، نتساءل : ما الداعي الى تسلية والي برقة بهذه العبارات المشجعة ؟ أكان يشتكي سوء حظّه ويرى أنه مهضوم الجانب ؟ فان صحّ هذا الاعتبار ، اتّضح لدينا سبب آمتعاضه من جوهر واستنكافه من تقبيل ركابه رغم أمر الخليفة ، وقد قلنا إنّ الأنفة وحدها والكبرياء لا تفسّران محاولته للتخلّص من هذه السجدة المشينة .

وتزداد حيرتنا عندما نراه يعود في القصيدة الثانية إلى تعداد فضائل أفلق ، ولكن مع ترك الاعتدال والمحايدة ، بل يتحرّج لأفلق وينكر فضل غيره - وهذا الغير لا يكون الا جوهرأ ، وان كان لا يسمّيه - ويعلن أن والي برقة

هو الذي مهّد للفتح بفضل قربه من مصر واستعداده الدائم لمجابهة كل التحركات فيها ، وخوضه معارك أخضعت جيشها وأهلها لارادته : [كامل]

40/55 فبعزمك أنهدت قُوى أركانها وبقربك أمتدت الى الإذعان

41 وطأت بالغارات مركب عزّها والجيش حتى ذلّ للركبان

42 فإليك يُنسب حيث كنت ، وإنما فخر الصليّ لقادح النيران

فان كان أفلح هو الذي يقدح النار ويضرمها ، وجوهر هو الذي ينتفع بدفئها ، فكأنّ الشاعر يتهم القائد باغتصاب حقّ أفلح ، بل ينتقد قرار المعزّ بإسناد الحملة اليه ، مع أن والي برقة كان أولى بها ، لأنّه أقرب إلى ميدانها .

فكيف نفسر تصاعد اللهجة بين المدحيتين ؟ وكيف أصبح الشاعر في الثانية يتبنّى ادّعاءات ممدوحه بعد أن كان في الأولى يكتفي بالتسوية بينه وبين جوهر ؟ لعلّه نظم القصيدة رقم 55 أثناء مُقام ثان برقة ، بعد توديعه للمعزّ على أبواب مصر ؟ فيكون قد استمع من جديد إلى تدمّرات مضيّفه في شأن أحقيّته بقيادة الحملة ، فرأى أن يخفّف من خيبته فأظهر الدخول في حزبه ، خصوصاً وأنه أصبح في مأمن من غضب المعزّ أو من انتقام جوهر ، وكلاهما منصرف عن شؤون إفريقيّة والمغرب الى فاتحة عهد جديد بالقاهرة ؟ وهذا الافتراض لا يرضينا لأنّه ينسب إلى الشاعر تقلّباً في المودّة وخيانة للعشرة لم نعهدهما فيه ، بدليل ما رأيناه من وفائه لجعفر بن حمدون رغم خذلانه للمعزّ . ولكننا نضطرّ إلى مثل هذا التأويل حتى نتجاوز مرحلة الملاحظة والوصف إلى التفسير والتعليل . ولتفسيرٍ أعرجُ أحبُّ إلينا من سكوتِ المحترزِ المحتار .

خلال هذه الإقامة الثانية ، يكتشف الشاعر خصالاً في الأمير لم ينبّها إليها في المدحة السّابقة : الورع والتقوى مثلاً ، ثمّ صدق تشييعه ، وسعة علمه بأحكام الدين ، مُتمثّلة في إقامة مجالس المناظرة وتنظيم حلقات الجدل ، ممّا قد يفسّر عندنا ما ينسب إليه في بعض المصادر من تقلّد قضاء برقة : [كامل]

13/55 قوم إذا ماج البرية والتقى خصمان في المعبود يختصمان
تركوا سيوف الهند في أغمادها وتقلدوا سيفاً من القرآن

وتطلعنا القصيدة الخامسة على أعمال عسكرية لأفلح في جبال الأوراس
والمغرب الأقصى ، ولكن المصادر التاريخية وكتب التراجم لم تذكر هذه
الأعمال فيما نقلته من أخبار أفلح القليلة : [بسيط]

11/5 تشوق المشرق الأقصى اليك ، وكم تركت في الغرب من مأثورة عجب
12 وكم تخلف في أوراس من سير سارت بذكرك في الأسماع والكتب

فالبيتان غريبان ، خصوصاً إذا قارناهما بالقصيدة اللاحقة التي سكتت
تماماً عن هذه البطولات المغربية ، ولكنهما في الظاهر غير محولين عن قصيدة
أخرى ولا مشوهين ، بل يبدوان في محلّهما المعقول من القصيدة ، وإذا
تذكرنا ما نفيناها أولاً من نسبة المدحة الى ممدوح آخر غير أفلح ، تبين أن هذه
الإشارة نموذج آخر من غوامض شعر ابن هانيء .

وفي ختام حديثنا عن أفلح ، يمكن أن نربط به ممدوحاً آخر ذكرته مخطوطة
تونس 1 وسمّته « محمد ابن قاضي برقة » بدون أن تذكر له وظيفة ولا صفة ،
والقطعة التي وسمت باسمه تتضمن عشرين بيتاً لا غناء فيها ، ولا وضوح ولا
تدقيق ، ممّا يحملنا على الشك في صحّة نسبتها إلى ابن هانيء ، أو على
الاعتقاد بأنها مشوهة مقطوعة عن أصلها⁽¹⁾ .

أبو الفرج محمد بن عمر الشيباني

من المظنون أن هذا الممدوح هو أحد القوّاد الفاطميين المكلفين بحفظ
الأمن أو باستخلاص الجباية على الحدود الغربية من المغرب الأوسط . ولعلّ

(1) المقطوعة 68 من إضافات تونس 1 . انظر الحواريات 1969 ص 105 .

المنطقة التي كانت تحت رعايته هي منطقة تاهرت : ذلك أنَّ أحياءً من شيبان - وهي بطن من قبيلة بكر بن وائل - كانت قد استوطنت مقاطعة تاهرت منذ الفتح الإسلامي . ثم أنَّ الشاعر يشيد بمقاومة هذا الممدوح للاباضية ، ومعلوم أنَّ تاهرت كانت عاصمة للدولة الرستمية الخارجية حتى انتصاب الفاطميين بالمغرب .

خصَّص ابن هانيء ست مدائح لهذا الشخص دون أن يذكره مرّة واحدة باسمه . ولكنه في كل قصيدة يشيد بأصله البكري ، فيذكر بأمجاد بكر القديمة ، مثل قتلهم لكليب أبان حرب البسوس حفظاً لحرمة الجوار :
[كامل]

69/4 لولا الوفاء بعهدهم لم يفتكوا بكليب تغلب بين أيدي تغلبا
حتى وإن كان الجار المظلوم ناقة مسنة : [بسيط]

35/66 الضارين كلياً فوق مفرقه بالمشرفي، على نابٍ من الإبل
ويتهج الشاعر أحياناً بحسن الوفاق واتحاد الشمل بين ربيعة - وهي الفصيلة التي ينتسب إليها البكريون والشيبانيون - والحيّ اليمني - أي الأزد - الذي ينتسب إليه هو : [بسيط]

1/33 أبلغ ربيعة عن ذي الحيّ من يمن أنا نؤلف شملاً ليس يفترق
ولا ندري أيّ شمل يعنيه . فالعصية بين ربيعة والقبائل اليمنية لم تقلّ خطورة في القديم عن العصية بين ربيعة ومضر .

ونجده في قصائد أخرى يشيد بتشيّع الممدوح ووفائه للأئمة [بسيط]

39/60 لله من علوي الرأي منتسب إلى العلي، وائلي الأصل مُري
وهنا تقف معرفتنا بهذا الممدوح ، الذي سكنت عنه جميع مصادرنا ، بالرغم من الأعمال البطولية التي قام بها - حسب ما يذكره الشاعر - في المغرب

الأقصى بالخصوص لإعلاء كلمة الفاطميين ، وبسط نفوذهم على الأصقاع
النائية وتوفير مداخل الجباية حتى صارت قناطير من الذهب مقنطرة بعد أن
كانت « أواقِي » قليلة :

- 41/60 مَنْ أَصْلَحَ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بِلَا أَدَبٍ غَيْرِ التَّشِيعِ وَالِدِينِ الْحَنِيفِي
70 ... كُوفِئْتُ عَنْ ذَلِكَ الثَّغْرِ الْمَخُوفِ فَقَدْ تَرَكْتُهُ بِالْعَوَالِي جَدًّا مَكْفِي
75 ... وَفَرَّتْ أَمْوَالُهُ إِذْ ضَعُنَ فَاجْتَبَيْتُ مِنْهَا الْقَنَاطِيرُ مِنْ بَعْدِ الْأَوَاقِي

ومن الغريب أن هذه العمليات لم يذكرها له الشاعر إلا في قصيدة واحدة
من المدائح السَّتْ ، وهي القصيدة الستون ، وفيها وحدها أيضاً يشيد بمناهضة
الممدوح للخوارج - الشراة كما يقول - وتحزبه للفاطميين ، متخذاً من ذي
الفقار⁽¹⁾ ، سيف الرسول (صلعم) ، ثم عليّ ، ثم الأئمة ، رمزاً للتشيع لآل
البيت :

- 66/60 اللَّهُ مَا تَنْتَضِي مِنْ ذِي الْفَقَارِ وَمَا تَشَدُّ مِنْ عَضْدِ الرَّأْيِ الْإِمَامِي
67 |لَمْ يَجْهَلُوا مَا تُلَاقِي فِي التَّشِيعِ مِنْ تَحْرِيطِ شَارِيَةٍ أَوْ بَأْسِ شَارِي
68 وَمَا تُذَلِّلُ مِنْ أَهْلِ الْعِنَادِ لَهُمْ وَمَا تَدَارِي مِنْ الدِّينِ الْأَبَازِي

والواقع أنه يعني نفس الشخص بدون شك ، لأن المدائح السَّتْ تتفق
كلها في الاشادة بنسبه البكري .

وأغرب من هذا الاختصاص في القصيدة الستين ، ما نجده في
مستهلها - وأيضاً في استهلال القصيدة الرابعة - من نسيب مخلوط بالمعاني
الحريّة ، ممّا يجعل القارئ يقف محتاراً ويتساءل : أينسب الشاعر بحبيته
بأسلوب الحماسة على عادة شعراء الصنعة اللفظيّة الذين درجوا على تشبيه
اللحظ بالسهم وبريق الثغر بلمعان السيوف ، أم يصف الممدوح بأوصاف

(1) انظر فصل « ذو الفقار » في دائرة المعارف الإسلامية . وقد وصف القاضي النعمان هذا السيف
عند المعزّ في كتاب المجالس والمسائرات 114-115 .

مشتركة بين الرجولة والأنوثة ؟ وإلا ، فكيف نفهم تشبيهه له بالغزال الذي لم
يعهد لبس السلاح ؟ [كامل]

28/4 أو لَمْ يكن ذا الخشفْ يألف وجرة فالיום يألف ذا القنا المتأشبا ؟

ودعوته الى وضع السلاح فإنه لا يليق بالغزلان : [بسيط]

2/60 ضع السلاح ! فهل حَدَّثت عن رشٍ في مشرفي صقيل أو رُدِيني ؟

هذا الامتزاج المتواصل بين معاني الحرب ومعاني الغزل لا يسمح قط
بإدراك مقاصد الشاعر ، ويحملنا على افتراض وقوع التشويش أو الانتحال في
مقدمة المدحتين ، خصوصاً وأن المدائح الأخرى استهلّت بنسيب تقليدي لا
لبس فيه .

ولا مانع أيضاً من أن نعزو هذا المزج الى شيء من الشذوذ الجنسي إما
عند الممدوح ، وإما عند الشاعر . فإن كان الممدوح هو المبتلى بهذا
الانحراف ، فلعلّ الشاعر يصف في هذين الاستهلالين ، الغلام الذي يهواه
الشيواني ، ويتخذ لذلك طوقاً ملتوية لا يتبينها إلا العارف بحقيقة الأمر . وإن
كان الشذوذ من جانب المادح ، فقد يتأكد لدينا آنذاك ما سبق أن افترضناه في
شأن ميوله الدفينة ، اثر حديثنا عن المقطوعات الإضافية التي اكتشفناها في
مخطوطة تونس 1 ، كما يتدعم الرأي القائل بأن مقتله وقع بسبب مشربة متبوعة
بعربدة على صبي .

أما الصفات التي يمدح بها الشيواني ، فهي الى جانب التشيع الصادق
والحزم في الدفاع عن سياسة الأئمة : الكرم وقوة الشاعرية ، والفصاحة
الأصيلة . فالكرم يتمثل في إهداء سيف الى الشاعر : [كامل]

58/4 إن يكرم سيف الذي قلّدتني من عزّها فلقد تخير منكبا

فيؤكد الشاعر أنه أهل لمثل هذه الهدية : [كامل]

33/20 لي منهم سيفٌ إذا جرَّدته يوماً ، ضربتُ به رقابَ الأعصر

أما قدرته على نظم الشعر ، فمتأتية عن فصاحة بدوية أصيلة تلقن أصولها في الصحاري تحت الخيام ، فسلم من رطانة المرضعات الأعجميات : [بسيط]

20/60 ثقفتُ منه أديباً شاعراً لسيناً شتى الأعاريض محذور الأحاجي

28 ... قريب عهد بأعراب الجزيرة لم ينطق بداراً ولم يُنسب إلى عي

36 ... واستأثرت عريّات الخيام به ولم يوكل إلى أيدي السراي

ولا ندري هل كان لهذا الممدوح حاضرة يقيم بها ، أو كان الشاعر يلاقيه بعاصمة الخلافة ، إذ يبدو من خلال بعض الأبيات أن ابن هانيء كان يرسل إليه المدحة مكتوبة ، ولا ينشدها بين يديه حسب المؤلف : [كامل]

60/4 لو كنت حيث ترى لساني ناطقاً لرأيت شقشقة وقرما مُصعبا

هذا كل ما نعرفه عن أبي الفرج الشيباني : قائد فاطمي من أصل بكري ، حارب الخوارج بالمغرب الأوسط ، وأهدى سيفاً إلى الشاعر . فهذه عناصر ضئيلة الغناء لا تكفي لإخراج هذه الشخصية من غموضها .

أبو عبد الله حسين بن المهذب الكاتب

مدح الشاعر هذا الشخص بقطعة وجيزة ، وقد ذكر جامع الديوان ظروف نظمها فقال ان الشاعر اراد هذا الكاتب في ديوانه فألفاه منشغلاً بتوقيع دفاتره ، فانسحب معتذراً . فأرسل إليه أبو عبد الله رقعة منظومة يأسف فيها لخروجه ، فرد عليها ابن هانيء بهذه الأبيات على نفس الوزن والروي ، فهي إذن تدرج في نوع المطارحات الشعرية والمساجلات الأدبية .

يبدأ الشاعر بتعظيم فصاحة الممدوح وقدرته على الارتجال ، ويكبر فيه

سداد الرأي والمهارة المهنية : [كامل]

1/48 يا ذا البديهة في المقال ، أما كَفَتْ بَدَهَاتُ هذا النقض والإبرام ؟

2 حكم يجلي غيب كل ملّمة كالشمس تكشف جنح كل ظلام

3 ولذا تراك عيوننا وقلوبنا مثل الشهاب على سواء الهام

ثمّ يشيد بتفوّقه في نظم الشعر ، ويدعوه متفكّها الى الرفق بالشعراء
المحترفين الذين قد لا يبلغون شأوه :

6/48 ... فاترك لأهل الشعر معنى واحداً ممّا تثير هواجس الأوهام

9 ... تمشي البلاغة خلفكم وأمامكم ويطيب ما تطؤون بالأقدام

11 ... من أين أنكر فضلكم ولو أنني كأبي عبادة أو أبي تمام ؟

ولعلّ التشبّه بالبحثري وأبي تمام يدلّنا على اختيارات ابن هانيء
الشعرية ، إذا ما قارناه بتعلّقه بالبداءة كما رأيناه في مدائحه للشيباني . على
أنّا سنعود الى موضوع التأثيرات الأدبية في تكوينه عندما ندرس القصيدة
الحادية والعشرين التي تعرّض فيها الى ديوان المتنبي .

أما شخصية الممدوح ، فهي غير مجهولة تماماً مثل شخصية الشيباني :
فالديوان وابن الأبار وسيرة الأستاذ جوذر والمقرئزي⁽¹⁾ تتفق على أنّه
صاحب خزينة الخليفة أو صاحب مخازنه . ولئن اتّفقت هذه المصادر على
وظيفته ، فهي لم تتفق على تحديد اسمه وكنيته ، فيدعوه المقرئزي تارة « أبو
جعفر حسين » وتارة « محمد بن حسين » . ويكنيه ابن الأبار أبا جعفر ،
والديوان أبا عبد الله حسين . ورغم هذا التضارب ، نظنّ أنه شخص واحد ،
دون أن نستطيع البتّ في حقيقة اسمه . فالكنى والأسماء العربية تخضع عادة

(1) ما . كانار : حياة ... ص . 174 .

ابن الأبار : الحلة ... ج 1 ص . 296 .

المقرئزي : اتعاض ... ص . 138 ، 188 و 196 .

لنوع من الارتباط المستمد من الأمثلة الدينية أو التاريخية ، كمثال الرسول (صلعم) الذي يكتى أبا القاسم ، فصار المحمّدون يكتّون بأبي القاسم ، مثل شاعرنا أبي القاسم محمد بن هانيء . وأحياناً يكتى « محمد » بـ « أبي عبد الله » اقتداءً بوالد الرسول ، وكذلك فعل العلويون بأسماء أئمّتهم : علي والحسن والحسين ، فقابلوا « علي » بـ « أبي الحسن » (أو أبي الحسين) وقرنوا « الحسن » « بأبي علي » . وربما اتّخذت أسماء الأنبياء الأولين والصحابة الراشدين لمثل هذه المزاوجة ، ولا سيّما عند الأسر الحاكمة : فالموحدون اختاروا « يوسف ويعقوب » ، والحفصيون « يحيى وزكريا » و« عمر وحفص » ، وغيرهم اختار « ابراهيم واسحاق » .

لكنّ هذه سنّة قد تتبّع وقد تُترك ، فلا حتميّة فيها ، ولا ضرورة إذن أن يكتى هذا الممدوح « أبا عليّ » لأن اسمه الحسين ، ولا أن يسمّى محمّداً لأن كنيته أبو عبد الله .

أحمد بن زائدة الكاتب

كاتب آخر مدحه ابن هانيء ، ولكنه لم يذكر في الديوان المطبوع ، وإنما نجد اسمه في مخطوط تونس¹ مقترناً بمدحة نظمها فيه الشاعر، وبيضة أبيات ضمن مراسلة شعريّة وقعت بينهما⁽¹⁾ ، ولا نعرف عنه شيئاً سوى أنّه مثل كل القحطانيّين كريم اليد فصيح اللسان : [منسرح]

- | | |
|--------------------------------------|-----------------------------|
| 19/65 ... الضاربُ الأسدَ في بآدِلهَا | والطاعن الخيل في فوائِلهَا |
| 20 والرائدُ الرادةَ العصاةَ إذا | زالت عرى الهام عن معاقِلهَا |
| 31 ... ينفجر الموت من صوارمِهَا | والعسجد النضر من أناملِهَا |
| 35 ... كلتا يمينيّك يا ابن ذي يمن | تكرّماً عمّ من فواضلِهَا |

(1) انظر الحواريّات ، 1969 ، ص . 97 و 1972 ، ص 90 .

36 أقربُ رحمى الى البرية من أنسابها في ذرى قبائلها

الوهراني كاتب جعفر بن حمدون

لم يكن هذا الشخص من ممدوحى ابن هانىء ، بل هو مهجوه الوحيد ، وإنما ذكرناه مع الممدوحين لأن أهاجي الشاعر لا تعدو هذه القطعة الوحيدة ، فلم نر وجهاً لتخصيص باب منفرد للهجاء . والسبب الثاني هو أن غرضنا كما قلنا في مستهل هذا الفصل ، أن نجمع الارشادات والمعلومات الكفيلة ببيان مراحل حياة الشاعر ، وذلك من خلال علاقته واتصالاته بالأشخاص المذكورين في الديوان وفي كتب التاريخ والتراجم . فوضع الوهراني مع جوهر أو المعز ناتج إذن عن شيء من التجاوز الاضطراري .

وللسبب نفسه لا نهتم هنا بالقصائد التي لا صلة لها قط بأشخاص معينين ، كالقطعة الغزلية والقطعة الخمرية (عدد 34 و49) والقطعة التهكمية في وصف الأكل (عدد 56) ونرجى الحديث عنها الى دراستنا لأغراض ابن هانىء وفنه الشعري .

في هذه القصيدة ، يتهم ابن هانىء هذا الكاتب بالسعي لإبعاد جعفر عن الولاء الفاطمي وكسبه للمروانيين بقرطبة ، ويمزج بين سعيه الخبيث في بلاط بني حمدون والفتن التي يثيرها الأمويون في المغرب بواسطة أحلافهم من زناتة : [خفيف]

30/29 إن في مغرب الخلافة داء ليس يبريه غير أم الحثوف

31 إن فيه لشعبة من بني مر وإن تنبي عن كل أمر مخوف

32 إن في صدر أحمد لبني أح مد قلباً يهمني بسم مدوف

33 متخل من اثنتين برىء : من إمام عدل ودين حنيف

أحمد هو الوهراني المهجوه ، وكنيته هي أبو جعفر ، وفي أحد الأبيات ،

يغفل الشاعر الفاء من جعفر، فيكنّيه استهزاء «أبا الجعر» أي أبا التغوط، مكلفاً نفسه عناء وجهداً وتلاعباً بالأسماء والكنى، في سبيل هذه التورية الكنيّية. ويزداد الطين بلة إذا انتبهنا إلى أن مولاه والي الزاب يكنّى أبا أحمد ويسمى جعفرأ. أمّا بنو أحمد، فهم الفاطميون آل بيت الرسول أحمد، أي محمّد (صلعم). ونسأله بعد هذا عن مدى تناسب هذه الترهات اللفظية مع خطورة المآخذ التي يؤاخذ بها المهجّو؟

ويبدو أنّ القصيدة متأخرة عن زمن إقامة الشاعر بالمسيلة، ذلك أن الخطاب فيها موجّه أيضاً إلى المعز، إذ يدعوه الشاعر إلى التثبّت والتحري:

34/29 ليس مستكثراً لمثلك أن يف ررق بين الشريف والمشروف
35 يا معزّ الهدى، كفاني أني لك طوود على أعاديك موف

فهل يدعوه إلى الرفق بجعفر، والحذر من السعايات ضدّه؟ أم يدعوه إلى تفضيل أمير المسيلة على بلقين بن زيري في صورة الاستخلاف على أفريقية والمغرب بعد الانتقال إلى مصر؟ لا يمكن لنا أن نوضح قصد الشاعر، وغاية ما نفترضه، هو أن القصيدة قد تكون نظمت في الفترة الإفريقية بالقيروان، وقبل تراجع بني حمدون عن الولاء الفاطمي.

وللوهرواني عيوب أخرى يحصيها له الشاعر في هذه الأبيات: منها دمامة الخلقة والعِيّ والفهاهة، مع خبث النوايا وقبح الطويّة:

14/29 إنّ لفظاً تلوكه لشبيبة بك في منظر الجفاء الجليف
15 كاذبُ الزعم مستحيل المعاني فاسد النظم فاسد التأليف
16 أنت لا تغتدي لتدبير ملك إنما تغتدي لرغم الأنوف

✱

وهكذا نرى أن بحثنا في علاقة الشاعر بهؤلاء الأشخاص أفضى بنا إلى نتائج متفاوتة: فالمعلومات الأكثر دقة - إذا أمكن أن نستعمل عبارة الدقة في خصوص شعر ابن هانيء - تتعلّق بممدوحه الرئيسيّين: المعزّ وجعفر بن

حمدون ، ولا غرابة في ذلك ، فالخليفة ووالي الزاب شخصان تاريخيان لا تخلو المصادر من أخبارهما . وكذلك أفضى بنا التأويل الكثير لمدحتي أفلح الناشب الى اكتشاف خصومة دفينّة بين هذا الأمير وقائد مظفر لا نخاله إلّا جوهرأ فاتح مصر . أما مدائح الشيباني ، فلم توصلنا ، على كثرتها ، الى معلومات صحيحة ملموسة في شأن هذا القائد المجهول ، فخاب بذلك أملنا في أن نفيد المؤرّخين بترجمة صالحة لحياته ولخدماته في سبيل الدولة الشيعيّة بالمغرب .

الفصل الرابع

ترجمة ابن هانيء

ولد أبو القاسم محمد بن هانيء بالأندلس ولذلك علقت به نسبة الأندلسي ، لكن الفترة الأندلسية من حياته تكاد تكون مجهولة تماماً . فالمعلومات النزرية التي تفيدنا بها المصادر تتضارب غالباً ، ولنضرب مثلاً على اختلافها مسقط رأسه :

فابن الأبار في التكملة⁽¹⁾ ينسبه الى إلبيرة ، دون أن يقول إنه ولد بها . ويقول ابن خلكان⁽²⁾ إنه ولد باشبيلية : أما لسان الدين بن الخطيب ، فلئن جعل مولده بقرية من أحواز اشبيلية تدعى « سكون » فإنه يدعوه « الإلبيري » ، لا الإشبيلي كأنه يعني أنه عاش حياته الأولى بإلبيرة وبها تكون : ولعل صاحب الاحاطة⁽³⁾ أراد أن يقربه الى غرناطة مدينته المحببة . وكذلك ابن سعيد المغربي⁽⁴⁾ يسميه الالبيري ويردف هذه النسبة بـ « الغرناطي » ، موضحاً أن البيرة قرية محاذية لغرناطة ، ولكن غرناطة غلبتها حتى صارت هي عاصمة الكورة التي تسمى « كورة إلبيرة » .

(1) ترجمة رقم 350 .

(2) الوفيات ، ترجمة رقم 640 .

(3) ج 2 ، ص 212 .

(4) رايات المبرزين ، ترجمة رقم 77 .

واسم إلبيرة تولّد عن اسم روماني عتيق « البيباريس » ، ولكنّ القرية اندرست ابتداء من القرن الثاني / الثامن فعوّضتها غراناطا / غرناطة⁽¹⁾ .

أما مترجموه المعاصرون ، فيجعلون ولادته باشبيلية في الأغلب . ولا مانع عندنا من أن نعتبر مع لسان الدين أنّه ولد بأشبيلية ثم انتقل مع أسرته الى إلبيرة فنشأ بها .

أسرته : هانيء أبوه

لا نعرف شيئاً عن أسرة الشاعر ، سوى بعض المعلومات الغامضة عن أبيه هانيء . فيقول ابن الأبار مثلاً إنّّه ولد بالمهدية ثم هاجر الى الأندلس . فهل كانت هجرته لرزق يصيبه ، أم لخدمة الدعوة الفاطمية كما يقول بعض الدارسين المعاصرين⁽²⁾ ؟

يمكن أولاً أن نحترز في شأن مولده بالمهدية بالذات : فهذه المدينة قد أسّسها المهدي عبيد الله بين سنة 912/300 و 915/303 ، ولكنها لم تعمر بالسكان إلا عندما صارت العاصمة الرسمية للدولة عوضاً عن رقادة ، وذلك في سنة 921/308 . فإن كان هانيء ولد بالمهدية ، فلا يكون تاريخ ميلاده إلا سنة 300 على الأبعد أو 308 على الأقرب . وبما أنّ ابنه محمّداً قد ولد سنة 932/320 كما سنبيّن - ولا عبرة هنا بمن أّخر ميلاده الى سنة 937/326 - فإن سنّ الوالد تكون عند ميلاد الطفل بين اثني عشر وعشرين عاماً ، وهذا مستبعد كثيراً . فلذلك نقول : لعلّ هانثاً هذا ولد بإفريقية ، في أحواز ما سيصبح عاصمة العبيديين ، ولكنه ولد على كل حال قبل سنة 912/300 .

أمّا نسبته الى الدعوة الشيعية وتعليل هجرته الى الأندلس باعتزامه العمل على كسب الأنصار للأئمة ، فليس في المصادر القديمة ما يدعّمهما ، وليس

(1) انظر فصل البيرة بدائرة المعارف الإسلامية الطبعة الجديدة .

(2) الدشراوي : فصل « ابن هانيء » في دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة الجديدة .

فيها كذلك ما ينفيهما قطعاً . ولا مانع من أن نعدّه واحداً من الدعاة الكثيرين الذين تكونوا بدار الدعوة في القيروان ، ثم عبروا البحر الى أرض الأمويين ليزرعوا بذور المذهب الشيعي بها ويمهدوا مذهبياً للحملة العسكرية التي لم ينقطع الأئمة الفاطميون عن التفكير فيها . ولعلّ في غموض ملامح هانيء هذا ، ما يشجّع على اعتباره داعية سرّياً أو جاسوساً : أليس من صفات الدعاة الضرورية أن يتحركوا ويعملوا ويستخبروا ثم يُخبروا في كنف التستر والكتمان ؟ وسنعود الى هذا الموضوع أثناء حديثنا عن ولاء ابن هانيء للشيعه .

وتقول المصادر إنّ الوالد ، بمجرد وصوله الى الأندلس استقرّ بإشبيلية ، ولعلّه اختار هذه المدينة الكبيرة لما عرفت به من استعداد لتقبّل الدعوات المناهضة للحكم الأمويّ ولسنّيته المتشدّدة . ونزول هانيء بأشبيلية أولاً ربما حمل المترجمين على أن يجعلوا ميلاد الابن بها ، افتراضاً منهم أن إقامة الأسرة بها كانت نهائية أو دامت على الأقلّ زمناً كافياً لإنجاب الأولاد . والواقع أنّ هانثاً ، حسب ما نفهم من قول ابن الأبار على اقتضائه ، قد اضطرب بين مدن كثيرة قبل أن يحطّ الرحا بالبيرة : « . . . ثم استوطن أبوه البيرة ، وخرج هو منها . . . » ولعلّ هذا الكلام يمنع أن تكون البيرة هي مسقط رأس الشاعر ، إذ لا يمكن أن يكون تركها عند حلول أبيه بها لأوّل مرّة .

ومهما يكن من أمر ، فإنّ أخبار هانيء تنقطع بالبيرة ، فلا يعود له بعدها ذكر .

الأصل المهلبيّ

وتنسب المصادر هانثاً الى أصل مهلبيّ ، فتقول إنه سليل أسرة القائد الأموي الكبير المهلب بن أبي صفرة (702/83) الذي اشتهر بقتاله للخوارج في الشام والعراق . ولا نستبعد مثل هذه النسبة لأنّ ولاية أفريقية كان حكمها

للعبّاسيين واليان من أحفاد المهلب : يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب [من سنة 772/155 إلى سنة 787/171] وأخوه روح بن حاتم [787/171 إلى 791/174]. ثم أنّ المهلبين ينتسبون الى أصل يمّنيّ، إذ هم من الأزد. وكذلك الشاعر، يُدعى ابن هانئ الإلبيري الأزد، وكثيراً ما يفتخر بنسبه الأزد اليمنيّ، فيقول مثلاً مفتخراً بشعره : [طويل]

يَمَانِيَّةٌ فِي نَجْرِهَا أَزْدِيَّةٌ أَفْصَلُهَا نَظْمًا وَأُحْكِمُهَا رَضْفًا 60/31

وإن كان يسكت عن نسبه المهلب، وهذا مفهوم، لأنّ هذه الأسرة خدمت الدولتين المنافستين للشيعة. ثمّ إن هذا الانتساب الى القائد الأمويّ لم ينفعه كثيراً بالأندلس، ولم يشفع له حين أطردوه من إشبيلية. ولكنّ أباه استثمر بدون شكّ هذا النسب بالأندلس فاستعمله ذريعة للوصول الى مآربه المذهبية : فالسلالة المهلبية ممثلة بها، خصوصاً في كورة البيرة التي استوطنها هانئ، وكثير من الفتن كان يحدثها المهلبيون⁽¹⁾.

تاريخ ميلاد الشاعر

تتضارب المصادر في شأن سنة ميلاد الشاعر أيضاً. ذلك أن المترجمين يهتمون عادة بالوفيات فلا يسجلون إلّا تواريخ الوفاة، فنضطرّ حينئذ الى عملية طرح لنعرف تاريخ الولادة، على شرط أن نكون على علم بسنّ الشخص عند وفاته.

في خصوص وفاة شاعرنا، تكاد المصادر تجمع على أنها وقعت سنة 973/362. وينفرد ابن الأبار بذكر سنة 972/361، قائلاً إنه نقل هذا التاريخ عن قراضة الذهب لابن رشيق. وينبغي أن نرفض هذا التاريخ لسببين على الأقل :

(1) ابن عذاري : البيان ... ج 2، ص. 137 (في ثورة أميرين مهلبين). وانظر كذلك دوزي : تاريخ مسلمي اسبانيا ج 2 ص 110.

1- لأن ابن خلّكان ، وقد اعتمد أيضاً على القراضة ، عثر فيها على تاريخ 973/362 .

2- لأن وفاة الشاعر تَقْتَرِنُ عند جميع المترجمين والمؤرخين ، بِسَفَرِ المَعَزِّ إلى القاهرة ، وهذا الانتقال عن أفريقية وقع في شهر صفر من سنة 362 / نوفمبر 972 .

ثمّ يمكن أن نضيف أن قراضة الذهب في صورتها التي وصلت إلينا ، لا تذكر تاريخاً لوفاته . فلعلّ ابن الأبار وابن خلّكان قد وهما أو أطلعا على نسخة من كتيب ابن رشيّق غير التي بين أيدينا .

وكذلك ينفرد الصفدي في الوافي بالوفيات ⁽¹⁾ بتاريخ 976/365 : وهذا وهم ، ولعله خلط بين وفاة المَعَزِّ ووفاة الشاعر ، كما خلط في اسم الشاعر إذ سمّاه محمد بن ابراهيم بن هانيء ، وهو شاعر مصري متأخّر ⁽²⁾ .

فلذلك نميل الى قبول التاريخ الذي ضبطه ابن خلّكان بلبلة 23 رجب 362/29 أبريل 973 ، فيكون الشاعر قد لقي حتفه منذ ألف عام تقريباً ⁽³⁾ .

هذا تاريخ الوفاة . أما سنّه عند مقتله ، فإنّ صاحب الوفيات يعيّنها بـ 36 عاماً أو 42 عاماً ، ولا يؤثّر إحداهما على الأخرى . فإذا قبلنا المقدار الأوّل ، تكون ولادة الشاعر سنة 937/326 . وإذا رجّحنا العدد الثاني ، فمولده يتقدّم الى سنة 932/320 . ولقد نبّهنا آنفاً الى أننا نرفض التاريخ الأوّل ، وأنّا نعتبر صاحبنا من مواليد سنة 932/320 . وهذه مستنداتنا :

1- تتفق المصادر على أنه ترك بلاده الأندلس وهجر الى العدوّة في سنّ السّابعة والعشرين .

(1) ترجمة رقم 240 .

(2) وكذلك يسمّيه مخطوط باريس بهذا الاسم . وانظر خريدة العماد الأصفهاني : شعراء مصر ج 1 ، ص 248 .

(3) هذه الرسالة قدّمت للمناقشة في ماي 1973 .

2- كما تتفق على أن أول من لقي بالمغرب من الممدوحين هو جوهر القائد فمدحه بالقصيدة الحاثية العاشرة .

3- وتجمع كتب التاريخ على أن حملة جوهر بالمغرب الأقصى بدأت سنة 958/347 .

فلقاء الشاعر مع جوهر وقع إذن سنة 347 . ولما كانت سنه آنذاك سبعة وعشرين عاما ، فواضح أنه ولد سنة 320 ، لا بعدها .

وربما أضفنا حجة أدبية إلى هذه الحجة التاريخية : وهي أن مدحة جوهر هذه تنم عن اقتدار عند الشاعر وصنعة لا يمكن أن يجتمعا في شاب في العشرين .

تكوّن الشاعر ونشأته

يقول معظم المترجمين إنه تلقى تكوينه بإشبيلية . وينفرد ابن الأبار فيذكر قرطبة . ولكنهم جميعاً لا يذكرون أحداً من الشيوخ الذين تتلمذ لهم ، فيتعذّر علينا حينئذ أن نحدّد التأثيرات التي طبعت تكوينه ، والعلوم التي تلقّاها ، علاوة على جهلنا بالمدة التي قضاها بحلقات الدرس .

وحتى إن تناولنا فهرسة أبي بكر بن الخير (575/1179) ، وهو كتاب نفيس لأنه دليل على أن الأندلس قد استقبلت ثقافياً عن الشرق ، بما يذكره من جموع العلماء والأدباء الأندلسيين الذين زحرت بهم عواصم البلاد ، فالنظر في قائماته لا يوصلنا الى نتائج صحيحة ثابتة ، بل يقف بنا عند الافتراض الواسع البعيد .

وفصل ابن الخطيب تكوينه بعض التفصيل ، فأشار الى تبخره في اللغة وبصره بالشعر ، وأضاف أنه برع أيضاً في « فكّ المعمى » . ونظن أنه بهذه العبارة يشير الى أحد أمرين :

إمّا علم التنجيم وما يتبعه من تنبؤ كاذب بالمستقبل . فإن كان هذا قصد الكاتب الغرناطي ، فلعلّه مزج خطأ بين التنجيم وعلم الفلك : ذلك أن ابن هانيء واسع الدراية بمنازل الكواكب وصورها ، تشهد بذلك تشبيهاته الكثيرة بالنجوم ، وبالأخصّ القصيدة الحادية والثلاثون التي استهلّها بوصف مطّول للكواكب فصار الرواة لفرط إعجابهم بها يسمّونها « القصيدة الفلكيّة » ويتناقلونها ويستنسخونها .

وإمّا حلّ الألغاز والأحاديث الشعريّة ، وفعلاً ، نجد نموذجين من هذه الرياضة الأدبيّة في مخطوط تونس 1 ، ضمن مطارحات بينه وبين أحمد بن زائدة الكاتب⁽¹⁾ .

ويشهد الديوان أيضاً بتكوين أدبيّ واسع عميق ، فالإشارات المدقّقة الى كبار شعراء الجاهليّة وصدر الإسلام وتأثره الواضح بجزالة القدماء ومتانتهم ، كل هذا يدلّ على أنّه تعلّم أصول مهنته بالممارسة الطويلة لشعر السابقين ولا سيّما شعراء البادية .

ولكنه يهتمّ أيضاً بـ « المحدثين » ، كما يظهر من القصيدة رقم 21 التي تناول بها ديوان أبي الطيب المتنبي ، فصّرّح بأنّه مسك شرحاً لهذا الديوان ، وأنّه قضى الليالي الطوال في درسه وتصويب أخطائه : [بسيط]

13/21 أَصَمُّ أَعْمَى وَلَكِنِّي سَهَرْتُ لَهُ حَتَّى رَدَدْتُ إِلَيْهِ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ
بل أطال البحث والتصويب فطال بذلك مسكه للكتاب حتى طالبه صاحبه بإرجاعه بدون تراخٍ .

هذا ، وربّما استنتجنا - في فصل لاحقٍ - من هذا الانتشار السريع لشعر المتنبي بالمغرب والأندلس بعض الملاحظات في شأن تأثير ابن هانيء بمعاصره الكبير .

(1) حوليات 1972 ، المقطوعة 4 والمقطوعة 13 .

ونستشف أيضاً من الديوان تشبّعاً بأصول الثقافة العربية الإسلامية من قرآن ، وسنن ، وأمثال وأخبار المغازي والآيام . فمن التأثر بالقرآن مثلاً هذا النقل للآية 51 من سورة يوسف : [كامل]

24/25 (يا مشرفي اسجد له من بينهم) يا باطل أزھق ، يا حقيقة حضيبي!

أو هذه الإشارة إلى قصّة العجل (سورة الاعراف آية 148): [كامل]

69/53 لكنكم كنتم كاهل العجل لم يحفظ لموسى فيهم هارون

أما المعاني الشيعية والشعارات الاسماعيلية التي يطفح بها شعره وتكيّف بها نظراته الى الحوادث التاريخية التي تبعت وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتفسّر ميله الى التأويل الباطني للأشياء ، فلا ندري هل تلقّنها بالأندلس أثناء تكوّنه الأوّل في أسرته أو في حلقات سرية ، أم بأفريقية حين دخل في خدمة المعزّ؟ على أننا سنحاول الإدلاء برأي عند دراسة أغراضه المذهبية في الفصل الثامن من هذا الكتاب .

أسباب تركه الأندلس

ترك الشاعر اشبيلية وانتقل الى العدوّة ، في هجرة شبيهة بهروب الطريد ولجوء الخائف . وهنا أيضاً لا يتفق مترجموه : فمنهم من يعزو هذه الهجرة الى تألب أهل اشبيلية عليه بسبب مجونه وارتكابه المحرّمات . ومنهم من يجعلها نتيجة لغضب العلماء ورجال الدين عليه لتطاوله على الدين في الفعل والقول ، فيقول الفتح بن خاقان انه سلك مسلك المعري ، مع أن أبا العلاء ولد بعد وفاة الشاعر بعام . ولكنّ صاحب المطمح لا يقصد تقريباً الا مشابهة في الأفكار المادية وفي العبث بالدين ورجاله . وذلك ما يعبر عنه ابن خلكان حين ينسبه الى أفكار الفلاسفة . وكذلك يفعل الذهبي في الترجمة الوجيزة

التي خصّصها له⁽¹⁾ . ولا يذكر الذهبي - ولا غيره - أنه أطرّد بسبب تحزّبه للشيعة ، خلافاً لما فهمه زاهد علي من كلامه⁽²⁾ . ولكن ، ليس من المستبعد عند الأندلسيين في تشدّدهم السني وسيطرة الفقهاء على الحياة الفكرية وخوفهم الدائم من اقتحام « المشاركة » - هكذا كانوا يسمّون الفاطميين توكيداً على أنّ مذهبهم دخيل أجنبي عن المغرب - لأرضهم ، ليس مستبعداً أن يتألّبوا على من يضيق ذرعاً بتزمتهم وبالكبت المذهبي السائد ، فيطرق في شعره بعض الأغراض الفلسفية أو يتهاون في سلوكه اليومي بالفرائض الدينية أو يتحرّر من بعض أحكامهم الأخلاقية . وسرى أنهم آستجازوا قتل من شهد عليه بترك الصلوات أو بشتّم عائشة . فلا بدع ، اذا كان هذا شأن ابن هانيء معهم ، أن ينسبوه الى التشيع أو الى الكفر ، وأن يستنكروا من « والي اشبيلية » أو « ملكها » عطفه عليه وحمايته له فيضطرّ الى التخلّي عنه .

هذا الأمير الذي حظي الشاعر بصداقته لا نعرف اسمه ، فالمصادر تدعوه « صاحب » اشبيلية أو « ملكها » أو « واليها » دون أن تسمّيه . ولا شك أن لقب « ملك » وهمّ من المترجمين . فأخر « ملك » على اشبيلية ، مستقل عن خلافة قرطبة ، هو محمد بن ابراهيم بن الحجاج الذي قهره عبد الرحمان الناصر بعيد تولّيه الحكم ، فأرجع اشبيلية وكورتها الى الحظيرة الأموية . وكان ذلك في مستهلّ القرن الرابع / العاشر . فهذا الأمير لا يمكن الا أن يكون والياً على المدينة من قبل الخليفة الناصر . وقد طلبنا أسماء الولاة على المدينة ، فظفرنا بقائمة فيهم⁽³⁾ ، ولكنها توقفت عند سنة 317 ، ففيها عيّن الناصر أحمد ابن محمّد الزجالي ، ولكنه لم يدم فيها الا ثلاث سنوات ، اذ توفّي سنة 320 . فلا يمكن أن يكون الزجالي هذا ، المتوفّي يوم ولد شاعرنا ، هو صاحبه الذي لحقه بسببه الأذى .

(1) تاريخ الاسلام ، ورقة 301 .

(2) مقدّمة تبين المعاني ، ص 20 .

(3) لبني - بروفنسال وقارثيا قوميت : أخبار مجهولة المؤلف ... ص 83 .

على أن المصادر تظلم هذا الوالي المجهول اذ تظهره في مظهر الخاذل لصديقه مداراة للرأي العام . ونرى نحن أنه بالعكس أسدى اليه النصح حين اقترح عليه أن يحتجب مدة ريثما يُنسى خبره . فليس هذا كلام من يبغى القطيعة عن غضب ، بل كلام من يؤدّ بقاء الصلة بين الشاعر وبينه .

غير أن صاحبنا أثر الانسحاب التام . ولا ندري أكانت له وجهة معينة يوم قرّر مغادرة اشبيلية ، كأن يكون عازماً مبدئياً على عرض خدماته على الفاطميين ؟ أم كان يتأهب للاضطراب في البلاد بدون قصد ؟ وما دما لا نعرف شيئاً من أفكاره ومعتقداته في الفترة الأندلسية ، وذلك بسبب فقدان شعره هناك فقداناً تاماً ، فإنه يتعذّر علينا أن نزعّم مثلاً أنه كان يدين بالعقيدة الشيعية أصلاً، وأن طرد الأندلسيين له كان فرصة له سانحة للالتحاق بمركز الدعوة التي ينتمي اليها . ولو كان قصد المنصورية رأساً ، لجزمنا بتشيّعه القديم، لكنه لم يتصل بالمعزّ الا بعد خمس سنوات تقريباً قضاها عند بني حمدون . وحتى هؤلاء، لا نجزم بأن اتّصاله بهم كان بدافع مذهبيّ، بل لعلّه كان فقط بدافع المواطنة كما قال ابن خاقان وكما رأينا في الفصل السابق .

وبالمثل لا نتجاسر على الجزم بأنّه كان خلواً من كل عقيدة وأن انتقاله الى العدو كان فقط للارتزاق والبحث عن ممدوحين جدد ، كما هو شأن معظم الشعراء المرتزقين بشعرهم ، من النابغة والأعشى المتنقلّين بين المناذرة والغساسنة ، الى المتنبي بين حلب والفسطاط وشيراز ، الى ابن رشيق وابن شرف والحصري بين افريقية وصقلية والأندلس والمغرب .

وللسبب نفسه ، أي ضياع شعره الأندلسي ، يتعذّر علينا أن نبتّ في أمر آتّهامهم له بآتّباع آراء الفلاسفة في شعره ، وهذه الآراء إن وجدت في شعره الذي وصلنا، فهي خافتة لا تلفت الانتباه .

أما العريضة والفساد والمجون ، فهذه أمور ممكنة ، يدعّمها ما عثرنا عليه

في مخطوطة تونس 1 من مقطوعات تخرج عن مألوف الأخلاق والعادات⁽¹⁾ ، وكذلك ما تبقى في ديوانه المطبوع من مقطوعات غزليّة - مثلاً النسيب الغريب في قصيدتيّ الشيباني - وخمرية . كما تدّعمها الأقوال التي قيلت في ظروف قتله . فهذه قرائن متضافرة تجعلنا لا نستبعد صورة الشاعر المنحرف الذي ضاقت به البلاد ولفظه أهلها ، فاتّجه الى أفق مجهول ليستأنف حياة جديدة .

ابن هانيء بالمغرب وافريقية

أول ممدوح للشاعر بأرض المغرب هو جوهر ، ولا ندري متى لقيه بالضبط ولكنه لقيه بين سنة 347 ، التاريخ الأدنى لوصوله الى العدو ، وسنة 348 ، تاريخ فراغ جوهر من حملته المغربيّة الكبرى التي قادها حتّى الحدود الجنوبيّة بالتايفاللت ، وتوجّها بفتح فاس في 20 رمضان 24/348 نوفمبر 959⁽²⁾ .

ولا شكّ عندنا أن الشاعر نظم مدحته فيه بعد سقوط عاصمة الأدارسة : ذلك أنه يذكر الأسرى في قيودهم : ومن بينهم ، الى جانب « خليفة » سجلماسة ابن واسول ، ورؤساء مكناسة من بني موسى ، يذكر « جذامياً طويلاً نجاده » لا نخاله الا أحمد بن أبي بكر بن سهل أمير فاس ، وقد أسره جوهر وأطبق عليه في قفص مع ابن واسول وأرسلهما الى المعزّ بالمنصورية⁽³⁾ : [طويل] .

40/10 وكان الجُدَامِيُّ الطويلُ نِجَادُهُ بهيماً مدى أعصّارِهِ فتَوَضَّحَا
43 ... أقولُ له في مُوثِقِ الأسْرِ عَانِيَا تُجَاذِبُهُ الأغْلالُ والقَيْدُ مُقَمَّحَا

(1) انظر الفصل الأول ، ص 24 - 27 .

(2) الدشراوي : الخلافة ... ص 232 .

(3) الدشراوي : أسر ابن واسول ... ص 295 . وانظر : الناصري السلاوي : ك .

الاستقصاء ، 199/1 .

44 لئن حَمَلْتُ أَشْيَاعَ بَغِيكَ فَادِحًا يَغُولُ ، لَقَدْ حُمِلْتُ مَا كَانَ أَفْدَحًا

فإن كان أول اتصال له بجوهر ، أي أول عمل يعمل به وأول رزق يكتبه ، وقع في رمضان 348 ، لا قبل هذا التاريخ ، ففيم قضى وقته منذ نزوله ببرّ العدو ، أي منذ عام أو بعض عام ؟ أفي البحث عن الممدوحين وطرق أبواب الأمراء والوجهاء كما فعل المتنبي قبل وصوله الى سيف الدولة ؟ ولكنّ أبا الطيب خلّف لنا مدائحه في هؤلاء الأمراء الصغار ، أمّا ابن هانئ ، فلا توجد في ديوانه قصيدة سابقة لهذه التي مدح بها جوهرًا ، وذلك بإجماع النسخ وإجماع المترجمين . لا شكّ عندنا أنّه بقي طوال هذه المدة ينتظر الفرصة ، وقد سنحت له مع جوهر ، ولكنّ جوهرًا لم يكافئه بما يرى هو أنّه له أهل ، فأعطاه مائتي درهم فقط ، فتقول المصادر أنّه قال : أليس بهذا البلد أكرم من هذا ؟ فأشاروا عليه بالجعفرين . . .

والجعفران قد يكونان أميرَي المسيلة جعفر ويحيى ، سمّيا الجعفرين على عادة العرب في تخفيف الاسمين المتلازمين بثنية أحدهما ، فيختارونه لسبقه على الآخر ، أو لسهولة النطق به أو لشهرته⁽¹⁾ : فالجعفران أسهل نطقاً من اليحييين ، وجعفر على كل حال أسبق سنّاً ورتبة ، وكذلك الحسنان للحسن والحسين ابني علي وفاطمة ، وقد انتشر هذا المثنى بتأثير الشيعة حتى صار اسماً مفرداً : حسنين ، في مصر خاصّة . وكذلك العُمران ، ابن الخطاب وابن عبد العزيز حسب رواية ، وأبوبكر وعمر في أخرى ، وهنا غلب عمر أبا بكر لأنّه أيسر نطقاً وأقصر . وفي غير الأعلام ، يُلتجأ الى صفة مشتركة بين الاسمين المقصودين ، فتثنى كذلك : الجديدان صفة مشتركة لليل والنهار ، وكذلك الأنس والجنّ يدعيان الثقلين ، الخ . . .

فإن كان ناصحوه يعنون بالجعفرين الأخوين ابني حمدون ، فهذا دليل على أنّهما شاركا في حملة جوهر ، وبالتالي يكون أول اتصال بين الشاعر وأمير

(1) انظر ما يقوله ابن السكيت في « العُمران » ، ص 144 من كـ . اصلاح المنطق .

الزباب، لا بالمسيلة كما آدعى ابن سعيد في رواية سخيفة، ولكن بالمغرب ، في ساحة الوغى ان صحَّ التعبير . وربما آستصحب الأمير شاعرنا رأساً الى الزباب حين قفل راجعاً الى ولايته .

وربما عَنَوْا بالجعفرَين جعفر بن حمدون وجعفر بن فلاح الكتامي ، ولكنَّ الشاعر ، كما رأينا ، لم يمدح هذا القائد البربري ولا غيره من زعماء البرابر ، فالديوان يخلو من كلِّ اشارة اليهم ، وحتى البيتان اللذان وسما باسم جعفر بن فلاح لا تصحَّ نسبتها الى ابن هانئ . فقد يعني هذا السكوت أن صاحبنا قدم من مسقط رأسه ، وهو متشبع بالازدراء الذي يكنه العنصر العربي للسكان الأصليين للمغرب . وربما غدَّى هذا التعالي عنده انتسابه أولاً الى الأسرة المهلبية المجيدة ، ثم نشأته بالأندلس بلد الحضارة ورَفَاهَةِ العيش ، وزاد حدة فيما بعد عندما أصبح من خاصَّة الأميرين الأندلسيين بالمسيلة وتبَّني عداوتهما للصنهاجيين .

بقي الشاعر اذن قرابة عام ينتظرُ الممدوح الممكن بأرض المغرب ، والإمكاناتُ والحق يقال ، كانت إذ ذاك محدودة : فقد طهرَّ جوهر الجهة من الأمراء المستقلِّين كابن واسول أمير سجلماسة ، وأجلى الأدارسة عن فاس « فاعتصموا بقلعة النسر بسببة آخر معاقلم فكانوا يشاهدون منها عاجزين مقهورين صراع القوتين اللتين تتقاسمان المغرب آنذاك : بنو أمية والفاطميون »⁽¹⁾ . ولما كان شاعرنا ، بهروبه من الأندلس قد انسلخ ان صحَّ التعبير ، من الولاء الأمويِّ ، فإنه لم يبق أمامه ، ممَّن يعرض عليهم خدمته ، إلا الخليفة الفاطمي أو من والاه .

تساءلنا منذ قليل : لماذا لم يتَّجه رأساً الى المنصورية ؟ ونتابع الآن الاحتجاج فنقول : لماذا لم يخطر ببال جوهر ولا أحد من حاشيته استخدام نزوح الشاعر الى الأرض الفاطمية ، في عملية دعائية لصالح المعزِّ ، وذلك

(1) ج. مارسى : افريقية في القرون الوسطى ، ص. 125 .

بتلوين مَقْدَمِهِ بِلَوْن اللجوء السياسي من بلد يُكَبِت فيه الفكر وتُقَيِّد الحرية الى بلد يُعْظِم فيه المفكرُون وَيُجَلُّون ؟ فيصْبِحُ صاحبُنَا « لاجئاً سياسياً » هارباً من الطغيان مستنجداً بالأئمة العادلين ، ويصير كسب الأنصار للعقيدة الشيعية أمراً تلقائياً طبيعياً لا يحتاج الى تجهيز جيوش ولا حتى تنظيم برهان ؟

ولكنّ عملية كهذه تشترط ضمناً أن يكون الشخص المستغيث مشهوراً ذائع الصيت ، فلجوء الخامل الذكر واستنجد المجهول النكرة لا يصلح لتحريك الجماهير وانتزاع استنكارها وتحبيذها بحسب حاجيات الدعاية المذهبية .

فترتّب عن فكرتنا هذه أنّ ابن هانئ لم يكن آنذاك معروفاً بدرجة تحمل القائد والحاشية على التقرب به الى المعزّ واستثمار نزوحه لفائدة الدعوة الفاطمية . ونجد تدعيماً لافتراضنا هذا ، في ضالة المكافأة التي قابل بها جوهر مدحته : فهي دليل ، لا على شحّ فيه ، ولا على قلّة بصر بالأدب والشعر - وان كان ذلك لا يستغرب من عبدٍ صقلّي أو روميّ الأصل - بل على خمول الشاعر في برّ العدو .

استقرّ الشاعر عند بني حمدون بالمسيلة . وقد أصبحت القاعدة التي كان أسسها القائم بأمر الله وعليّ بن حمدون ، عاصمة عامرة بالسكان مزدهرة بالصنائع فيقول ابن خلدون : « ... واستجدّوا بها دولة وسلطاناً وبنوا القصور والمنتزهات ، واستفحل بها ملكهم ، وقصدهم بها العلماء والشعراء وكان فيمن قصدهم ابن هانئ شاعر الأندلس »⁽¹⁾ .

ويظهر أنّ شهرة البلاط الحمدونيّ تجاوزت المغرب وافريقية وبلغت المشرق ، فطمح بعض شعرائه الى رفد أمير المسيلة ، كالصنوبري (945/334) الشاعر الشاميّ مثلاً ، فقد وجّه اليه من حلب قصيدة⁽²⁾ يشيد فيها بمجده

(1) تاريخ ، ج 16-21 (بيروت) ص . 175 .

(2) الصنوبري : ديوان ، القصيدة 25 ، ص 28 .

وكرمه ، فأرسل اليه جعفر ، على مسالك ثابتة حسب قول ابن شرف⁽¹⁾ مكافأة بألف دينار .

ويشهد شعر ابن هانيء نفسه بازدهار العاصمة الحمدونية وكثرة حدائقها وطيب هوائها ، فيتجاسر على تشبيهها ببغداد : [كامل] .

35/6 وَرَأَيْتُ حَوْلِي وَقَدْ كُلَّ قَبِيلَةٍ حَتَّى تَوَهَّمْتُ الْعِرَاقَ الزَّابَا
36 أَرْضاً وَطِئْتُ الدُّرَّ رَضْرَاضاً بِهَا وَالْمِسْكَ تُرْباً ، وَالرِّيَاضَ جَنَابَا
37 وَسَمِعْتُ فِيهَا كُلَّ خُطْبَةٍ فَيَصِلُ حَتَّى حَسِبْتُ مَلُوكَهَا أَعْرَابَا

هذه المهابة الملكية لا ينفردُ بها جعفر ، فليحیی أيضاً بلاط تقصده

الوفود : [طويل]

15/52 وَتَعْدُو عَلَى يَحْيَى الْوَفُودُ بِيَابِهِ كَمَا ابْتَدَرْتُ أُمَّ الْحِطِيمِ الْمَوَاسِمُ

وسرعان ما أصبح الشاعر من خاصّة الأميرين ، فنراه مثلاً يتدخل لتهدئة الجوّ بينهما اذا ما ضاق الأصغر بسيطرة الأكبر ، ولا سيما بعد وفاة والدتهما ، فيدعوهما الى المحافظة على الوثام حتى يقوياً على الخصوم ولا يشمت بهما الأعداء . ونراه أيضاً يشارك الأميرين ، وخصوصاً يحيى ، في مجالس الشراب والغناء ، ممّا يشعر بأن الحياة بالمسيلة أشبه في طيب العيش ولينه بالرقّة الأندلسيّة منها بالخشونة البربريّة أو التقشف الذي طبع بلاط الخليفة .

ويشيد بحروب الأخوين ، وبالحملات التي يقودانها أو يقودها ابراهيم ابن جعفر لاستخلاص الضرائب أو لقمع الفتن ، ولعلّها كانت تحرّكات بسيطة محدودة، ولكنه يغالي في تعظيمها دون أن يمدّنا بالتدقيق اللازم ، فتصير في شعره انتصارات باهرة ، ويجعلها انتصاراً لسياسة المعزّ ومذهب الأئمة ، كأنه بدأ ينظر الى المنصوريّة ويسعى نحو غايته النهائيّة : الدخول في خدمة المعزّ في منصب الشاعر الرسمي .

(1) ابن شرف : مسائل ... ص . 36 .

ولكنّ دعوة الخليفة أبطأت ، فلم تأتِ إلا بعد خمسة أعوام ، وقد علّنا فيما سبق تحديدنا لدخول ابن هانئ في خدمة الخليفة بسنة 964/353 . وقد مهّد لهذا المنصب بالمدحتين 9 و11 ، نظمهما بالمسيلة وأرسلهما الى المعزّ . ويظهر من كلام ابن خلّكان أن شهرة الشاعر وصلت الى مسمعه بعد هذه المدة الطويلة ، فأبدى اهتمامه به وطلب من الأميرين أن يجهّزاه اليه ، فبادرا بارساله وأرفقاه بهدايا كثيرة⁽¹⁾ . وفي هذا تدعيم لما ارتأيناه ، من أن صيت الشاعر عند خروجه من وطنه لم يكن من الذبوع بحيث يلفت إليه الانتباه ويفتح أمامه الأبواب .

أمّا صدى حياته بالقيروان/ المنصورية ، فخافت خفوتاً غريباً ، حتى إننا نشك في استيطانه بعاصمة الخلافة ، فهو لا يذكرها قط في شعره ، ولا العواصم الأخرى . والإشارة الوحيدة الى القيروان أو المنصورية نجدها في التوطئة الثرية التي تسبق القصيدة 53 في الديوان ، على ان النسخ تتضارب ، فمنها من يقول ان القصيدة أنشدت بالقيروان ومنها من يقول بالمنصورية .

وكذلك لا ذكر لظروفه الماديّة : كيف كان يعيش ؟ وبم كان يعيش ؟ وأين كان يعيش ؟ هنا أيضاً ترشدنا التوطئة التي أشرنا اليها فتقول أنّ الخليفة كافأه على هذه القصيدة 53 بقصر يساوي كذا من آلاف الدنانير ، فطلب الشاعر عندئذ الأثاث ، فأردفه بأثاث يساوي بضعة آلاف دينار ، فعاد الشاعر وطلب الحشم والجواري ، فأمر له بخدم ، فبلغ المجموع خمسة عشر ألف دينار . لكنّ الصبغة الخرافيّة ظاهرة على هذا الخبر ، ولا نخال الشاعر في أوّل لقاء له مع المعزّ يتجاسر على مثل هذه المساومة السخيفة . ثمّ ان الخبر لم يذكر قط مكافأة ماليّة نقدية ، مع أن مخطوط تونس 1 يشعرا بوجود جارية قارة ، بدليل أن الأمير تميم ابن الخليفة سعى لدى أبيه ليَقْطَعَ عنه هذا الراتب ، وربما ذلك أيضاً على وجود هذه الجارية علاقة ابن هانئ بصاحب الخزينة الحسين بن المهذب .

(1) وفيات . . . ترجمة رقم 640 .

ومثلما يسكت عن مسكنه هو ، يسكت عن مساكن الخليفة والأمراء فلا تراه يذكر القصر ولا البلاط ، ولا يصف المسجد ولا المتنزعات . حتى « ديار البحر » ، ذلكم القصر الذي بهر الشاعر الأيادي⁽¹⁾ بتنسيق بركه وغرفه ، وتدقق المياه به ، وعلو شرفاته ، لا نجد له ذكراً في شعره . وإزاء هذا السكوت عن الأماكن الرسمية والخاصة ، صرنا نشك في إقامته المستمرة بالعاصمة الأفريقية ، فلعله كان يقطن بالزاب على الدوام كما يشعر به قوله عند توديعه للمعز على عبات مصر ورجوعه على أعقابهِ لأخذ عياله وأمواله : [طويل]

18/47 ولولا قَطينٌ في قَصىٍّ من التَّوى لما كان لي في الزَّابِ من مُتَلوِّمٍ

ولعلّ وظيفته كشاعر مختصّ بالخليفة تحتم عليه الاختصار على المظاهر الرسمية من حياة المعز ، كاستقباله للسفراء والمبعوثين وتحوله الى صلاة الجمعة وخروجه في المواسم والأعياد مكلّلاً بالتاج الفاطميّ تحت المظلة الواسعة التي كانت أيضاً من شارات الملك .

وقد حاول الشاعر التحلّل من هذا الجانب الرسميّ من وظيفته كما تشهد بذلك المقطوعات الخمرية أو الغزلية التي نجدها في ديوانه مدرجة ضمن المدائح أو مستقلة ، فتاق الى التعبير عن ذاته ، بالتغزل بالغلمان أو وصف مجالس الشراب ، والتمس الأصدقاء الجدد والخلائ كما يظهر من مطارحاته مع أحمد بن زائدة . ولكن هذه المحاولات « الغنائية » الذاتية بقيت محدودة ، حسب ما يظهر من الديوان المطبوع ، أو لعلّها طرحت من معظم النسخ ، فلم نجد صداها الا في مخطوط تونس 1 . فكأنّ وظيفة الشاعر الرسميّ بما يتبعها من جدّ مفروض مفتعل ووقار وتقشّف ظاهريّ لم تسمح له بالنظم في غير الأغراض المذهبية السياسية التي تعلي كلمة الأئمة وتظهر شرعية حكمهم . بهذا التحديد والاختصار ، نبرّر التفاوت الظاهر بين مجموع انتاجه بالمسيلة في خمس سنوات ومجموع انتاجه بعاصمة الخلافة في تسع .

(1) انظر وصف الأيادي لهذا القصر في الحوّلّات ... 1973 ص 104 .

تشييع ابن هانئ

يؤكد الشاعر في إحدى مدائحه للمعز أن تشييعه القديم عرّضه لعداوة الأمويين ، فحاولوا منعه من الالتحاق به ، ولو نجحوا ، لأسكتوا صوته وتعذر عليه مدح الإمام : [طويل]

- 46 ولو عَلِقَتْهُ مِنْ أُمِّيَّةٍ أَحْبُلُ لَجُبَّ سَنَامٍ مِنَ الشَّعْرِ تَامِكُ
47 وَلَمَّا التَّقْتُ أَسْيَافُهَا وَرِمَاحُهَا شِرَاعاً ، وَقَدْ سُدَّتْ عَلَيَّ الْمَسَالِكُ
48 أَجَزْتُ عَلَيْهَا عَابِراً وَتَرَكْتُهَا كَأَنَّ الْمَنِيَا تَحْتَ جَنَبِي أَرَائِكُ
49 وَمَا نَقَمُوا إِلَّا قَدِيمَ تَشْيِيعِي فَنَجَّيْ هِزْباً شَدُّهُ الْمَتَدَارِكُ

هذا الصراع البطولي الذي يدّعيه ابن هانئ مع مطارديه الأندلسيين صورة من المبالغات الشعرية المعهودة . ولكن ، هل يغالي حين يلحّ على « قديم تشييعه » ؟

لقد عبّرنا فيما سبق من الصفحات عن تحفظنا في قضية تشييع هانئ وأسرتة ، لفقدان الوثائق التي تسمح بإبداء رأي صحيح مدعّم ، وخاصة لضياح كامل شعر محمد بن هانئ في الفترة الأندلسية . ولكن ، يمكن أن نعود إلى الموضوع فنضيف إليه ، على ذكر هذه الأبيات ، بعض العناصر التي قد ترجّح انتساب الشاعر إلى الدعوة الفاطمية منذ شبابه وحتى صباه .

فالمرجّح الأوّل هو ، كما رأينا ، وسطه العائلي ، والصورة الغامضة التي نقلت إلينا عن أبيه هانئ : فهل كان حقاً واحداً من الدعاة الكثيرين الذين عملوا بالأندلس على إحلال الحكم الشيعي ؟ الحقيقة أن الفتن الشيعية أو المنتسبة إلى الشيعة سبقت مقدم هانئ إلى الأندلس بأحقاب . فمنذ أواسط القرن الثاني / الثامن تمرّدت بعض العناصر اليمينية المنتسبة إلى كبار الأسر العربية ، مثل الثائرَيْن المهلبَيْن اللذين ذكرهما ابن عذاري ، أو أحفاد الصحابيِّ الشيعيِّ عمّار بن ياسر ، أو أحفاد زعيم الأنصار سعد بن عبادة .

حتى العنصر البربري أراد أن يحدو حذو العناصر العربية ، فطلب الحكم وتمرد على الأمويين ، مثل ذلك الثائر الذي استثمر اسم أمه - فاطمة - فلفق لنفسه نسباً علوياً فاطمياً - وكان بربرياً من مكناسة - فجابه حكام قرطبة طيلة عشر سنوات (150-160/767-776) . وكثير من هذه التحركات كانت تقع بكورة البيرة ، تلك التي سينزل بها هانيء ، أثناء أو بعد سفراته المتكثمة بين عواصم الأندلس⁽¹⁾ . ولم تسلم اشبيلية من هذه الفتن ، فقد تغلبت عليها أسرة بني الحجاج ، وهم أيضاً يمنيون لخميون ، ولم يصلح أمر المدينة الا عندما تولى عبد الرحمان الناصر .

هؤلاء الثوار كانوا بالطبع يستثمرون لصالحهم النزاع بين الدولتين الكبيرتين : فالتمرد على حكم بني أمية يستنجد بصاحب افريقية ويتظاهر بالولاء للشيعه ، وكذلك فعل عمر بن حفصون حين تملك بوبشر واعتصم بها ، فقد أرسل إلى المهدي عبيد الله يطلب مساعدته⁽²⁾ . وفي الجانب المقابل ، كان المارقون على الحكم العبيدي يستنجدون بحكام قرطبة ، كما فعل أبو يزيد إذ أوفد إلى الخليفة الناصر جمعاً من أعيان القيروان فيهم ابن لأبي العرب صاحب كتاب طبقات علماء افريقية⁽³⁾ .

وحين أخذ عبد الرحمان الناصر ثم الحكم المستنصر الأمور بيد من حديد فقمعا الفتن بكل شدة ، انقلبت الحركات العلوية الى دعوة سرية داخل المدن ، فكان الأعوان والجواسيس يجوبون البلاد ويرفعون التقارير عن الحالة الاجتماعية وأفكار الناس وأحوال المعيشة، إلى صاحب افريقية ، وقد نسب الفيلسوف ابن مسرة (931/319) إلى الدعوة الفاطمية وقيل أنه تعلم المبادئ

(1) ابن عذارى : البيان ... ج 1 ص. 54-56 / وانظر كذلك : محمود علي مكّي : النشيع في الأندلس ص. 17 وليفي - بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، ج 1 ص. 85-88 .

(2) ليفي - بروفنسال : اسبانيا الاسلامية ، ج 1 ص. 380 .

(3) ابن عذارى : البيان ... ج. 2 ، ص. 213 .

الاسماعيلية أثناء إقامته بالقيروان فتعهد بنشرها في الأوساط الأدبية والثقافية في الأندلس . وكذلك نسبوا الرحالة ابن حوقل (977/367) الى التجسس لفائدة الفاطميين⁽¹⁾ .

فكان خلفاء قرطبة معذورين اذن في اتخاذهم التدابير المشددة ضد كل من اشتبه أمره ، فرمي بالدعوة الى الشيعة أو حتى بالاستقلال في الرأي والسلوك ، ولكنهم أفرطوا في القمع والتنكيل ، فصاروا يحكمون بالقتل على كل من انفرد برأي أو خرج عن المالكية السائدة ، حسب شهادة المقدسي (988/378) الذي زار الأندلس في منتصف القرن الرابع : « ... أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع . وهم يقولون : لانعرف الا كتاب الله وموطأ مالك ، فان ظهوروا على حنفي أو شافعي نفوه ، وان عشروا على معتزلي أو شيعي ونحوهما ، ربما قتلوه »⁽²⁾ .

ولم يغال المقدسي في تعليقه ، فقد أطلق الخلفاء أيدي القضاة لمقاومة الزيغ بحق وبغير حق ، أو ، على الأحرى ، أطلق القضاة أيدي الحكام ، لأن الخطر مزدوج : فالحكام عرضة للهجمة المسلحة على الخلافة الأموية ، وقد تعهد الفاطميون بازالتها ومحاسبة أصحابها على اغتصابهم للحكم وعلى ما ارتكبه أسلافهم من جرائم ضد آل البيت . ومن جهة أخرى يتعرض الفقهاء الى خطر حلول مذهب « المشاركة » وإحلال طقوس وعقائد مارقة مبتدعة خارجة عن السنة والجماعة . فلذلك نجد القضاة الأندلسيين يصدرون أحكاماً قاسية على أشخاص مظنون فيهم ، دون أن تثبت عليهم تهمة الكفر أو التشيع : فهذا شخص يمني أيضاً ، يدعي ابن حاتم الأزدي ، يحكم عليه بالقتل لأنه شهد عليه بشتم عائشة والشيخين ، ولعله كان شيعياً لأن سب أصحاب الجمل أو أصحاب السقيفة من خصائص غلاة العلويين ، كما أن سب أبي تراب (علي بن أبي طالب) من خصائص الأمويين . وهذا متهم آخر ، يدعى أبا

(1) ر. برونشفيك : مظهر من ... ص. 149 .

(2) أحسن التقاسيم : ص. 40 .

الخير ، شهد عليه بتبني آراء « المشاركة » ، وبشرب الخمر أيضاً ، وترك صلاة الجماعة ، وأخيراً بالقول مثل المعتزلة بتخليد الكافر في النار ، حتى وإن كان مسلماً ، هذا المسكين يقتل أيضاً لتراكم هذه الذنوب عليه^(١) .

والمرجّح الثاني لتشيع ابن هانئ منذ صغره ، لعلمنا نستنتجه ممّا كنّا نستغربه قبل قليل : وهو ضياع شعره في الفترة الأندلسيّة ، فإنّ تهمتيّ التحلّل الأخلاقي والتحرّر العقائديّ ، ان ثبتتا ، لا تكفيان لتعليل هذا الضياع التام ، كأنّ هذا الشعر محي محو من ذاكرة الناس ، فلم يبق منه شيء ، حتى النماذج لتدعيم تهمة المروق والانحراف . ولا تكفيان كذلك لتبرير طرده من وطنه ، مع ما كان يحظى به من مؤازرة أمير اشبيلية له وعطفه عليه . فالأولى حينئذ أن نفترض وجود ذنب أعظم من هذين ، مثل شروع الشاعر في مقاومة السلطان الأمويّ أو في نشر المبادئ الفاطميّة . فهذه تهمة أخطر بكثير من العريضة والأخذ بأقوال المادّيين ، لفتت اليه انتباه الحكّام والقضاة ، فأصبح مهدّداً في حرّيته وربّما في حياته ، واضطرّ الوالي الى مداراة الفقهاء فنصّحه بالانسحاب . ونعترف بأنّ هذا التحليل الجديد لأسباب هروبه لا يفسّر كذلك ضياع شعره الاشبيليّ ، اللهمّ إلّا اذا افترضنا أيضاً أن هروبه السريع لم يسمح له بجمع شعره ، فضاع بعده ، أو قرّر هو أن يضرب عنه صفحاً .

أمّا المرجّح الثالث ، فنلتمسه من المعاني والشعارات الشيعيّة التي نجدها في أوّل قصيدة له بالمغرب ، ونعني مدحة جوهر ، فالشاعر يستعمل الألقاب التي أشاعتها الدعاية الرسميّة في شأن الخليفة : فهو الإمام ، وهو أمير المؤمنين ، وخليفة الهدى الخ . . . ، ويقارن جوهرأ ، في وفائه للإمام وخدمته له ، بالحواريّين في علاقتهم بالأنبياء ، بل يدعو الناس الى اتباع الطّريق التي سطرّها لهم هذا الحواريّ : [طويل]

(١) هذه الأمثلة مستمدة من مخطوط « نوازل الأحكام . . . » لابن سهل الجيّاني (1093/486) ، ورقة 191 ب و 193 أ . وقد استثمرها الدشراوي في فصله : محاولة . . . ص. 97 .

- 18/10 أَرِيكَ بِهِ نَهْجَ الْخِلَافَةِ مَهْيَعًا بَيِّنُ ، وَأَعْلَامَ الْخِلَافَةِ وَضَحًا
24 ... رَأَاهُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كَعَهْدِهِ لَدَيْهِ ، وَلَمْ تَنْزُخْ بِهِ الدَّارَ مَنَزَحًا
25 لِأَفْلَحَ مِنْهُمْ مَنْ تَزَكَّى وَقَادَهُ حَوَارِيَّ أَمْلَاكِ تَزَكَّى وَأَفْلَحَا

وأنه لمن المستبعد أن يكون الشاعر قد تكلف هذا الولاء الشيعي في الحين والحال ، تزلفًا إلى القائد ، ومن ورائه ، إلى الخليفة . ولا ندعي مع هذا أنه عند نزوله بأرض المغرب ، كان متشبعًا بكل هذه الأغراض الإسماعيلية ، فهذا لا يتفق مع ما سنراه في شعره اللاحق من تطوّر نحو المماثلة التامة لشعارات الدعاية الفاطمية . ولكن نتخذ موقفًا وسطًا فنقول : لعله كان تعرف ، منذ الفترة الإشبيلية ، على التيارات الشيعية التي كانت تجتاح الأندلس وتغشى العصر كله ، فمال إليها واكتسب شيئاً من المعلومات عن العقائد الإسماعيلية فتبناها وبلورها في قصيدته الأولى التي أرادها كما قلنا فاتحة حياة جديدة .

وتزداد المعاني الشيعية عنده قوة ، حتى تبلغ أوجها في الفترة الأفریقیة ، حين يصبح الشاعر الرسمي ، فيعلي كلمة الدولة ، ويشيد بمجد الأئمة وبأحقّيتهم بخلافة المسلمين ، وينهال شتماً على الدولتين الغاصبتين ، الأموية والعباسية ، بل يمتدّ لسانه حتى إلى الشيخين أبي بكر وعمر فيرميهما بالتواطؤ مع أعداء عليّ في حادثة السقيفة لانتزاع حقه المشروع ، ويلقي عليهم مسؤولية المآسي التي لحقت علياً وذريته فيما بعد ، فلا يتحرّج من جعل أبي بكر - التيمي - سبباً ، بقبوله الخلافة ، في قتل عليّ بمسجد الكوفة ثم في مجزرة الطفّ بكربلاء : [طويل]

- 144/47 وَأَوَّلَى بِلَوْمٍ مِنْ أُمِّيَّةٍ كُلِّهَا وَإِنْ جَلَّ أَمْرٌ مِنْ مَلَامٍ وَلَوْمْ
145 أَنَا نَسْ هُمُ الدَّاءُ الدَّفِينُ الَّذِي سَرَى إِلَى رِمَمٍ بِالطُّفِّ مِنْكُمْ وَأَعْظَمِ
147 ... هُمْ رَشَحُوا تَيْمًا لِإِرْثِ نَبِيِّهِمْ وَمَا كَانَ تَيْمِيٍّ إِلَيْهِ بِمَنْتَمِ
153 ... بِأَسْيَافِ ذَاكَ الْبَغِيِّ أَوَّلَ سَلْهَا أَصِيبَ عَلِيٍّ ، لَا بِسَيْفِ ابْنِ مُلْجَمِ

وفي هذه الحملة القاسية على أحبّ الخلفاء الراشدين إلى الأئمة

الاسلامية ، دليل على أن ابن هانيء أصبح يأمن غائلة الحكم الأمويين وعسف قضاتهم . فستان بين تعسفه هو اليوم وما استحق به ابن حاتم المسكين القتل !
وفيها أيضاً صورة للطريقة التي يقابل بها الشيعة شتم الأمويين يومياً لعلي بن أبي طالب فوق منابرهم ، تلك العادة الفظيعة التي ابتكرها معاوية بالشام ، فكانت تنقص من إعجاب أنصارهم بهم⁽¹⁾ .

ونلاحظ في المدائح المعزيات مغالاة الشاعر - والدعاية الرسمية كذلك - في تقديس الإمام . فالأوصاف التي يصف بها المعز ، والمقارنات والتشابه والافتراضات ، كل هذا يبلغ حد التآليه ، أي ، في نظر السنة ، حد الكفر والشرك بالله . في حين أنه في نظر الشيعة اعتراف بالصفات الشرعية في الأئمة : فلتن نعتة ب «الواحد القهار» فلأنه مستأثر وحده دون غيره بإرث جدّه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخلافة المسلمين ، قاهر عن قريب للدولتين الغاصبتين . وإن غلبت إرادته الأقدار ، فلأنه يتمتع بمؤازرة خاصة من الله تجعل كلمته هي العليا ، وبهداية منه تعصمه من الزلل ، فالأئمة هم هداة شعوبهم ورعاياهم الذين أشار اليهم الله عز وجل بقوله : ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾⁽²⁾ : [كامل]

- | | |
|--------------------------------|---------------------------|
| 1/24 ما شئت لا ما شاءت الأقدار | فاحكم فأنت الواحد القهار |
| 2 وكأنما أنت النبي محمد | وكانما أنصارك الأنصار |
| 3 أنت الذي كانت تبشّرنا به | في كتبها الأخبار والأخبار |
| 4 هذا إمام المتقين، ومن به | قد دُوح الطغيان والكفار |
| 5 هذا الذي تُرجى النجاة بحبه | وبه يحط الإصر والأوزار |

فاذا كانوا هداة مهديين ، فتشبيهم بالأنبياء المعصومين معقول مشروع ، وكذلك تشبيه أتباعهم بالأنصار الذين نصرُوا محمداً (صلى الله عليه وسلم) وآووه بالمدينة - ولعلّه اقتصر على الأنصار ولم يذكر المهاجرين لأنه يمتني الأصل

(1) ابن عذارى : البيان ... ج . 2 ، ص . 40 .

(2) الرد ، 7 .

أزديّ مثل أهل يثرب ، ولأنّ المهاجرين فيهم الشيخان وأصحاب الجمل - وكما يشفع الأنبياء للمؤمنين يوم الحساب ، فهذا يشفع لأتباعه فتقيهم محبته عذاب النار .

هذا، وإنّ مثل هذا التحليل الباطني لعقائد الشيعة ونظرياتهم من خلال مدائح الشاعر لا يقف بنا عند حدّ ، وسنجد في القول في الفصل الثامن حين نتناول المعاني الإسماعيلية في شعره .

ولا عبرة ، والحال هذه ، بما يقوله بعض الدارسين المعاصرين في شأن تشييعه : من أنّ هذه المغالاة في تقديس الأئمة صورة من تزلفه الى المعزّ حتى ينال رفده ، فبقدر ما يغلو في المدح ، يكثر العطاء⁽¹⁾ . فهذا تسرّع في الاستنتاج وقصّر في النظر ، إذ لو قارن أصحاب هذا القول شعر ابن هانيء بشعر تميم بن المعزّ في أخيه العزيز مثلاً ، أو قابلوه بكلام القاضي النعمان في الأئمة عامّة وفي المعزّ بصفة خاصّة ، لرأوا أن الغلو أمر عاديّ طبيعيّ في كتابات الشيعة ، ولما نسبوا صاحبنا الى التشييع الكاذب . أم لعلهم كانوا ينسبون تميمياً والقاضي الى السعي وراء المال ؟

ولو كان تشييعه ظرفيّاً محلّيّاً ، أي مرتبطاً بمدائح المعزّ لا غير وبما يُرجى إثرها من جوائز ، لما وجدناه أيضاً في مدائح الشيباني وبني حمدون وأفلح الناشب ، ولاكتفى الشاعر في مدحه لهؤلاء ، بالإشادة بالصفات التقليدية من شجاعة وسماحة وحلم وغيرها .

فتشييع ابن هانيء صحيح صادق . لعله لم يكن على مثل هذه القوّة في أوّل الأمر، فتوطّد وتعمّق بتعرّف الشاعر الى الخليفة ومعاشرته له ، ولكن لا شكّ في أنه خلو من الطمع : فالشاعر قلّما يشير الى عطاء المعزّ ، خلافاً للمنتبّي مثلاً في مخاطبته لممدوحيه ، بل يعتبر أن أعظم مكافأة هي بالذات مدح الإمام ، لأنه

(1) حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعزّ لدين الله ، ص . 226 .

بمدحه إياه يقوم بواجب مفروض ، واجب « الطاعة » ، والطاعة لا يكافأ عنها ،
أو قل انها تحمل مكافأتها في طيانتها كأريحية السماحة أو برد اليقين : [كامل]

90/1 دَانُوا بِأَنَّ مَدِيحَهُمْ لَكَ طَاعَةً فَرَضُ ، فَلَيْسَ لَهُمْ عَلَيْكَ جَزَاءُ

ثم ان القرب من الإمام يكفيه كل مكافأة ، وكذلك اتفاق معانيه مع معاني
القرآن لأن الله مدح أيضاً الإمام : [طويل]

67/23 بَلَّغْتُ بِكَ الْعَلِيَا ، فَلَمْ أَدُنْ مَادِحًا لَأَسْأَلَ ، لَكُنِّي دَنَوْتُ لِأَشْكُرَا
68 وَصَدَّقَ فِيكَ اللَّهُ مَا أَنَا قَائِلٌ فَلَسْتُ أَبَالِي مَنْ أَقْلَ وَأَكْثَرَا

فالتشيع عند ابن هانيء ليس إذن صادراً عن تعليمات رسمية تتكيف كل
يوم بحسب التطورات السياسية ومقتضيات الساعة ، مثل سوانح الصحف
الحزبية أو الحكومية ، أو مثل خطب المنابر في صلاة الجمعة ، بل هو منبثق عن
اعتقاد راسخ بصحة الدعوة وصواب المذهب وعدل الأئمة في سياستهم . وأن
اعتقاده هذا ليتجاوز شخصه فيغمر الأعيان والأشياء المتصلة به ، فهذا سيفه
مثلاً ، أصبح مماثلاً له في العقيدة ، بل يغلبه في التفاني : [بسيط]

لِي صَارِمٌ ، وَهُوَ شِيعِيٌّ كَحَامِلِهِ يَكَادُ يَسْبِقُ كَرَاتِي إِلَى الْبَطَلِ
إِذَا الْمَعَزُّ ، مَعَزَّ الدِّينِ ، سَلَّطَهُ لَمْ يَرْتَقِبْ بِالْمَنَآيَا مُدَّةَ الْأَجَلِ (1)

ولعل هذين البيتين « ملححة » من الشاعر لا تحتاج منا الى مثل هذا
التقدير ، ولكننا نتجاوز من خلالها التكلّف وبرودة الفكرة إلى الحمية الواضحة
والتحمّس الظاهر للمذهب .

هذا، وإذا احتجنا الى دليل آخر على صدق انتساب ابن هانيء الى
الدعوة ، فلنذكر أسف المعزّ عليه حين نعي اليه . فهل كان يرثيه ويؤبّنه لو فهم
أن تشييعه ظرفي محليّ ؟ وهل يغيب عنه تملق المنافق وكذب المترلف ؟

(1) تبين المعاني ... ص . 648 .

تضارب الأقوال في ظروف وفاته

لئن اتفقت المصادر على أنّ موت الشاعر كان مباغتاً ، فإنها لا تتفق على ظروفه وأسبابه : أكان اغتيالاً ، أم موتاً طبيعياً ، أم قتلاً في خصومة ، أم حادثاً طارئاً غير متوقع ؟ وكذلك الأمر فيما يخصّ تاريخ الوفاة ، فلا ثبات فيه بين مصدر وآخر .

يكتفي ابن الأثير مثلاً بالقول : « وتوفي ببرقة في طريقه إلى مصر » فاستعمل فعل « توفي » الذي يشعر بالموت الطبيعي وينفي فكرة القتل أو الاغتيال . أمّا ابن الأثير ، فيميل إلى الاغتيال في خطة مدبرة : « فلمّا وصل (المعز) إلى برقة ، ومعه محمد بن هانيء الشاعر الأندلسي ، قتل غيلة ، فروى ملقى على جانب البحر قتيلاً لا يُدرى من قتله . . . »⁽¹⁾ . ويذكر ياقوت وابن خلكان افتراضات ثلاثة : أولاً ، الموت المباغت في حادث مفاجئ : خرج الشاعر سكران من بيت مضيّفه فضل طريقه في الليل وغلبه النوم فنام على قارعة الطريق فمات للبرد الشديد . ثم الخصومة العنيفة اثر مشربة وعريضة فيقتل الشاعر في المعركة بين السكاري . وأخيراً الاغتيال : وجد الشاعر في ضيعة مخنوقاً بتكة سراويله . ويأخذ ابن الخطيب بالافتراض الأول فيرى أن البرد الشديد هو الذي قتل الشاعر السكران . أمّا ابن سعيد ، فيصرّح بأنه قتل في « مشربة على صبي » وكذلك تقول مقدّمة مخطوط تونس 1 .

ولقائل أن يقول أنّ هذه الظروف الفظيعة من سكر وعريضة واعتداء بالفاحشة على صبي ، قد اختلقها مؤلفون سنيون ليلحقوا العار بشاعر الفاطميين الرسمي ، فينالوا من خلال شخصه ، من هيبة هذه الدولة المكروهة التي طالما ادّعت الطهارة والنسك والقداسة ، ويظهروا فسادها ونفاقها من فساد شاعرها ، لا سيّما وأنّ المعز كان ينوي مكابرة شعراء الشرق به . وهذا ما يقوله فعلاً ناشر

(1) الكامل ، ج 7 ، ص . 45 .

الديوان زاهد عليّ - وهو إسماعيلي - في محاولته لتبرئة الشاعر من هذه
الوصمات⁽¹⁾ .

ولكن قد تكون التهمة صحيحة مستندة الى أحداث ثابتة وصفات واقعة :
فإذا اعتبرنا مثلاً ما نُسب اليه من مجون في شبابه بالأندلس ، وما احتفظ به
الديوان من مقطوعات خمريّة ومن غزل بالمدّكر ، وإذا صدّقنا ما نقلته بعضُ
المصادر من تنافسه مع الأمير تميم على غلام منحرف ، واعتبرنا من جهة أخرى
أن جوّ الفرح والتفاؤل بحياة جديدة ، الذي صاحب انتقال المعزّ إلى عاصمته
الجديدة ، قد يدعو بعض أنصاره ، والشعراء على الأقل ، الى خلع العذار ،
أصبح من الممكن أن الشاعر تعاطى اللهو جزافاً في إحدى ليالي إقامته ببرقة ،
فكانت نتيجة الافراط في الشراب خصاماً واعتداءً وعنفاً وقتلاً .

بل نجد من المترجمين من ينسب قتله الى تميم أصلاً بسبب الغيرة من
الشاعر لاستثثاره بالغلام : فيقول الدواداري في كتابه عن الدولة الفاطميّة ، بعد
أن يورد الأبيات الثلاثة التي يبرّر فيها ابن هانئ تفضيله للذكران على النسوة :
« . . . أراد بقوله غلاماً كان الأمير تميم يهواه ، فتحيل عليه حتى وجد في بعض
الأودية مخنوقاً بتكتّه . . . »⁽²⁾ ويضيف : « وقيل إنّه حسده لجودة شعره ، فقتله
لذلك » . فهذه فكرة جديدة وسبب آخر من أسباب قتله : الغيرة الأدبيّة أو
التنافس المهنيّ . وواضح أن كلام الدواداري يدعّم فكرة القتل اغتيالاً ، ويُبعد
فكرة الموت الطبيعيّ أو الحادث المفاجيء . ولكنه يأتي بعنصر جديد في حياة
الشاعر الغامضة ، فيزيد الغموض كثافة . هذا العنصر الجديد هو تنافسه مع وليّ
العهد ، وقد كان من المتوقّع أن يصبح خليفة بعد أبيه ، أي أن يصير ممدوحاً
لابن هانئ ، لولا أن عزّله المعزّ لفساد سلوكه وانحرافه وتواطئه مع العناصر
المناهضة لأبيه ، وبالأخص مع أولاد القائم .

(1) تبين . . . ص . 22 من المقدّمة .

(2) الدواداري : كنز الدرر / 6 : الدرة المضئّة . . . ص . 254 .

وربما استغربنا أن ينسب تميم الى مثل هذا الخبث وهذه الشراسة ، وقد عهدناه في شعره رجلاً رقيق العاطفة مغرمًا بالطبيعة والأزهار والمياه ، مَيَّالاً إلى الدعة والعيش الهادئ . ولكن قد يُخفي الشعراء أيضاً حقيقة نفسياتهم ، بدليل ما اكتشفناه من مجهول صفات شاعرنا ابن هانيء ، مما لا يتضح قطّ من كبرى قصائده في المعزّوفي غيره من الممدوحين . وخلاصة القول أن قتل ابن هانيء يمكن أن يكون قد وقع بإيعاز من تميم ، بسبب غيرة بينهما وتنافس ، سواء كانت غيرة غرامية أو أدبية .

وعليه ، فلا سبيل إلى تبني فكرة زاهد علي الذي يعتبر قتله اغتيالاً سياسياً دبره أعداء الدولة التي رفع ابن هانيء شعارها ، أي حكام قرطبة : فالأمويون أبعد الناس ، في هذا الظرف ، أي أبان انتقال المعزّ - والشاعر بالتالي - الى المشرق ، عن أن يفكروا في قتله ، هذا إذا صحّ أن شعره أقلقهم حقاً حتى صاروا يخشونه على سلطانهم . ولو عزموا على قتله ، لفعلوا ذلك أو حاولوه من قبل ، أي قبل أن يتباعد الخطر عن شواطئهم بتحوّل الفاطميين الى القاهرة . وأنما اعتمد الناشر الاسماعيلي ، في دفاعه البارّ عن الشاعر - وهو اسماعيليّ مثله - على الأبيات التي ادّعى فيها تشييعاً قديماً وعداء من الأمويين كاد يحول بينه وبين المعزّ ، فصدّق هذا الزعم ، ونسب الفعلة الى بني أمية ، فأصبح ابن هانيء مقتولاً ، لا في مجلس عربية ، بل في ساحة الشرف ، ضحية لدفاعه عن المذهب الشيعي .

ولو كان لفكرة الاغتيال السياسي من احدى الدولتين المنافستين أو حتى من فلول الخوارج ، نصيب من الرجحان ، لما أغفلها الرواة والمترجمون . أما تاريخ مقتله ، فينبغي أن نقبل التاريخ الذي ذكره ياقوت وابن خلكان : يوم الاربعاء 23 رجب 362/29 أبريل 973 ، وربما نقلاه عن تاريخ القيروان لابن شدّاد ، أو عن نسخة مجهولة من قراصة الذهب لابن رشيّق . ونرجّحه لأنّ المعزّ ترك «سردانية» قرب القيروان في صفر، ووصل الى القاهرة في رمضان، فمن

الراجح أنه حلّ ببرقة في رجب . وبناء على هذا ، ينبغي رفض تاريخ 972/361 الذي ذكره ابن الخطيب .

وكانت سنّته عند الوفاة اثنين وأربعين عاماً ، على ما ضبطته غالب المصادر ، وقد حدّدها بعض المترجمين بسنّة وثلاثين عاماً ، وسبق أن بيّنا خطأ هذا التقدير ، لأنّه يترتّب عنه أنّ مولد الشاعر كان سنة 937/326 ، وأنّ هجرته الى المغرب في سنّ السابعة والعشرين وقعت سنة 964/353 ، ونعلم أنه في هذا التاريخ ، كان قد دخل بعد في خدمة المعزّ ، فلا شكّ اذن أنّه عند موته كان قد تجاوز الأربعين .

برقة⁽¹⁾ اسم قديم لقرية المرج التي تقع اليوم على بعد مائة ميل تقريباً من بنغازي الحاليّة ، عاصمة الولاية الشرقيّة من ليبيا . وقد سمّيت المقاطعة كلّها باسم عاصمتها على شاكلة كثير من البلدان الإسلاميّة ولا سيما بافريقيا الشماليّة : فتونس تعني البلاد وعاصمتها ، وكذلك الجزائر . وكذلك مرّاكش عند من سمّى المغرب الأقصى باسم عاصمته المرابطيّة ثمّ الموحديّة . أمّا « مصر » ، فقد كانت تعني قديماً الفسطاط ، وتدلّ اليوم على القاهرة العاصمة وعلى وادي النيل كلّه .

وفي خصوص وجهة الشاعر عندما لقي حتفه بهذه الصفة الفظيعة ، فإنّ المترجمين لا يتفقون : فهذا مثلاً ابن تغري بردي يقول أنّه دخل الى القاهرة في ركب المعزّ : « . . . إلى أن قتل ببرقة في عوده الى المغرب من مصر ، بعد أن مدح المعزّ العبيديّ بغرر المدائح . وكان عوده الى المغرب لأخذ عياله ، وعوده بهم إلى مصر . وكان موته في رجب »⁽²⁾ . ولكن سبق للمؤرّخ المصري أن قال قبل هذا ان المعزّ دخل القاهرة يوم 8 رمضان ، فلم ينتبه إلى هذا الخلف : أن يعود الشاعر من القاهرة في رجب ، والخليفة لمّا يصلها بعد .

(1) انظر فصلي « برقة » و « بنغازي » بدائرة المعارف الإسلاميّة ، الطبعة الجديدة .

(2) النجوم الزاهرة ، ج . 4 ، ص . 67 .

لكننا لا نرفض مبدئياً هذا الخبر ، إذ نجد في إحدى مقطوعات مخطوط تونس 1 المجهولة ، ما قد يدَّعُمه . تقول مقدّمة القطعة : « وقال أوّل دخوله مصر . . . »⁽¹⁾ . فهل يعني دخول مصر « الإقليم » أم دخول مصر العاصمة ؟ فإذا كان المعنى هو الإقليم المصري ، فقد نفهم من التوطئة أنّ الشاعر اجتاز الحدود - أو ما يُعتبر حدّاً - بين برقة ومصر مع الخليفة ثمّ قفل راجعاً الى برقة في طريق العودة الى افريقية أو الزاب . فتبطل بذلك امكانية اقامته بالقاهرة ، ولو لمدة يوم واحد ، لأنها لا تتفق مع دخول المعزّ إليها في رمضان ومقتله هو في رجب ببرقة . ولا شك أن الأمر يتضح بصورة أو بأخرى لو علمنا بالتدقيق تاريخ مغادرة المعزّ لبرقة .

أمّا الأبيات التي تلي هذه الإشارة الى دخوله مصر ، فيقول فيها :

[مقارَب]

- | | |
|-------------------------------|--|
| 1 أقول لذي قامة كالقضيبي | وَحْضِرُ تَبَارَكَ مِنْ حَصْرَةٍ |
| 2 ووجهه يباري سنّاه المدام | يُصَبُّ مِنَ الْكُوبِ فِي الْقَبْرَةِ (؟) |
| 3 ألا فاغضض الطرف يا ذا الفتى | فَلِلَّهِ طَرْفُكَ مَا أَسْحَرَهُ! |
| 4 لقد لعبت بي صروف الزمان | كَلَعِبِ الْفَتَى وَالْفَتَى بِالْكُرَةِ |
| 5 وطُيِّرْتُ شرقاً إلى غربها | كَطِيرِ الْعَوَاصِفِ بِالزَّنْبَرَةِ |
| 6 ويُعجبني أنني شاعر | وَقَوْلُ الْبَرِيَّةِ مَا أَشْعَرَهُ! |
| 7 ولو رهئوني وكُتِبِي معاً | مَعَ الشَّعْرِ وَالظَّرْفِ وَالْمِجْبَرَةِ |
| 8 على قُوت يومٍ لردّوا الرهان | وَأَرَمُوا إِلَى فَضْيةٍ مُحَضَّرَةِ |
| 9 حرامٌ حرامٌ زمان الفقير | حَرَامٌ حَرَامُهُ مَا أَقْذَرَهُ |
| 10 إذا كان عيش الفتى ضيقاً | فَخَيْرٌ مِنَ الْعَيْشَةِ الْمَقْبَرَةِ |

الأبيات الثلاثة الأولى نسيب عاديّ على طريقة ابن هانيء في الصنعة

(1) الحوليات ، 1972 ، ص . 85 .

والتكلف . أما السبعة الباقية فأمرها غريب لأنها أولاً تشكو الفقر بل الفاقة وفقدان القوت اليومي . وهذا عجيب في خصوص الشاعر الرسمي لدولة أصبحت تملك الغرب والشرق معاً: فمن أين يأتيه الفقر في هذا العزّ وهذه الأبهة الملكية ، وهو في ركب المعزّ؟

ثم لأنّ الشاعر يصف عبث الزمان به فيقول أنّ الصروف تطيره « شرقاً إلى غربها » ، فهذا الاتجاه غريب إذ من المتوقع ، وهو داخل الى مصر من برقة ، أن يقول ، ان صحّ أن الزمان عبث به ، « غرباً إلى شرقها » . وفي البيت الرابع ، يشبه نفسه بالكرة التي يتقاذفها الصبيان ، ونحن نستغرب مثل هذا التشبيه لأنه لا مثيل له في شعره الآخر ، وان كنا نعرف أن القدماء عرفوا الكرة وشبهوا بلعبتها⁽¹⁾ . وأخيراً نتعجب من انتقاله المفاجيء من النسيب التقليدي الى شكوى الزمان .

فلهذه الأسباب كنّا محمولين على اعتبارها منحولة الى ابن هانيء ، أو منسوبة إليه خطأ ، فقلنا : لعلّ صاحبها هو ابن هانيء « الحفيد » ، وهو شاعر مصري عاش في القرن السادس / الثاني عشر ، وذكره العماد الأصفهاني في خريدته وسمّاه الحفيد لأنه يصعد في نسبه إلى صاحبنا . وكنا نرفضها بالرغم من ورودها في نسخة تونس 1 - ونعلم قيمة هذه المخطوطة وانفرادها بشعر له كثير - لولا ان وجدنا في نفح الطيب⁽²⁾ اشارة تدعّم نسبتها الى شاعرنا : وفحوى هذه الحكاية الطريفة أن ملك السهلة ابن رزين الأندلسي⁽³⁾ كان يستمع إلى قراءة من ديوان ابن هانيء ، وكان قارئه جاهلاً بالشعر ، فتعثر في قراءة أحد الأبيات وتلعثم بصورة جعلت الحاضرين يضحكون منه . وهذا

(1) انظر بيت المسيّب بن علس في المفضليّة رقم 11 في وصف سرعة ناقته :

مرحّت يداها للنّجاء كأنما تكرو بكفّي لاعب في صاع

(2) طبعة بيروت ، ج 3 ص . 407 ، حكاية رقم 198 .

(3) عن ملوك السهلة بني رزين ، انظر : ابن الأثير : الحلة ، ج 2 ، ترجمة رقم 129 . وهـ .

بيرييس : الشعر الأندلسي . . . الفهرس .

البيت هو التاسع من المقطوعة ، ولم يذكر منه المقرَّب إلا الشطر الأول : حرام
حرام زمان الفقير ...

فهل يعني هذا أن المقطوعة لابن هانيء حقاً ؟ لا شك أن وجودها ضمن
الديوان في القرن الخامس / الحادي عشر يبعث على التريث في اتهامها .
فلنقل حينئذ أنها من شعر ابن هانيء ، ولكنها لم تنظم في مصر كما تدَّعيه
مقدمتها ، بل في أوائل قدومه إلى المغرب ، أو ربَّما حتى في الفترة الأندلسية
من حياته : فأبياتها أردأ مبني ومعنى من أن تكون ثمرة كهولته . وحتى ان قبلنا
نسبتها إليه ، فإن البيت الخامس في خلطه بين الشرق والمغرب يقف عرضة
في سبيل فهم صحيح وتفسير مقنع .

وبعد هذا ، يمكن أيضاً أن نعتبرها قطعة موضوعة ، من جنس الأبيات
السخيفة التي نسبت إليه إبان دخوله على جعفر بن حمدون وأثناء لقائه المزعوم
مع المتنبّي بالقرب من مدينة قابس : ولا غرابة أن تكون صورة الشاعر الشيعي
قد بدأت تشوّه عند الرواة السنيين وتتخذ أخباره صبغة الفكاهة بسبب انتسابه
إلى الدعوة الممقوتة .

ونعود إلى أقوال المترجمين في نوايا الشاعر ، واتجاهه : يقول ابن
الخطيب ومن بعده ، ابن العماد ، أن ابن هانيء ، عند مقتله ، كان راجعاً من
افريقية ، بعد ان رافق المعزّ حتى برقة . وهذا رأي لا يقبل كذلك لأن الشاعر
حلّ ببرقة مع الخليفة في رجب ، فما كان ليترك ركبته قبل أن يرحل عنها إلى
القاهرة . وحتى ان فعل ، فإنّ الوقت أقصر من أن يسمح له بالرجوع إلى
افريقية وجمع ماله وأخذ عياله والوصول من جديد إلى برقة قبل التاريخ
المشؤوم : 23 رجب . فالثلاثة وعشرون يوماً لا تكفي لقطع هذه المسافة ذهاباً
وإياباً ، وقد قطعها المعزّ في أربعة أشهر ، إذ انطلق من سردانية في صفر ،
فوصل إلى برقة في رجب . وقبله ، كان جيش جوهر بقي خمسة أشهر في
طريقه من المنصورية إلى الفسطاط : من منتصف ربيع الأول 358 إلى منتصف

رمضان⁽¹⁾ . فحتى ان طرحنا مدّة السير من برقة إلى الفسطاط ، واعتبرنا أن الجيش الفاتح لم يكن يجدّ السير ، فإنّ الوصول إلى برقة لا يكون في أقلّ من أربعة أشهر . وعلى كل حال ، فإنّ الرحالة القدماء يقدّرون هذه المسافة بأربعين مرحلة على الأقل⁽²⁾ .

فلذلك يتعيّن أن نأخذ برأي ابن خلكان ، الذي ينقح خبر ابن شدّاد بعض التنقيح : فقد قال صاحب تاريخ القيروان أنّ الشاعر قتل وهو لا يزال في حاشية المعزّ ببرقة . أما صاحب الوفيات ، فيرى أنّه لقي حتفه بعد أن ودّع المعزّ ، أي بعد أن استأنف الخليفة طريقه نحو الاسكندرية . وهذا ما تشعّرنّا به أيضاً قصيدته الأخيرة التي أرسلها إلى المعزّ بعد توديعه ، ولا شكّ أنّها بلغت الخليفة بعد مقتل الشاعر ، وفيها يعتذر على تركه الركب للرجوع إلى الزاب بسبب العيال ، ويتعهد باللحاق به في أقرب الأجل لاستئناف الأشادة بخصال الإمام : [طويل]

- 186/47 ولولا قطين في قصي من النوى لما كان لي في الزاب من مُتَلَوِّمٍ
187 وفي ذملان العيس كلنا ماريبي إذا أُرْقِلْتُ بي من أُمُونٍ وَعَيْهِمِ
188 فمنها إذا عدتْكَ شِيعَةُ رِحْلَتِي ومنها إذا أَمَّتْكَ شِيعَةُ مَقْدَمِي
192 ... وعندي، على بُعد المزار ونأيه قصائدُ تترى كالجُمان المنظمِ

ولكن الأقدار حالت دون الشاعر والخليفة ، وأبت عليه أن يحقق وعده : فلا هو التحق بعدها بالمعزّ ولا قصائده .

(1) المقرئزي ، اتعاظ ، ص. 139 .

(2) الاصطخري : المسالك ، ص. 37 .

الفصل الخامس

الإشارات التاريخية في الديوان

نريد في هذا الفصل والفصل الذي يليه ، أن نتناول قصائد ابن هانئ ،
بالتحليل والدرس فنستخرج منها ما يمكن استخراجه من معلومات ، خاصة أو عامة ،
وارشادات تاريخية أو حضارية ، تهتم الفترة التي خدم فيها الشاعر المعزّ لدين
الله الفاطمي . وقد سبق أن قمنا باستقراء مماثل في الفصل السابق ، إلا أننا
ركّزناه على المعلومات التي تبرز أهم أحداث حياة ابن هانئ . ولذلك نهتمّ
الآن خاصة بالإشارات المتعلقة بحياة الخليفة مثلاً ، في سياسته وحروبه وما
وقع في مدته ، من وقائع هامة أو بسيطة ، بالقدر الذي يسمح به فهمنا للشعر
وإمكانية ربطه بما أثبتته التاريخ .

وفي مرحلة ثانية ، نقوم بنفس الاستقراء في خصوص القصائد السابقة
للمدائح المعزّيات . وقد سمحنا لنفسنا بهذه المخالفة للترتيب الزمني ،
فاهتمنا أولاً بالقصائد الإفريقية ، وذلك لما تمتاز به مدائح المعزّ من إمكانات
الاستثمار بالمقارنة مع بقية القصائد ، بما فيها مدائح بني حمدون .

الحياة بالبلاط المعزّي

تساءلنا ، في الفصول السابقة ، عن حقيقة علاقة الشاعر بالخليفة ،
وشككنا في أن يكون ملازماً للبلاط ، وشككنا حتى في وجود بلاط بالصورة

المعهودة ، أي صورة مجلس يعقده الملك أو الأمير في قصره ، ويختلف اليه جمع من خاصّة دولته وشعرائه وعلمائه ، ويتوزّع الاهتمام فيه بين إنشاد الشعر ، وسماع الغناء ، ومناقشة المسائل العلميّة ، وحتى قضاء الوقت في الطرائف والملح ، وتكثر فيه من ناحية أخرى المنافسات والتحاسد ويسعى كل واحد لكسب الحظوة على حساب غيره ثم المحافظة عليها والاحتياط من الخصوم والحساد .

والقصائد المعزّية لا تفيدنا في هذا الصدد بمعلومات كثيرة ، لا عن الحياة العامّة بالمنصوريّة ولا عن الحياة الداخليّة بالقصر . وليس هذا السكوت ذنب الشاعر وحده ، فحتى سيرة الأستاذ جوذر ، وكتاب المجالس والمسائرات للقاضي النعمان لا تفيدنا بشيء شاف كاف ، فصرنا نميلُ إلى الاعتقاد بأنّه لم تكن بالمنصوريّة حياة بلاط ، وأن القصر لم يكن يضمّ غير أهله ، وربّما علّلنا هذا الانغلاق برغبة الخلفاء الفاطميّين الشديدة في أن لا يُعطوا لرعاياهم من حياتهم الخاصّة إلّا صورة الجدّ والوقار ، بله التقشف والتبتّل ، تلك الصورة التي يقدّمها لنا المقرئ من المعزّ وهو يستقبل جمعاً من أنصاره الكتاميّين : يَقَعُ الاستقبال في غرفة عارية ، يضيئها قنديل ضئيل ، ولا أثاث لها إلا البُسْط مطروحة على الأرض ومكتب صغير يجلس الخليفة وراءه في جبة عاديّة ، وعلى المكتب كتب وسجلات غَطَّتْهُ حتّى تبعثرت على أرض الغرفة . فلا يشكّ الناظر في أنّ المعزّ لا همّ له إلّا النظر في شؤون الدولة والدعوة ، يقضي في معالجتها الليل والنهار ، وربّما ساعدته على ذلك زوجته ، فهي معه بالغرفة ولكنها قعدت وراء حجاب عند دخول الكتاميّين . ويتوجّه الخليفة الى أنصاره بكلام بليغ ، فيحذّرهم من اتّباع الشهوات ، ولا سيّما شهوة الجسد ، ويحثّهم على الاكتفاء بزوجة واحدة حتّى يحافظوا على طهارة النسب الذي منه انحدرت سلالتهم ، وتسلمَ جسومهم من الأمراض والأدواء . ويُفهم من كلامه ، وكلّه بمسمع من زوجته ، أنّه يربط سلامتهم الجسديّة والأخلاقيّة بغايات الدولة القريبة في مصر ومقاصدها العسكريّة في الشرق ، فإذا انحلت

أخلاقهم بكثرة التسري واختلط الدم في أولادهم وأحفادهم ، وسكنوا إلى الحياة اللينة وركنوا إلى الدعة والأمن ، انخرمت قوتهم الحربية وضعفت عصبيتهم ، وقل غناؤهم في تحقيق مآرب الأئمة ، ذلك ما يصرح به لهم : « ... والزموا الواحدة التي تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثير منهن ، والرغبة فيهن ، فيتغنص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم (طبائعكم وأصولكم) . فحسب الرجل الواحد الواحدة ! ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم اذا لزمتم ما أمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم »⁽¹⁾ .

ونحن ، اذ نتبسط في مظاهر التقشف الفاطمي بافريقية ، لا نزع من الخلفاء كانوا يقضون كامل أوقاتهم على هذه الشاكلة التي وصفها المقرئ بل نجد في مدائح الشاعر ، شيئاً من الوصف للاحتفالات والمواكب التي يبرز فيها المعز إلى الناس ، في أبهة وبهجة ، تحف به الخيل المطهمة ويعلورأسه التاج المرصع ومن فوقه المظلة الفاطمية يرفعها الحاجب المكلف بها ليقى الخليفة من حر الشمس . وهي مواكب الأعياد والجمع ، بين القصر والمسجد . ولكن الغريب أن المؤرخين ، الفاطميين وغير الفاطميين ، لم يصفوا هذه المواكب ، حتى القاضي النعمان ، لم يبسط في كتاب « دعائم الإسلام » ، وهو حصيلة الفقه الفاطمي ، مراسم الاحتفالات الفاطمية الخاصة بالفترة الافريقية ، ولا حتى الاحتفال بذكرى غدير خم يوم 18 ذي الحجة ، وهو عيد سيصبح له شأن عظيم في الفترة المصرية . فالمظنون عندنا أن سكوت الرواة عن مظاهر الحياة الخاصة وحتى العامة ، يُبرر كما قلنا بانعدام الظواهر التي تدعو إلى الوصف والتبسط ، فلا شك أن الأئمة الأربعة ، وهم منشؤو الدولة وموطدو أركانها لم يكن لهم من الفراغ والدعة ما يدعوهم إلى إنشاء البلاط العامر وفتح المجالس الزاخرة : فأئى للقائم أو المنصور أو المعز

(1) انظر النص كاملاً في ص . 137 من اتعاظ الحنفاء .

أن يجمعوا الشعراء أو يسمعوا المغنين ، وهم دوماً بين حملة بيزنطية وتسرب أمويّ وفتنة خارجيّة ؟

ولا ننسى بعد هذا ، أنهم كانوا محاطين بكراهة أهل افريقية لهم ، أو على الأقلّ بالاحتراز والتحفظ ، إذ رفض أهل القيروان ادّعاءاتهم في الولاية على كافّة المسلمين ، وتحويراتهم لطقوس الدين ، فاعتبروهم مارقين عن السنة والجماعة ، دُخلوا على المغرب وعاداته ، فأطلقوا عليهم اسم « المشاركة » تحفظاً وربما ازدراءً . وفي هذا الصدد ، نجد في كتب الصالحين والزهاد ، كرياض النفوس للمالكي (1061/453) ومعالم الايمان للدبّاغ (1297/696) ، أمثلة كثيرة من مقاومة القيروانيّين ، السلبية أو الفعلية للنفوذ الفاطميّ وطقوسهم المستحدثة بالأرض التي طبعها سحنون (954/240) بصلايته ورباطة جأشه .

فمن المقاومة بالرّفْض ، امتناع المؤذن القيرواني « عروس » عن النداء بعارة « حيّ على خير العمل » التي يتضمّنُها الأذانُ الشيعيّ ، فيقول المالكي : « ... وفيها (في سنة 919/307) قُتل عروس المؤذن الرجل الصالح . كان رضي الله عنه يؤذّن بمسجد عباس صاحب سحنون ، وكان اسمه منيب ، وسبب قتله أنّه شهد بعض المشاركة أنّه لم يقل في أذانه : حيّ على خير العمل . ففُتق لسانه وقُتل بالرماح بعد أن طيف به بالقيروان ، ولسانه بين عينيه ... »⁽¹⁾ .

وكذلك تمسكُ الفقهاء في تقدير موعد الصوم والإفطار برؤية الأهلة ، ورفضهم للطريقة الحسابية التي عمل بها الفاطميّون ، رغم أنها أضمنُ للتقدير الصحيح وأنفى للخطأ الناتج عن تعذّر الرؤية ، مثلما يؤكّده الداعي علم الإسلام صاحب المجالس المستنصرية : « ... دخول الصوم والخروج منه (يكونان) بالرؤية والحساب جميعاً ، إنّهما كالظاهر والباطن ، إذا أشكل الأمر

(1) رياض النفوس ، مخطوط القاهرة رقم 116 ، ورقة 72 أ ، وج 152/2 من طبعة البكوش ، دار الغرب الإسلامي .

في أحدهما التمس في الآخر . . . فالهلال كالظاهر لأنه مشاهد ، والحساب كالباطن لأنه معقول . . . فان وافق الحساب الرؤية فقد اتفق الظاهر والباطن ، وزال الاشكال . . . وان وفى الحساب ، ولم يطلع الهلال عليم أنه قد غم أو وقع في نظره إخلال . . . »⁽¹⁾ . ويؤكد ذلك الداعي هبة الله الشيرازي في « المجالس المؤيدية ، بالحجج العقلية والنقلية » ، فمن النقلية والعقلية معاً تأويله الآية ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ . . . ﴾ بأن الله يشير إلى النصارى ، والنصارى لم يكن صومهم متعلقاً بالرؤية بل بالحساب⁽²⁾ .

ولكن الفقهاء تمسكوا بالرؤية فتعرضوا للنقمة والانتقام ، فيروي لنا المالكي في كثير من الاستفظاع ما نزل بأحدهم :
« وفيها (سنة 341) صُلب محمد بن الجبلي قاضي مدينة برقة .
والسبب في ذلك أنه أتاه عامل برقة المعروف بابن كافي فقال له : ان غداً العيد . فقال له : إن رؤي الهلال الليلة ، كان ما قلت ، وان لم ير ، لم أفرح لأنه لا يمكنني أن أفطر الناس في يوم من رمضان وأتقّل ذنوب الخلق . فقال له : بهذا وصل كتاب مولانا . فالتمس الناس الهلال تلك الليلة فلم يروه . فأصبح العامل إلى القاضي بالطبول والبند وهيته العيد . فقال له : لا والله لا أخرج ولا أخطب ولا أصلي ولا أفطر الناس في يوم من رمضان ولو علقت بيدي . فمضى العامل فجعل من خطب وصلى ، وكتب بما جرى الى مولاه . . . (فاستقدمه الى القيروان) فنصب له صارياً عند الباب الآخر من أبواب الجامع الذي يلي درب المهر وعلق بيده إليه في الشمس ، فأقام كذلك ضاحياً في شدة الحر يومه ذلك . فلما كان بالعشي مات رحمه الله . وكان يطلب من يسقيه الماء في ذلك الحال ، فلا يجسر أحد من الناس (على)

(1) المجالس المستنصرية نشر محمد كامل حسين ، ص 128-129 من المتن وص 216 من التعليقات .

(2) البقرة ، 183 . وانظر ما يقوله محمد حسن الأعظمي في كتابه : « الحقائق الخفية . . . » الرؤية والحساب ، وتعليل صوم رمضان كاملاً ، وكذلك عن التقويم « المصري » الفاطمي .

سَقِيهِ . . . ثَمَّ صَلَبُوهُ عَلَى خَشَبَةِ بَابِ أَبِي الرَّبِيعِ رَحِمَهُ اللَّهُ» (1).

أَمَّا الْمَقَاوِمَةُ بِالتَّحَرُّكِ ، فَتُظْهِرُ فِي إِفْتَائِهِمْ بِشَرْعِيَّةِ الْإِنْضِمَامِ إِلَى ثَوْرَةِ أَبِي يَزِيدَ عَلَى الْحُكْمِ الْمَشْرِقِيِّ « فَنُقَاتِلُ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ أَفْضَلَ مِنْ قِتَالِ الْمُشْرِكِينَ » وَيَمْضِي الْمَالِكِيُّ فِي سَرْدِ كِرَامَاتِ أَبِي الْفَضْلِ الْمَمْسِيِّ الْفَقِيهِ فَيَنْقُلُ إِلَيْنَا فَتَوَاهُ فِي وَجُوبِ الْخُرُوجِ مَعَ أَبِي يَزِيدَ « لِأَنَّ الْخَوَارِجَ مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ لَا يَزُولُ عَنْهُمْ اسْمُ الْإِسْلَامِ ، وَلَوْ زَنَوْا وَسَرَقُوا ، وَبَنَوْا عِبِيدَ لَيْسُوا كَذَلِكَ ، لِأَنَّهُمْ مَجُوسٌ زَالٌ عَنْهُمْ اسْمُ الْمُسْلِمِينَ فَلَا تُتَوَارَثُوا مَعَهُمْ وَلَا تُتَنَسَّبُوا . . . » (2).

وَفِعْلاً حَمَلَ كَثِيرٌ مِنْ صُلَحَاءِ الْقَيْرَوَانِ السِّلَاحَ مَعَ الْخَوَارِجِ ، فَاخْتَارُوا بَيْنَ الشَّرَّيْنِ أَخَفَّهُمَا ، رَاجِينَ مِنَ اللَّهِ أَنْ يُظْهِرَهُمْ عَلَى الْمِشَارَقَةِ أَوَّلًا ، ثُمَّ أَنْ يَسْلُطَ عَلَى أَبِي يَزِيدَ مَنْ يَقْهَرُهُ بِدَوْرِهِ . هَذِهِ هِيَ السِّيَاسَةُ الَّتِي صَرَّحَ بِهَا أَبُو إِسْحَاقَ السَّبَائِيِّ عِنْدَ خُرُوجِهِ إِلَى الْوَادِي الْمَالِحِ حَيْثُ سَيَسْتَشْهِدُ مَعَ أَرْبَعَةِ وَثَمَانِينَ مِنْ أَهْلِ الْقَيْرَوَانِ : « . . . فَعَلَيْنَا أَنْ نَخْرُجَ مَعَ هَذَا الَّذِي مِنْ أَهْلِ الْقَبْلَةِ لِقِتَالِ مَنْ عَلَى غَيْرِ الْقَبْلَةِ ، وَهُمْ بَنُو عَدُوِّ اللَّهِ . فَإِنْ ظَفَرْنَا بِهِمْ لَمْ نَدْخُلْ تَحْتَ طَاعَةِ أَبِي يَزِيدَ لِأَنَّهُ خَارِجِيٌّ ، وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَسْلُطُ عَلَيْهِ إِمَامًا عَادِلًا فَيُخْرِجُهُ مِنْ بَيْنِ أَظْهَرِنَا وَيَقْطَعُ أَمْرَهُ عَنَّا » (3).

وَقَدْ حَفِظَ الْمَنْصُورُ ثَمَّ الْمَعَزَّ عَلَى أَهْلِ الْقَيْرَوَانِ خِذْلَانَهُمْ وَتَحَالَفَهُمْ مَعَ صَاحِبِ الْحِمَارِ ، بَلْ مِنَ الدَّارِسِينَ مَنْ يَعْزُو انْتِقَالَ الْمَعَزِّ إِلَى الْقَاهِرَةِ ، إِلَى هَذِهِ الْعِدَاوَةِ الدَّائِمَةِ بَيْنَ الْقَيْرَوَانِ وَالْدَوْلَةِ الشَّيْعِيَّةِ . وَفِي هَذَا التَّعْلِيلِ شَيْءٌ مِنَ الصَّحَّةِ ، وَإِنْ كَانَ السَّبَبُ الرَّئِيسِيُّ فِي نَظَرِنَا هُوَ عِزْمُ الْمَعَزِّ عَلَى الْإِسْتِيلَاءِ عَلَى الشَّرْقِ الْعَبَّاسِيِّ . وَلَكِنْ لَا نَشْكُ فِي أَنَّهُ كَانَ يَضِيقُ بِتَحْفِظِ الْقَيْرَوَانِيِّينَ ، فَلَمْ يَكُنْ هَذَا الْجَوُّ مَلَأْتُمَا لَزْدَهَارِ حَيَاةِ الْبَلَاطِ وَلَا لِلْإِكْثَارِ مِنْ مَظَاهِرِ الْأَبْهَةِ وَالسُّوْدُودِ

(1) رِيَاضُ النُّفُوسِ ، وَرَقَّةٌ 192 ب ج 404/2 مِنْ طَبْعَةِ الْبَكُوشِ دَارِ الْغَرْبِ الْإِسْلَامِيِّ .

(2) نَفْسُ الْمَرْجِعِ ، 297/2 .

(3) نَفْسُ الْمَرْجِعِ ، 339/2 .

إزاء الرعيّة ، لا سيّما وأنّ الدعوة الفاطميّة أتت مستنكرة للترف العبّاسيّ عازمة على إبطال اللهو والانحلال وتعويضه ببساطة السلف الصالح والصدر الأوّل .
فلذلك لا نجد صدى للأبهة الملكيّة في فترتهم المغربيّة . أمّا في مصر ، فقد
لان لهم القياد ، واتّسع سلطانهم ، ونقص زهدهم ، فلذلك تَبَسَّطوا في
المراسم الملوكيّة وحياة البلاط وتفخيم المواكب والاحتفالات⁽¹⁾ .

ولئن تعرّض الشاعر الى بعض هذه المظاهر من الحياة العامّة ، فإنّه
يحيطها بضبابٍ من الإبهام لا يَسمح قطُّ بوضعها في إطار جغرافي وتاريخيّ
معين ، فلا آسم المدن يدقّقه ، لا القيروان ولا المنصوريّة ولا المهديّة ، ولا
برقة التي مدح صاحبها ، ولا حتى المسيلة التي قضى بها خمس سنوات .

فإذا استثنينا الزاب والمغرب الأقصى اللذين يذكّران أحياناً ، وجبال
الأوراس التي ذكرت مرّة واحدة ، واعتبرنا في الجانب المقابل إفراطه في
التمثيل بجبال جزيرة العرب ، وقرى الحجاز وأودية نجد ، حُقّ لنا أن
نتساءل : هل كان صاحب الديوان مغريباً إفريقيّاً ؟

وكذلك الأمر في خصوص الأشخاص ، فإنّه لا يذكر إلا الممدوحين
المعروفين كالمعزّ وبني حمدون وأفلح الناشب وجوهر . أمّا الآخرون ، من
كبار رجال الدولة كالقاضي النعمان ، وجوذر الحاجب ، وأمراء صقلية
الكلبيين ، وخصوصاً الأمراء الصنهاجيين البرابرة ، فلا يذكر اسمهم ولو مرّة
واحدة ، لا تصرّيحاً في القصائد ولا تلميحاً في توطئاتها . وقد فسّرنا إعراضه
عن رؤساء صنهاجة بأحد أمرين : إمّا تبنّيه لعداوة بني حمدون لهم ، وأمّا
نَحْوُهُ العربيّة اليمنيّة التي تحمله على احتقار العنصر البربريّ مهما علت
مكانته ، مثلما يدفعه تعصّبه للتقاليد العربيّة في الشعر إلى أن لا يشبّه بناءً
شامخاً الا برضوى وككب وحصناً منيعاً إلّا بالأبلى . ولعلّه بعد هذا كان متأثراً

(1) ما . كانار : المراسم الفاطميّة ص . 417 .

هو أيضاً بجو الضيق والفتور الذي يميّز العلاقة بين الخليفة ورعاياه⁽¹⁾ .

ولنتظر على كل حال في هذه الاشارات ، مهما كان غموضها وقلة غنائها .

الاحتفالات العمومية وظهور الخليفة فيها

يشير الشاعر مثلاً إلى الاحتفالات الخاصة بشهر رمضان ، ولكن بدون تفصيل : [كامل]

92/1 يفديك شهر صيامنا وقيامنا ثم الشهور له بذاك فداء

ونجد اشارة مماثلة الى شهر الصيام في القصيدة الاولى التي أنشدها أمام المعز ، ولعلّ إلقاءها كان فعلاً في رمضان : [كامل]

82/53 قرصان من صوم وشكر خليفة هذا بهذا عندنا مقرون

وفي قصائد أخرى ، نجد إشارة الى عيد الفطر كأن للعيد موكباً يتضمن فيما يتضمن إنشاداً للشعر : [خفيف]

25/35 ليس العيد منه ما يلبس الإيمان من نصل سيفه البراق

26 وجلّ الفطر منه عن نبوي أبيض الوجه أبيض الأخلاق

وكذلك عيد الإضحى فرصة لمدح الخليفة ووصف الاحتفال الرسمي

الذي يحضره المعز مع بطانته : [كامل]

22/41 في موسم النحر السنيع يروني فأغض طرفاً عن سنأه كليل

23 والجو يغتر بالأسنة والظي الأرض واجفة تميل مميل

24 والخافقات على الوشيح كأنما حاولن عند المعصرات دحولا⁽²⁾

(1) ما . كانار : حياة ... ص . 14-15 .

(2) السنيع : الجميل اللطيف ، والظي : السيوف . والوشيح : قضبان الرماح . والمعصرات : السحب . والدحل : الثأر .

المظلة

هذه المظلة الممتدة الأطراف ، التي تصاحب الخليفة في كل تنقلاته الرسمية وكأنها من لوازم الملك كالتاج والصولجان عند غيره ، يصفها ابن هانئ في شيء من التبسط ، فيشبهها في امتدادها وسعة دائرتها بالسحابة ، ولعله يلمح إلى الغمامة التي ورد في السيرة النبوية أنها كانت تلازم محمداً (صلى الله عليه وسلم) في أسفاره : [خفيف]

30/35 وَغَمَامٍ فِي ظِلِّ أَلْوِيَةِ النَّضْرِ ، فَمِنْ رَاجِفٍ وَمِنْ خَفَاقٍ

هذه الغمامة منسوجة من الذهب بخيوط مضاعفة ، مرصعة بالجواهر ، تشبه في علوها القباب التي تُنصب على الطعائن فوق مطاياهن : [كامل]

27/41 وَعَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ غَمَامَةٌ نَشَأَتْ تُظِلُّ تَاجَهُ تَظْلِيلًا

28 نَهَضَتْ بِثِقَلِ الدَّرِّ ضَوْعَفَ نَسْجِهَا فَجَرَتْ عَلَيْهِ عَسْجَدًا مَحْلُولًا

32 ... رُفِعَتْ لَهُ فِيهَا قَبَابٌ لَمْ تَكُنْ ظُغْنًا بِأَجْرَاعِ الْحِمَى وَحُمُولًا

وعليها نقشت صور حمام في أيكها ، فكلما تحركت أضلاع المظلة خفقت أجنحة بنات الهديل كأنها تستعد للانطلاق في الجو :

33 أَيْكِيَّةُ الذَّهَبِ الْمُرْصَعِ رَفَرَفَتْ فِيهَا حَمَامٌ مَا دَعَوْنَ هَدِيدًا

34 وَتُبَاشِرُ الْفَلَكَ الْأَثِيرَ كَأَنَّمَا تَبْغِي بِهِنَّ إِلَى السَّمَاءِ رَجِيلاً

الخيول

للشاعر اهتمام خاص بالخيول ، لأن الخليفة حسب زعمه ، ميال إليها عطوف عليها ، عليم بأنواعها وشياتها . فكثيراً ما يلجأ إلى تشبيه أفراس المعز بالغواني الحسان : [كامل]

39/41 وَكَأَنَّما الْجُرْدُ الْجَنَائِبُ خُرْدٌ سَفَرَتْ تَشَوْقُ مُتِيماً مَتْبُولاً

ويشيد بمحبة الخليفة للخيـل ، فهو الذي يتخيـر لكل فرس اسماً أو لقباً ، ويـبني له مقصورةً شبيهة بالقصر في العلو : [متقارب]

32/58 وَلَمَّا تَخَيَّرَ أَنْسَابَهَا تَخَيَّرَ أَسْمَاءَهَا وَالْكُنَى

33 وَلَيْسَ لَهَا مِنْ مَقَاصِيرِهِ سَوَى الْأُطْمِ الشَّاهِقِ الْمُبْتَنَى

ولا بدع أن يكون الخليفة شديد الشغف بالخيـل ، وبالتالي أن يتوسّع ابن هانئ في وصفها والإشادة بها : أليست هي دوابّ الحرب قبل غيرها ؟
فلذلك نراه يصفها أيضاً في حالة الشدة والجهاد : [طويل]

30/37 لَهُ الْمُقَرَّبَاتُ الْجُرْدُ يُنْعِلُهَا دَمًا إِذَا قَرَعَتْ هَامَ الْكُمَاةِ السَّنَابِكُ

31 يُرِيقُ عَلَيْهَا اللُّؤْلُؤُ الرُّطْبُ مَاءَهُ وَيَسْكُبُ فِيهَا ذَائِبُ التَّيْرِ سَابِكُ

ولا شك أن محبة الشاعر لها ليست وليدة عطف الخليفة عليها : فهو يحبها لذاتها محبة صادقة ولا يتزلف إلى المعز بوصفها ، ودليلنا على ذلك أنه خصص لها أربعين بيتاً من القصيدة 23 التي وصف فيها هدايا جوهر الى المعز من مصر . تضمّنت الهدية مجموعة من عتاق الخيل ، فأخذ الشاعر في تعداد محاسنها ، وتدقيق ألوانها ، وتفنن في اختيار اللفظ والصورة حتى برز المشهد تحفة فنية رائعة . وسنعود الى هذا الوصف حين ندرس فن ابن هانئ ، وبالخصوص تأثير المراثيات في أفقه الشعري .

السيف ذو الفقار

في هذه المواكب يتقلد الخليفة سيفه ، ويدعوه الشاعر « ذا الفقار » مسaireً للاعتقاد الشيعي في أن سيف الأئمة انما هو سيف الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذي « لم يضرب به غير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وعليّ

وصيّه ، بإعطائه إياه له ، فلم يُعطِه أحداً قطُ غيرَه ⁽¹⁾ . وقد اغتصبه العبّاسيّون فاسترجعه أبناء فاطمة في ظروف عجيبة رواها لنا القاضي النعمان . ثم توارثه الأئمة أبا عن جدٍ يخرجون به إلى الأعداء فيهزمونهم ، ولا سيّما المنصور في وقعة « الخصوص » أو « الحريق » ضدّ صاحب الحمار . يصف النعمان بطولات السيف وجهاد المنصور فيقول على لسان أحد الشهود : « وكان يوماً شديداً ، وقد أخذ العدو علينا مضايق الجبال ، وأحدقوا بنا من كلّ جانب ، وهو (المنصور) بيننا صلى الله عليه وآله ، يقدّمنا ، وهذا السيف في يده وقد انتضاه ، فاذا رفع يده به وحمل على ناحية من نواحي العدو ، انهزموا بين يديه كأنما غشيتهم صاعقة من السماء » .

فلا غرو أن يكون هذا السيف « على قصره وقلة قدره في العين » عظيم الشأن عند الفاطميين ودعاتهم ، وذلك « لاختصاص الله عز وجل به رسول الله صلى الله عليه وآله ، واختصاص عليّ بالكرامة التي أكرّمه بها ، والحجة التي اختصّه بفضلها ، والعلم الذي أودعه إياه ، لأنّ السيف في الظاهر آلة الغلبة باليد ، والعلم في الباطن آلة الغلبة باللسان والحجة » .

وهكذا صار ذو الفقار ، بانتقاله من الرسول إلى عليّ ، رمزاً لانتقال الإمامة الدينية والزمنية ، ووراثه العلم الباطن ، « فاختصّ عليّاً صلوات الله عليه بما لم يختصّ به غيره » ⁽²⁾ .

وقد رويت في شأن صنعه الأوّل أعاجيب أخرى ، ذكر بعضاً منها الأميني في موسوعة الغدير . وكذلك فصلّوا مآتيه ومناقبه وبلاءه في بدرٍ حتى أنّ صوتاً سماوياً - وقيل جبريل نفسه - صرخ :

لا سيف إلّا ذو الفقار ، ولا فتى إلّا عليّ

(1) القاضي النعمان : المجالس والمسائرات 114-115 .

(2) القاضي النعمان : المرجع المذكور .

فصار هذا البيت نشيداً ينشد في الوقائع وشعاراً ينقشه الصياقل على ما يصنعونه من سيوف ، تفاؤلاً وتبركاً⁽¹⁾ .

واكتسب ذو الفقار صفةً قدسيةً لأنه رمز مادي للوصية ، أي لإمامة عليّ ، كما أنّ حديث الغدير هو الإعلان المعنويّ عليها ، واقترن اسمه في ذاكرة الشيعة باسم وارثه وصاحبه ، علي بن أبي طالب .

وعلى مرّ الزمان ، انتقل اسم « ذو الفقار » من الحديد إلى البشر ، فصار يطلق على الأشخاص ، خصوصاً عند شيعة القارة الهندية ، كما صار اسم الحسين - الحسن والحسين - يعيّن الرجل الواحد ، في مصر مثلاً .

ولا يفوت الشاعر أن يشيد بسيف المعزّ ، ويلحّ على كونه موروثاً عن النبيّ (صلى الله عليه وسلم) : [كامل]

69/41 لك حُسْنُهُ متقلّداً وبهاؤُهُ مُتَنَكِّباً ، وَمَضَاؤُهُ مَسْلُولاً
74 ... سَمَاءُ جَدُّكَ ذَا الْفَقَارِ ، وَأَمَّا سَمَاءُ مَنْ عَادَيْتَ : عَزْرَائِيلاً

على أنه يطلق اسم ذي الفقار على كل سيف مسلول في خدمة الأئمة ، كما رأينا في مدحه للشيباني⁽²⁾ : [بسيط]

66/60 لِلَّهِ مَا تَنْتَظِي مِنْ ذِي الْفَقَارِ وَمَا تَشُدُّ مِنْ عَصْدِ الرَّأْيِ الْإِمَامِيّ

التاج

لا يصف ابن هانئ بالتدقيق تاج الخليفة ، وإن كان ذكره غير ما مرّة ، في صورة تشعر بأنّه إكليل بارز لامع يُرى من بعيد ويبعث مرآه الرعب في قلوب

(1) عبد الرحمان زكي : النقوش الزخرفيّة والكتابات على السيوف الإسلاميّة ، صحيفة المعهد الإسلاميّ بمدرّيد ، 1957 ، ص 203 .

(2) انظر الفصل الثالث ، ص 98 .

الأعداء من بني أمية : [كامل]

41/9 يَهْتُوا فَهْمُ يَتَوَهُمُونَكَ بَارِزاً وَالتَّاجَ مَوْثِقاً عَلَيْكَ لَمْوَحاً

وبالرغم من أن ابن حمّاد⁽¹⁾ يزعم أن المعزّ هو أول من تتوجّ من ملوك بني عبيد ، فانا نظنّ ، مع ماريوس كانار⁽²⁾ ، أنه لم يكن تاجاً بالمعنى المعروف ، أي غطاء مصنوعاً من معدن نفيس مرصّع بالحجارة الكريمة ، بل كانت عبارة «التاج» تُطلق على عمامة الخليفة مشدودةً حول الرأس بطريقة خاصّة به . فلو كان تاجاً فخماً ، كما سيصير عند فاطميّ مصر ، لما أغفلهُ الشاعر ولتبسّط في وصفه كما فعل بالمظلة . بل بالعكس نراه يذكره ، في قصيدة أخرى ، بكيفيّة تُشعر بأنها العِمامة لا غير : ذلك أن الخليفة ، حين بلغه انتصار أسطوله ، قبل الأرض سجوداً لله وحمداً ، فتعفّر وجهه و « النظم والإكليل » ، أي نظام العمامة وكيفيّة شدّها : [كامل]

13/40 . . . وَسُجُودَهُ حَتَّى التَّقَى عَفْرُ الثَّرَى وَجَبِيْنُهُ وَالنُّظْمُ وَالْإِكْلِيلُ

فلا شكّ أنهم اصطَلَحوا على عمامة الخليفة فسَمّوها تاجاً نظراً لامتيازها بلون خاصّ وقماش خاصّ ، وربما لترصيعها فيما بعد بالجواهر . وكذلك اصطَلَحوا على العمامة التي اختصّ بها بعض حجاب قصورهم ، فسَمّوها الحنك لأنها كانت تدار على الحنك ، وسَمّوا صاحبها الأستاذ المُحَنِّك⁽³⁾ .

العرش

تتضمّن المواكب الرسميّة مجلساً عمومياً يظهر الخليفة أثناءه لرعيّته ؛ وقد تبسّط في وصفه مؤرّخو مصر خاصّة ، ممّا يدلّ على أنه لم يكن بافريقيّة

(1) أخبار بني عبيد 45 . وانظر : صبح الأعشى 468/3 و 480 .

(2) المراسم الفاطميّة . . . Cérémonial 390- 392 .

(3) المقريري : خطط 67/4 . وانظر : صبح الأعشى 477/3

على نفس الأهمية ؛ وهو يخضع ، حسب ما ورد في وصف المقريري⁽¹⁾ ، لترتيب مضبوط ونظام مقرر يقصد منه بعث الهيبة والخشوع في نفوس العامة : فالخليفة يجلس على عرشه ، دون أن يراه الحاضرون ، فإذا استوى على مقعده في كامل عدته ، جذب الحجاب الستائر كلها دفعة واحدة ، فيبرز الإمام آنذاك لرعاياه المبهورين في عظمته الكاملة .

يحدثنا الشاعر عن الستائر التي تحجب المعز ثم ترفع سدولها فجأة فتنتطق ، وهي العجماء ، بجلالة الإمام : [كامل]

57/41 وَلَحِظْتُ مِبْرَكَ الْمُعَلَّى رَاجِعاً مِنْ تَحْتِ عَقْدِ الرَّائِتَيْنِ مَهُولاً
58 مَسْدُولَ سِتْرِ جَلَالِهِ أَنْطَقَتْهُ فَرَفَعَتْ عَنْ حُكْمِ الْبَيَانِ سُدُولاً

في الحقيقة ، لا يتحدث عن « عرش » ، بل يذكر « منبراً » ، فهل يعني أنّ هذه الجلسات العمومية كانت تقع بالجامع ؟ أم يستعمل عبارة « منبر » في معنى لغويّ بحت ، وهو المقعد والموقف المرتفع شيئاً ما عن الأرض ليسهل على الخطيب إبلاغ صوته ؟ لا ندري ، وإن كانت الأبيات الموالية ترجّح أنّ المقصود هو المسجد الجامع : فالشاعر يشيد بتقوى الإمام وجهاده وعطفه على الحجيج : [كامل]

59/41 وَقَضِيَتْ حَجَّ الْعَامِ مُؤْتَفِئاً ، وَقَدْ وَدَعْتَ عَاماً لِلجِهَادِ مُحِيلاً

إنّ عبارة الشاعر في هذا البيت شديدة الغموض في الحقيقة : فقلوه « قضيت حجّ العام » لا يدع في الظاهر مجالاً للشك في أن المعز حجّ إلى مكة ورجع منها بعد إتمام المناسك ، وعبارة « مؤتفئاً » تشعر بأنه قضى هذا الفرض ابتداءً ، أي لأول مرة⁽²⁾ . ولكن ، من جهة أخرى ، لم يذكر المؤرخون قط أنّ المعز قد حجّ إلى البيت ، بل يستنتج من كتيب للمقريري عدّد فيه « من

(1) خطط ، 2 / 215- 216 .

(2) التنف الشيء واستأنفه : أخذ أوله وابتدأه (اللسان : أنف) .

حجّ من الخلفاء والملوك»⁽¹⁾ أنّ الخلفاء الفاطميين لم يحجّ منهم أحد ، سواء في الفترة المغربية أو المصرية . ولو كان المعزّ راجعاً من المناسك ، لما اكتفى شاعره بهذه الاشارة الغامضة للإشادة بهذا الفعل المبارك . فماذا يعني إذن ؟

لعلّ الخليفة استقبل وفداً من الحجيج فأغدق عليهم النعم ، أو شفع لهم ، كما يقول الشاعر ، فرفع عنهم مظلمة :

60/41 وَشَفَعْتُ فِي وَفْدِ الْحَجِيجِ كَأَنَّمَا نَفَلْتُهِمْ إِخْلَاصَكَ الْمَقْبُولَا

ولكن ، أي شفاعة وأي مظلمة يعني ، أيقصد القانون الذي كان أصدره المهدي عبيد الله سنة 921/309 موجباً على كلّ من يقصد الحجّ مهما كان منطلقه ، أن يمرّ بالعاصمة (المهدية) ليدفع الضرائب الموظفة عليه في كل ولاية يمرّ بها ؟ وقد كان هذا القرار ، حسب ما يذكره ابن عذاري⁽²⁾ ، سبباً من أسباب النقمة على العبيديين ، لأنه يضاعف المسافة ويطيل السفر على الحجيج . فهل أبطل المعزّ العمل به ؟ ولكن ما بال المؤرّخين لا يذكرون له هذه المكرمة ؟

أم هل يشير إلى توسّل والدته المعزّ الى ابنها في أن لا يحرك جيوشه نحو مصر قبل أن تقوم هي بواجب الحجّ ، ثم رغبته اليه أن يؤجل الحملة الى ما بعد وفاة كافور ، اعترافاً له بما حباها به من حسن القبول عندما مرّت بأرضه في طريقها الى مكة ؟ لا يسعنا ، في كلّ هذا ، إلّا التساؤل ، نظراً لغموض عبارة الشاعر ، بل ولاستغلاقتها لأنها لا تتفق في الحقيقة مع أيّ من هذه الافتراضات .

ومن هذه المكرمات التي صنعها المعزّ بالمسجد ، يذكر الشاعر أيضاً

(1) ص 12 من مقدّمة كتاب « الذهب المسبوك » .

(2) ابن عذاري : بيان . . ج 1 ، ص 186 .

عفوه على « الناكثين » ، ولعلّه يعني بعض الثائرين الذين وقعوا في قبضته :

61/41 وَصَدَرَتْ تَحْبُو النَّاكِثِينَ مَوَاهِباً هَزَّتْ قَوْوُلًا لِلْسَّمَاحِ فَعُولًا

ولكنّه حسب المألوف ، لا يذكر أسماءهم ، ولا ظروف نكثهم .

مدى حظوة الشاعر لدى المعزّ

نعود الآن إلى البحث عن مرتبة ابن هانئ بين شعراء الدولة ، وذلك على ضوء ما يتقدّم به الى الخليفة من شكاوى وتذمّرات من الحساد ، على غرار ما يشكوه المتنبي في بلاط سيف الدولة .

لا يوضّح لنا أسماء هؤلاء الحساد ، ولا سبب حسدهم ، وإنّما نفهم أنهم يرمونه بالتزلف الكاذب الى الخليفة طمعاً في عطائه وبذلك الطمع يفسّرون غلوّه في المدح . ويدفع الشاعر التهمة فيؤكّد أنه صادق في مدحه لا يحدوه حرص ولا طمع : [طويل]

63/3 أَرَانِي إِذَا مَا قُلْتُ بَيْتاً تَنَكَّرْتُ وَجُوهَ كَمَا غَشَى الصَّحَائِفُ تَتَرَبَّ
64 أَفِي كُلِّ عَصْرِ قُلْتُ فِيهِ قَصِيدَةً عَلَيَّ لِأَهْلِ الْجَهْلِ لَوْمٌ وَتَثْرِبُ؟
65 وَمَا غَاظَ حُسَايَ سِوَى الصِّدْقِ وَحْدَهُ وَمَا مِنْ سَجَايَا مِثْلِي الْإِفْكَ وَالْحُبُ
66 وَمَا قَصْدُ مِثْلِي فِي الْقَصِيدِ ضَرَاغَةً وَلَا مِنْ خِلَالِي فِيهِ حِرْصٌ وَتَرْغِيبُ

وقد نُسبت سعاية من هذا النوع إلى وليّ العهد تميم ، وعُلّلت بغيرة الأمير الشاعر من حظوة ابن هانئ عند أبيه . ولكن ، لا يمكن أن نعدّ تميمياً من الطامعين في جوائز الخليفة ، فنحشره في زمرة هؤلاء الحساد الذين يشكّوهم ابن هانئ . فالأرجح أنّه يتذمّر من بقيّة شعراء القصر ، وإن كنا نجهل أسماءهم : فهو يحثّ الخليفة على أن يحكم بينه وبينهم حكماً عادلاً ، فيحلّه المحلّ اللائق به وهو محلّ ربّ القريض ، دون أن يطالبه ، مثل المتنبي ، « بكتبهم » لازالة حسدهم :

68/3 أَيْنَ مَوْضِعِي فِيهِمْ لِيَفْخَرَ غَالِبٌ بَيْنَ بَسِيمَاهُ ، وَيُدْحَرَ مَغْلُوبٌ
69 وَقَدْ أَكْثَرُوا ، فَاحْكُمْ حُكُومَةً فَيَصِلُ لِيُعْرِفَ رَبُّ فِي الْقَرِيضِ وَمَرْبُوبُ!

فمن هم هؤلاء الشعراء الذين كالوا له الاتهام في بلاط الخليفة ؟ ان المصادر لا تذكر لنا شيئاً عن هذا التنافس . ولا شك أن الشعراء كانوا كثيرين بالقيروان في مدة المعز ، وأن منهم من تجاسر على مدح الإمام الشيعي بالرغم من استنكار الفقهاء والصلحاء . ولكن لم يصلنا شيء من شعرهم ، إما لأنهم كانوا مغمورين لم تثبت قصائدهم أمام تعاقب الأزمان والعصور ، وإما لأن دواوينهم أُلقت بعد تراجع بني زيري عن الولاء الفاطمي سنة 1015/407 ورجوعهم الى مذهب السنة . وبقيت لدينا أسماء بدون آثار ، مثل ابن القتار الذي ذكره المالكي⁽¹⁾ ضمنَ مادحي الأئمة ، وكان معاصراً لشاعر آخر عرف بهجائه لهم ، اسمه سهل بن إبراهيم الوراق⁽²⁾ ، أو ، ان وصلتنا منهم أشعار ، فهي مطهرة من المعاني الاسماعيلية مقتصرة على وصف الخيل أو القصور ، مثل المقطوعات التي احتفظ بها الحصري من شعر علي بن محمد الأيادي وهو شاعر عاصر المعز والتحق به بالقاهرة ومات بعده⁽³⁾ . ولعلّ موقف هؤلاء الشعراء ازاء الفاطميين كان صورة من موقف أهل القيروان ، في تقسمهم بين قبول النفوذ الفاطمي ومقاومته .

أما الشعراء الآخرون ، الذين توسع المالكي ثم الدبّاغ في نقل أخبارهم ، فهم أقرب إلى الفقهاء منهم إلى الشعراء المحترفين فتظهر مشاركتهم في الشعر السياسي المذهبي عرضية . من هؤلاء ، أبو القاسم الفزاري الذي لم يرو له صاحب الرياض إلا الشعر المناهض للشيعية ،

(1) رياض النفوس 495/2 .

(2) حوليات 1973 ص 142 . وانظر رسالة بويحيى : الحياة الأدبية . . . 144 حيث وضع الوراق سهواً في الفترة الصنهاجية .

(3) زهر الأداب / 1003 . وانظر : ح . ح ، عبد الوهاب : الأدب . . . 96 وبويحيى : المرجع المذكور 89 . وانظر شعر الإيادي في الحوليات 1972 وكذلك فصل « الإيادي » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

وبخاصة رثاءه للفقير الممسي الذي لقي حتفه في صفوف أبي يزيد بوقعة الوادي المالح سنة 944/333 ، ثم مقطوعتين في هجاء العبيديين ، وكأنّ المالكي أهمل عن قصد « القصيدة الفزارية » التي مدح بها المنصور بعد ظهوره على صاحب الحمار ، ليكفر بدون شك عن هجائه السابق للأئمة⁽¹⁾ . وهي ، على طولها ، لا تتضمّن مدحاً كثيراً ، فالقسم الأول منها ، وهو الأطول - 33 بيتاً من 63 - خصّصه الفزاري لذكر فرسان العرب وكرماتهم وحملاتهم والتذكير بآثارهم تمهيداً لطلب العفو الذي تقدّم به في القسم الثاني . وقد عفا عنه المنصور حسب ما يرويه المخطوط ، بالرغم من معارضة بعض بطائنه ، كمحمد بن عبد الله الأبروطي⁽²⁾ ، وهو شاعر شيعي حاول أن يثني الخليفة عن الصفح ، فذكره بأهاجي الفزاري في آل البيت : [مقارب] أَيْمُشِي الْفَزَارِيُّ فَوْقَ التُّرَابِ وَأَظْفَارُهُ فِيكُمْ دَامِيَات ؟ ولكنّ هذا الشاعر مجهول لدينا ، وكذلك راوي شعره في المخطوط ، وهو ينقل عن مؤرّخ يدعى العتقي⁽³⁾ .

أمّا علي الايادي التونسي ، فقد عرف بمدحه للقائم الخليفة الفاطمي الثاني ، وقد روى لنا ابن رشيّق خبراً مفاده أنّ شعراء القيروان (ولا يذكر صاحب العمدة أسماءهم)⁽⁴⁾ قد هجوا ابن هانيء عند قدومه الى عاصمة الخلافة ، ف قيل له : هلاًّ أحبّتهم ؟ فترفع عنهم جميعاً ، الآ عن الايادي فقال : لو هجاني الإيادي لهجوته . فرفعه بهذا الجواب الماهر على غيره ، لذلك لم يشأ الايادي أن يهجوّه . وعلى كل حال ، لا نظنّ أنّه كان من بين

(1) نشرنا القصيدة الفزارية في الحواريّات 1972 ص 110 ، وانظر فصل « الفزاري » في ملحق دائرة المعارف الإسلامية .

(2) أو الأبرقطي . انظر الحواريّات 10 ص 154 وعدد 17 ص 56 .

(3) حواريّات ، 1972 ، ص 110 وعن العتقي ، انظر : عمر السعيد : مقدّمة العيون والحدائق ص 35 ومحمد كامل حسين : في أدب مصر الفاطمية ، ص 110 هامش ١ .

(4) العمدة ، ص 111 .

الشعراء الذين يشكو منهم ابن هانيء ، لأنه كان اذ ذاك طاعناً في السن ، وربما انقطع عن قول الشعر ، رغم لحاقه بالمعز عن سن تناهز المائة . ولئن مدح المعز ، فإن مدحه لم يصلنا منه الا قطعته المشهورة في وصف « دار البحر » أي قصر الخلفاء بالمنصورية .

ويذكر الدبّاغ شاعراً فقيهاً آخر اسمه « ابن الرئاس »⁽¹⁾ ، ولكنه يؤرخ وفاته - وكذلك وفاة الفزاري - بسنة 956/345 ، أي قبل وصول ابن هانيء الى القيروان بثمانى سنوات . ونجد أيضاً في بعض المصادر أبياتاً من أرجوزة تنسب الى شاعر شيعي يدعى المروزي ، أو المروروذي أو المرودي ، ويبدو أنه ابن المروزي القاضي الشيعي الذي عرف بتكيله بفقهاء السنة بالقيروان⁽²⁾ . ولم تذكر المصادر أن المروزي الشاعر كانت له صلة بابن هانيء .

فلا يمكن اذن أن يكون هؤلاء الشعراء من حساد صاحبنا ومنافسيه في بلاط المعز . فلا يسعنا اذن الا أن نسجل له هذا التذمر دون أن نتأكد من صحّة مزاعمه ، لجهلنا بهويّة مبغضيه .

ولعلّ توجهه الى المعز حتى يفصل بينه وبينهم يدلّ على أنّ الخليفة كان يغالب أحياناً تقشّفه الطبيعي فيرضى بالاستماع الى مدح شعرائه ، نزولاً منه عند رغبتهم أو اقتناعاً بأهمية الشعر في نشر الدعوة الفاطمية وإعلاء كلمة الأئمة ، كما يظهر من عزمه على مباهاة المشاركة بشاعره ابن هانيء . ويمكن أن يكون صاحبنا تجاسر على تقديم شكواه أثناء جلسة من هذا النوع فطالب بتقديمه على غيره ، محتجاً بمتانة شعره اذا ما قورنت بقوافيهم الباردة :
[طويل]

67/37 تسيء قوافيها ، وجودك محسن وتُشيدُ إرناناً ، ومجدك ضاحك

(1) معالم ، ج . 3 ، ص 68 .

(2) الطالبي : تراجم أغلبية ، ص 516 (فهرس) . وانظر الحوليات 1972 ص 110 .

وهو ، إذ يقيم هذه المقابلة ، يلاحظ أن جوائزهم تفوق جائزته هو ، وأنه يرضى رغم ذلك بنصيبه ، لأنه لا أمل له في الدنيا إلا البقاء بجانب الخليفة ، حتى وإن سهل عليه تحصيل رزقه في بقاع أخرى من الأرض :

68/37 وَتُجَدَى وَأُكْدَى ، وَالْمَنَادِيحُ جَمَّةٌ فَمَالِي غِنْيِي الْبَالِ ، وَهِيَ الصُّعَالِكُ ؟
71 ... وَمَا سَرَّنِي تَأْمِيلُ غَيْرِ خَلِيفَةٍ وَأَنِّي لِلْأَرْضِ الْعَرِيضَةِ مَالِكُ

ولعل في هذا البيت الأخير شيئاً من التهديد بالتحوّل الى ممدوحين آخرين ، كما فعل المتنبي مع سيف الدولة .

ومهما يكن من أمر هؤلاء الحساد وموقف الخليفة من شعرائه فواضح أنه لبي رغبة صاحبنا فقدّمه على غيره وجعله شاعره الأول : بذلك يشهد تأيينه الوجيز له حين نعي اليه .

حروب المعز في شعر ابن هانئ

نجد في مدائح المعز صدى واسعاً للحروب التي تخوضها الجيوش الفاطمية ، وهي حروب داخلية وخارجية . فالداخلية هي الحملات التي يجهزها المعز داخل الامبراطورية ، أي في حدود الخلافة ، بالمغرب الأوسط مثلاً ، لاختضاع القبائل المستعصية ، أو بالمغرب الأقصى للقضاء على الدويلات المستقلة أو المتحالفة مع الأمويين . أمّا الخارجية فهي التي تستهدف القضاء على الخلافة العباسية وبسط نفوذ الشيعة على المشرق ، كما تجابه النفوذ الرومي البيزنطي في البحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا (الأرض الكبيرة) وجزيرة صقلية .

في هذه الأغراض الحربية ، يظهر ابن هانئ شاعراً متحزباً حقيقة ، مقتنعاً بالمبادئ الاسماعيلية ، عاملاً على نشرها بشعره كما تنشرها الجيوش الفاطمية بالسلاح ، مسخراً فنه ولسانه لخدمة الأئمة ، ورثة الحكم الذي وهبه

الله لجدهم محمد صلى الله عليه وسلم .

وتشيّعه هذا هو الذي يَحْمِلُهُ على اعتبار جميع خصوم المعزّ كفره
مشرّكين ، مهما كانت نحلّتهم . حتى الأمويّون والعبّاسيّون كفّار مارقون ، اذ
لا يبقى على ايمانه من قاوم الامام المعصوم ولم يعترف بحقه في الاستثاردون غيره
بحكم المسلمين . لذلك نراه يحث المعزّ على مواصلة الزحف نحو الشرق
بعد احتلال جوهر لمصر : [كامل]

39/30 فَأِلَى الْعِرَاقِ ! وَدَزَّ لِمَنْ قَدَّمْتَهُ مِصْرًا ، فَهَذَا مُلْكُ مِصْرٍ قَدْ صَفَا !
ويتنبأ للمعزّ بنصر قريب في العراق يُحلّه محلّ الغاصبين ببغداد (الزوراء)
فيقف الشاعر بين يديه منشدًا مشيداً :

56/30 وَخَطَبْتُ بِالزُّورَاءِ أُخْرَى مِثْلَهَا وَوَقَفْتُ بَيْنَ يَدَيْكَ هَذَا الْمَوْقِفَا
وقبلها تنبأ كذلك لجوهر بالغلبة ، لا على مصر فحسب ، بل على كامل
الشرق حتى خراسان : [طويل]

76/27 وَلَمَّا حَثَّتِ الْجَيْشَ لَاحَ لِأَهْلِهِ طَرِيقُ إِلَى أَقْصَى خُرَاسَانَ مَهِيْعَا
ولا شك أنه ، اذ يتنبأ بهذه الانتصارات المرجوة ، يصدر عن رأي
الخليفة فيعلن عن هذه البرامج العسكريّة القريبة ، كما لو كان شعره صحيفة
ناطقة بمقاصد الدولة ، الظاهرة والخفيّة .

العمليّات بالمغرب

يتوسّع ابن هانئ في استعراض الحملات التي يقودها جوهر ، أو أمراء
الزّاب وحتى الخليفة نفسه ، ضدّ القبائل البربريّة التي يحركها حكام قرطبة
ضدّ الحكم الفاطميّ بالمغرب . ففي أوّل مدحة له بأرض العدو يروي في
شيء من التفصيل ، العمليّات التي قادها جوهر ضدّ بني موسى بن أبي العافية
المكناسيّين . فقد قهرهم وأرجعهم الى الجادّة ، أي الى الولاء الفاطميّ ، ولكنّه

عفا عنهم ، وسمح لهم بمغادرة المغرب والالتحاق بالأمويين : هذا ما نفهمه
من عبارة « سيف » (بالكسر) التي تعني الساحل والشاطئ : [طويل]

56/10 وَفِي آلِ مُوسَى قَدْ شَنَّتْ وَقَائِعًا أَهَبَتْ لَهُمْ تِلْكَ الزَّعَارِعَ لُقْحَا
59 ... صَفَحَتْ عَنِ الْجَانِينَ مَتَا وَرَافَةً وَكُنْتُ حَرِيًّا أَنْ تَمَنَّ وَتَصَفَحَا
60 وَقَدْ أَزْمَعُوا عَنْ ذَلِكَ السَّيْفِ رِحْلَةً فَمَلَكْتُ أَوْلَاهُمْ عِنَانًا مُسْرَحَا

ويفضّل كذلك حملة جوهر على ابن واسول ، وظفّره به وبابنه ، أما الوالد
فقد أسره جوهر وأرسله في قفص الى المنصورية كما قلنا :

33/10 وَأُذِرْتُ سَوْلًا فِي ابْنِ وَاسُولَ عَنُوءَ وَزَحَزَحْتُ مِنْهُ يَذْبُلًا فَتَزَحَزَحَا
43 ... أَقُولُ لَهُ فِي مُوْتَقِ الْأَسْرِ عَانِيًا تُجَاذِبُهُ الْأَغْلَالُ وَالْقَيْدُ مُقَمَّحَا :
44 لَيْتَنِ حَمَلْتُ أَشْيَاعَ بَغِيكَ فَادِحَا يُغُولُ ، لَقَدْ حُمِلْتُ مَا كَانَ أَفْدَحَا

أما الابن ، فقد كان أشدّ شكيمة من والده ، فقتله جوهر ، لكن لهجة
الشاعر في حديثه عن هذا الشابّ البطل ، أقرب الى الرثاء منها الى التشفي ،
كأن عاطفته الرقيقة غلبت الى حين متطلبات المدح ، فلم يُخفِ شفقتة على
هذا الجذع الباسق الذي قُطع فجأة :

45/10 وَلَا كَابِنِهِ أَذْكَى شَهَابًا بِمَعْرِكِ وَأَجْمَعَ فِي ثِنِّي الْعِنَانِ وَأَطْمَحَا
46 مَرَّتْ لَكَ فِي الْهَيْجَاءِ مَاءَ شَبَابِهِ يَدٌ فَجَرَتْ مِنْهُ جَدَاوِلَ سُبْحَا
47 وَأَتَكَلَّتْهُ مِنْهُ الْقَضِيبُ تَهَضَّرَتْ أَعَالِيهِ ، وَالرُّوْضُ الْمُقُوفُ صُوحَا
48 لَعَمْرِي لَيْتَنِ أَلْحَقْتُهُ أَهْلَ وَدِهِ لَقَدْ كَانَ أَوْحَاهُمْ إِلَى مَا زَقِ الرَّحَا⁽¹⁾

ولن يعود الى مثل هذه الرأفة في حديثه عن مقتل محمد بن خزر الثائر
الزناتي ، بل تطفح القصيدة بمعاني التشفي والسخرية ، ذلك أن الشاعر الذي
كان لا يتمالك عن الرحمة والتأسّف أمام مشهد شابّ قصف شبابه وأريق منه

(1) تَهَضَّرَتْ : انكسرت وتدلّت . صَوْحَ : يبس . الأوحى : الأسرع .

ماء الحياة، تعلّم اليوم كبت عواطفه بعد اثني عشر عاماً قضاه في الأجواء الرسمية، فصار لا ينطق الا بما يعجب ممدوحيه، أو أصبح إيمانه بالمبادئ الشيعة على درجة من العمق والقوة بحيث يرى في كل خصم للدولة خصماً له. ولعلّ هذا التحول في الانتماء هو الذي يبرّر اختلاف اللهجة بين عرضه لمقتل ابن أمير سجلماسة سنة 959/347، وعرضه لنهاية محمد بن خزر سنة 970/359: فالشفقة هناك صارت هنا تشفياً، والعطف على القضيبي المقطوع أصبح الآن استهزاء وتهكماً، حتى شجاعة القائد الشيخ وإباؤه الذي جعله يخيّر الانتحار على ذلّ الأسر، لا يرى فيهما ابن هانئ إلا لجاجة وتمادياً على الغي، وكذلك تأثيره القوي في قبيلة زناته لأنها ترى في ثورته رمزاً لتعلقها بالحرية. هذه السلطة الروحية لابن خزر على أتباعه لا يعتبرها إلا جهالة منهم وسفهاً، وكل مناهضة للفاطميين انما هي مناهضة للدين والإيمان والهدى، وهكذا يصبح كل خصم لهم كافراً مشركاً مارقاً: [بسيط]

22/43 لَقَدْ قَصَمْتَ مِنْ ابْنِ الْخَزَرِ طَاغِيَةً صَعَبَ الْمَقَادَةِ أَبَاءَ عَلَى الْجَدَلِ
23 إِذْ لَا يَزَالُ مُطَاعاً فِي عَشِيرَتِهِ تُلْقَى إِلَيْهِ أُمُورُ الزَّيْغِ وَالْبَجَلِ
26 ... مِنْ جَا حِدِي الدِّينِ وَالْحَقِّ الْمُنِيرِ وَمِنْ عَادِي الْأَيْمَةِ، وَالْكَفَّارِ بِالرُّسُلِ

ويصوّر في مشهد فظيع، ما آل اليه هذا الثائر الأبيّ: قطعوا رأسه ونصبوها في سنان رمح وأرسلوها الى المعزّ بالمنصورية، ويدقّ ابن هانئ وصفه لملامح هذه الرأس الميتة ويبتكر الصور القاسية فيشبهه انحسار الشفتين عن الأسنان بالابتسامة المرة، ويمثّل حركة الرأس فوق الرمح الذي يحملها باهتزاز الرقص، ولكنه رقص بلا توقيع كما كان الابتسام بلا سرور:

28/43 أَتَاكَ يَغْلُوهُ مِنْ عِصْيَانِهِ خَفَرٌ حَتَّى كَأَنَّ بِهِ ضَرْباً مِنَ الْخَجَلِ
29 يُدِيرُهُ الرُّمْحُ مُهْتَزّاً بِلَا طَرَبٍ إِلَى الْكِتَابِ، مُفْتَرّاً بِلَا جَدَلِ
31 ... كَأَنَّمَا غَضَّ جَفْنَيْهِ الْأَزُومُ عَلَى صَدْرِ الْقَنَاةِ أَوْ اسْتَحَى مِنَ الْعَدَلِ

بهذا التصوير القاسي الفظيع، وان كان ذا قيمة فنية لا تنكر، يبرهن ابن

هانئ على تحوّلته النهائي إلى الولاء الشيعي ، وتبنيّه لعداوتهم بقدر ما تبني مبادئهم ، فهذا التفتن في الوصف ، هذا الاغراق في التشفي ، لا يفسران فقط بضرورات الخدمة والتقرب إلى الممدوحين بل فيهما أكثر من ذلك : فيهما الانتماء إلى الدعوة ، والتحزب الكامل لها ، وتسخير كل الطاقات لخدمتها .

فتح مصر

تعرض ابن هانئ للحملة على مصر ، وانتصار جوهر السريع على فلول الاخشيديين وادارته الحكيمة للبلاد في انتظار قدوم المعز إليها ، في ثلاث قصائد على الأقل ، اثنتان منها في مدح الخليفة ولكنهما تعظمان شأن جوهر ، والثالثة في الاشادة بجوهر مباشرة .

تشعرنا مدحة جوهر - القصيدة رقم 27 - بأن الشاعر قد سائر الجيش الفاتح على مرحلة من مراحل طريقه إلى مصر ، ذلك لأنه يصف هذا الجيش العرمرم وصف معاناة ، لا وصف سماع او تخيل ، بل يعلمنا أنه التحق بعسكر القائد ليلاً على شاطئ البحر ، بعد أن انطلق الجيش من رقادة⁽¹⁾ ، فبات ليلته مع الجيش ، دون ان ينام لأنّ الجلبة والضجيج منعا عنه الكرى : [طويل]

13/27 فَلَمَّا تَدَارَكْتُ السَّرَادِقَ فِي الدَّجَى عَشَوْتُ إِلَيْهِ ، وَالْمَشَاعِلُ تُرْفَعُ
14 فَتَخْرُقُ جَيْبَ الْمُزْنِ ، وَالْمُزْنُ ذَالِحٌ وَتُوقَدُ مَوْجَ الْيَمِّ ، وَالْيَمُّ أَسْفَعُ
15 فَبِتُّ وَبَاتَ الْجَيْشُ جَمًّا سَمِيرُهُ يُورِّقُنِي ، وَالْجَنُّ فِي الْبُعْدِ هُجْعُ

وفي الصباح الباكر يتحرك المعسكر بعدته وعديده - ثمانون ألفاً في قول الشاعر - فتلمع السيوف وترعد أبواق المنادين وتصلصل الأسلحة ، ويبرز جوهر في جمع غفير من القواد والخدم على الخيول المطهّمة ، كأنه ملك في حاشيته ، تتبعه خيمته العالية الشامخة كأنها قصر منيف ، وقد لبس الحلة التي

(1) ابن خلكان : وفيات ، ترجمة رقم 141 . وتقول بعض المصادر بأن الانطلاق كان من قرية تدعى « سردانية » (انظر ص 134 وص 138) .

كساه إياها المعزّ عند توديعه له :

- 31/27 تَحْفُفْ بِهِ الْقَوَادُ ، وَالْأَمْرُ أَمْرُهُ
35 ... وَبَيْنَ يَدَيْهِ خَيْلُهُ بِسُرُوجِهِ
36 وَأَعْلَامُهُ مَنْشُورَةٌ وَقَبَابُهُ
41 ... وَسَلَّ سُيُوفَ الْهِنْدِ حَوْلَ سَرِيرِهِ
43 ... وَتَصَحَّبَهُ دَارُ الْمَقَامَةِ حَيْثُمَا
44 بُرُودُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بُرُودُهُ
وَيَقْدُمُهُ زِيَّ الْخِلَافَةِ أَجْمَعُ
تُقَادُ ، عَلَيْهِنَّ الثُّضَارُ الْمُرْصَعُ
وَحُجَابُهُ تَدْعَى لِأَمْرِ فَتُسْرِعُ
ثَمَانُونَ أَلْفًا : دَارِعٌ وَمُقَنَّنُ
أَنَاخُ ، وَشَمْلُ الْمُسْلِمِينَ الْمُجْمَعُ
كَسَاهُ الرِّضَى مِنْهُمْ مَا لَيْسَ يُخْلَعُ

بهذه التفاصيل عن قوّة الجيش الفاتح ، يشعرنا ابن هانئ بقوة الدولة الفاطمية وثروتها المادية ، فيدعم ما يدّعيه المؤرخون عن ازدهارها الاقتصادي والمالي ، الذي تمثل في تلك الرّحى من الذهب الخالص التي سبكها المعزّ وحملها معه الى القاهرة .

ويعود الى وصف الجيش الفاتح في مدحة المعزّ - القصيدة 46 - ويذكر من جديد تشييعه له ، معترداً على اضطارره الى الرجوع ، مؤكداً أنّه ، لولا هذه العوائق - العائلية ؟ - لرافقه الى النهاية : [طويل]

- 12/46 فَشَيَّعْتُ جَيْشَ النَّصْرِ تَشْيِيعَ مُزْمِعٍ
13 وَقَدْ كَذْتُ لَا أَلُوِي عَلَى مَنْ تَرَكَتُهُ
14 وَلَوْ أَنَّنِي اسْتَأْثَرْتُ بِالْإِذْنِ وَحْدَهُ
وَوَدَّعْتُهُ تَوْدِيعَ غَيْرِ مُصَارِمٍ
وَلَكِنْ عَدَانِي مَا ثَنَى مِنْ عَزَائِمِي
لَسِرْتُ ، وَلَمْ أَحْفَلْ بِلَوْمَةٍ لِأَيْمٍ

وقد صدرت هذه القصيدة في الديوان بتوطئة يفهم منها ان المعزّ هو الذي رافق الجيش في طريقه الى الفتح ، وتبنّى الفكرة بعض المؤرخين كالمقرزي والقلقشندي⁽¹⁾ والمستشرق هـ. ماسي في دراسته للقصيدة 22 اذ يقول : « ... القصيدة 46 التي يشيد فيها ابن هانئ برجوع المعزّ الى

(1) اتعاظ ... ص 162 - صبح ... : ج 3 ، ص 345 .

المنصورية بعد تشييعه للجيش المتجه الى مصر»⁽¹⁾. والرأي عندنا أن التشييع كان من الشاعر ، لا من الخليفة ، وانما وقع الخطأ لالتباس ضمير الغائب: «وقال يمدح الخليفة ، وهو (المعز أو الشاعر على السواء) بالمنصورية بعد رجوعه (رجوع الشاعر) من معسكر جوهر ، ويصف القائد ويعتذر له عن المواصلة ». فقراءتنا هذه أوفق لمضمون القصيدتين 27 و 46 ، وان كنا لا نستبعد أن يؤدي الخليفة زيارة أو أكثر الى معسكر جيشه في طور إعداد الحملة ، كما يقول ابن خلكان بصريح العبارة⁽²⁾.

ومما يدعّم قراءتنا لهذه التوطئة وفهمنا لها على الأساس الذي بسطناه ، أن الشاعر ، في الأبيات الأخيرة منها ، يحمل تحيات الجيش الى الخليفة ، ويقدم اليه انطباعاته المتفائلة عن الجند ، كأنه مراسل حربي يرفع تقريره الى رئيسه . فما حاجة المعز بتحيات الجيش أو بهذه الانطباعات ، ان كان هو الذي شيع جوهرأ ؟

48/46 وَإِنِّي قَدْ حُمِلْتُ مِنْهُمْ نَصَائِحًا كَرَائِمٌ تُهْدَى عَنْ نُفُوسٍ كَرَائِمٍ
49 إِلَيْكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ حَمَلْتُهَا وَذَائِعَ كَالْأَمْوَالِ تَحْتَ الْخَوَاتِمِ
50 شَهِدْتُ بِمَا أَبْصَرْتُهُ وَعَلِمْتُهُ شَهَادَةً بَرًّا لَا شَهَادَةَ آثِمِ

ونكتشف من خلال كلام الشاعر في هذه القصيدة ، أن الفاطميين مهدوا للحملة العسكرية بحملة دعائية واسعة النطاق ، استعملوا فيها الإغراء المادي لكسب الأنصار و « شراء الضمائر » كما نقول اليوم ، فكان الذهب الفاطمي هو الذي غلب الاخشيديين ، « والعطايا الجسام » هي التي تفسر سهولة الانتصار ، وركود أنصار الاخشيد وسكوت العباسيين وحمايتهم من بني بويه ، اذ ليست المناوشات التي قادها أفلح الناشب أو جعفر بن فلاح بكافية لضعاف الخصم بصورة تمنعه من كل مقاومة :

(1) قصيدة ابن هانيء في فتح مصر ، ص 121 .

(2) الوفيات ، ترجمة رقم 141 .

39/46 وَمَا غَالَ جَيْشَ الشَّرْقِ قَبْلَكَ غَائِلٌ وَلَا سِيِّمَا بَعْدَ الْعَطَايَا الْجَسَائِمِ
40 وَبَعْدَ صِلَاتٍ مَا رَأَى النَّاسُ مِثْلَهَا وَلَا حُدُوثًا فِي السَّالِفِ الْمُتَقَادِمِ

ويظهر أن هذه « السياسة » كانت طبيعية معهودة ، اذ لا يتحرّج الشاعر من ذكرها ، بل نراه يُشيد بها ، ويجعلها من مزايا جوهر .

أما القصيدة 22، فقد نظمت بعد الفتح، إذ يتعرّض فيها ابن هانيء الى سياسة جوهر في المصريين: حكم عادل، لا ظلم فيه للناس ولا انتزاع للضياغ والمكاسب ، ولا ضرائب جائرة تثقل كاهل الرعية ، بل استقامة ونزاهة وعدل ، وهي الخصال التي ورثها جوهر عن الخليفة ، فأصبح أهل مصر مبهجين بالحكم الجديد مرتاحين اليه بعد أن ذاقوا الأهوال من فساد الاخشيدين ونهمهم وظلمهم ، وعادت الطمأنينة الى النفوس وذهب الخوف من القلوب ، حتى صار الناس لا يترقبون فيضان النيل بنفس اللهفة ، لأن جوهرًا وحده بمثابة النيل المنعش والغيث النافع : [طويل]

68/22 وَمَا ضَرَّ مِصْرًا حِينَ أَلَقْتَ قِيَادَهَا إِلَيْكَ، أَمَدَّ النَّيْلُ أَمْ غَالَهُ جَزْرُ؟
71 ... غَدَا جَوْهَرٌ فِيهَا غَمَامَةٌ رَحْمَةٍ يَبْقَى جَانِبَيْهَا كُلُّ حَادِثَةٍ تَعْرِو
78 ... سَنَنْتَ لَهُ فِيهِمْ مِنَ الْعَدْلِ سُنَّةً هِيَ الْآيَةُ الْمُجَلَّى بِبُرْهَانِهَا السَّحَرُ⁽¹⁾
80 ... وَأَوْصَيْتُهُ فِيهِمْ بِرِفْقِكَ، مُرَدِّفًا بِجُودِكَ، مَقْصُودًا بِهِ عَهْدُكَ الْبَرُّ
84 ... بِذَا لَا ضِيَاعٌ حَلَّلُوا حُرْمَاتِهَا وَأَقْطَاعَهَا، فَاسْتُصْفِيَ السَّهْلُ وَالْوَعْرُ

في البيت 80 اشارة الى العهد الذي قطعه جوهر باسم المعزّ للمصريين ليضمن حرّيتهم في الطقوس الدينية وفي أموالهم وتصرفاتهم . وقد قرئت هذه الوثيقة الطويلة على المنابر في كافة قرى مصر ومدنها⁽²⁾ .

ويعود مرّة أخرى الى ذكر مصر في القصيدة 43 التي نظمها سنة

(1) اشارة الى سحرة فرعون ولقائهم مع موسى عليه السلام .

(2) المقرئزي : اتعاض ... ص 148 - 153 (نصّ العهد) .

971/360 ، بعد ظفر المعز بثائر مغراوي آخر يدعى أيضاً ابن خزر . وفحوى
 الإشارة أنَّ « ملك مصر قد صَفَا » وأنَّ الأمن استتبَّ بالمغرب بسقوط آخر رأس
 من رؤوس زناتة ، فالوقت حان اذن ليقضي الخليفة فريضة الحجَّ : [بسيط]
 63/43 فَرَعَتْ لِلْحَجِّ مِنْ شُغْلِ الْهِجَاجِ فَلَوْ سَأَلْتُ مَكَّةَ، قَالَتْ: هَيْتَ فَارْتَحِلْ!

وفي هذه الدعوة تدعيم لما أولنا به البيت 59 من القصيدة 41 اذ قلنا ان
 المعز لم يحج قط ولا أحد من الخلفاء الفاطميين⁽¹⁾ .

على أنَّ تحريضه للخليفة على الحج لا يصدر في نظرنا عن تقوى وورع
 شديدين ، وإنما يُتخذ الحج ذريعة لحثَّ المعز على مواصلة الزحف
 بالشرق للقضاء على الغاصبين العباسيين ، اذ لا حج الا بعد الاستقرار
 بمصر ، والاستقرار بمصر هو الذي يسمح بتحقيق المآرب الشرقية .

ولا يفوتنا أخيراً أن نشير الى القصيدة 23 التي وصف فيها هدايا جوهر
 التي بعث بها الى الخليفة من مصر ، وأطال خاصّة في وصف الخيل ، وقد
 تحدّثنا عن هذه القصيدة ، وسنعود اليها في الحديث عن القسم الوصفي .

تعيين عبد الله بن المعز على ولاية افريقية والمغرب ؟

في هذه القصيدة 43 بالذات ، يلفت انتباهنا أمر لا علاقة له بمصر ، وهو
 أن الشاعر يبتهج بتعيين ابن المعز الثاني ، الأمير عبد الله ، في وظيفة كَنَّا نظراً
 أنها ولاية العهد ، فيؤكد أنَّ السلطان الفاطمي تدعّمت أركانه بهذا التعيين
 وأمن كل خطر :

65/43 فَقَدْ تَوَطَّدَ أَمْرُ الْمُلْكِ فِيهِ، وَقَدْ نَدَبَتْ نَدْباً إِلَيْهِ غَيْرَ مُتَكِلِ
 66 لَمَّا شَدَّدَتْ بَعْدَ اللَّهِ عُرْوَتَهُ أَعَزَّزَتْ مِنْهُ مَصُونِ الْعِرْضِ لَمْ يَذَلِ

(1) انظر أعلاه ص 154 .

هكذا كنّا نظنّ ، وبعد البحث تبين لنا أن تعيين عبد الله ولياً للعهد بعد عزل أخيه الأكبر تميم كان أمراً معروفاً منذ سنتين على الأقل ، إذ أعلن عنه بين سنتي 357 و 9/358-968⁽¹⁾ في حين أن هذه القصيدة نظمت سنة 360 إثر القبض على نائر زناتي آخر ، يدعى أيضاً ابن خزر . فكيف يشيد ابن هانيء بحادث معروف منذ مدة، مشهور في أنحاء الخلافة ، وكأنه حدث جديد ينبغي نشره وإذاعته والتعريف به ؟ فلا بدّ أن يكون ابتهاجه متعلّقاً بحادث آخر ، غير معروف آنذاك ، أو هو وليد ذلك العام بالذات .

ولما كان المعزّ ، في تأهبه لمغادرة إفريقية ، يبحث عن خليفة له على المغرب كلّهُ ، ففكر أولاً في تعيين جعفر بن حمدون ، ثم لما خذله أمير الزاب ، حسب بعض المصادر ، أو لما أفرط في الطمع والاستثثار ، حسب مصادر أخرى ، فكر في القائد الصنهاجي بلقين بن زيري ، قلنا : لعلّه ، في هذه الفترة التي لم يستقرّ اختياره فيها على خلف ، فكر في تعيين وليّ العهد، ولو بصفة مؤقتة ريثما يستقرّ له رأي ، أو لعلّه فكر حقيقةً في اقتسام الخلافة المتوسعة ، بينه وبين ابنه .

لا ننكر أن هذا الافتراض بعيد ، فإن المؤرّخين القدماء لم يشيروا الى هذا الأمر، أو، إن هم أشاروا اليه ، ففي غموض شديد، مثل المقرئ الذي ينقل عن ابن سعيد أنّ بلقين (يوسف) بن زيري قال ان المعزّ « وَلَى عَهْدُهُ (بعده) ابنه الشاعر تميماً ثم عزله ، وولى ابنه عبد الله افريقية ، ثم ولى ابنه بمصر العزيز الذي صحّت له الخلافة بعده » . وحتى ان استنكر ابن سعيد هذا الخبر ، فلا يمنع أنه قد ذكر على كل حال⁽²⁾ . كذلك المختصّون بتاريخ الفاطميين ، مثل الأستاذ الدشراوي ، لم يسيروا هذه القضية . ثم اننا راعينا امكانية الخلط بين الأسماء : فقد كان للملوك الصنهاجيين والى على افريقية

(1) سيرة جوذر ، النصّ المترجم 213 تنبيه 467 .

(2) اتعاظ الحنفاء ج 236/2 .

يدعى عبد الله بن محمد ، ولكن هذا الوالي سَمِيَ سنة 976/365 ، بعد موت الشاعر والمعزّ معاً ، ثمَّ انَّ نسبة القصيدة الى صاحبنا لا شك فيها . فلذلك اضطررنا الى هذا الافتراض ما دام الشاعر يعظّم هذا الحدث ويتفاعل به خيراً ، ويرجوه نتائج طيبة عاجلة ، منها قهر بني أمية على يد عبد الله بعد قهره لبني خزر - وهذه ناحية أخرى مجهولة عند المؤرخين ، اذ لم يخبرونا بأن عبد الله بن المعزّ هو الذي قاد بنفسه حملة سنة 971/360 ضدّ زناتة ومغراوة - ثمَّ انه لا يَسْتَبْعِدُ - في البيت 78 - أن يكون مقرّ الأمير غير مقرّ الخليفة . أفلا يعني هذا أن عبد الله سيصبح خليفة لأبيه بالمنصورية ، بعد انتقال المعزّ الى القاهرة ؟ وهذه هي الأبيات المشكلة في القصيدة ، بعد البيتين السالفين :

- 70/43 وَإِنْ مُلْكاً أَقَرَّ اللَّهُ قُبَّتَهُ بِابْنِ الْإِمَامِ لَمُلْكٍ غَيْرُ مُتَقِلِّ
75 ... فَالْفَتْحُ مِنْ أَوَّلِ التَّعْمَى بِهِ وَلَهُ عَوَاقِبُ فِي بَنِي مَرْوَانَ عَنْ عَجَلِ
76 بِرِيحِهِ أُرِدَّتِ الْهَيْجَا بَنِي خَزَرٍ وَيَأْسَمِهِ اسْتَظْهَرَتْ فِي الْغَزْوِ وَالْقَفْلِ
78 ... مَهْمَا أَقَامَ، فَذُو النَّجَاحِ الْمُقِيمُ وَإِنْ تَلَاكَ رَيْثاً فَبَعْدَ الْمَشْهَدِ الْجَلْلِ
83 ... الْآنَ لَذْتُ لَنَا مِصْرٌ وَسَاكِنُهَا وَلِلْسَوَابِحِ وَالْمَهْرِئَةِ الدُّمْلِ

فإن صحَّ افتراضنا⁽¹⁾ نكون قد توصلنا ، أخيراً وبعد لأي ، الى استخراج معلومات مجهولة جديدة من هذا الشعر المبهم الغامض ، وبرهناً ، بعد غيرنا ، على أن النصوص الأدبية قد تخدم التاريخ ، بل إن الأدب والتاريخ متداخلان متكاملان متماسكان .

الحرب ضدّ بيزنطة

كان فقهاء القيروان يعتبرون جزيرة صقلية وولاية قلورية بجنوب إيطاليا « دار جهاد »⁽²⁾ وفيها كانت تدور الحرب بين الفاطميين والنصارى البيزنطيين .

(1) لقد فصلنا عناصر القضية في فصل نشرناه بمجلة الدراسات التونسية ، عدد 85 - 87 ص 7 .

(2) الدشراوي : جزيرة اقريطش ... ص 309 .

وتتعلق اشارات الشاعر بوقعتين هامتين دارت رحاهما بصقلية ومجاز مسينا سنة 965/354 ، وكللتا بنصر عظيم للفاطميين . وصورة الأحداث ، كما يرويها ابن الأثير وغيره ، ممن جمع نصوصهم ميكال أماري في تأريخه لصقلية ، وكما يفصلها شلومبرجي في دراسته الضخمة عن الامبراطور البيزنطي نقفور فقاس⁽¹⁾ ، هي هذه :

استولت الجيوش الفاطمية بقيادة الأمراء الكلبيين ، على مدينة طبرمين (طاورمين حالياً) بالجنوب الشرقي من صقلية سنة 962/351 ، ومنها أخذت تغزو جنوب إيطاليا ، فاستقرت بجهة ريو (عاصمة ولاية قلورية أو كلابريا اليوم) ، ثم أخذ الأمير الحسن بن عمّار الكلبي في محاصرة قلعة رمطة (رميطا) التي تبعد بتسعة أميال غربي مسينا ، وكانت رمطة آخر معقل مسيحي ، غير خاضعة للكلبيين وللسلطان الفاطمي ، فاستنجد أهلها بالدمستق نقفور ، فجهّز أسطولاً بقيادة عمّه منويل فقاس ونزلت الأمداد الرومية بالساحل فحاصرت بدورها المسلمين وسدّت عنهم المنافذ ، فالتحم الجيشان في قتال شديد ، فقتل منويل ، ففتّ قتله في عزم جنوده ، ففرّقوا وتبعهم المسلمون فحاصروا عدداً كبيراً منهم بشعب لا مخرج منه وقتلوهم تقتيلاً ذريعاً . والتحق الآخرون بمراكبهم فطلبوا المدد وجنّدوا العساكر من قلورية وجهات إيطاليا الأخرى وعادوا الى القتال ، فاعترض الأسطول الفاطمي مراكب الروم ، وتحول القتال الى معركة بحرية بين المراكب المجهّزة بمدافع النفط ، فأحرق النفاطون المسلمون كثيراً من المراكب البيزنطية ، ولاذ باقي الأسطول الرومي بالفرار . وتمّ هذا النصر ، ويدعى وقعة المجاز عند المؤرخين ، سنة 965/354 .

فأشاد به الشاعر في قصيدتين على الأقل : ففي القصيدة 40 ، يصوّر لنا

(1) ص 442 .

ال خليفة ساجداً لله مقبلاً التراب معقراً خده ، عند بلوغ بشرى النصر اليه :
[كامل]

13/40 إِلَهَ عَيْنَا مَنْ رَأَى إِخْبَاتَهُ لَمَّا أَتَاهُ بِرِيدُهَا الْإِجْفِيلُ
14 وَسُجُودُهُ حَتَّى أَلْتَقَى عَفْرُ الثَّرَى وَجَبِيئُهُ وَالنَّظْمُ وَالْإِكْلِيلُ

وفي القصيدة 13 ، يصف الأسطول الفاطمي ، خلافاً لما تدعيه التوطئة من أنه يذكر سفارة بيزنطية قدمت لطلب الصلح . والغلط ناتج عن خلط بين هذه السفارة المزعومة والسفارات العديدة التي كان الدماسقة يرسلونها في القديم الواحدة تلو الأخرى للتوسل لدى المعز حتى يكف عن غزو بلاد الروم ويرضى بالصلح ولو لمدة . فالشاعر يذكر الدمستق المغلوب اليوم بتصرفه السالف ، ويشهد عليه دموعه التي تبّل رسائله الى الخليفة ويتشفى منه بهزيمة المجاز ، ولعل هذا التهكم يدل على أن الامبراطور هو الذي بادر بنقض صلح سابق أو بالكف عن تقديم جزية الى المعز ، لذلك يصوره الشاعر نادماً باكياً :
[طويل]

67/13 وَقُلْتُ : أَنَاسِي ذَا الدُّمُسْتَقْ شُكْرُهُ إِذَا جَاءَهُ بِالْعَفْرِ مِنْكَ بَرِيدُ
68 وَتَقْبِيلُهُ التُّرْبَ الَّذِي فَوْقَ خَدِهِ إِلَى ذَفَرِيئِهِ مِنْ ثَرَاهُ صَعِيدُ؟
69 تُنَاجِيكَ عَنْهُ الْكُتُبُ وَهِيَ ضَرَاعُهُ وَيَأْتِيكَ عَنْهُ الْقَوْلُ وَهُوَ سُجُودُ
70 إِذَا أَنْكَرْتَ فِيهَا التَّرَاجِمَ لَفْظُهُ فَأَذْمُعُهُ بَيْنَ السُّطُورِ شُهُودُ
75 ... فَإِنْ هَزَّ أَسْيَافُ الْهَرَقْلِ فَإِنَّهَا إِذَا شِئْتَ أَغْلَالُ لَهُ وَقُيُودُ

الأسطول الحربي - المدافع النفطية أو «النار اليونانية»

ولكن أهمية هذه القصيدة 13 تكمن في الوصف المدقق لأسطول الحرب ، على ذكر وقعة المجاز . والشاعر ، على عادته ، لا يدقق التواريخ ، ولا الأماكن ، ولا الأشخاص : حتى الأمراء الكلبيون ، وهم سبب التصر

وصانعوه ، لا يذكرهم بَتَاتًا . ولا يعود كذلك الى ذكر القائد البيزنطي منويل .

غير أن للقصيدة أهمية وثائقية لا تنكر ، اذ تصف لنا هذه المراكب المجهّزة بـ « اللهيب اليوناني » ، وهو خليط من النفط والبارود تضم فيه النار ويرسل بواسطة مجانيق ضاغطة على المراكب المعادية ، فيحرقها من شراعها إلى صاريها إلى خشبها .

يهتمّ بالقبة المفوّدة كهودج الحسان ، وهي خيمة عالية تغطّي مجلس قائد السفينة أو موقفه ، ويصف أعلامها الكثيرة التي تبعث الرعب في قلوب الأعداء ، ويمثّل علوّها بشموخ الجبال وسرعتها بخفة الطيور ، ولكنها الطيور الجارحة التي تقتنص نفوس الروم :

لَقَدْ ظَاهَرَتْهَا عُدَّةٌ وَعَدِيدُ	أَمَّا وَالْجَوَارِي الْمُنْشَاتِ الَّتِي سَرَتْ	30/13
وَلَكِنَّ مَنْ ضُمَّتْ عَلَيْهِ أَسْوَدُ	قِبَابٌ كَمَا تُزَجَّى الْقِبَابُ عَلَى الْمَهَا	31
تُنَشِّرُ أَعْلَامَ لَهَا وَبُثُودُ	... وَمَا رَاعَ مَلِكُ الرُّومِ إِلَّا أَطْلَاعُهَا	35
بِنَاءٌ عَلَى غَيْرِ الْعَرَاءِ مَشِيدُ	... أَنَا فُتْ بِهَا أَعْلَامُهَا وَسَمًا لَهَا	38
فَمِنْهَا قِنَانٌ شُمُخٌ وَرِيُودُ	... مِنَ الرَّاسِيَّاتِ الشَّمُّ لَوْلَا انْتِقَالُهَا	40
فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا النُّفُوسَ مَصِيدُ	41 مِنَ الطَّيْرِ إِلَّا أَنَّهُنَّ جَوَارِحُ	

ثمّ يصف اللهيب الذي ترسله مجانيقها. وقد عرف هذا الخليط المحترق في القرون الوسطى باسم « النار الاغريقية » لأنّ الغربيين ينسبون اختراعه الى اليونانيين ، أي الروم البيزنطيين، وينكرون أن يكون العرب قد عرفوا هذه الأخلاط المتفرقة ، فيرى شلومبرجي في دراسته عن الامبراطور البيزنطي « أنّ العرب لم يكتشفوا هذه النار السائلة الآ في القرن الثالث عشر أو الثاني عشر على الأكثر ، ولكنهم من ذلك التاريخ ، أخذوا في تحسينها وتطويرها بصفة مطّردة »⁽¹⁾ . لكنّ شلمبرجي نفسه يذكر استعمال الفاطميين

(1) ص 461 .

لهذا المزيج أثناء وقعة المجاز ، أي في منتصف القرن العاشر : « ... وكان البحارة البرابرة يُلقون بأنفسهم في البحر ، وبأيديهم « النار الاغريقية » ، فيسبحون بها حتى يصلوا الى السفن البيزنطية فيحرقونها » . ولعله استقى الخبر من عند ابن الأثير الذي أشار إلى إحراق المسلمين لمراكب الروم أثناء حرب صقلية⁽¹⁾ فأقره ونقض قوله السابق .

هذا السلاح الناري الذي قد يعدّ الصورة الأولية العتيقة من المدافع الحالية قد عُرف واستعمل منذ القرن الثالث / التاسع : فقد استعمله الأسطول العباسي ضد المراكب البيزنطية ، كما يظهر من وصف البحري (897/284) له في مدحه لأمير البحر أحمد بن دينار : [طويل]

وَحَوْلَكَ رَكَّابُونَ لِلْهُولِ عَاقَرُوا كَوْسُ الرَّدَى مِنْ دَارِعِينَ وَحَسِرَ
تَمِيلُ الْمَنَائِي حَيْثُ مَالَتْ أَكْفُهُمْ إِذَا أَصْلَتُوا حَدَّ الْحَدِيدِ الْمُذَكَّرُ
إِذَا رَشَقُوا بِالنَّارِ لَمْ يَكْ رَشَقُهُمْ لِيُقْلَعَ إِلَّا عَنْ شِوَاءٍ مُقْتَرِ⁽²⁾

وقد سميت هذه المراكب ، منذ عهد هارون الرشيد ، أي منذ منتصف القرن الثاني / الثامن ، « حراقات » ، فكان الخلفاء العباسيون يركبونها للتنزه على نهر دجلة ، ولعلها كانت مجهزة لإرسال أضواء الزينة والنيران الملونة أثناء الاحتفالات والألعاب المائية ، ويعرف اللسان هذه الحراقات بأنها « سفن مجهزة لقذف النيران » . وهذه النار تعتمد النفط الخام ، وما يتبعه من مواد مائية - فحمية سهلة الاشتعال ، ويسمى العاملون عليها « النفاطين » . واستعمل القواد العباسيون هذه القذائف المحرقة في حصارهم للنائر بابك الخرمي ، سنة 837/222 ، يقذفونها على أسوار القلعة وأبوابها بواسطة المجانيق⁽³⁾ .

(1) أماري ، المكتبة العربية الصقلية ص 266 .

(2) البحري : ديوان ص 983 الأبيات 26-28 .

(3) ميكال أماري : في نيران الحرب المستعملة ... ص 7 .

وفي العصور المتأخرة ، أضاف العرب ، فيما كتبه هـ . رينو عن « فنون الحرب عند العرب » ⁽¹⁾ ، إلى المواد الملتهبة ، مواد متفجرة في نسب معينة نقلوها عن أهل الصين : وهذه الأخلاط التي سميت « البارود » هي : الكبريت والفحم وخاصة الملح النتري أو ملح البارود ، ووظيفة البارود هي تيسير الاشتغال عند القذف . ثم منع الأخلاط النفطية من الانطفاء ⁽²⁾ .
 وفعلاً ، نرى أن ابن هانئ في وصفه لهذه النيران ، يلح على استمرارها مشتعلة حتى على سطح البحر . وهذا الاستمرار على الالتهاب يؤكد المؤلفون القدماء في هذه الفنون مثل مرضي بن علي الطرسوسي (1193/589) الذي يفصل ، في كتيب ألفه لصالح الدين الأيوبي ، نماذج من الأخلاط البارودية الصالحة لاحتراق مراكب العدو ، فيقول مثلاً في صفة « نبط يمشي على الماء يصلح لحرق المراكب » :

قطران : جزء

كبريت معدني ، وهو النفط : جزء .

راتينج : جزء (الراتينج صمغ شجرة الصنوبر) .

سندروس : جزء (السندروس صمغ شجرة من فصيلة الصنوبر) .

شحم دلفين مسلي مروق : جزء (الدلفين أو الدخص حيوان بحري من

جنس البال الا أنها دونه ضخامة) .

شحم كلى ماعز : مثله .

كبريت أصفر : جزء .

« تسحق ما يجب سحقه . ويرفع القطران على النار الى الدست شيء .

فإذا غلي القطران يضاف اليه السندروس ويضرب به الى أن يختلط ، ثم يلقى

(1) هـ . رينو : - الفن العسكري عند العرب ...

- النار الافريقية ... ص 4-5 .

(2) انظر فصل « بارود » بدائرة المعارف الاسلامية .

عليه بعد الفراغ الكبريت المعدني الذي كله الزيت القديم ، وترفع ، فإذا احتجت اليه ، تأخذه وتغليه الى أن تعلم أنه قد أخذ الحد فتشعل فيه ناراً ، وترسله على الماء الى ما أردت من المراكب ، فإنه يحرق إحراقاً عظيماً ويمشي على الماء ولا ينطفئ»⁽¹⁾ .

وعبارة « النفط » ان لم يستعملها ابن هانيء ، فقد استعملها الشاعر الصقلي ابن حمديس (1132/527) في مدح للأمراء الصنهاجيين ، مما لا يدع مجالاً للشك في أن بني زيري أيضاً استخدموا السفن المحرقة التي تقذف المواد النفطية على مراكب الروم : [طويل]

وَتَرْمِي بِنَفْطٍ نَارُهُ فِي دُخَانِهِ بِهِ الْمَوْتُ مُحْمَرٌ يُؤُوبُ بِمُسْوَدٍ
ويعود ، في مدح آخر للأمير علي بن يحيى ، الى النفط فيصف حرارته الخانقة : [كامل]

تَرْمِي بِنَفْطٍ كَيْفَ يَبْقَى لَفْحُهُ وَالشَّمُّ مِنْهُ مُحْرِقُ الْأَكْبَادِ؟⁽²⁾

وقبل ابن حمديس ، وقبل ابن هانيء ، أشاد علي الايادي التونسي بأسطول القائم الفاطمي فذكر هذه المراكب ووصف نيرانها : [كامل]

سَجَرُوا جَوَاحِمَ نَارِهَا فَتَقَادَفُوا مِنْهَا بِالسِّنِّ مَارجٍ مُتَلَهَّبٍ⁽³⁾

هذا، وإن وصف ابن هانيء لسفن المعز موافق تماماً ، في هذه الناحية ، لوصف سابقه الايادي أو لاحقه ابن حمديس . فيشعرنا كلامه بأنها سفن ترمي النار من أفواه حديدية ، وهذا الخليط الملتهب لا ينطفئ في الماء فتحمله الأمواج مشتعلاً الى مراكب العدو : [طويل]

(1) كتاب تبصرة أرباب ... نشر كلود كاهين ... ص 125 من الأصل ، ص 146 من النص المترجم .

(2) ميكال أماري : المكتبة ، الملحق ص 17 ، وص 18 .

(3) الحصري ، زهر ... 1004/2 ، وانظر : الحوليات 1973 ، ص 109 . بيت 18 .

- 42/13 مِنْ الْقَادِحَاتِ النَّارُ تُضْرَمُ لِلطُّلَى فَلَيْسَ لَهَا يَوْمَ اللِّقَاءِ خُمُودُ
 43 إِذَا زَفَرَتْ غَيْظًا تَرَامَتْ بِمَارِجٍ كَمَا شُبَّ مِنْ نَارِ الْجَحِيمِ وَقُودُ
 44 فَأَنْفَاسُهُنَّ الْحَامِيَّاتُ صَوَاعِقُ وَأَفْوَاهُهُنَّ الزَّافِرَاتُ حَدِيدُ
 46 ... لَهَا شُعْلُ فَوْقَ الْغِمَارِ كَأَنَّهَا دِمَاءُ تَلَقَّتْهَا مَلَا حِفْ سُودُ
 47 تُعَانِقُ مَوْجَ الْبَحْرِ حَتَّى كَأَنَّهُ سَلِيطٌ لَهَا فِيهِ الذَّبَالُ عَتِيدُ

وكان الشاعر قد سبق له وصف لهذه النار التي لا يغلبها الماء :

[طويل]

- 38/3 وَسُفْنٍ إِذَا مَا خَاضَتْ الْيَمَّ زَاخِرًا جَلَّتْ عَنْ بَيَاضِ النَّصْرِ وَهِيَ غَرَابِيبُ
 39 تُشَبُّ لَهَا حَمَرَاءُ قَانٍ أَوَارُهَا سُبُوحٌ لَهَا ذَيْلٌ عَلَى الْمَاءِ مَسْحُوبُ

ويظهر أن هذه السفن كانت تحركها الرياح أو الأيدي على السواء ، فلئن خلقت بلا أيد ، فالمجاذيف هي أيديها ، وهي ضخمة تحمل في جوفها جنوداً كثيرين ، وهي أيضاً مزدوجة المظهر : فالظهر منها تعلوه الأقمشة النفيسة زمن الاستعراض والزينة ، والجنب تغطيه الدروع الحديدية الواقية من نيران العدو :

- 50/13 فَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الرِّيحُ أَعْنَةُ وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الْحَبَابُ كَدِيدُ
 52 ... رَحِيَّةٌ مَدَّ الْبَاعُ ، وَهِيَ نَتِيجَةُ بَغِيرِ شَوَى ، عَذْرَاءُ وَهِيَ وَلُودُ
 54 ... لَهَا مِنْ شُفُوفِ الْعَبْقَرِيِّ مَلَأْسُ مُفَوَّةٌ فِيهَا الثُّصَارُ جَسِيدُ
 57 ... فَمِنْهَا دُرُوعٌ فَوْقَهَا وَجَواشِرُ وَمِنْهَا خَفَاتِينَ لَهَا وَبُرُودُ

ودقة وصفه لهذا الأسطول الذي مكن الفاطميين من السيطرة على البحر طيلة خمسين عاماً ، تدلّ على أنه يعرف السفن الحربية معرفة جيدة ، ولعله عاينها معاينة دقيقة مطوّلة عند صدورها الى القتال ، وعند رجوعها مظفرة مزدانة بأعلام النصر . ولكن ممارسته للحرب البيزنطية تقف هنا : فلا نخاله شارك فيها بالسلاح أيضاً ، أو على الأقل بمصاحبة الأسطول في بعض غزواته ، كما فعل المتنبي أثناء مصاحبته لسيف الدولة الحمداني في حرب الثغور الشامية .

الفصل السادس

الإشارات التاريخية

(تابع)

قصائد المسيلة

قلنا إن القصائد التي نظمها الشاعر بالمسيلة تستعصي عن كل محاولة للترتيب التاريخي . لكنها تمدنا ببعض المعلومات عن الأخوين الأندلسيين في علاقتهما مع الخليفة وفيما بينهما، وعن بلاط المسيلة وما يحدث فيه ، وعن نوع الحياة التي كان يحياها الشاعر مع ممدوحيه هناك . فهي ، من هذه الوجهة ، أكثر إفادة من القصائد المعزية التي سيوجهها ابن هانيء وجهة عقائدية فيشيد فيها بالدعوة الإسماعيلية ويتهجم على أعداء الأئمة .

البلاط الحمدوني

هذه القصائد تشعر القارئ بأن جعفر بن حمدون شبه مستقل بإمارته ، إذ له بلاطه وطاقته وحاشيته ، وأن الحياة بالزاب تتسم بالرغد بل بالترف ، كأنما المسيلة عاصمة خلافة لا إمارة ، فوفود الشعراء المادحين والعفاة المستجدين تتزاحم على باب الأميرين ، بل الملكين ، لأن ألقاب الملك تكثر على لسان الشاعر : فهذا جعفر ملك « ما سُدَّ الأملاك من قبله »⁽¹⁾ ، وهذا

(1) قصيدة 31 بيت 41 .

يحيى أخوه الأصغر يسود « البرية كلها ، حتى الملوك العباهل »⁽¹⁾ ، وهذا أيضاً نجل جعفر ، إبراهيم ، هو على صغره ملك متوج : [خفيف]

7/38 لا أرى كابن جعفر بن علي ملكاً لابساً جلالة ملك

ونحن لا نغير لهذه الألقاب الملكية أهمية خاصة ، فهي لا تعني أصلاً أن هذا الاستقلال الظاهري هو تحرر بالفعل من التبعية للسلطة الفاطمية ، فلا يغيب عن الشاعر ان الأمرين هما ممثلاً الإمام وساعده ونصيراه في هذه المنطقة الوسطى من رقعة نفوذه الواسعة ، وأن جعفر بن حمدون يواصل مع المعز المناصرة التي قدمها لأبيه اسماعيل المنصور : [طويل]

3/63 وكنت يد المنصور منصور هاشم لذا البطش ، إذ أيدي الفوارس سوق

وكيف تغيب عنه حقيقة العلاقة بين الأمير والخليفة ، وقد تمرس بالمبادئ الإسماعيلية منذ وطئ أرض المغرب ، بل ربما منذ شبابه بالأندلس ، كما تدل عليه القصيدة الحائية التي نظمها في جوهر القائد ، وهي أول مدائحه على الإطلاق . وحتى إن بدا لنا في هذه القصائد شيء من الخفوت في ترديد الشعارات الشيعة المألوفة ، فلا يغرننا ذلك فنقول إن ابن هانيء يؤيد هذا الاستقلال أو يدعو إليه ، بل سنرى انه يدعو جعفرأ بالاحاح الى الوفاء للأئمة ويحذره من مكاييد من يزین له التحالف مع خصومهم المروانيين .

كما لا تغرننا عبارة « الملك » ومشتقاتها ، فهي قديمة في معنى السلطة والرئاسة والسؤدد ، دون ان يتعلّق بها معنى المصطلح السياسي . ومنذ الجاهلية كان رؤساء العشائر القويّة يسمّون ملوكاً : حُجر آكل المرار كان « ملك » كنده وابنه امرؤ القيس كان « الملك الضليل » رغم أنه خلع عن الملك بمقتل أبيه ، وكليب وائل سمّي « ملك ربيعة » بعد وقعة خزازي⁽²⁾

(1) ق 64 بيت 17 . نذكر أن القصائد 61 الى 70 هي التي نشرناها بالحواليات 1969 .

(2) انظر دراستنا عن « أدب أيام العرب » في الحواليات 1981 .

والمناذرة بالحيرة كانوا ملوكاً مقصودين رغم ولائهم المضيق للأكاسرة .

هذا هو مدلول الكلمة عند الشاعر ، وإذا احتجنا الى دليل آخر على بعده عن فكرة الاستقلال ، وجدناه في الأبيات التي تقرن لفظ الملك بلفظ الإمارة سواء بسواء : [طويل]

3/63 ويا مَلِكَ الزاب الرفيعَ عمادُه بقيتَ لجمع المجد، وهو فريق
6 . . . فما أنس لا أنسى الأميرَ إذا غدا يرُوعُ بِمَرَأى ملكه ويروق

فهذا الملك إنما هو أمير ، وهو تابع لملك أعظم منه ، وولايته إنما هي جزء من الخلافة، والخلافة كالامبراطورية تتركب من ولايات عديدة، على رأس كل واحدة والٍ أو أمير يسميه الشعراء ملكاً . هكذا كان سيف الدولة الحمداني « ملكاً هازماً لنظيره » في نظر المتنبّي ، وكان كافور « الملك الأستاذ » رغم انهما تابعان بالنظر لسلطان بغداد .

وبعد ، فلا تمنع هذه الاحترازاات من الإقرار بان جعفر بن حمدون كان يتمتع في ولايته بحرية في التصرف - ولا سيما في الشؤون المالية - يحسده عليها بقية الولاة في اقاليمهم ، ونجد في سيرة الاستاذ جوذر⁽¹⁾ صدى لتذمراتهم من هذا الامتياز. ولعلّ هذا الفسحة في أموال الجباية التي يحتفظ بها عوض أن يوصلها إلى القيروان هي التي عمّرت قصره بالشعراء والعلماء وجعلت بلاطه زاخراً بالعلم والفن والأدب كما يقول ابن خلدون⁽²⁾ .

ويشهد شعر صاحبنا بهذا الازدهار الذي جعل المسيلة شبيهة ببغداد :

[كامل]

35/6 رأيتُ حولي وفدَ كلِّ قبيلة حتى توهّمْتُ العراقَ الزابا

كما يشهد بأن سياسة جعفر في رعاياه عوّدتهم على الترف والأناقة حتى

(1) سيرة ص 129-133 وترجمة كانار ص 197-200 .

(2) ك . العبر ، بيروت ج 16-21 ص 315 .

صاروا يستخشّون النسيم العليل ، وكأنهم صاروا بغداديين أكثر من أهل بغداد : [طويل]

54/31 تبغدد منه الزاب حتى رأته يهبُ نسيمُ الروض فيه فيستجفي

وعلى ذكر تشبيه الزاب ببغداد قد نتساءل عن الدافع اليه دون غيره، ونستغرب من شاعر شيعي إسماعيلي أن يجعل عاصمة الدولة المنافسة الزائفة الغاصبة، معياراً للرفاه والظرف، إذ بها يشبه كلُّ مستحسن أنيق جميل. ولا غرابة في الحقيقة: ابن هانيء كجميع أدباء المغرب والأندلس يشعر إزاء الشرق بمركب التلميذ الذي لم يبدأ استاذة بعد، ذاك المركب الذي سيستكره ابن حزم فيؤلف رسالته⁽¹⁾ في فضائل الأندلس، ثم ابن بسام في الذخيرة. والذي سيحوّله الشقندي (1231/629) الى مركب استعلاء على أقطار المشرق⁽²⁾. وستبسّط في هذه التبعة الثقافية عندما نصل إلى خيال الشاعر وصوره الشعرية.

على انه يجنح إلى تشبيهات أخرى، غير المعيار البغدادية، فيصور ازدحام الزائرين على باب الامير بصورة منتزعة من الرصيد الديني: [طويل]

88/62 أرى الناس أفواجاً اليك كأنما من الزاب بعث أو من الزاب محشراً

ولا تقتصر أوصافه لهذه الحياة الناعمة على قصر جعفر بن حمدون: بل يحيي أيضاً له قصر وبلاط، رغم أن الشاعر لا يُعلمنا بمقر هذا القصر أكان بالمسيلة أم بمدينة أخرى من الزاب؟ وكذلك إبراهيم بن جعفر له قصر وزوار ومادحون، دون أن نعلم حقيقة وظيفته عند أبيه.

(1) نفع الطيب 164/3. وانظر فصل شارل بلّا بمجلة الأندلس 1954 عدد 19.

(2) فصل أ. لويّا بمجلة هيسبيريس المغربية / 22.

حياة اللهو

نجد في هذه القصائد الحمدونية استهلاالات أو استطرادات خمريّة
تحميل على الظن أن حياة الاميرين لم تكن على التقشف والجَد والاستقامة
التي عرفت بها حياة المعزّ . فنرى الشاعر مثلاً يدعو يحيى إلى أخذ نصيبه
المشروع من المتعة واللذة ، وقد قضى واجبه في القتال وطلب المعالي فعاد
إلى بلاطه غانماً مظفراً : [طويل]

46/18 فرغت من المجد الذي أنت شائد فجرّ ذبول العيش في الزمن النضر!
49 ومازلت تُروِي السيف في الرّوع من دمٍ فحقك ان تُروِي الثرى من دم الخمر
50 وتَنعم بالبيض الأوانس كالدمى وترفل من دنياك في حلّ خضر

ومن هؤلاء الأوانس البيض جارية أهداها جعفر الى شقيقه فكانت فرصة
للاشادة بالتعاطف الواجب بين الأخوين :

53/18 ... حباك بها من أنت شطر فؤاده
وما شطر شيء بالغني عن الشطر
54 أخوك ، فلا عين رأت مثله أخا
إذا ما احتبى في مجلس النهي والأمر
56 ... فمن ملك سام الى ملك رضى
تمادت ، ومن قصر مُنيف الى قصر

ويوجّه النصائح نفسها الى إبراهيم فيدعوه الى خلع العذار وترك حياة
الشباب ، وقد صار أميراً مؤمراً على جواريه وخدمه في هذا القصر الذي بناه له
أبوه ، فليَنعم بهنّ وليشرب معهنّ خمراً صافية كالنجوم : [كامل]

27/57 فاخلع حميداً بينها عُذر الصبا وليبد سرّ ضمائر إعلانها
39 ... وتخالها صفراء عارضت الدجى وسرت فنادم كوكباً ندمانها

حتى مدائح الأمير لا تخلو من هذه المعاني النواسية ، ففي إحداها يتخلص الشاعر من النسيب بسرعة فيدعو إلى عقد مجلسٍ ظريف على خمرة عجوزٍ بلغت من العمر مائة عام : [طويل]

5/28 خَلِيلِي هُبَا نَصْطَبِحْهَا مَدَامَةً لَهَا فَلَكُ وَتَرُّ بِهِ أَنْجُمُ شَفَع
6 تَلِيَّةَ عَامٍ فُضُّ فِيهِ خَتَامُهَا خَلَا قَبْلَهُ التَّسْعُونَ فِي الدَّنِّ وَالتَّسْعُ

وفي أخرى يستطرد إلى وصف خمرة أغتق من هذه يصعد عمرها إلى عهد نوح ، وتسبح لربها إذا ما صوّت في الدَّن : [منسرح]

14/61 وَهَوَ مَزَّةٌ مَعْتَقَةٌ مِنْ عَهْدِ نُوحٍ أَوْ عَهْدِ أَرْفَخْشَدُ
17 ... تَسْمَعُ فِي دَنْهَا إِذَا هَدَرَتْ قِرَاءَةً قَسَّ صَلِيَّهُ مَجْدُ

ولعل الأمير كان يحضر هذه المجالس فعلاً أو على الأقل يهيم بالحضور ، فيدعوه الشاعر إلى الامتناع لأن قدره أعلى من ذلك ، والوقار له أوجب : [كامل]

8/2 حَاشِيْتُ قَدْرَكَ مِنْ زِيَارَةِ مَجْلِسٍ وَلَوْ أَنَّ فِيهِ كَوَاكِبَ الْجُوزَاءِ

أحداثُ البلاط

ونجد في هذه القصائد صدى للأحداث السارة أو الأليمة التي تقع في بلاط الأميرين ، ولكنه صدى خافت مبهم لا يُعين المؤرخ على ضبط التواريخ والأماكن والتفاصيل . وهكذا نعلم من المراثي الثلاث أن جعفرأُصيب في حفيد له مات صغيراً وكان يسمّى علياً مثل جدّه الأول ، ثم في أمّه التي التحقت بزوجها مؤسس الأسرة وبالطفل ، ولكن لا ندري كم يفصل بين هذه الوفيات الثلاث . كما نحاط علماً بمرض ألمّ بالأمير فتوجّع له الشاعر في قصيدة وفداه بالنفس . ويتهادى الأخوان النفائس ، جارية من هذا وخيل من ذاك ، فيصف الشاعر الهدية ويشيد باتحاد الشقيقين وتكاتفهما . ويفرغ جعفر

من بناء قصر أبنة إبراهيم ، فيرسلُ الشاعر تحيةً عن بعد ، ولعله كان في
صحبة يحيى في إحدى غزواته ، ويمتني نفسه بالرتبة العالية في هذا القصر
الجديد : لا يحتاج إلى إذن ، بل يكون هو الذي يأذن لهذا ، ويدفع هذا ،
ويقدم الشعراء ويؤخرهم : [طويل]

26/ 62 أَلْكُنِي إِلَى الْقصرِ الْمَشِيدِ تحيةً فقد حَدَّثَ الركبُ عَنْهُ فَأَكْثَرُوا
50 ... إذا شئتُ لم يصعبُ عليَّ حجابهُ ولم يجفني فيه الرئيسُ الموقرُ
51 أجزرُ ذِيولِ العِزِّ بينَ عِراضِهِ وأنشُرُ ما حاكِ الثناءُ المحبّرُ
52 فأشفعُ فيه للوفودِ إلى الثنا لي الإذن فيه والمقامُ المشهّرُ

لكن هذه الأمنية حسب ما يبدو، حلمٌ بعيد ، فليس للشاعر من الخطوة
عند الأميرين ما يُبَوِّئُهُ منزلةَ الحكم بين المادحين ، بل بالعكس نراه يشكو
الحساد الذين ينتقصونه عند جعفر بقلة مدائحه وقصرها فيضطر إلى الاعتذار
ويتخلص بحجة لبقة سيستعملها بكثرة عند المعز ، وهي أن القرآن نطق بفضل
الأئمة فأعجز الشعراء ، فكذلك خصال جعفر ، هي أعظم من أن يُحيط بها
شاعر مهما كان مقولاً مقوهاً : [كامل]

58/6 إني اختصرتُ لك المديحَ لأنه لم يشفني فجعلته إغباباً
59 والذنبُ في مدحِ رأيتك فوقه أي الرجال يقول: فيك أصاباً؟

ونراه أيضاً يشكو الفقر فيطلب الرفد خلافاً لما يدّعيه من الترفع عن
الاستجداء ، فكأن عطايا الأمير تتأخر بتأخر قصائد الشاعر أو تَقَلُّ بقلتها ،
وربما طال الانقطاع فطال المنع ، كما وقع للمتنبى مع سيف الدولة . فهل
كانت معاملة الحمدوني لشاعره مثل معاملة الحمداني ؟ [متقارب]

73/50 وإني وإن تَرَنِي قابضاً جناحي اليَ كَظيماً وَجَمَ
74 أَقَلُّ من هَفَواتِ المزار وأبدي الغناء وأخفي العدمَ
75 فلإني من العرب الأكرمين وفي أولِ الدهر ضاع الكرمَ

ولكن ، رغم هذه الشكوى ، نعتقد ان حياة الشاعر بهذه الولاية الناعمة

كانت هنيئة مريئة ، فأسلوب العيش بها اندلسي أكثر منه مغربياً أو إفريقيّاً : أناقة ورفاهية وظرف وترف ، ولعل الشاعر قد ضاق به قليلاً لأنه وجده أشبه بالعيش في بلاط اشبيلية الذي قد لفظه أو هو ملّه ، لا سيّما وانه قدّم المغرب بنية تسخير طاقته الشعرية لخدمة الدعوة ونُصرة الأئمة ، فإذا به في بلاط يطيب فيه العيش وتهذأ فيه الحركة وتُنسى المشاكل ، ولعلّه أيضاً أخلدَ هنيئة إلى هذه الدعة وركن إلى هذا النعيم ، فخفتت في شعره المعاني المذهبية التي حمّلها قصيدته المغربية الأولى ، اي مدحة جواهر .

الولاء الفاطمي

وهو ، إذا تعرّض إلى ولاء الأخوين للإمامة الفاطمية ، يتلفّظ فلا يقدّمه في صورة التبعية المحضّة ، بل في صورة المؤازرة عن اقتناع بالدعوة ، ويسُتَمِرُّ نَسَبَ الأميرين الأزديّ فيشبه نصرتهما للمعزّ حفيد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنُصرة أجدادهم من أزد يثرب للنبيّ الهاشميّ :
[كامل]

40/6 (ك) سَدَّ الإمامُ بك الثغورَ وقبله هَزَمَ النبيُّ بقومك الأحزابا
أو يجعل من جعفر « السيف اليماني » المسلول في وجه أعداء
الهاشميين : [مقارب]

14/50 رأيتُكَ سيفَ بني هاشم وخيرُ السيوف اليماني الخِدم
أما يحيى فيحمي الثغورَ وثغره باسم : [طويل]

42/52 وإنَّكَ عن ثغر الخلافة ذائد وانك عن ثغر الخلافة باسم
إلا أنّ الشاعر يعطي الأولوية لجعفر ، فلا يأتي يحيى ، فضلاً عن إبراهيم ، إلا في مرتبة ثانية : فجعفر هو الذي ربّاه وسنّ له طرق المعالي ، وإن

يَعْلُ صِيْتَهُ فَبَفَضِلِ التَّكْوِينِ الَّذِي تَلَقَّاهُ مِنْ جَعْفَرٍ : [طويل]

23/63 سننَتْ لِيحْيَى سُنَّةً يُقْتَدَى بِهَا فُتً، وَمِنْهُ فِي الْأُمُورِ لِحَقُ
33 ... تَفُوقُ وَتَعْلُو أَنْتَ بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَبِأَسْمِكَ يَعْلُو قَدْرُهُ وَيَفُوقُ

وينتبه الشاعر إلى ما في تأكيد هذه التبعية من انتقاص لمرتبة الأخ الأصغر ، فيلجأ إلى الرصيد القرآني ويستخرج منه تشبيهاً للأخوين - في تآزرهما - بهارون وموسى عليهما السلام : [طويل]

64/18 لِعَمْرِي لَقَدْ أَيْدَتْ يَوْمَ الْوَعَى بِهِ
كَمَا أَيْدَتْ كَفَّاكَ بِالْأَنْمُلِ الْعَشِيرِ
65 لَذَلِكَ نَاجَى اللَّهَ مُوسَى نَبِيَّهُ
فَنَادَى أَنْ اشْرَحْ مَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي
66 وَهَبْ لِي وَزيراً مِنْ أَخِي أَسْتَعِينَ بِهِ
وَأَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأُشْرِكْهُ فِي أَمْرِي⁽¹⁾

مدى الوفاق بين الأخوين

عبارة « أَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي » تبعث على التساؤل ، ولا نظن أن الشاعر ضمَّنَها أبياته لمجرد استفراغ الصورة كما يقول أهل البلاغة ، أو لإظهار معرفته بالقرآن ، بل لعلَّ له فيها أرباباً : وهو حثَّ جعفر على التخفيف من استئثاره بالحكم وعلى إسناد مزيدٍ من المسؤولية لشقيقه . فان صحَّ هذا التخمينُ ، نتساءل : هل نطق الشاعر من تلقاء نفسه أم بطلب من يحيى ؟ فيعني هذا أن الأمير الثاني يتضايق من رتبته الثانوية في الإمارة ومن صعود نجم إبراهيم بن جعفر على حسابه هو وحساب بنيه . يدعونا إلى هذا التخمين إلحاحُ الشاعر على الوفاق الواجب بين الأخوين ، كِبَتْاً للأعادي وتخييباً للشامتين ، ودعوته

(1) طه ، 25 - 32 وفي رواية أخرى : وَشُدُّ ... وَأُشْرِكْهُ ...

جعفرأ إلى اختبار سواعد أنجال يحيى ، وما سبق لهؤلاء ذكر في شعره :

72/18 فما مثل يحيى من أخ لك تابع
ولا كَبْنِيهِ من جَحَاجِحِهِ زُهرٍ

ويجند أم الأميرين الميتة فيتضرع لجعفر باسمها حتى لا يفصم الوحدة
التي كانت الفقيدة رمزها ولحمتها : [متقارب]

80/59 فلولا الضريح لناذتكمَا تُعيدكما من شَماتِ العِدَى
ويضمّن هذه المرة الشاهد المعروف « أَخَاكَ أَخَاكَ إِنَّ مَنْ لَا أَخَا
له . . . »⁽¹⁾ لحثّه على الاستعانة الدائمة بحَيٍّ والتمسك بالألفة والاتفاق :

83/59 ومهما طلبت دليل الكرام فإنّ الدليل آتلاف الهوى
84 وانت اليمين فضل بالشّمال فما ليد عن يد من غنى
86 . . . ومن لا ينادي أخاً باسمه فليس يُخاف ولا يُرتجى

وقد كان يمكن أن يتعرّض الشاعر لسخط جعفر ، بسبب دفاعه عن
يحيى ولكنه لا يبالي ، بل يزيد له وفاءً فيبرّئ ساحته من تُهمة لا يوضحها
لنا ، ولعلّها وشاية سعى بها بعض الكائدين لدى جعفر حين كان يحيى بعيداً
عن المسيلة : [طويل]

2/69 أخوك الذي تحنو عليك ضلوعه
وما عنده ممّا علمت له علم
3 سوى أن أحست ما بنفسك نفسك
ودونكمَا البيداء والأجبل الشّم

ولعلّ السّعاة والمغتائب كانوا يعملون على كسب الأميرين الأندلسيين
للولاة الامويّ ويمهّدون للقطيعة التي ستتمّ سنة 971/360 . فقد أخبرتنا سيرة

(1) بقية الشاهد : . . . كساع إلى الهيجا بغير سلاح .

الاستاذ جوذر⁽¹⁾ بوجود داعية مرواني يدعى عثمان بن أمين ببلاد جعفر يدبر المكاييد لهذا الغرض. ونحن نعلم من جهة أخرى ان كاتباً لجعفر يدعى الوهراني قد تعرض لهجاء الشاعر بسبب الخطر الذي كانت دسائسه تهدد به جعفرأ ، فدعاه إلى الإبقاء على الامير والابتعاد عنه : [خفيف]

18/29 أبق لي جعفرأ، ابا جعفر، لا ترم يوميه بالناد العسوف
20 ... فإذا ما نعت شر نعب فعلى غير ريعه المألوف
21 لست أخشى الا عليه فكن بأل ————— أزيحي الرؤوف جد رؤوف

فهل سلط هذان الرجلان نميمتهما على يحيى خاصة لأنه لم يستجب لدعايتهما؟ نحن لا نستبعد ذلك ، ولا نستبعد بالخصوص تردد يحيى واستنكافه من خلع الولاء الفاطمي ، إذ نعلم أنه ، يوم ان قرر جعفر الانتقال الى قرطبة ، تبعه يحيى على مضض لاثماً نفسه على قطع ولائه لأبناء فاطمة وصرفه الى الأمويين⁽²⁾ ، وانه بادر فور وصوله إلى الأندلس بالانقطاع عن جعفر فقبل ولاية البصرة بشمال المغرب الأقصى ، وأنه في نهاية الأمر التحق بالفاطميين بالقاهرة ورجع تائباً الى ولاتهم .

وإذا احببنا إلى دليل إضافي على موقف الشاعر من يحيى ، وجدناه في المدحة التي دبجها في أخوي المعز ، الأميرين طاهر والحسين : فقد تضمّنت بالخصوص مدحاً ليحيى ودعوة لهما لاستخدامه وجعله محل ثقتهم لأنه برهن بمآتيه السابقة على وفائه للأئمة : [رمل]

47/15 إن يحيى بن علي أهل ما جئناه من جزيلات الأيادي
52 ... مثله خاط ثغور الملك في كل دهياء على الملك نأد
53 أي زندي فآقدحاه! ثم في أي كف! فصلاها بامتداد!

(1) ص 123 من النص العربي ، وص 187 من الترجمة الفرنسية .

(2) الحلة السيرة ، ترجمة يحيى بن حمدون ، عدد 111 .

حروب الأخوين

لا يكفي الشاعر في قصائده الحمدونية ، بذكر الأحداث التي تقع بالبلاط والاشارة إلى ما يحاك فيه من دسائس . فهو يتعرّض أيضاً إلى العمليات الحربية التي ينظمها الأميران، وأحياناً إبراهيم بن جعفر أيضاً، ضد القبائل المتمردة على الحكم الفاطمي أو الممتنعة عن الجباية . هذه الحملات التي تقتحم الجبال المنيعه أو الحدود البعيدة يصورها الشاعر في شكل ملاحم عظيمة وانتصارات باهرة ، بحكم ميله المعروف الى التفضيم والغلو ، ولعلها لم تكن في الحقيقة الا تحركات موسميّة عادية . وإشارات الشاعر في هذه القصائد لا غناء فيها للمؤرخ أو الدارس لأنّ الشاعر لا يدقق ولا يفصل ولا يوضح ، فلا علم لنا بالزمان ولا بالمكان ولا بالأشخاص ولا بالنتائج المفصلة . لكأنّ ابن هانئ يهرّب من التدقيق قصداً لأنه لو دقق ، لأفقد هذه العمليات ما ادّعاها لها من خطورة ومهول ، والمجهول وحده مهول . وهكذا لا نستفيد الا النزر من المعلومات : مثلاً ، انها حملة ضدّ الأعراب ، وقد يعني بهم المارقين من زناتة ، وهم بربر رُحّل : [طويل]

21/63 به عرفت تلك الأعاريب قهرها فلا مارق يخشى عليه مروق
22 فقد غدت الأجسام وهي حداثق وعاد زئير الليث وهو شهيق

أو أنها غزوة انتصر فيها يحيى بفرض الأمن بالمغرب الأقصى وأحلّ
الطمأنينة بعد الفوضى : [طويل]

30/8 نحا المغرب الأقصى بسطوة بأسه فغادره زهوا وقد كان مُرتجبا

ولكن في أيّ منطقة من المغرب ؟ وضدّ من ؟ وفي أي وقت ؟ معلومات مسكوت عنها ، والسكوت محير ، خصوصاً وأنّ العمليات بالمغرب لم تكن من صنع يحيى أو جعفر وحده ، بل كان يقودها أيضاً أمير آخر من ممدوحى الشاعر ، نعتي أبا الفرج الشيباني الذي ستحدّث عنه بعد قليل . وقد نجد في

القصيد الواحد إشارات يصعب الربط بينها : فهذا مدح لإبراهيم بن جعفر ، يتخلله تعظيم لأبيه ، مصدر كل مكرمة ، ووصف لهزيمة الحقت بالحروريين ثم ذكر لقائد مظفر يُنتظر قفوله من المغرب الأقصى : [طويل]

- 39/32 رعى الله إبراهيم من ملك حنا
على الملك حانيه وأشفق مشفقهُ
40 وأورى بزند الأرقم الصل جعفرُ
ولم يُعِبه فتق من الأرض يرتقهُ
43 ... وأعنى الحروريين متقد الثهي
مظاهر عقد الحزم بالحزم موثقهُ
53 ... وبالمغرب الأقصى قريع كتاب
تخب بمسراه فيرجف مشرقهُ
54 سيُرضيك منه بالإياب وسعده
ويجمع شملا شاد مجداً تفرقهُ

فَتَسَاءَلُ : أجعفر الممدوح أم الابن ؟ فان كان إبراهيم ، فكيف يمدح وهو غائب ؟ وهل هو المعني بالقائد الظافر في المغرب الأقصى ؟ ومن هؤلاء الخوارج الذين قهرهم ؟ ولا نظفر بطائل أمام هذا الإبهام وهذا الالتواء ، خصوصاً وأن التوطئة تضيف : « ... ويهجو الوهراني » ، ولا ذكر للوهراني .

وهناك قصيدة جديرة باهتمام خاص، هي السادسة عشرة التي قلنا انها قد تكون نظمت بالقيروان وأرسلها الشاعر إلى الممدوح، أي جعفر، بالمسيلة، عند وصول نبي النصر الذي حققه على الخوارج بقلعة تدعى كيانه ، وهي تلفت الانتباه لأن لهجة الشاعر فيها قوة والنفس الملحمي فيها أظهر منه في غيرها ، ثم لأن ابن هانيء قلما يخصص قصيدة كاملة لوقعة معينة .

يستهل القصيدة بتشبيه هذه القلعة بحصن السمؤال بن عادباء في الشموخ والمنعة ، فيُرضي في آن واحد ميله الى الغلو وتعلقه بالتراث الثقافي

القديم : [طويل]

1/16 بلى! هذه تيماء والأبلق الفردُ فسل أجَمَاتِ الأسد: ما فعل الأسد؟

ويذكر صدى فتحها بالقيروان :

4/16 تؤمُّ أميرَ المؤمنين طوالعاً عليه، طلوعَ الشمسِ يقدمها السعدُ
5 فتوحات ما بين السماء وأرضها لها عند يومِ الفخر ألسنةٌ لدَّ

ثم ينسبها الى الحرورية هي أيضاً ، ويحملة تشيعه على اتهام الخوارج بالكفر فانهم لا يصلون لربهم ولا يعترفون بسلطان ، كما تحمله عنصريته اليمنية على انتقاص عجمتهم البربرية ، فهذه القلعة ما نطقت العربية قط . أما اليوم وقد استقرَّ بها جعفر الملك القحطاني فقد حلَّت بها الفصاحة والبلاغة مع الأمن والطمأنينة :

8/16 حروريةٌ ما كبر الله خاطب عليها، ولا حتى بها ملكاً وفد
9 وكانت هي العجماء ، حتى احتبى بها ملوك بني قحطان، والشعر والمجد
10 لذلك نراها اليوم آنس من منى وأفح من نجدٍ وما وصلت نجدُ

والشاعر لا يسمي القلعة باسمها . وإنما ذكر اسم كيانه في توطئات المخطوطات محرّفاً إلى « كنانة » و « كنانة » و « كتامة » و « كتانة » . ولا يمكن أن تكون قلعةً لكتامة ، فالكتاميون أنصار للفاطميين منذ أن داخلهم الداعي أبو عبد الله ، وإنما هي كيانه معقل أبي يزيد صاحب الحمار في آخر أيامه . فقد تحصن بجمال المعاصيد في شمال شط الحضنة وحاصره المنصور هناك وظفر به جريحاً أو قتيلاً . ومما يحقق عندنا اسم هذه القلعة - وقد تكون لا قلعةً مبنية بل سلسلة من الجبال المنيعه - أن الشاعر ينسبها إلى مخلد وهو صاحب الحمار :

27/16 فمن جَمرة قد أطفئت مَخْلديّةٍ وأخرى لها بالزاب مُذ زَمِنٍ وَقَدْ

ويستعمل لوصف تسليم - او استسلام - الثائر المتحصن بها تعبيراً يكاد

يكون منقولاً عن قصيدة للشاعر الإياديّ كان وصف فيها استسلام - او تسليم - ابي يزيد للمنصور : فكلاهما استخدم صورة الوليد الذي لفظه مهده⁽¹⁾ ، إلا أنّ الوليد الذي يعنيه ابن هانئ هو على ما يبدو أحد رؤوس زناتة من قبيلة مغراوة ، ولعلّه ، كما يظن ماريوس كانار⁽²⁾ ، محمد بن خزر العدوّ العنيد للفاطميّين . وعلى عادته ، لم يذكر الشاعر اسم هذا الثائر المغلوب ، ولكن القرائن المختلفة : العجمة ، اي البربرية ، والانتساب الى المذهب الخارجيّ ، والاشارة الى ثورة صاحب الحمار ، واللاحاح في طول تمرّدها على الدولة الشيعية - وقد دام حسب قوله ، ستّين عاماً - كل هذا يؤيد ما نذهب اليه مع غيرنا : ان العمليّة قادها جعفر ضدّ أحد رؤوس زناتة الخارجيّين في المنطقة الجبليّة التي كان تحصّن بها ابو يزيد واختارها لمناعتها ووعورة مسالكها ، ولكنها خرّت لجعفر كما خرّ سيناء لموسى :

وكانت شجاً للملك ستّين حجّة 25/16

وما طيب وصل لم يكن قبله صدّ؟

بها النار نار الكُفر شُبّ ضرامُها 26

ولو حُجِبَتْ في الزند لاحتَرَقَ الزُّنْدُ

... ولمّا تجلّى جعفر صُعقت له 20

وأقبل منها طور سيناء ينهدّ

وعلى ذكر انتقاص الشاعر للبربر بسبب عجمتهم وبعدهم عن الفصاحة وجهلهم بالدين الصحيح في زعيمه ، نقول : لعله نقل هذه العقليّة من نشأته الأولى بالأندلس . فقد كان العنصر العربي هناك يترقّع على غير العرب كما تشهد بذلك رسالة الشقندي . إلّا أن الشقنديّ متأخّر بالنسبة الى شاعرنا ، وقد

(1) انظر قصيدة الإيادي في الحوليات عدد 10/1973 ص 102 .

(2) الاسرة الحمدونية ص 39 . وقراءة «كيانة» هي التي اختارها فوندرهايدن : ابن حماد ص 51 تنبيه 1 ، وماريوس كانار في ترجمته لسيرة جودز ص 69 تنبيه 71 ، وبول ماسيرا في مقاله عن المسيلة ص 159 .

تفاقت العنصرية إزاء البربر بعد تدخّلات المرابطين ثم الموحدّين لإنقاذ الأندلس رغم أنف أهلها . على أنه من المحتمل أيضاً أن تكون عنصريّة ابن هانئ ترجمةً للتنافس السياسيّ بين ابن الأندلسيّة ، اي جعفر ، وأمير صنهاجة البربريّ، زيري بن مناد ثم ابنه بلقين . وقد سبق ان عَرَضْنَا للرأي الذي يعزو تحوّل المعز عن إفريقية الى العداوة العلنيّة والدفيّة ، بين سكان المغرب البرابرة السنيّين والأسرة الشيعيّة الدخيلة . وفي إفريقيّة بالذات لنا شاهد على هذه الشعوبيّة المعكوسة في سلوك الزاهد القيروانيّ البهلول بن راشد (ت 799/183) : فإنه أقام وليمةً حين علِمَ أنه عربيّ الأصل لا بربريّ⁽¹⁾ .

والترفع عن العنصر البربريّ لم يمنع جعفرًا من التعاطف مع الزناتيين ، لأنهم أعداء منافسيه الصنهاجيّين ، فنراه يسارع الى العفو عنهم بعد الظفر بهم :

وما عن أمانٍ يومَ ذاكَ تنزّلوا ولكن أمان العفو أدركهم بعدُ 45/16

ونجد في القصيدة الثامنة والعشرين ، وهي أيضاً في مدح جعفر ، اشارات قريبة من هذه التي عرضناها آنفاً ، كأنما الشاعر أعاد فيها عرضه للأحداث ، إلّا أنه هنا يذكر صراحةً بني أمية ، فيؤكد بذلك ان الثائر الزناتيّ المغلوب كان حليف المروائيين : [طويل]

ولمّا طَغَوْا فِي الْأَرْضِ أَعْصَرَ فِتْنَةً وكان ديبَ الكفر في الدولة الخلعُ 18/28
 سموتَ بِمَجَرٍّ جاذِبِ الشَّمْسِ مسلِكاً وثار وراء الخافقين له نقعُ 19
 فألقى . بأجرامٍ عليهم كأنما تكفّت على أرضٍ سَمَاوَاتُهَا السَّبْعُ 20
 كتائبُ شَلَّتْ فابذَعَرْتُ أُمَيَّةً فأوجَّهَهَا لِلخِزْيِ أثْفِيَّةٌ سَفْعُ⁽²⁾ 21

وانه طغى مدة طويلة فصعد اليه جعفر في جباله الشامخة التي لا تطوُّها

(1) محمد الطالبي : تراجم أغليّة ص 30 . وانظر : ادريس : مساهمة ... 143 . وانما فرح البهلول لأنّه سمع أحاديث كثيرة موضوعة تنعى على البربر قلة دينهم .

(2) تكفّت ، أي تكفّت : انقلبت . ابذعرت : تفرقت .

إلا الشمس عادة فقهره وكانت بذلك خيبة المروانيين ، الا انه هنا يذكر حصناً
مشيداً انجلوا عنه بعد الهزيمة : [طويل]

24/28 تجافوا عن الحصن المشيد بناؤه وضاق بهم عن عزم أجنادهم وسع

والغريب ان المؤرخين لم يسيروا الى هذا الحصن في المنطقة التي
وسمت بكيانه ، ولاذكروا أن الحضور الأموي بلغ الى هذه الناحية من
المغرب الأوسط . فهذه من غوامض الإشارات أيضاً ، ولا يسعنا الا الافتراض
والتخمين : فإن كانت القلعة في جبال كيانه فلعل الإشارة الى المروانيين تعني
فقط عميلهم الزناتيين ، ذاك الذي يسميه « عميد الملحدين » ، وهو في آن
واحد عميد الأمويين ، او كما نقول اليوم ، « عميلهم » :

27/28 وراح عميد الملحدين عميدهم لأحشائه من حر أنفاسه لذع

وبهزيمته « وخسرانه المبين » تمت خيبة أسياده المروانيين فصار الشاعر
يشك في قدرتهم على تسيير الحرب :

31/28 وتلك بنو مروان نعلًا ذليلة لواطىء أقدام وأنت لها شسع
23 ... ألا ليت شعري عنهم ! أملوكهم تدبر ملكاً أم إمأوهم اللكع ؟

ويبدو أن الشاعر استسلم الى جعفر :

29/28 تشرفت من أعلامها ودعوتَه فخرٌ مُلبي دعوة ما له سمع

30 فقل لمبين الخسر : كيف رأيت ما أظلك من دوح الكنهل يا فقع

وبالرغم من هذا الانتصار الذي يبرهن على عزيمة صادقة عند جعفر في
قتال أعداء الأئمة ، نرى الشاعر يختم القصيدة بتحذيره من كفران النعمة ، أي
قطع الولاء للدولة البيضاء :

34/28 أبا أحمد المحمود ! لا تكفرنَّ ما تقلدت ! وليشكر لك المن والصنع !

35 هي الدولة البيضاء ، فالعفو والرضى لمقبلي عفواً ، أو السيف والتطع !

وفي هذا الإنذار المخيف ما فيه من لبس : ألعفو لمن يستحقه ، أي لمن تاب بعد التمرد ؟ أم لمن يصغي الى جواسيس الحكم المستنصر ؟ والقتل الذريع الشنيع ؟ أَلَمَن يَهَمُّ بالنقض والخِذلان ؟ أم للزنايَ إذا تمادى على غيّه ؟ وقد تنبه المستشرق ماريوس كانار⁽¹⁾ الى ما في هذين البيتين من صرامة وتهديد ، ورأى أنهما موجّهان الى جعفر . وقد نشاطره هذا الرأي ، الا انا نظنّ أن القصيدة مثل سابقتها الدالية قد أرسلت ايضاً من القيروان لأن الشاعر ما كان يتجاسر على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة .

ولا ينفي هذا التحذير ولا هذا الجفاء اعتراف الشاعر بجميل الأسرة الحمدونية والإشادة بعطفها عليه وعلى ذويه ، فقد وجد في الأخوين مواطنين أندلسيين مثله أجاراه وجبرا كسره في وقت انسدت السبل أمامه وعري من ريشه : [كامل]

37/25 أبني عليّ ! لا كفرتُ أياديا أغلّيتني في عصر لؤمٍ مُرخص
38 جاورتكم فجبرتُم من أعظمي ووصلتُم من ريشي المتحصّص

* * *

وهكذا استثمرنا ما يمكن استثماره من إشارات وتلميحات وتجاسرنا في أحيان كثيرة على الافتراض والتأويل وربط ما غمض من أحداث في رواية الشاعر بما ذكره المؤرّخون ، فخرجنا بنتيجة يمكن اعتبارها حقيقة واقعة : وهي أن الشاعر ، رغم تعلّقه بالأسرة الحمدونية وحفظ اليد لها ، لم يهرح يدعوها الى الحفاظ على طاعة الأئمة والولاء للدولة الفاطمية ، وذلك لاقتناعه هو بالمبادئ الشيعية وانتصاره للمذهب .

(1) أسرة... Une famille... 42

بقية شعره

درسنا ، عند تعريفنا بالممدوحين ، القصائد التي مدح بها الشاعر أشخاصاً آخرين غير المعز وأمرء المسيلة . هؤلاء الممدوحون المجهولون هم :

- أفلح الناشب والي - او قاضي - برقة .
- ابو الفرج الشيباني الذي لا ذكر له قطّ عند المؤرخين وأصحاب التراجم . وقد افترضنا انه قائد بكري مكلف بحفظ الأمن على الحدود المغربية ، ولعله كان يقيم بجهة تاهرت التي كانت تقطنها عناصر من شيبان⁽¹⁾ .

- أخوا المعز ، طاهر والحسين ، اللذان مدحهما بقصيدة اشاد فيها بفضل يحيى بن حمدون خاصة .

- أحمد بن زائدة « الكاتب » الذي ذكر في مخطوط تونس² لا غير .
ويظهر انه قائد ايضاً ، من أصل يمني ايضاً : [منسرح]

34/65 فخراً بمدحيك لا بسالف قد طان وإن كنت من مقاولها

وكان يقرض الشعر إذ له مطارحة شعرية مع ابن هانيء من نوع « التخريج » ، وهو ان يقترح واحد بيتاً فينظم الآخر أبياتاً في المعنى والوزن والروي ويختمها بالبيت المقترح ، وكان بيت ابن زائدة في المخطوط :
[طويل]

فلو أن ما أبقيت متي معلق بعود ثمام ، ما تأود عودها⁽²⁾

(1) الشاذلي بو يحيى : الحياة الادبية ، ترجمة 93 (ابن ابي الرجال) ص 83 .

(2) حوليات 1972 قطعة 29 .

المقطوعات

ويجّرنا هذا الى دراسة المقطوعات والأبيات المنفردة التي تضمّنها الديوان ، بما في ذلك المقطوعات التي انفرد بها مخطوط تونس 1 . جملة هذه القطع الصغيرة ثمان وأربعون تشمل مائة وأربعين بيتاً ، انفرد مخطوط تونس 1 بستين بيتاً في ثمانين عشرة مقطوعة . وهذه القطع تضمّ البيتين والخمسة أبيات على الأكثر .

وقد استثمرنا هذه الإضافات القصيرة الى القصائد الكبرى الاثنتين والستين ، استثمرناها في ترجمة الشاعر وتحديد ملامح شخصيته ، واكتشفنا منها بالخصوص ميله الى اللهو والعريضة . وقد نستغرب غياب المقطوعات المجونّة من النسخ التي اعتمدها الناشر الاسماعيلي زاهد علي ، ووجودها في مخطوط تونس¹ . فهل يعني هذا ان هناك نسخاً « مطهرة » مما يخلّ بسُمة مادح الأئمة الطاهرين ، وأخرى صريحة كاشفة لا تبالي ان يظهر شاعر الدخلاء العبيديين على حقيقة شذوذه وانحرافه ؟ نحن محمولون على هذا الظنّ إزاء بعض هذه القطع الخاصة بنسخة تونس 1 . ففي واحدة منها يتغزل بسلام يقول المخطوط انه كان ينافس فيه الأمير تميم بن المعز ، فيتلاعبُ باسمه « عبد الله » (بن سليمان) فينظمُ حروفه في أوائل سبعة أبيات تقرأ عمودياً فينكشف الاسم المحبوب . وفي أخرى يسخر من مسكين كان ينظف بيوت الخلاء فتحول الى مهنة السقاء ، وهي سخريّة ثقيلة منحطة : [طويل]

أيا ابنَ ابي زَمَور الماждَ الذي
تبدّل كي يُنسى فلم يك مَنسِيّا
تبدّل من جام الكنيف بقربة
وكان « طعاميّاً » فعاد « شرابيّاً »⁽¹⁾

(1) حوليات 1972 قطعة 107 .

وفي أخرى يَثنِي بعض أصدقائه الشعراء عن الخروج الى مصر مع معشوقة تدعى «رمانة المسك» فيقول : لا حاجة لمصر بهذا البوهيمي ومومسه : [كامل]

ماذا تؤمل أرض مصر من فتى يغنى بها ، وخريدة يجدى بها
يمني ذوي آدابها وشبابها أن زيد في شعرائها وقحابها⁽¹⁾
وفي أخرى يستهزئ بشخص طويل اللحية فيشبهها بديك معلق :
[بسيط]

انظر إلى لحية الطمشيش بارزة حمراء ضافية دلت على حقيقته
كأنما سرق الفران جارتته ديكاً ، فعلقه القاضي على عنقه⁽²⁾

وهذه القطعة الأخيرة وردت مع بعض التغيير في تنمة اليتيمة⁽³⁾ ونسبها الثعالبي (1037/429) الى ابن هانيء آخر سماه جعفرأ ، مما يدعونا الى الشك في نسبة هذه المقطوعات التي تختلف اختلافاً بيناً عن بقية شعر صاحبنا ، في مضمونها كما بينا ، وفي شكلها الهزيل الوضع ايضاً . فلعلها أقحمت في شعره ونُسبت خطأ اليه لأن اصحابها يُدعون ايضاً « ابن هانيء » كجعفر هذا الذي قال الثعالبي إنه أندلسي ايضاً . وقد تكون لابن هانيء آخر يدعى محمد (ابن ابراهيم) بن هانيء وكان يعيش بمصر في منتصف القرن السادس / الثاني عشر⁽⁴⁾ . وقد لا يقتصر الانتحال على هذه القطع الضعيفة : فالقطعة التي يقال انه مدح بها جعفر بن فلاح القائد الكتامي ، وهي مذكورة في جميع النسخ : [بسيط]

كانت مساءلة الركبان تخبرنا عن جعفر بن فلاح أطيب الخبر

(1) حوليات 1972 قطعة 12 . وقراءتنا تقريبية نظراً لرداءة الخط في النسخة .

(2) حوليات 1972 قطعة 67 .

(3) ج 1 ص 24 .

(4) العماد الاصفهاني : الخريدة (شعراء مصر) ج 1 ص 248 .

ثم التقينا، فلا والله ما سمعت أذني بأحسن مما قد رأى بصري⁽¹⁾

هذه القطعة أثبتتها بعض رواة الأدب منسوبة الى صاحبنا ، ولكن أثبتوها موسومة لا بالقائد البربري ، بل بشخص يدعى احمد بن سعيد⁽²⁾ . ومنهم من نسبها الى أبي تمام⁽³⁾ .

بل حتى كبريات القصائد قد نُسب بعضها الى غير ابن هانيء ، كالقصيدة السادسة والعشرين الطائية التي عزاها ابن ظافر⁽⁴⁾ الى معاصر شاعرنا ومساكنه في البلاط الفاطمي علي الايادي .

وليست المقطوعات الخاصة بالمخطوط التونسي ضعيفة كلها او منحرفة عن مألوف شعر ابن هانيء مثل هذه النماذج التي أوردناها . بل فيها قطع عادية ، مثل الأبيات المنفردة التي يشهد فيها بخصال ممدوحين معروفين كبنی حمدون او أبي الفرج (محمد) الشيباني : [طويل]

ثلاث خصال سدت فيها عشيرتي ومن لم تكن فيه فليس بسيد
فهن : إذا واخيت ، صرف مودتي وجود يميني ، وامنداح محمد⁽⁵⁾

أما المقطوعات المشتركة بين جميع النسخ ، فلا تلفت الانتباه في خصوص الأخلاق أو أسلوب النظم فيها ، اللهم اذا استثنينا مقطوعتين في وصف مجلس لهو على طريقة أبي نواس . إلا أن الوصف شمل في أبياتها الخمسة ، الخمرة والأقداح والساقى والقيان ونجوم السماء : [وافر]

وليل بت أسقاها سلافا معتقة كلون الجلنار

(1) زاهد علي : تبين ... 364 .

(2) ابن ابي حجلة : سكران ... ص 392 .

(3) المحبي : خلاصة الأثر 88/1 .

(4) بدائع البدائع ص 389 .

(5) حوليات ص 83 قطعة 31 .

كَأَنَّ حَبَابَهَا خَرَزَاتٌ دُرٌّ عَلَتْ ذَهَباً بِأَقْدَاحِ الثُّنَّارِ
بَكَفٍّ مَقْرَطٍ يُزْهِى بِرَدْفٍ يَضِيقُ بِحَمْلِهِ وَسَعُ الْإِزَارِ
أَقَمْتُ لَشَرْبِهَا عِبْثاً ، وَعِنْدِي بَنَاتُ اللّٰهُوَ تَعَبْتُ بِالْعُقَارِ
وَنَجْمُ اللَّيْلِ يَرْكُضُ فِي الدِّيَاجِي كَأَنَّ الصَّبْحَ يَطْلُبُهُ بَثَارُ⁽¹⁾

والأخرى في وصف الجلنارة بالذات ، وهي من الأرجاز القليلة في الديوان ، وصف حمرتها القانية الدامية ثم ثغرتها الشبيهة بالابتسامة المغرية :

... جاءت بمثل النهْد فوق الصدر

تفتّر عن مثل اللثات الحمر

في مثل طعم الوصل بعد الهجر⁽²⁾

ولكنّ العدَدَ الأوفر من هذه المقطوعات خصَّصه الشاعر لوصف السلاح ، وإنّ له براعة خاصة في الإشعار بمناقب سيفٍ ممدوحٍ وعَنائِهِ في الحرب ، وكثيراً ما يكون سيف يحيى بن حمدون ، مما يدعو إلى الظن أن هذه الأوصاف إنما هي مطارحات شعريّة وطرائف مجالس : يصوّر مثلاً بريق السيف : [طويل]

وَذِي شَطَبٍ قَدْ جَلَّ عَنْ كُلِّ جَوْهَرٍ

فليس له شكلٌ وليس له جنسٌ

كما قابَلْتُ عَيْنَ مَنْ الِيمَ لَجَّةً

وقد نَحَرْتُهَا مِنْ مَطَالِعِهَا الشَّمْسِ⁽³⁾

وينسب إلى السلاح عواطفٌ شيعيّة مثل التي لحامله : فهذا « سيف صدق » يرسل بريقاً شبيهاً بدموع الباكين على الحسين : [طويل]

(1) زاهد علي ، ص 334 صادر ص 174 .

(2) زاهد علي ، ص 334 صادر ص 175 .

(3) زاهد علي ص 378 صادر ص 176 .

هو السيف سيفُ الصدق ، أَمَا غَرَارُهُ فَعَضْبُ ، وأما مَتْنُهُ فصقيل
يشيع له الإفرندُ دمعاً كأنما تذكّر يومَ الطفّ فهو يسيل⁽¹⁾

والخلاصة أنّ هذه المقطوعات ، لئن لم تُسَعِّفنا بمعلومات جديدة عن
أطوار حياة الشاعر أو عن الأشخاص الذين مدحهم ، فإنها على كل حال تنير
جوانب من شخصيته وميوله وأخلاقه كانت تبقى مجهولة لدينا لو اكتفينا بدراسة
القصائد الكبرى « الشريفة » الرسمية .

(1) زاهد علي ص 648 صادر ص 307 . ويوم الطف هو يوم كربلاء .

الفصل السابع

أغراض ابن هانئ ومعانيه

المعاني التقليدية

يشمل ديوان ابن هانئ كاملاً ، اي اذا اعتمدنا على طبعة زاهد علي وعلى الاضافات التي سمحت لنا بها مخطوطة تونس 1 ، سبعين قصيدة تتراوح بين احد عشر بيتاً ومائتين ، مجموع الابيات فيها يبلغ 4251 بيتاً . فإذا أضفنا اليها 140 بيتاً من المقطوعات الصغيرة والمنفردة ، بلغ مجموع ديوان هذا الشاعر 4391 بيتاً ، فهو إذن ديوان كبير .

المدح

معظم القصائد السبعين مدائح ، منها ست وعشرون في بني حمدون ، فإذا أضفنا اليها الهجاء الموجّه الى الوهراني ، وهو في الواقع مدح لجعفر ، وكذلك المراثي الثلاث في والد جعفر وحفيدها ، بلغ شعر المسيلة ثلاثين قصيدة . ومدائح المعز بما فيها مدحة أخوته ثلاث وعشرون ، ومدائح القواد والولاة والكتّاب تبلغ ثلاث عشرة قصيدة . والأربع الباقية لا تندرج في الأغراض التي اعتاد شعراء البلاط طرقها : اثنتان تنتسبان الى التمرين والمحاكاة : محاكاة لأبي نواس في رحلة خمريّة ولعمر بن ابي ربيعة في مغامرة

غزليّة ، وأخرى من نوع الوصف الساخر تتهكّم بأكل ، والرابعة أقرب الى النقد الأدبيّ اذ تتناول ديوان المتنبي .

وننوي في هذا الفصل والفصلين اللاحقين ان ندرس الاغراض والمعاني التي تتضمّنّها هذه القصائد ، فنبدأ بالأغراض التقليدية ، اي تلك التي تعود الشعراء المدّاحون ان يطرقوها، من الاستهلال، الى وصف الراحلة، الى المدح ، ونحلّل داخل كل قسم من هذه الأقسام نماذج من المعاني المطروقة . ونلحق بالمدائح قصائد الرثاء ، فنحلّل معانيها أيضاً . ونختم بالقصائد الأربع المستقلّة ، أي التي لا تذكر ممدوحاً ولا مهجواً . وعرضنا من هذه الدراسة ان نقف على مدى مساهمة ابن هانيء للقوانين المتبعة واحترامه للتقاليد الموروثة منذ الجاهليّة ، ومدى تخلصه منها إن كان هناك محاولة للتخلص ، ومن جهة أخرى ، أن نبرز مميّزاته عن غيره من شعراء المدح : وهي التحزّب للدعوة الشيعيّة والانتصار الدائم للدولة الفاطميّة . وستكون دراسة هذه النواحي العقائديّة المذهبيّة وما يتبعها من مواقف سياسية ، ضدّ الخصوم والأعداء الأمويّين والعباسيّين والروم ، وضدّ المتمرّدين في الداخل ، ستكون مادّة الفصلين المواليين لهذا الفصل السابع .

الاستهلالات

أكثر القصائد تُفتّح بمقدّمة غزليّة ، او طليليّة كما يقولون ، من نوع النسب . ولكنّ هناك سبعاً وعشرين قصيدة يدخل فيها الشاعر الى الموضوع مباشرة . والثوب الى الغرض أصبح عادة متبعة ، حتى إنّ المتنبيّ تهكّم بمن يقدّم النسب وجوباً ويفرض على كل مادح ان يكون متيّماً . وقد يفتّح شاعرنا القصيدة بتأمّلات حكميّة أو مشاهد وصفيّة ، ولكنّ أكثر المقدمات هي في النسب .

وفي هذا النسب لا يخرج صاحبنا عن المألوف ، وأقصى ما يحاوله هو ان

يحذف أحياناً وقفة الاطلاع ، أو الرحلة الى الممدوح ، أو وصف الوحوش ، ولكنه مهما تصرف فإنه يستبقي شيئاً من المقدمة التقليدية ، كالتوجع من فراق الحبيبة أو صدودها ، هذه الحبيبة التي تكون يمنية أزدية مثله ، تلومه على التذير كما كانت صاحبة عروة بن الورد تلومه على البذل : [كامل]

14/41 بكرت تلوم على الندى أزدية تنمي اليه خضارما وقولا

وقد تكون الحبيبة يمنية طائية فيحب لحبها طيئاً كلها رغم أزدية :

[طويل]

2/3 نوى أبعدت طائية ومزارها ألا كل طائي الى القلب محبوب

كما تكون أيضاً عدنانية تترفع عن المحب الذي لا يكون مضريراً مثلها :

[طويل]

5/65 تميمة لم يعرف الذل قومها ولا نكبات الدهر وهي غوائل
10 . . . وقد جعلت تبأى علينا بقومها وفي وجهها شغل عن الفخر شاغل

وقد يكتفي بذكر منازل قومها فيعين بذلك نسبها دون احتياج الى ذكر القبيلة ، كهذه الغادة التي يحميها فرسان نجد ضد الفتيان الأزديين « صفر العمائم » : [طويل]

3/46 فكيف بها نجدية حال دونها صعاليك نجد في متون الصلادم

فالحبيبة عربية بدوية ، وقومها يترحلون في طلب المرعى لإبلهم ، أو يقطنون مشارف نجد أو سهول اليمامة أو يعتصمون بجبلي أجأ وسلمى ، وهي محروسة حصينة دونها تُزهِق النفوس وتسيل الدماء . وقد يستغرب المرء من شاعر نشأ في بيئة أندلسية خضرة نضرة ذات حواضر ومدن ، ووقف أمام ممدوحه على أرض مغربية لها هي ايضاً جبالها وسهولها وأوديتها وقراها ، قد يستغرب منه هذا الانصراف بكليته الى بيئة بعيدة لم يعرفها وأرض نائية لم

تطأها قَدَمَاهُ . وهو استغراب لا محلّ له ، ما دام الشاعر يستثمر رصيدها ثقافياً
 موروثاً، وما دام مقلّداً ويعلم أنّه مقلّد، وأنّ هذه الحبيبة وهذه المنازل وهؤلاء
 الفرسان انما هي سُنَنٌ متَّبَعَةٌ ومراحل لا بدّ للشاعر المدّاح ان يمرّ بها ، وليس
 له ، كما قرّر ابن قتيبة ، ان يستبدل الناقة ببرذون فارِهِ ، ولا مسالك الصحراء
 بأزقة الكوفة ولا المناظر الموحشة بالحدائق العمومية . فلا وجه اذن لِلّوم
 الشاعر على تركه القيروان او المهدية او حتى الزاب الى نجد البعيد وتفضيله
 دعداً أو هنداً أو أروى على المحبوبات المغربيات أو الإفريقيّات . فهو كالتلميذ
 النجيب يحتذي حذو شيوخه الكبار ، وهؤلاء الشيوخ ، كما نرى في الفصل
 الأخير ، هم أمثال « علقمة الفحل الذي زعموا في الشعر وامرئ القيس
 المراري » .

والنسيب غزل وهميّ وغرام مفتعل ، لذلك يتغيّر اسم هذه المحبوبة ،
 فلا هي بئينة ولا هي عزة كثير ، بل هي تارة هند العطرة : [طويل]

7/8 مَوَاطِيءُ هِنْدٍ فِي ثَرَى مَتَنَفَّسٍ تَضَوّعَ مِنْ أُرْدَانِهَا وَتَأَرْجَا

وأخرى أروى المنية : [طويل]

20/47 وكم دون أروى من كمي مُلَامٍ وشعب شتيت بعدها لم يُلَامَ

وهي في الأكثر أسماء الهيفاء العجزاء : [طويل]

8/52 سلوا بانه الوادي أسماء بانه بجرعائه أم عانك متراكم؟⁽¹⁾

وأماكن اللقاء والتفرّق هي المعروفة المحفوظة كما قلنا : اللوى وبيرين
 والمحصب وتوضح وبرقة ثمهد : [طويل]

11/10 ولله أظعان ببرقة ثمهد وقد كربت تلك الشمس لتجنّحاً

إلا أن الشاعر يستقي عناصر تقليده أحياناً من متأخّرين عن علقمة أو

(1) العانك : هضبة الرمل . والجرعاء : الصحراء التي لا نبث فيها .

امرئ القيس ، كعمر في مغامراته بمناسك الحج : [بسيط]

3/12 ذا مَوْقِفُ الصَّبِّ من مرمى الجمار ومن مشاخب البُدن قفراً غيرَ معهود
4 وموقف الفتيات الناسكات ضحى يعثرن في جِبرات الفِتيّة الصَّيْدِ

وأتباع السَّنة القديمة يشمل أيضاً العادات وطرق العيش كالترحّل في
الصباح الباكر بالأحبة في الهواذج العالية : [كامل]

1/6 أَحْبَبَ بَتْيَاكَ القَبَابِ قَبَابَا لَا بِالْحُدَاةِ وَلَا الرُكَّابِ رُكَّابَا

والرحيل يترك الشاعرَ الولهان غريقاً في دموعه . ويغالي الشاعر على
عادته فيتخيّل رهاناً في البكاء والجزع يفوز فيه هو بعضا السبق : [خفيف]

7/35 يوم راهنت في البكاء عيونا فتقدّمتُ في عِنان السباق

ويقلُّ عنده الوقوف على الأطلال ووصف الدمن والآثار ، فاذا استوقف
الصَّحْبَ، فبحجّة المواساة المتبادلة والبكاء المُعار : [خفيف]

4/38 مُسْعِدِي عُج! فقد رأيتَ معاجي يوم أبكي على الديار وتبكي

ويكثر بالعكس تذكر الأيام الطيبة حين ينعم الحبيب بحبيبه : [خفيف]

4/35 رَبُّ يَوْمَ لَنَا رَقِيقِ حَواشِي _____ لَهُوَ حَسَنًا، جَوَالِ عَقْدِ النِّطَاقِ

10 قد لبسناه وهو من نفحات _____ ممسك ردع الجيوب ردع التراقي

أو المغامرات الليلية التي يظفر فيها بوصال الحبيبة الولهى الوجلة ، على
غرار عمر مع صاحبتة نعم : [متقارب]

7/58 فقد أطرقَ الحيَّ بعد الهجوع تصلَّ أسنُّهُم والطبى

8 فالهُوَ على رِقة الكاشحين بمفعمة السّوق خُرسِ البُرى

ولكنّ أكثر الزيارات وأشدّها على العاشق هي زيارة طيف الحبيب في
ليالي السهاد : [طويل]

2/11 ... فحيث مزور الخيال كأنه محجب أعلى قبة الملك أبلغ

وإذا ازور الطيف وذاب في جنح الظلام ، عوضه النسيم الذي يحمل
شذاها عن بعد ، أو البرق الذي لعله من أفقها انبثق ، فزاده شوقاً وتسهيذاً وهيج
فيه ذكرى التي لا تذكره : [طويل]

1/32 أمِنَ أفقها ذاك السنّا وتألّفه؟ يُورّقنا، لو أنّ وجدا يُورّقهُ! (1)
2 وما انفكّ مجتازاً من البرق لامع يشوقنا تلقاء من لا يُشوقه

والتقليد يشمل كذلك المعاني الحاقّة بمفهوم الحبيبة العزيزة في قومها ،
الحصينة في أهلها الممتعة في خدرها . فهي لا تبدّل حسنّها للناظرين ، ولا
يصل إليها المحبّ إلا بعد جهد ، بل جهاد ، إذ أن حراس هذه الدرة قد
يتنبهون إلى زائر الليل فينكشف أمره فيُضطرّ إلى قتالهم . واقتران المعنى
الغزلي بالمغامرة الحربية صار سنة متبعة منذ عمر بن أبي ربيعة كما قلنا ،
وشعراء القرن الأول والثاني كالفرزدق وبشار ووضّاح وغيرهم ، ولم يكن
متداولاً عند السابقين من شعراء الجاهلية والإسلام . وسلوك ابن هانئ لهذا
المسلك يبرهن على أن تقليده يجاوز الفحول الأولين الى فطاحل الفترة
الأموية ، شأنه في ذلك شأن معاصريه ، المتنبّي وأبي فراس . فهو يغامر مثلهم
إذن او يستعدّ للمغامرة : [كامل]

7/41 سأروغ من ضمتّ جمالكم وإن غدتِ الأسنة دون ذلك غيلا

وقد لا تكفيه المغامرة في استهلال القصيدة ، فينظم مطوّلة في وصف
رحلة ليلية كرائية عمر ، إلا أن الفتى المخزوميّ ينجو من حراس الحيّ
بالهروب السريع في زي امرأة . أما صاحبنا فيجابه وبارز فيصرع واحداً من
مطارديه : [طويل]

(1) الدعاء على البرق بالوجد المؤرق يبدو سخيّاً ، وهو يعني في نظرنا : فليبق البرق مسهداً طوال
الليل لامعاً ، كناية عن مقدّم الصباح الذي يرجوه كل ذي أرق .

31/49 فبادرتُ سيفي حينَ بادر سيفه فثار الى ماضٍ وثرْتُ الى خِذْمٍ
32 ونَبِهَ أقصى الحيّ أني وترتهم وقد علَّ صدر السيف من ماجدٍ عمم

وهي قتلة أدبية لا غير ، باعتراف الشاعر نفسه إذ يقول : هذا مجرد تقليد واني لم أزهِق أي نفس⁽¹⁾ .

على أنا نعثر أحياناً على فكرة طريفة تضيفي على هذا التقليد الجاف وهذه الصحراء القاحلة شيئاً من الرواء ، كتحصّره على الشجرة المنفردة التي كان يأوي إلى ظلّها وسَترها : [كامل]

12/1 لله إحدى الدُوح فاردة، ولا لله محنيةٌ ولا جرعاء!
13 باتت تشي، لا الرياح تهزّها دوني، ولا أنفاسي الصعداء

وكذلك وصف المرأة لا يخرج عن المألوف من قوانين الحسن عند شعراء العربية : فهي قضيب بان يتشّي فوق كتيب يتهيّل : [طويل]

9/8 إذا هزّ عطفها قوام مهفّف تداعى كتيب خلفها فترجرجا
ومن العين الفاترة واللحظ المريض تنطلق نبال مُقصّدة قاتلة : [بسيط]

6/12 ذوات نبل ضعاف، وهي قاتلةٌ وقد يصيبُ كمياً سهمٌ رِغديد
هذه الدمية لبسَ الحسنَ صدرها وشابهت لطافة الخيزران ساقها ، ولكن ثغرها المنضد العطر لا يسمح بالقبلة إلا لعود الأراك : [كامل]

3/44 صنم تردّي الحسن منه مقرطق ومشى على البرديّ منه مخلخل
4 ووراء ما يحوي الشامُ مُقبِل رتل، بمسواك الأراك مُقبِل

ووصفه لمحاسن المرأة محتشم عادة ، رغم ما تنمّ عنه المقطوعات في الغلمان وقيان المجالس . يذكر ثدياً قد نهّد ، فلا يعدو التلميح ويجمع

(1) تبين المعاني ... 708 .

المشهد في حركة الضمّ والعناق حتى لا تكون ممّا حملقة مُريّة في هذا النهـد
الفالك : [طويل]

15/49 أميلُ بها ميلُ النزيفة مسنِداً إلى الصدر منها ناعم الصدر قد نجّم

ولعلّ المقام لا يسمح بالإباحية ، فإذا تحرّر الشاعر المداح ، فبمقدار
وبإجازة من فحول السابقين كالنابغة في مشهد المتجرّدة وامرئ القيس حين
يجر ثوباً وينسى آخر . على أن صاحبنا قد يسفّ ويسمج ، حتى أمام المعزّ
مولاه : يريد أن يلمح الى العراك اللذيذ الذي يكون مقدّمة الظفر بالحبيبة
فيورّطه خياله الحربيّ وغلّوه فيقابل بين براز الوغى وبراز الفراش ويحشد ألفاظ
القتال حيث يُنتظر كلام الوصال : [طويل]

10/37 تكون لنا عند اللقاء مواقفٌ ولكنّها فوق الحشايا معارك

11 نازل من دون النحور أسنةً إذا انتصب فيها الثديّ الفوالك

ولا نختم حديثنا عن استهلالات الشاعر دون أن نذكر توفيقه أحياناً في
استخدام صورة الطبيعة الحية التي تواسي الشاعر المتيم فتحنو عليه كما رأينا
في ذكره « للدوحة الفاردة » . فالشجرة المرتعشة هناك والحمامة النائحة هنا
تشاركان الشاعر كأنهما تشعّران بحاله : [طويل]

12/3 وما راعني إلا ابنُ ورقاء هاتفٌ بعينه جمر من ضلوعي مشبوب

15 ... ألا أيّها الباكي على غير أبيكـه كلانا فريدٌ بالسّماوة مغلوبٌ

وصف الراحلة - التخلّص الى المدح

اعتاد مقصّد القصيد - حسب « القانون » الذي قرّره ابن قتيبة - أن يدرج
بين الوقفة الطللية والمدح ، وصفاً لمطيّته وتعداداً لمتاعب السفر الى الممدوح
كيما يقيم عليه الحجة ، كما قال ، ويوجب عليه العطية . هذا القسم من
استهلال القصيدة لا نجده إلا في مدحتين من شعر ابن هانئ ، الأولى في

جعفر بن حمدون ، والثانية في المعز . في الأولى ، يفرق الشاعر في « التبدي » فيحشر في أربعة أبيات أغرب المفردات المتعلقة بالناقة وبالصحراء : قوة القوائم مع الضمور وحبكة الجلد ، واستقامة العنق مع علو السنام ، والقدرة على قطع الفيافي في الحر الشديد الذي يلمع سراهه وفي الليل البهيم الذي يهابه حتى القطا : [منسرح]

- 27/61 وعمرس بازل مفتلة خرقاء ضامر جلعذ
28 قوداء عيرانة مضبرة تجوب حزن الأكام والدفد
29 في مهمه يلمع السراب به كمثل ماء بقيعة يورد
30 وصلت فيها هجيرته بسرى الليل، وسرب القطا قد هجد
31 حتى أنخت المطي باركة بساحة من ذرى أبي أحمد⁽¹⁾

وفي الثانية يختصر الوصف فيضمه الى التخلص ، في بيت واحد ، وكأنه تذكير بالمعاني المطروقة عادة ، فيكفي الاسم للإيحاء بقوة الناقة وبامتداد الفلاة ، وتكفي صورة الحجج إلى البيت الحرام للإيحاء بالارتياح بعد التعب الشديد : [كامل]

- 12/9 حجت بنا حرم الإمام نجائب ترمي إليه بنا السهوب الفيحا⁽²⁾

وهذان مثالان من احترامه للقانون القديم ومن ميله الى التحرر منه . ولكن وصف الناقة لا ينحصر في قسم الرحلة الى الممدوح ، بل نجده في نوع آخر من الرحلات : ترحل الخليل في الصباح الباكر يحملون معهم المحبوبة ، أو اضطراب الشاعر في الأرض وراء الذكريات العذبة ، على ناقته ذات العضلات المفتولة كقوى الحبل أو على بعيره الصلب العنق : [سريع]
12/36 ... من ذات أعضاء إذا هجرت قتل ، وذو أجرنة خلق والمطية تكون أيضاً فرساً ، بل إن الفرس أحب إليه من الناقة . فهو

(1) أبو أحمد كنية الممدوح .

(2) الفيح (فيح) ج أفيح وفيحاء : الواسعة المترامية .

يحسن وصف الخيل ويتبسّط فيه ويكثر منه . وربما دلّ هذا التفضيل على أن معرفته بالخيل أوثق لأنّه مارسها فعلاً ، أمّا معرفته بالإبل فعن حفظ ورواية ، لا عن ممارسة حقيقية . والفرس قويّ عالي المتن متحفّز للقتال لا يصبر عنه فلذلك يلوك لجأته : [كامل]

12/30 بأقْبُ لا يدع الصهيلَ إلى القنا حتى يلوك خطامَهَا المتقَصِّفا

هذا الحصان صادق الفراسة يعرف طريقه ليلاً فضلاً عن النهار ، كأنما خلقت فيه القيافة والعيافة ، ويساعده على هذا الاهتداء الثابت سمع لطيف يقظ دقيق كلّما أحسّ بالجرس الخفيّ انتصبت أذناه متنبّهتين متحفّزتين كأنهما تحرسان الراكب من مخاطر الليل : [كامل]

12/36 يسري فأحسب في عَنَانِي قَائِفاً متفرساً، أو زاجراً متعيّفا

14 ... يرمي الأنيسَ بِمِسْمَعِي وحشيّة قد أوجسا من نباة فتشوّفا

15 فتقدّما ، وتنصّبا ، وتذلّقا وتلطفّا، وتشرفّا، وتحرفّا

16 وتكتفّاني ينفِضان لي الدجى فإذا أمِئتُ ، ترصّدا فتخوّفا⁽¹⁾

هو دابة حرب ودابة سفر ، فإذا اقترن عنده هذا الحسّ الثابت بقوة البنية والقدرة على العدو والصبر على التعب ، صار دابة طرد أيضاً ، فلذا يعود الشاعر إلى وصف دقة سمعه في مشهد صيد مُقَحَّم في مقدّمة القصيدة مثل طرديات الشعراء العباسيّين ، إلّا أنّه في هذه المرة يخصّص لها نحو عشرين بيتاً فيشيد بجمال خلقتها مع قوتها وهيبتها وسرعة جريها : [متقارب]

12/58 فَقَدْنَا إلى الوحش أشباهَهَا ورُعْنَا المَهَا فوقَ مثل المَهَا

13 صنعْنَا لها كلّ رِخْو العنان رحيب اللبان سليم الشظي

14 يُرَدُّ إلى بسطة في الإهاب إذا ما اشتكى شججا في النسا

15 كأنّ قطاً فوق أكفَالِهَا إذا ما سرين يُثْرِن القطا

(1) نفّض له الطريق : راقبه وتفقّده من عدوّ أو خطر .

16 عواري النواحق شوشُ العيون ظمَاءُ المفاصِل قُبُ الكلى⁽¹⁾

ويتغنى بقوة بصرها كما تغنى بقوة سمعها ، إلا أنه يلح على حاسة
السمع لأن الأذنين بتحركهما السريع المتلاحق المتغير أكثر إسعافاً للشاعر من
العين للتفنن في الوصف والتعمق في الافتراض ، فإذا كانت العين تبين ظل
الفارس في الظلام ، فإن الأذن تنفذ إلى نجوى الفؤاد :

17/58 تُديرُ لطحِرُ القذى أعيناً ترى ظلَ فرسانها في الدجى

18 وتحسب اطرافَ آذانها يراعا بُرين لها بالمُدَى

19 فهنَّ مؤلَّلةٌ حشرةٌ منددةٌ لخفي الصدى⁽²⁾

20 تكاد تحسُّ اختلاجَ الظنو ن بين الضلوعِ وبين الحشا

21 وتعلم نجوى قلوب العدى ، وسرَّ الأجبّة يوم النوى

أما عدوها فهو أسرع من البرق الخاطف مع أنه خفيف رفيق كالخاطر

السريع :

22 فأبعدُ ميدانها خطوةً وأقرب ما في خطاها المدى

23 ومن رفقها أنها لا تحسَّ ومن عدوها أنها لا تُرى

24 جرينَ ، من السبق ، في حلبة إذا ما جرى البرق فيها ، كبا

فلا غرابة ، وخصالها على هذا القدر من النفاسة ، ان تكون الخيل هي
« حصون العرب ومعاقلها » ، كما قالوا في أمثالهم ، وأن يكون سرج الحصان
« أعزَّ مكان في الدنى » حسب قوله المتنبي . ولئن ذكرنا أبا الطيب ، فليس
لاتفاق الشعاعين في الفخار بالفرس في عزّه ومنعته فقط ، بل في وصف دقّة
الحواسّ أيضاً ، ونحن لا نستبعد ان يكون شاعرنا اتخذ قصيدة المتنبي الياثية
في مدح كافور مثلاً فاحتذاه في وصف سمع الفرس وبصره ، وان أكد لنا أنه

(1) الشطى : عظم الركبة . النواحق : عظمان في مجرى الدمع من وجه الفرس . والأقْب من
الخيل الدقيق المفاصل الضامر البطن .

(2) الأذن المؤلَّلة : المحددة المنتصبة للنبأ . وحشرة : دقيقة مرهفة .

يصعد الى أعلى من المتنبى ، إلى طُفَيْلٍ وصَافٍ الخيل :

25/58 إذا أنت عددت ما يمتطى وقايست بين ذوات الشوى

26 فهنّ نفائس ما يستفاد وهنّ كرائم ما يُقتنى

27 ديار الأعزّة، لكنها مكرمة عن مَشِيد البنا

28 ومن أجل ذلك ، لا غيره رأى الغنوي بها ما رأى

ولا نعني بهذه المقارنة مع الشعراء المعاصرين له او السابقين ، أن الشاعر في وصفه للخيل انما هو مقلّد متمرّن متتلذذ ، فإنّ براعة الوصف وطرافة بعض التخيّلات ، وحسن استخدامه لمقولات العرب في الخيل ، كلّ هذا يعبر عن تعلق صادق بالخيل ، ومعرفة جيّدة بصفاتها ، ولنا ان شاء الله عودة الى تفنّنه في الوصف في الفصل العاشر .

وصف الظواهر الطبيعية : الليل ، النجوم ، البرق ، المطر الخ ...

تتضمّن الاستهلاكات أيضاً مشاهد وصفيةً يربط فيها الشاعر بين ظواهر الطبيعة وما يدّعيه لنفسه من همّ وتسheid . فهو يولي البرق مثلاً اهتماماً خاصاً ويربط وصفه بوصف الحبيبة : ضياؤه من إشراق وجهها او من لمعان ثغرها ، وهو إذ يشقّ ظلام السماء يجسّم السحب فيعطيه أشكالاً مختلفةً ، فخصر مرهف هنا وكفل ثقيل هناك ، وثوب مجيب تارة وعباءة مفتحة اخرى : [طويل]

1/8 أمنك اجتياز البرق يلتأخ في الدجى

تبَلّجت من شرقيه فتبلّجا؟

2 كَأني به لَمّا شرى منك واضحاً

تبَسّم ذا ظلم شنيباً مُفلّجا⁽¹⁾

(1) شرى البرق : لمع أو تفرّق .

- 3 مُطار سنّي يزجي غماما كأنما
يجاذب خَصراً في وشاحك مدمجا
4 ينوء اذا ما ناء منك ركامه
برادفة لا تستقل من الوجى
5 كأن يداً شقت خلال غيومه

جيوباً، او اجتابت قباء مفرجاً
ويربط البرق أيضاً بالمطر ، فيستطرد في وصف طويل للسحب المحملة
بالماء المنعش ، الشبيهة في دكنتها بالعقبان المنقضة على الفريسة . وعلى
عادة شعراء البادية ، يدعو لأرض الأحبة بالغيث المسجم حتى تفوح رياضهم
بشذى الزهر المنضد : [طويل]

- 6/10 ولما تهادى نكب اليد معرضا وأتاق سجلا للرياض فطفحا
7 تدلى فخلت الذكن من عذباته كواسر فتخا في حفافيه جثحا
8 لتغد غواديه بمنعرج اللوى موائح رقراق من الرّي متحا⁽¹⁾
9 سقته فمجت صائك المسك حفلا تسح، وأذرت لؤلؤ النظم نضحا
10 فلم تبق من تلك الأجارع أجرعاً ولم تبق من تلك الأباطح أبطحا
ويتفتن الشاعر أحياناً في وصف المشهد الطبيعي فيجمع في لوحة واحدة
المطر الخفيف ومطاردة الريح للسحب ، والعشب المعطر ، والنسيم الرفيق
ولكنه يتكلف الصور والتشبيهات فيخرج عن الطبيعة النابضة الحية الى طبيعة
منظمة مفتعلة ، ولا سيما إذا قفى أبياته بروي نادر مهجور كالطاء : [بسيط]

- 1/26 1 ألؤلؤ دمع هذا الغيث أم نطق؟ ما كان أحسنه لو كان يلتقط!
2 بين السحاب وبين الريح ملحمة قعاقع، وظبى في الجوّ تخترط
3 كأنه ساخط يرضى على عجل فما يدوم رضى منه ولا سخط
4 أهدى الربيع إلينا روضة أنفاً كما تنفس عن كافوره السقط

(1) أتاق : ملا . السجل : الدلو . والعذبات : أطراف السحاب . والفتخ : العقبان والحفاف
بالكسر : الجانب . وماع الماء من بثره : طلبه ومتع الماء : أخرجه بالدلو .

ولكن ، في هذا المشهد المشحون بالتفاصيل ، المثقل بالتشابه ، نظفر أحياناً بصورة طريفة تخرج عن مألوف الخيال عند شعراء الجاهلية . من ذلك هذه الإشارة إلى البحر في مده وجزره ، وهذا التشبيه للسحاب بالقاضي العبوس :

5/26 غمائمْ في نواحي الجوّ عاكفةً جعدٌ، تحدّر منها وابلٌ سبطُ
6 كأنّ تهتأنّها في كلّ ناحية مدُّ من البحر يعلو ثمّ ينهبط
7 والبرقُ يظهر في لآلئِ غُرته قاضٍ من المزن في أحكامه شَطَطُ
8 وتأخذ الأرض حظّها من هذه المزن ومن وصف الشاعر :

9/26 والأرض تبسط في خدّ الثرى ورقاً كما تُشْشُرُ في حافاتِها البُسُطُ
والريح تبعثُ أنفاساً معطرةً مثلَ العبير بماء الورد يُختَلَطُ
فالشاعر ، رغم إعجابه الصريح بالقدماء وتعلّقه بطرقهم ، يحاول أحياناً ان يتخلّص من القيود التقليدية أو أن يجدّد في الحدود الضيقة التي يسمح بها جنس المديح ، فيدخل في القصيدة هذه المشاهد الطبيعية مثلاً التي تذكّرنا بشعر ابن الرومي أكثر مما تذكّرنا بالجاهليين ، رغم ما ينزلق إليه الشاعر من ذكر الأماكن والجبال والأسماء المحفوظة في الشعر القديم ، كثير ومنعرج اللوى ، وما كان أغناه عن ذكرها !

ويصف النجوم كذلك ، لأن الشاعر المتيم يقضي ليله الطويل في انتظار الصبح ، فيعدّ النجوم ويرعاها ويرجو أفولها . وشاعرنا لا يخرج عن هذه السّنة ، إلّا أنّ تعلّقه بالنجوم ليس وليد التقليد فقط ، بل يظهر أنّ له معرفة مدققة بأسمائها ومواقعها وسيرها ، كما تشهد بذلك ، إلى جنب ما أكّده ابن الخطيب⁽¹⁾ ، القصيدة الحادية والثلاثون التي خصّص منها عشرين بيتاً لوصف

(1) إحاطة 212/2 .

الأفلاك فَسَمِيَتْ « القصيدة الفلكية » وتناقلها الرواة ودرسها الدارسون وحفظتها كتب الأدب . وسنقف عندها وقفة درس وتحليل . أما الآن فنكتفي بنموذج يصوّر فيه انتظاره لانجلاء الليل المتطاول ، وَلَكِنَّهُ يَتْرَكُ تحليلاً عواطفه ويجنح إلى الصورة البديعة المتكلفة : [طويل]

13/52 خليلي! هباً فانصُرْها على الدجى كئائب، حتى يهزمَ الليل هازمٌ
14 وحتى أرى الجوزاء تنثر عِقْدَهَا وتسقط من كف الثريا الخواتم!

المجالس الخمرية

يقحم الشاعر ضمن الاستهلال وصفاً لمجلس لهو على الطريقة النواسية وقد عرضنا أنموذجاً من هذا المعنى الذي أصبح هو الآخر سمة متبعة . فالشاعر المولّد يدعو صاحبيه إلى طرد الهمّ براح معتقة ، او يتذكّر أيام لهوه في صباه مع الغواني النواعم وهنّ يسقينه خمرة صافية أو شديدة المفعول : [كامل]

5/30 ولئن ذكرت الغانيات فخطرة تعتاد صبا بالحسان مكلفا
6 فلقد هزرت غصونها بثمارها وهَصَرْتُهِنَّ مُهْفَهْفَا فمهفهفا
8 ... ولقد هزرت الكأس في يدي مثلها وصحوت عما رقّ منها أو صفا
9 فرددتها من راحتيه مُزّة، وشربتها من مُقْلَتَيْهِ قرقفا

ويصف كذلك لوازم الشراب كالأباريق ، فيلتمس لها الصورة الظرفية ويتوسّع فيها ويستفرغها : فهي إذ تمدّ أعناقها كأنها تصغي إلى غناء القيان ، تشبه طباء أوجست خيفة : [خفيف]

11/35 والأباريق كالطبّاء العواطي أوجست نبأ الجياد العتاق
12 مصغيات إلى الغناء مطلا ت عليه، كثيرة الإطراق

وارتفاع أفواهاها يجلب إلى الذهن فكرة الشّمَم ، وصورة الأنف المتكبر تجرّ صورة الرغف بدم الخمرة :

13 وهي شَمُّ الأنوف يشْمُخْنَ كِبَرًا ثم يَرْعُفْنَ بالدم المَهْرَاقَ

وهم اذ كتموا أفواهاها بالمِصْفَاة كأنهم منعوها من السماع ، فصارت بين
ضُرَيْن : إما الصَّمَمُ وإما البُكَاء :

14 فَدَمَتَهَا السَّقَاةُ كِي يُوقَرُوهَا صَمَمًا عَنْ سَمَاعِ شَاذٍ وَسَاقِ

15 فهي إما يشكون ثِقْلاً من الوَقْـرِ ، وإما يبكين بالآفاق

ويتعثر الشاعر في هذه الصور الكثيرة المتلاحقة وتضطرب لغته في تشخيص هذه الأدوات او تجميدهنّ ، فيخرج الى النصح بالحدّز منها لأنها تكشف عن مكنون الفؤاد :

16 جَنَّبُوهَا مَجَالِسَ الْهَوِّ وَالْوَضَّ _____ لَ إِذَا مَا خَلَوْنَ لِلْعَشَاقِ

17 فهي أدهى من الوُشاة على مَكُونُون سرِّ المتيمِّ المشتاق

ومن عناصر المجلس ، الساقى الأهيف الجيد الثقيل الرذف المريض
اللعظ، لأنه اعتاد شرب الخمرة التي يسقيها . والشاعر يخلط وصفه بالغزل لأن
هذا الغلام شادن نواسى : [طويل]

2/31 وبات لنا ساق يقوم على الدجى بشمعة صبح لا تَقْطُ ولا تُطْفَأُ

3 أغنُ، غَضِيضٌ، خَفَّفَ اللَّيْنُ قَدَّهُ، وَثَقَّلَتِ الصَّهْبَاءُ أَجْفَانَهُ الرَّطْفَا

4 ولم يُبق إِرْعَاشُ المُدَامِ لَهُ يَدًا، ولم يُبقِ إِعْنَاتُ التَّهْنِي لَهُ عِظْفًا

فيلج في وصف تثنيه ويرفعه عن التشبيه المعتاد بالغضن المتمايل فوق
الكشب :

5 نَزِيفٌ نَضَاهُ السَّكْرُ إِلَّا ارْتَجَاغَهُ

إِذَا كُلُّ عَنَّا الْخَصْرُ حَمَلَهُ الرَّدْفَا

6 يقولون: حَقَّفْ فَوْقَهُ خَيْزُرَانَةً،

أما يعرفون الخيزرانةَ والحُقفا؟

شكوى الدهر

قد يعوّض شاعرنا ، او يعزّز ، وصفه لمشاق الرحلة الى الممدوح ، بشكوى من صروف الدهر وضربات الزمان . وهذا أيضاً معنى معروف وسنة متبعة ، والقصد منه توليد عاطفة الرحمة والشفقة في قلب الممدوح ، ممّا قد يحمله على توفير العطاء . وتختلف شكوى ابن هانيء عن تأملات معاصره المتنبي ، فليس لها نفس العمق ولا ذاك الطابع الشجي ولا تلك الغنائية الحزينة . ثم إنّ ابا الطيب كان يقتطع لنفسه قسماً من المدحة فينزعزل تماماً عن الممدوح ويقضي حق نفسه من التألم والتصبر والفخر بأنفته وجلده ، فإذا فرغ من بث همومه ، فكّر آنذاك في ممدوحه فدخل في المدح . اما ابن هانيء ، فيدمج هذا التشكي ضمن الاستهلال ويربطه بالنسيب ، كأن هجران الحبيبة وصدودها او رحيل قومها هي أيضاً من نكبات الدهر وتقلّبات الأيام والليالي :

[طويل]

7/7 أريد لهذا الشمل جمعاً كعهداً وتأبى خطوب للنوى وحوادث
عبثت زماناً بالليالي وصرفها فها هي بي لو تعلمون عوائب

وتقلّب الدنيا شبيه بتنقل الحسنة في هواها ، فكلاهما لا تثبت على حال ، وشاعرنا يستخدم هذا التمثيل بكثرة ويصعد به شيئاً فشيئاً الى نعي المكارم في هذه الحياة والى تعبّه هو في البحث عن كريم «أعزّ محجل» فإذا هو الممدوح وحده ، والناس كلهم رعا و«جيلة دهماء» : [كامل]

- 22/1 طويّت لي الأيام فوق مكاييد ما تنطوي لي فوقها الأعداء
23 ما كان أحسن من أياديها التي تُولىك! إلا أنها حسنة
24 ما تحسن الدنيا قديم نعيمها: فهي الصنّاع ، وكفّها الخرقاء
25 تشأى النجّاز عليّ ، وهي بفتكها ضرغامة ، وبلونها حرباء
26 إنّ المكارم كن سرباً رائداً حتى كنسن كأنهنّ طبّاء
27 وطفقت أسأل عن أعزّ محجل فإذا الأنام جيلة دهماء

28 حَتَّى دُفِعْتُ إِلَى الْمَعَزِّ خَلِيفَةً فَعَلِمْتُ أَنَّ الْمَطْلَبَ الْخُلَفَاءَ

ولئن نذت منه بعد هذه الشكوى نفحات فخرية يؤكد فيها قوة جأشه :

[طويل]

13/11 أَلَا لَا تُتَهِنَنِي الْخُطُوبُ بِحَادِثٍ فَلِي هَمَّةٌ تَبْرِي الْخُطُوبَ وَتَنْتَخِ (1)

وَعُلُوْ هِمَّتِهِ الَّتِي رَامَتْ النُّجُومَ فَلَبِغَتْهَا : [كامل]

14/25 لَقِيتُ نِعْمَاءَ الْخُطُوبِ وَيُؤَسِّهَا وَسُبِكَتْ سَبْكَ الْجَوْهَرِ الْمُتَخَلِّصِ

15 فَإِذَا سَعَيْتُ إِلَى الْعَلَى لَمْ أَتَيْدُ وَإِذَا اشْتَرَيْتُ الْحَمْدَ لَمْ أُسْتَرِخْصِ

16 شَارَفْتُ أَعْنَانَ السَّمَاءِ بِهَمَّتِي وَوَطَّئْتُ بِهَرَامِ النُّجُومِ بِأَخْمَصِي

ولئن أشاد أحياناً بقومه ففخر بشجاعتهم وفصاحتهم : [سريع]

17/36 مَعْشَرِي الْمَعْشَرُ قَادُوا الْعَلَى وَالْإِنْسَ وَالْجَنُّ بِلَا رَبِّقِي

18 فِيهِمْ سَبِيلُ الْمَجْدِ عَادِيَّةٌ قَبْلَ الصِّيَاصِي وَأَبْنَةِ الطَّرْقِ

20 ... أَهْلُ الْاَكْفِ الْبَيْضِ تُهْدِي الْقَرَى وَالشَوْلُ فِي الْقَرَبِ وَفِي السَّحْقِ

22 ... هُمْ نَطَقُوا وَالنَّاسَ مِنْ مَرْمَرٍ وَالْدَهْرُ مَكْعُومٌ عَنِ النَّطْقِ (2)

فإنه في الأغلب يبكي الشباب الراحل ودنو الشيخوخة ، فيصطبغ الاستهلال

بالصبغة التشاؤمية المعهودة في الشعر الحكيم : [متقارب]

4/58 لَبِسْتُ رِداءَ الْمَشِيبِ الْجَدِيدِ وَلَكِنِّهَا جَدَّةٌ لِلْبَلَى

5 فَأَكْذَيْتُ لَمَّا بَلَغْتَ الْمَدَى وَعُزَّيْتُ لَمَّا لَبِسْتُ التُّهَى

وهذه الحكم والأقوال الماثورة ترضي كل نفس وتوافق كل مقام لأنها

مستمدة من التجربة الانسانية ، وتداولتها الألسن فصارت من الحقائق التي لا

(1) نتخ (باب ضرب) : اقتلع . ونهنته الحوادث : زجرته عن مراميه .

(2) الصياصي : هي الحصون والقلاع . وابنة الطرق : الطريق المتشعبة . الشول : الإبل وممر

الناس : غضبوا ولعلها : في بربر : في كلام غير مفهوم .

تحتاج الى استدلال ، لذلك يصرفها الشعراء في كل غرض ويطرقونها في الرثاء كما يطرقونها في المدح ، وربما كان القصد منها « رفع » الشعر الى أجواء التأملات العالية دون أن يكون الشاعر بالضرورة في هذا الضنك ولا هذا التعب : [طويل]

- 17/42 نُساق من الدنيا الى غير دائم ونبكي من الدنيا على غير طائل
 18 فما عاجل نرجوه إلا كآجل ، ولا آجل نخشاه إلا كعاجل
 19 ... وما الناس الا ظاعن ومودع ، وثاو قريح الجفن يبكي لراحل

معاني المدح

قلنا إن أهم المعاني الواردة في مدائح ابن هانيء هي معان مذهبية وشعارات سياسية وحملات على أعداء الفاطميين وخصومهم ، وأرجأنا البحث فيها الى فصل لاحق من هذه الدراسة . أما الآن فنهتم بالمعاني التقليدية التي لا يخلو منها شعر البلاط ، وندرسها للوقوف على مدى تقليد ابن هانيء من جهة ، وعلى مدى تكيف مدائحه بحسب الممدوحين ، أي بحسب قربه منهم وحظوته عندهم ، أو بحسب مرتبتهم في الدولة وسعة نفوذهم .

الكرم

من معاني المدح الواجب طرفها ، الكرم . وهو كرم واسع دائم لا يُحدّ ولا يعدّ ، ولا يشبه إلا بالبحر الزاخر والوابل المتهاطل . والشعراء يتبارون في هذا الإطار ويتسابقون وراء الصورة الجديدة والتشبيه النادر والافتراض الغريب ، خصوصاً وأنّ العادة اقتضت أن لا يذكروا عطية بعينها ولا مقدراً محدداً من الدراهم والدنانير ، لأنّ التحديد بمبلغ يجعل لهذا الكرم حدوداً ويُنزله الى مستوى الكمية المعدودة المعروفة ، وهذا لا يليق بالممدوح .

فلذلك يبقى الكرم في أجواء مطلقة سماوية ، ويُجهد الشاعر نفسه لتقريب هذا الجود الضبابي إلى ذهن السامع ، ويتعمّل ويتعب فيجاوز حدّ الذوق أحياناً ويُغرق بدوره ، ولكن في السماجة : [خفيف]

21/35 كُلُّ أسرار راحتيه غمامٌ مستهلّ بوابل غَيْدَاقٍ

22 فإذا ما سقاك من ظمأ جا وز حدّ السُّقيا إلى الإغراق

وإذا لجأ إلى التشبيه المعتاد بالماء الدافق ، تصرف وغالى فغلب ندى الممدوح على ماء السحب : [بسيط]

12/26 تالله لو كانت الأنواء تشبهه ما مرّ بؤس على الدنيا ولا قنطُ

ورفعه على أمواج البحار مجموعة :

20/26 يزري بفيض بحر الأرض لو جُمِعت بَنان راحته المغلولب الخميّطُ

هذه أبيات من مدائحه في المعزّ ، وهو ، والحق يقال ، لا يتبسّط في الإشادة بكرم الخليفة مثلما يتبسّط في مدح خلاله الأخرى ، كأنه يتحرّج من الظهور في صورة المستجدي الذي يطلب العطاء في مقابل مدحه ، في حين أنّ مدحه إنّما هو حمد كما يقول ، لأنه تعبير عن ولاء صادق للإمام وأسرته ، وانخراط تلقائي في الحزب الفاطميّ ، ولا يليق بالداعية المخلص ان يطلب مكافأة على سعيه وتحركه . ويتورّع شاعرنا عن طلب الرغد صراحةً ، ولا يربط كرم صاحبه بحاجات شخصية ولا بعطايا مخصوصة . فلا ذكر مثلاً في القصيدة الثالثة والخمسين ، وهي أوّل قصيدة ألفاها بين يدي الخليفة ، ولا في لاحقاتها ، لذلكم القصر المنيف الذي كافأه به المعزّ عند فراغه من الإنشاد ، حسب ما ترويه توطئة القصيدة ، وهي رواية تكاد تكون خيالية . وإنّ نعثر على بيت فيه شيء من الطلب ، فهو بيت على درجة كبيرة من التعميم : [متقارب]

86/58 إلى مثل جدواك تُنضي المطي ومن مثل كفيك يرجي الغني

أو هو طلب الإنصاف من الحاسدين الذين يريدون إخماد صوته :

[طويل]

64/37 أرى شعراء الملك تنحُّ جانبي وتنبو عن الليث المخاض العوارك
74 ... خمول وإقتار، وفي يدك الغنى فمَحياً! فلإني بين هاتين هالك

ونعود الى معنى الكرم لنلاحظ أنَّ الشاعر قد يسأم الصورة المعتادة ،
صورة الغيث والبحر، فيلتبس تشبيهاً جديداً، يكون فيه أيضاً تعظيم لكرم
الممدوح : فالشمس في انتشار ضوئها على أديم الأرض وأرجاء الكون ، لا
تضاهي ندى الممدوح في اتساعه لكل محتاج وشموله لكل عاف : [طويل]

65/31 وما الشمسُ تكسو كلَّ شيء شعاعها بأسنخ عندي من نذاك ولا أضفى

ويعود الى التشبيه بالشمس فيضيف إليه عنصرَي الحرارة والشهرة ،
فلئن أضاءت هي بنورها وأدفات، فإنَّ نيران قُدُور الممدوح أسطع، ولئن مدَّت
شعاعها على البسيطة كلّها، فشهرة الممدوح بالكرم أعمّ وأوسع : [طويل]

65/23 ألا أنظرُ الى الشمس المنيرة في الضحى وما قبضتهُ أو تمُدُّ على الثرى
66 فأنقبُ منها نارُ زُنْدِكَ للقرى وأشهرُ منها ذكرُ جودك في الورى

الحلم

يشمل الحلم خصالاً كثيرة : علو الهمة ، ورباطة الجأش ، وسعة
الصدر ، والترفع عن الدنایا ، والتسامح والرصانة والتريث ، وهو عنصر
رئيسي في مفهوم المروءة العربية أي الصفات الواجبة للمرء ، صفات الرجولة
الحق التي تعطي الإنسان ثقة بنفسه وثباتاً شبيهاً بثبات الجبال ، فلذلك كثر
تشبيه الحليم الرصين بالجبل الراسخ الراسي : [كامل]

18/44 والأرض تحمل حلمه فيؤودها حتى تكاد بأهلها تنزلزل .

والصفة المبجلة في الحليم هي العفو عند القدرة على الانتقام . وهذا
الإغضاء عن الذنوب عند الممدوح صار سنة متبعة عند كلِّ الناس : [طويل]

62/47 وأنت بدأت الصفح عن كلِّ مذنبٍ وانتَ سننتَ العفو عن كلِّ مجرمٍ
64 ... ومن يتيقن أن للعفو موضعاً من السيف يصفح عن كثيرٍ ويحلّم

وكذلك الحزم ، ينبغي ان يقتَرَنَ بالتَّأَنِّي والثَّبَت ، مثلما اقترن الصفح بالمقدرة :

63 وكلُّ أناة في مواطنٍ سؤددٍ ولا كأناةٍ من قديرٍ محكمٍ
65 ... وما الرأيُ الا بعد طول تثبّتٍ ولا الحزمُ إلا بعد طول تلؤمٍ

وخلالُ التَّأَنِّي والثَّبَت والتريُّث ضروريّة بالخصوص لصاحب السلطان الواسع الذي يتحكّم في الأموال والأبدان والأرواح ، يحتاج إلى هذه الصفات لاختيار أعوانه وتدبير ملكه ، مثلما يحتاج الى سلاحه ، فالعقل صنوٌ للسيف ونِدْ ، ولا غنى عن هذا ولا ذاك : [كامل]

22/44 ذو الحزم لا يتدبّر الآراء في أعقابها ، ما الرأي إلا الأوّل
23 متقلّد بيض الشفار صوارمًا ، منها نُهاهُ ، ورأيهِ والمنصّل

والأناة والحزم صفتان متكاملتان تتضافران ولا تتعارضان . فإن كان الممدوح سريع البتّ في الأمر المعضل سريع الإنجاز لما قرّر ، فإن حزمه هذا لا يبطلُ أناته ، كما أن مغريات الدنيا لا تغلب قناعتَهُ وترفعُهُ عنها : [طويل]

25/37 إمامٌ رأى الدنيا بمؤخر عينِهِ فمن كان منها آخذاً فهو تارك
26 إذا شاء لم تملك عليه أناته بوادِرْ عزم للقضاء موالِكُ

ويُتصل بالحزم والعزم والرأي الحصيف ، الذكاء النافذ والفهم الدقيق والتقدير البعيد حتى ظنّ الناس أنه يعلم الغيب : [طويل]

60/23 كأنك شاهدت الخفايا سوافراً وأعجلت وجه الغيب أن يتسّترا
61 فعُرفت في اليوم البصيرة في غدٍ وشاركت في الرأي القضاء المُقدّرا

ولكنّ هذا التنبؤ بالغيب ليس مبالغة شعريّة كما سنرى في المعاني

العقائدية ، فالشاعر ينسب الى الخليفة اطلاعاً حقيقياً على خفيات الأمور
يسميه تارة وحيّاً وطوراً فِراسة .

ولا تتم صفات المروءة بدون خطابة وفصاحة ، فالإمام مدره قول كما هو
مدره غيب ، وكما ورث الوحي عن جدّه فكَذلك ورث جوامع الكلم :
[كامل]

46/1 ورث المقيم يشرب فالمنبر الـ أعلَى له ، والترعة العلياء
47 والخطبة الزهراء فيها الحكمة الـ غراء فيها الحجة البيضاء

البأس والقوة

لم يكن المعزّ قائد جيوش ولا بطلَ معارك ، ولئن قاد بعض الحملات
القليلة فإنّ الشاعر لم يصحبه فيها ، فليس عنده إذن قولٌ يقوله في شجاعة
المعزّ وخوضه المعركة ، ولكنّه يعوّض هذا المعنى بمعانٍ أخرى تُشيد بعزمه
وبأسه وبطشه بالأعداء وقوة سلاحه في البرّ والبحر ، فأسطوله قهر كلّ أسطول
وملك البحر على الأعداء : [طويل]

87/13 وعزمك يلقى عزم كل مملّك كما يتلاقى كائد ومكيد
88 وفلكك يلقى الفلك في اليم من علٍ كما يتلاقى سيد ومسود

والعدوّ المكابر لا يُفلت من قبضة المعزّ مهما عظمت قوّته وعلت
حصونه ، ومآله القهر والهزيمة ، فلا مفرّ له ولا بدّ لأمره من ثكل محقق . فلا
غربة مع هذا البأس ان يتحكّم المعزّ في حظوظ الملوك ومصاير الدول :
[بسيط]

1/43 كدأبك ، ابن نبيّ الله ، لم يزل قتّل الملوك ونقل المُلُك والدُول
2 أين الفرار لباغٍ أنت مدركه لأمره ملء كفّنها من الهبل!

3 هيهات يضحى منيعُ منك ممتنعاً ولو تسنم روق الأعصم الوعل⁽¹⁾

وذلك أن جيوش الإمام هي علي أهبة دائمة لخوض معركة في البر والبحر ، فلا السيف يعرف غمده لأنه دوماً مسلول ، ولا الخيل حطت لبودها لأنها دائماً في مسير الى العدو ، ويكفيه إشارة من لحظه حتى تنطلق السفن تمخر عباب اليم ، وتطير السوابق في كوكبات القاهرة ؛ فلا بدع أن صار الملوك يخشونه الى حد أنهم يتحاشون مناجاة أنفسهم :

خافوك حتى تفادوا من جوانجهم فما يناجونها من كثرة الوهل 7/43

هذه الشواهد التي سقناها منقولة في معظمها عن مدائحه في المعز . فلننظر الآن بسرعة في معاني قصائده الحمدونية . في الحقيقة لا تختلف المعاني التقليدية هنا وهناك : فالكرم والحلم والعزم والتدبير الصالح صفات مشتركة بين المعز والأخوين الأندلسيين . فلنكتف بنماذج من شعر ابن هانيء في أمراء الزاب . فإذا وصف حلم جعفر ، حصره في خصال أربع : حماية المستجير، ونصرة الحق ، وإغاثة المستضعف ، والوفاء بالوعد : [طويل]

52/63 تعودت عادات من الخير، كلها بعيد على من أمهن سحيق

53 فمنهن : منع الجار ، حتى كأنما له في ذرى المزن الكنهور نيق

54 ونصرك للحق الذي أنت أهله وعونك للملهوف ، وهو رهيق

55 وإن سبقت منك المواعد أنجزت وإن أخذ الميثاق فهو وثيق⁽²⁾

ويتبسط في خصالهم الحربية ، دون أن يتوقف عند معركة معينة فيصف حوادثها وموقف الممدوح فيها ، مما يشعر بأنه قلما صاحبهم في حملاتهم ، أو بأن هذه التحركات لم تكن على مقدار من الضراوة جدير بالتسجيل المفصل . لذلك يجنح على عادته الى الغلو فلا يخففه بأداة افتراض أو

(1) الروق : القرن والأعصم والوعول : تيس الجبل .

(2) النيق : قمة الجبل .

تقريب : الأمير خافته الأسود الشرسة فمهدت له عريتها أو مرّعت وجوهها في
التراب أمامه : [كامل]

29/6 فرشت له أيدي الليوث خدورها ورضين ما يأتي وكُن غضابا
ولا ينسى خصالهم السياسية : هذا جعفر ملكاً يسهر على راحة شعبه
ويُحلّ الأمن بولايته فلا قتل ولا نهب ولا خوف : [كامل]

102/45 فتركت أرض الزاب لا يأسى أب لابن ، ولا تبكي البعول حلائل
110 ... فاذا حللت فكلّ واد ممرّع واذا ظعنّت فكلّ شعب ماجل

حتى يحى البطل المغوار وقائد الحملات المظفّرة ، لا يُهمل واجبه
الإداري ، فهو إما في حرب وإما في مجلس تدبير وتقرير : [طويل]

20/8 ولم تُر يوماً غير عاقد حبة لتدبير مُلك ، أو كميّاً مدججاً

وهناك معنى تختصّ به مدائح المسيلة ، وقد أشرنا اليه في الفصل
السابق : وهو اشتراك الشاعر مع أبناء الأندلسية في النسب الأزديّ اليمنيّ ،
واعتزازه بهذه القرابة التي يحسده عليها العدنانيّون ، فربما كادوا له عند
جعفر : [طويل]

26/64 سننظم لي فيه نزاراً مكايذا ويحسدني حافٍ عليه وناعل

ورأينا أنه يتخلّص من الحرج إزاء الخليفة ، وهو هاشميّ نزاريّ ،
بجعل أزد هذا الزمان أنصار المعزّ كما كان أجدادهم أنصار جدّه (صلعم) .

كما استعرضنا الاشارات القليلة التي تُعطينا صورة جزئية من الحياة
بالمسيلة ، مثل ابتناء جعفر قصراً لابنه ابراهيم ، هذا القصر الذي يسمّيه
الشاعر « إيواناً » تشبيهاً له بإيوان كسرى المعروف بوصف البحرّيّ له . يصف
شاعرنا هذا القصر ويفضّله بالطبع على إيوان كسرى ، لأن القصر الإيراني
شيده قوم من عبدة النار ، أمّا هذا ، فشده جعفر خادم الخلافة الغراء ، ولوراه

أهلُ مزدك لخرّوا له سجّدا : [كامل]

- 4/57 إيوانُ ملك ، لو رأته فارسٌ ذُعِرَتْ وَخَرَّ لِسْمَكِهِ إيوانُها
5 واستعظمتُ ما لم يُخَلِّدْ مثله سابورُها قدما ولا ساسانُها
6 سجّدتُ إلى النيران أعصرَها ولو بصُرْتُ به سجّدتُ له نيرانُها

ويحتذي الشاعر حدو البحري في وصف هذا القصر فيخصّص له نحو خمسة وعشرين بيتاً يفصل فيها تباعاً محاسن قُبته ، وزخارفه ، ومقصوراته الكثيرة وحتى زركشة الأستار في الغرف ، ويرصف في القصيدة الألفاظ الفارسية من أسماء الملوك الساسانيين إلى أسماء الثياب الفاخرة : فهذا سابور وهذا ساسان لم يبنوا مثله ، وهذه القبة البيضاء بطنت وغطيت من خارج بالبرود القويّة النفسية :

- 16/57 علياء موفيةً على عليائه في حيثُ أسلمَ مُقلّةً إنسانُها
17 بطنانُها وشيُّ البرود وعُصْبُها فكأنما قُوْهِها ظُهرانُها
18 نيّطت أكاليلُ بها منظومةً فغدا يضاحكُ دُرّها مرجانُها
19 وتعرّضت طُرُرُ الستور كأنّها عذباتُ أوْشحةٍ يروقُ جُمانُها

فلا غرابة أن يمثّل نفسه بالبحريّ في خاتمة هذه القصيدة الطويلة ويمثّل الممدوح بالفتح بن خاقان الوزير العباسيّ :

- 95/57 كنتُ الوليد فلم ينازعه بنو خاقان مكرُمةً ولا خاقانُها

وعلى ذكر هذا التشبيه المتواصل بالإيوان الفارسيّ ، نلاحظ ، مع جورج مارسّي ، أن « استخدام مصطلحات معماريّة فارسيّة بإفريقيّة وظهور هذه المصطلحات - مثل ايوان - من جديد بمصر ، قد يحملان على التفكير في إمكان وجود سُنّة معمارية فاطميّة مطبوعة بطابع حضارة ما بين النهرين »⁽¹⁾ .

(1) كتاب الفن الإسلامي 119/1 Manuel d'art musulman .

وهكذا رأينا أن الشاعر يطرق جلّ المعاني التقليدية في مدائحه وأن محاولات خروجه عن المألوف قليلةٌ محدودة ، تتناول الشكل في الأغلب ، وأن تقليده قد يتّجه الى المتأخرين من الشعراء ، كما يظهر من المشاهد النواسية أو من محاكاته الصريحة للبحرّي في وصف الإيوان .

ولننظر الآن في بقية الأغراض لِنَلْتَمِسَ فيها مقدار المسيرة أو الطرافة .

الرثاء

مراثي ابن هاني لا تعدو الثلاث ، كلّها في أسرة بني حمدون . فمرثية الحفيد ، وقد مات في سنّ الخامسة ، لا تتضمّن جديداً بالنظر الى المعاني المطروقة عادة في المراثي : خواطر حكمية حول قصر الحياة وحتمية الموت وقساوة الدهر ، ودعوة للتأكل أن يتسلّح بالصبر ، ومدح للباقيين ، إذ المرثية موجهة الى الأمير خاصة ، ويبدو أنه تأثر بفقد الطفل أكثر من إبراهيم أبيه . وينقصها ، على هذه الصورة ، قسم معهود في المراثي ، وهو الإشادة بأخلاق الفقيد وصفاته ومآتيه . ولكنّ الحفيد مات صغيراً ولم يظهر منه شيء ذو بال ، فيتّجه الشاعر الى الافتراض ويعدّد ما كان يأتيه هذا النجل لو قدّر له أن يعيش : [رمل]

14/14 مات من لو عاش في سرباله غلب النور عليه فاتّقذ
ولكنّ الدهر بخوان مخاتل غدار ، لو أمهل هذا النجل سنواتٍ أخر ، لَمَا
قدّر عليه :

19 أقصدته تربّ خمسٍ أسهُم لو رمته تربّ عشرٍ لم تكّد
ثم يحثّ الأمير على التصبّر ، فله في ابنه إبراهيم مخايل النجاح وتبشير
السيادة التي طُبعت عليها الأسرة مذ أسّس الإمارة الجدّ الأكبر ، علي ابن
الأندلسية :

53/14 لا ملوم أنت في بعض الأسى غير أن الحر أولى بالجلد
61 ... إن ابراهيم مردود الى زمن غضى وأيام جدد

ولكن أحسن قسم في هذه المراثية الطويلة هو الأمثال التي يضربها الشاعر بمصرع أعظم السلاطين من تبع الى كسرى ، وأسن المعمرين مثل لقمان ونسره لبدا ، وقضاء الموت على أمنع الوحوش وأضرى السباع : فالنسر في وكره الشاهق ، والأسد المتجبر في غيسته الكثيفة ، والحية المنسابة في مخاتلة ورواغ ، كل هؤلاء لم ترد عنهم البرائن ولا الأنياب ، وأولئك لم تنفعهم حصون ولا جنود . فكيف بالطفل الأعزل الوديع ؟ ولا يكتفي الشاعر بتعداد هذه الضحايا بل يصورها في قوتها ووداعتها ، ويلج على مناعتها وضراوتها ، في مشاهد مؤثرة يقدمها بعبارة متكررة : « تلك أو ... » كأنه يدعونا الى الاعتبار بالمثل المضروب ، فاذا لم يكف ، ضرب لنا مثلاً آخر :

66/14 لو مُعافى من خطوب عوفيت لقوة بين هضاب ونجد
67 ترتبي مرهوبة تحسبها كوكب الليل على الليل رصد
68 تلك ، أو مغفرة في حالي تأمن الإنسان اذا الوحش شرد .. (1)

هذه المشاهد لا تخلو من عمق في النظرة وقوة في العبارة وسعة في التخيل . وهي بتنوعها وتجدها وتلاحقها وتكرر عبارة التقديم تتضافر على الوصول الى الغرض المقصود : الاعتبار والتأسي بهذه الأمثال الكثيرة المضروبة بكائنات قوية مسلحة حرة طليقة يصارعها الفناء بدون هوادة . ولا ندعي مع هذا أن لابن هانيء طرافة خاصة في هذا التمثيل ، فقد سبق اليه لبيد العامري وأبو ذؤيب في مراثيهما ، ولكن محاكاته لهذين السابقين العظيمين لا تغمطه أجره في محاولة التنويع والتعمق ، وعدم الاكتفاء بالمألوف من عبارات التسلية والحكم البديهة .

مرثية الأم الرائية تسبق في نظرنا الثانية المقصورة ، ذلك أن هذه تتضمن

(1) اللقوة : العقاب الممتعة في جبلها . والمغفرة : الطيبة .

كما رأينا قسماً يلح فيه الشاعر على وجوب الوفاق بين الأخوين ، وقد خلت
الرأية من هذا المعنى ، فافتراضنا أن بواذر الشقاق بدأت بعد وفاة أم
الأميرين بمدة .

هذه الرائية تبدأ بتأملات حكمية طويلة : عشرون بيتاً في ذهول الإنسان
عن الحقيقة المرة ، وهي الموت الواجب ، فالآمال عنده طويلة ، والعمر مهما
امتد قصير ، ومسكين هو الإنسان الذي تقوده حاستان لا تعقلان : السمع
الذي لا يصغي إلى النذر، والبصر الذي لا يتعلق بالأعراض الزائلة : [كامل]

- | | | |
|------|------------------------|--|
| 1/19 | صدق الفناء وكذب العمر | وجلا العظام وبالع النذر |
| 2 | إننا ، وفي آمال أنفسنا | طول ، وفي أعمارنا قصر |
| 3 | لنرى بأعيننا مصارعنا | لو كانت الأبواب تعتبر |
| 4 | مما دهانا أن حاصرنا | أجفاننا ، والغائب الفكر |
| 5 | فاذا تدبرنا جوارحنا | فأكلهن الأذن والنظر |
| 6 | لو كان للأبواب ممتحن | ما عد منها السمع والبصر ⁽¹⁾ |

وبعد اتهام الانسان في غفلته عما تنقله إليه الحواس من عبر ، يصور
المال المحتوم في معانٍ مختلفة تتكرر عند كل راث ، وقد رأينا شيئاً منها في
مرثية الطفل : المنية كأس مرة لا بد من تجرعها ، ولا مرد للموت فلا رمح
ينفع ولا سيف ، ولا قوة جند ولا عزة سلطان :

- | | | |
|------|--------------------------------|--------------------------|
| 9/19 | هل ينفعني عز ذي يمن | وحجوله واليمن والغرر؟ |
| 11 | ... ها إنها كأس بشعت بها | لا ملجأ منها ولا وزر |
| 14 | ... فانبذ وشيخاً ، وارم ذا شطب | لا البيض نافعة ولا السمر |

(1) في البيت الأول ، قراءة أخرى : جل العظام . وفي الخامس عوضنا العين بالأذن . وفي بعض
النسخ : السمع والنظر ، فكرهنا أن تتكرر عبارة السمع في بيتين متتاليين ، ولعل ذلك هو
الصواب .

حتى الكواكب الزَّهر تبلى والنجوم الطوالعُ ، ويفنى الليل والنهار
وتنطفئ السماء بِشُمُوسِهَا وأقمارها :

22/19	تفنى النجوم الزهر طالعةً	والتَّيران ، الشَّمْسُ والقمر
23	ولئن تبدّت في مطالعها	منظومةً ، فلسوفَ تنتشر
24	ولئن سرى الفلك المدارُ بها	فلسوف يُسَلِّمُها وينفطر

وقد عاد الشاعر الى هذه التأمّلات في القصيدة الثانية وحاول تجديد
المعاني المعهودة ، فمثل لسرعة المنقلب وقصر العمر بسماعنا لكلمة « لا » أو
كلمة « ذا » ، فهو لا يدوم إلّا مقدار الثواني القلائل ، وقابل بين حثّ الزمان
لضحاياه نحو نهايتهم وتباطئه في خطاه ، أي إنه يدعونا الى الجلاء عن هذه
الدنيا بسرعة ولا يحتاجُ هو إلى حثّ الخُطى لأنه واثقٌ من الظفر بفريسته : [مقارب]

2/59	فما غرّ نفساً سوى نفسها	وعُمر الفتى من أمانِي الفتى
3	فأقصرُ في العين من لفتة	وأسرع في السمع من ذا ولا
6	وَمَنْ لي بمثل سلاح الزمان	فأسطو عليه اذا ما سطا؟
7	يجدّ بنا وهو رسل العنان	ويُدركنا وهو داني الخُطى

وهذه الصورة الأخيرة متعّرة في الحقيقة ، كأنّ التعبير لم يوافق الفكرة ،
فلو قابل مثل المتنبي بين « السوابق المقرّبات » التي يحتاط بها الانسان من
الموت ، و « خب الليالي » أي السير البطيء - أو المتأني الوائق بالوصول الى
الغرض - ، لكان أوفق له . إلّا أنه أراد غيرَ هذا : الزمان يحثُّنا : ذاك هو
العُمر القصير . أمّا هو ، فلا يُسرّع لأنه واصلٌ لا محالة الى الهدف : تلك هي
الحتمة .

من المعاني التي افتقدناها في مرثية الحفيد ، الإشادةُ بخصال الميت .
لا يغفلها الشاعر هنا فيعرج على كرم الأمّ ويجمع جمعاً لطيفاً بين السحاب
الذي يشبهُ غيئه نداها ، والمطر الذي شيع في ذلك اليوم جنازتها :

26/19 شهد الغمام ، وإن سقاك حياً أن الغمام إليك مفتقراً
27 كم من يد لك غير واحدة لا الدمع يكفرها ولا المطر

وخصالها قد قسمتها بالقسطاس على جعفر ويحيى ، رفعتها لهما
فتلقاها باليمين . لذلك رحلت رخيّة البال مطمئنة وقد قضت الواجب وتيقنت
أنّ المجد الذي بناه عليّ بن حمدون سيتدعم عند النجلين :

41/19 إنّ التي أخلت عرينهم أضحت بحيث الضيغم الهصر

49 ... قسمت على آبنها مكارمها إنّ التراث المجد ، لا البدر

50 حتى تولت غير عاتبة لم يبق في الدنيا لها وطر

وبالرغم من ارتياحها لما تركته بعدها من مجد مؤثّل في ابنها ، فإنّ
الأسف عليها شديد ، يبكها الكون كما يبكيها البشر ، ويعود الشاعر الى
المطر الذي نزل على قبرها يوم الدفن :

37/59 ولما أتينا سقته الدموع فما بات حتى سقاه الحيا

38 وما جاده المزن من غلة ولكن ليك الندى بالندی

39 وقد خد في الشمس أخدوده ولكن سبقنا به في الثرى⁽¹⁾

ويحاول أن يجسم حزن المشيعين لها ويأسهم من الحياة بعدها ، فيتجه
إلى العادة المتبعة في الجاهلية بعقر النوق والأفراس على قبر الفقيد العزيز ،
ولكنه يدعو إلى نحر النفوس بدل الدواب :

31/19 فقفوا تضرّج ثم أنفُسنا لا الصافنات الجرّد والعكر⁽²⁾

وربما استغرب فيما بعد هذا الاقتراح أو استقبح ما فيه من غلو وتباك
كاذب ، فعُدل في القصيدة الثانية الى نحر القوافي لا غير ، أي الإقلاع عن الشناء

(1) الضمير في سقاه وجاده يعود على قبر الفقيدة .

(2) المعكرج عكرة : القطيع من الإبل .

والمدح بعد رحيل هذه التي جمعت المحامد والخصال :

49/59 إذا ما نحرّت به أو عقرت فَعَدَّ الْخَوَانِفَ ذاتُ الْبُرى

50 ولا تَرْضَ إِلَّا بِعَقْرِ الثَّنَاءِ ونَحِرِ الْقَوَافِي ، وَإِلَّا فَلَا⁽¹⁾

مدح الأمّهات

ولكن أهمّ معنى ورد في مرثيتي الأم ، هو المدح البليغ للأمّهات عامّة الذي أدرجه الشاعر في آخر القصيدة المقصورة . هذه الإشادة بفضل الأمّهات فريدة من نوعها في الشعر العربي القديم على ما نعلم ، وهي تصلح أن تكون شعاراً لإعيد الأمّهات السنوي ، كما تصلح أن تكون حُجَّةً في يد النساء المطالبات بالمساواة مع الرجال ، وحجة أيضاً ضدّ من يتهم الأدب العربي بعنصريته الرجاليّة . فالشاعر يجعل للأمّ نصف الفضل في نسب الولد ، والنصف الآخر للأب . فاذا افتخر الكريم الشريف بنسبه ، فبأمه وأبيه يفتخر ، فالأم تدعّم الأولاد وتدفعهم نحو المجد وتنشئهم على المكارم ، فهي في هذا صِنُوُّ للأب وكِفَاءُ : [مقارب]

69/59 لَأَمَاتَنَا نِصْفُ أَنْسَابِنَا إذا الْمَلِكُ الْقَلِيلُ مَنَّا انْتَمَى

70 دعائُمُ أَيَّامِنَا فِي الْفَخَارِ وَأَكْفَاءُ آبَائِنَا فِي الْعُلَى

وهي التي تربّي الطفل وتكفله في السلم والحرب ، وهي التي بتوجيهها يتعلّم ويسمع ويُبصر ويعتبرُ فهي المربيّة الأولى ، وفضلها هذا يجعلها سابقةً للأب مقدّمة عليه :

71 أَلَمْ تَرْهَنْ يُبَارِينَنَا فِيمَرْقُنَّا وَيَنْلَنَ الْمَدَى؟

72 كَفَلْنَا لَنَا بِظِلَالِ الْخِيَامِ وَأَكْفَلْنَا بِظِلَالِ الْقَنَا

73 وَنَغْدُو فَمِنْهُمْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا فِي حِجَالِ الْمَهَا

(1) الخوانف هي الأنثى .

فلا عجب أن يختم الشاعر هذه الأنشودة الحماسية في فضل الأمهات ،
بتفضيل النساء على الرجال ، على الأقل في بعض منهم ومنهن ، وتعديل
القسمة الضئلي :

74 فلو جاز حكيم في الغابرين وعدلت أقسام هذا الوري
75 لسميت بعض النساء الرجال وسميت بعض الرجال النساء

وهكذا ظفرنا من هذه المراثي التقليدية بهذه القطعة المحيرة : فهي
تحيرنا من جهتين : فهي أولاً لا تسمح لنا بأي افتراض في شأن أم الشاعر .
وهو الذي لم يذكر في كامل الديوان أمًا أو أبًا . فهل تذكر أمه هو فربط ذكرها
أو ذكرى موتها بموت أم الأميرين ؟ أم حن إليها في ديارها الأندلسية إن كان هو
هرب وحده إلى المغرب ؟

وتحيرنا من جهة ثانية لأننا لا نستبعد أن يكون غرضها سياسياً مذهبياً
حزبياً ، وهو إثبات نسب الفاطميين الذي قدح فيه الخصوم حين قالوا إن عبيد
الله - والشيعه يسمونه عبد الله بدون تصغير - هو ابن تاجر فارسي أو صانع
يهودي ، ولا صلة له قط بالعترة المنتخبة . ثم رفع الإصر على الفاطميين اذ
يلحقون بفاطمة ، لا بعلي ، ومن الناس من يستنكف من أن ينسب إلى أمه لا
لأبيه . فكأنه ، من خلال هذه الأبيات ، يدعو المعز إلى الافتخار بالانتساب
إلى فاطمة ، أم الأسرة الطاهرة ، وعدم المبالاة بمن يحاول الغص من الدولة
الفاطمية فينسبها إلى « عبيد الله » بصيغة التصغير ويقول الدولة العبيدية ، أو ،
إذا أقر بالنسب الفاطمي ، سماها دولة « الفواطم » بصيغة التأنيث .

الهجاء

حللنا في خاتمة الفصل الثالث القصيدة الفائية التي تقول التوطئة إنه
هجا بها الوهرائي ، ورأينا أنها ليست هجاء بقدر ما هي مدح لجعفر
الحمدوني . ولا يوجد في الديوان كله هجاء غيره ، كأن الشاعر - أو غيره -
طهر الديوان من دنس القذف والسباب ، أو كأن الشاعر لم يهج قط . ولعل

هذا هو الصحيح ، اذا ما اعتبرنا الرواية التي تقول إنه عند مقدّمه إلى إفريقية هجاه شعراؤها فترقّع عنهم ولم يعتبر منهم الا الإياديّ ، فأحجم هذا الشاعرُ عن التعرّض له لأنه رفعه على غيره⁽¹⁾ . فلم تقع مهاجاة إذن ، فلذلك خلا الديوانُ من هذا الصنف .

وتوجد مقطوعة نونية طريفة وصف فيها رجلاً أكلوا بصورة ساخرة مضحكة ، ولا نعرفُ عن هذا الرجل شيئاً سوى أنه أكل ، وأنه ربما لقيه الشاعر بالقرب من رقادة في أحد الخانات أو الفنادق، وأنه، على ما يظهر من أنواع الأطعمة التي يلتهمها ، غنيّ موسر . والشاعر يكتفي بالوصف المتندر لحركة شدّقيه ، وقرقة أسنانه ودويّ بطنه ، في لوحة فنية تدعو الى الاشتزاز من الرجل ، ولكنها أيضاً تبعث على الاستطراف لخيال الشاعر ولباقة افتراضاته وتساؤلاته المتجاهلة . فهي ، اذ خلت من اسم الرجل ونسبه ، ومن التعرّض الى صفات ونقائص أخلاقية ، ومن الإشارة الى وصمات في سيرته أو نسبه ، لا تعدّ من الهجاء بالمعنى المتعارف . ولكنّا نحلّلها هنا لما فيها من طرافة ، ولما تبرهن عليه من قدزة على الاستهزاء والتصوير المضحك .

يصوّر هذا العملاق الشرّ في تحرّك فكّيه الدائم وضجيج أسنانه وحنين بطنه الى المزيد، فكأنه في ساحة وغى لا على مائدة ، ويرصف المفردات المناسبة : [بسيط]

- 4/56 تبارك الله ما أمضى أسنّته كأنما كلّ فكّ منه طاحون
5 كأنّ بيتّ سلاح فيه مختزّن مما أعدّته للرسل الفراعين
6 أين الأستّة ، أم أين الصوارم ، أم أين الخناجر ، أم أين السكاكين ؟

والصور المستمدّة من الرصيد القرآني : بطن الحوت الذي ابتلع النبي يونس هو دون بلعومه في الاتساع ، وفلك نوح بما فيه من حيوان لا يشبعه ، ومعدّته تطلب المزيد مثل جهنّم حين يكثر زفيرها :

(1) ابن رشيق : العمدة 111/1 .

7/56 كأنما الحمل المشوي في يده ذو النون في الماء لمّا عضّه النون
 3 ... كأنّ معدته والزاد يضرّمها جهنّم قذفت فيها الشياطين
 17 فليس ترويه أمواه الفرات ولا يقوته فلك نوح وهو مشحون

ويتظاهر الشاعر بالهلع من هذا الطاحون الذي لا يبقى على شيء، فيدعو أصحابه الى المبادرة بالفرار قبل أن يصيروا طعاماً سائغاً لهذه النار المضطربة :

15/56 قوموا بنا ، فلقد ريعت خواطرنّا وجاذبتنا الأعنّات البراذين
 16 نصحتكم ، فخذوا من شذقه وزرا أو لا ، فانتم سويق فيه مطحون
 18 ... فمثل رقادة في كفّه وسطّ ونحن مقدونس فيه وطرخون

الفصل الثامن

أغراض الشاعر ومعانيه المعاني العقائدية المذهبية

ولاؤه الفاطمي

عبرنا في الصفحات السابقة عن اقتناعنا بأن الشاعر كان صادقاً التشيع وأن ترديده للمعتقدات الإسماعيلية في شعره لم يكن مجرد تزلّف للحكام الجدد المنتصبين بإفريقية . وسأيرناه في زعمه أن تشيعه قديم وأنه بسببه اضطر إلى ترك بلاده والهجرة إلى برّ العدو . وافترضنا أن تشيعه قد يكون موروثاً عن أسرته ، ولا سيما أبيه هانيء الذي تزعم بعض المصادر أنه كان من دعاة الفاطميين بالأندلس .

تدرّجه في اعتناق المذهب

ولا ندعي أن ولاء ابن هانيء للفاطميين كان تاماً كاملاً نهائياً من أول أمره . فلعلّه لم يعدّ الميّل العاطفي حين كان بالأندلس ، ثم قوّي وتدعم بعد استقراره في قلب الدعوة بالقيروان - المنصورية ، أو حتى بأطرافها في مقاطعة الزاب أو تاهرت عند ولاية المعزّ وقواده . وربما استفاد الشاعر بـ « مجالس الدعوة » أو مجالس الحكمة التي كانت تنظّم للأولياء والمريدين ، وحتى

للخصوم والمناوئين⁽¹⁾ ، بأشراف كبار الدعاة وبرعاية الإمام نفسه . وقد ترك لنا القاضي النعمان بعض التفاصيل عن هذه المجالس التعليمية الدعائية التي كلفه المنصور بها وأقره المعزّ عليها فصار يُمدّه بما يحتاج اليه من علوم الظاهر والباطن في شروحه وردوده وحججه⁽²⁾ . وستدعم هذه المجالس في الفترة المصرية من تاريخ الدولة الفاطمية وتصبح لها رسومٌ معينة وسنن متبعة كما بين لنا المقرئ في خطه⁽³⁾ .

نقول : ربّما استفاد، نفترض ، ولا نجزم بأنّ الشاعر لقِيَ القاضي ، بل من غريب الأمور أنّه لا ذكر لأحدهما عند الآخر ، كأنهما لم يتعارفا قط ولم يجتمعا في بلاط واحد عند إمام واحد .

ولا شك أنّ ولاء الشاعر للفاطميين أخذ ينمو شيئاً فشيئاً مع تمرسه بالشعارات الشيعية في الأوساط الرسمية بالقيروان والمهدية . بهذا التدرج يشهد اختلافُ اللهجة بين القصائد الأولى التي نظمها إثر نزوله بالأرض الإفريقية والقصائد المعزّيات التي تتبنّى المقولات الإسماعيلية بصورة تامة مطلقة .

موقف أهل السنة من غلو الشاعر في ولائه

قد يستنكر القارئ الذي ليس له خبرة بهذه المقولات ، ما يجده في الديوان من أوصافٍ وأحكام وأفكار في خصوص الأئمة تصل إلى حدّ التآليه ، وهو غلو لا يبرّر فقط بميل الشاعر الى التفخيم وجريه وراء اللفظ الجزل والعبارة القويّة . وفعلاً قد استنكر النقاد القدامى مغالاته في مدح المعزّ كأن

(1) المجالس والمسائرات ، 434 : حضور الثائر ابن واسول أحد هذه المجالس في قيده .
(2) نفس المرجع 360 : استشارة النعمان للمعزّ في خصوص كتابه : الدينار . وانظر ما كتبه الدشراوي : الخلافة ... 410-413 عن ازدواجية الوظيفة عند قاضي القضاة .
(3) ج 223/2 - 224 .

يطلق عليه الأسماء والنعوت التي نخصّ بها عادةً الله وحده . هذا ابن شرف يرى في ذلك تطاولاً على الدين : « . . . وكان في دينه في أسفل منزلة : ناهيك من رجل يستعين على صلاح دنياه بفساد آخرته ، لرداء دينه وضعف يقينه » ، والتهمة كما نرى مزدوجة : مروق عن الجادة لا لاقتناع ، بل لطلب المزيد من رُفد الممدوح ، مع أنّ في معاني الشعر متسعاً لكل راغب : « ولو عقل ما ضاقت عليه معاني الشعر حتى يستعين عليه بالكفر⁽¹⁾ » . وهذا أحد النسخ يفتقد القصيدة 24 - تلك التي يوصف فيها المعزّ بالواحد القهار ، وقد خلت منها مخطوطات كثيرة ، لا سيّما النسخ التونسية - من النسخة التي ينقل عنها فيفسر طرحها بما تضمنته من كفر ، ويُبدلي بحكم للمؤرخ القيرواني ابن شدّاد صاحب كتاب « الجمع والبيان » المفقود ، وهو حكم يُلقي التبعيّة ، لا على الشاعر ، بل على المعزّ ، الذي يشجّع شعراءه على هذا الإفراط ويستزيدهم منه⁽²⁾ .

على أنّ الإنصاف يقتضي منا أن لا ننطلق في الحكم على الشاعر من أرضيّة سنيّة مالكيّة كما فعل ابن شدّاد وابن شرف ، بل علينا أن نضع هذا الشعر في إطاره من العقيدة الإسماعيليّة أولاً ، ومن الخصومة الكلاميّة بين الدولة الفاطميّة وأعدائها في الداخل والخارج ثانياً . فإذا اعتبرنا مثلاً أنّ الإسماعيليّة تنفي الصفات عن الإلاه مثل المعتزلة⁽³⁾ ، فهبنا لماذا لا يتحرّج شاعرنا ، ولا غيره من الأنصار والدعاة ، من إطلاق بعض الصفات القدسيّة على الإمام ، وهو بشر .

وسنحاول في هذا الفصل أن نرفع عن شاعرنا تهمة الكفر هذه ، وأن نبين صدق ولائه للدعوة الفاطميّة . ونتوخّى في هذا الاحتجاج له طريقة المقارنة : نقارن معانيه وأغراضه بالشعارات والمقولات التي تبسطها الكتب

(1) نقلاً عن ابن الخطيب : إحاطة 213/2 .

(2) مقدّمة مخطوط 5 عدد 18624 ، ورقة 7 .

(3) فوييار : بُذ . . . 9 ، St . Guyard: Fragments .

« النظرية » مثل كتب القاضي النعمان ، وكذلك نقارنها بما يقوله شاعر فاطمي أصلاً ، هو تميم بن المعز .

المعاني المذهبية في شعره المغربي

رأينا أن الشاعر احتج لدى المعز بتشييع قديم جلب اليه نعمة الأمويين ، ولاحظنا وجود بعض المقولات الإسماعيلية في شعره الأول بالمغرب ، أي قبل دخوله في خدمة المعز مباشرة ، ودعماً أدعاه وقبلناه ، بهذه المعاني التي أودعها مثلاً أول قصائده بعد هجرته ، وهي مدحة جوهر الحائية : فيها يستخدم المصطلحات السياسية الرائجة عند الفاطميين كالإمامة ، وإمرة المؤمنين ، والخلافة ، كأنه نسي أنه ترك وراءه منذ قليل خلافة أخرى . وهكذا يستمد جوهر صفاته الناصعة من روح الخلافة المعزية : [طويل] .

13/10 وأيضاً من سِرِّ الْخِلَافَةِ وَاضِحٍ تَجَلَّى فَكَانَ الشَّمْسُ فِي رَوْقِ الضُّحَى
21 ... رَأَى أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ كَعَهْدِهِ لَدَيْهِ، وَلَمْ تَنْزَحْ بِهِ الدَّارُ مَنَزَحًا

فهو حوارِيّ المعز كما كان قديسو النصارى حوارِيّ عيسى ، زكته خدمة الإمام وزكت جنوده فضمنت لهم الفلاح :

65 لَأَفْلَحَ مِنْهُمْ مَنْ تَزَكَّى، وَقَادَهُ حَوَارِيُّ أَمْلَاكِ تَزَكَّى وَأَفْلَحَا

هذه العبارات ، بمسحتها الدينية وتضميناتها القرآنية ، قد تؤيد عندنا التصديق بتشيعه القديم . ولكن لا نستبعد منه أيضاً شيئاً من التزلف إلى الخليفة الذي هجر إليه ، والتوسل بالقائد الصقلي حتى يوصله إلى مبتغاه . ونعلم أن جوهر أخيب ظنه فاضطر الشاعر إلى الانتظار بضعة سنوات بالمسيلة ، وربما تاهرت أيضاً ، قبل أن يدعوه المعز إليه .

قصائد المسيلة

المعاني الإسماعيلية في مدائح أمراء الزاب أقل ظهوراً منها في مدحة جوهر . فهل يُعزى هذا الخفوت النسبي الى الاستقلال الذي يتمتع به جعفر ابن حمدون في إمارته والى استنكافه من أن يُذكر بتبعيته لصاحب القيروان ؟ هذا ما افترضناه حين حللنا هذه القصائد بالتفصيل في الفصل السادس . ولكن يمكن أن نفترض سبباً آخر : وهو أن الشاعر لم يطلع بعد على كافة المقولات الإسماعيلية ، وإنما كان يعرف منها ما يعرفه المناصر المتوسط البعيد . فلذلك يكتفي بذكر ولاء الأميرين للإمام ودورهما في الدفاع عن الدولة : [طويل] .

42/52 وَأَنْكَ عَنْ ثَغْرِ الْخِلَافَةِ ذَائِدٌ وَأَنْكَ عَنْ ثَغْرِ الْخِلَافَةِ بِاسِمٌ

ويطيب له أن يمثل دور أبناء الأندلسية - وهم أزديون مثله - مع المعز الهاشمي بدور أجدادهم الأنصار مع جدّه محمد (صلعم) : [كامل] .

40/6 سَدَّ الْإِمَامُ بَكَ الثَّغُورَ، وَقَبْلَهُ هَزَمَ النَّبِيُّ بِقَوْمِكَ الْأَحْزَابَ⁽¹⁾

وإن يُذكر التبعية فإنه يخص بها يحيى بن حمدون ، وكأنه شعر أثناء إقامته بالمسيلة بتفاوت الأخوين في الولاء الفاطمي ، وتوقع ما سيكون من انفصال جعفر عن المعز ولجوءه إلى الحكم المستنصر بقرطبة . فإذا توجه إلى جعفر لايته وعظم مساندته للخليفة : [كامل] .

55/45 فَأَنْهَضُ بِأَعْبَاءِ الْخِلَافَةِ كُلِّهَا إِنَّ الْمُحَمِّلَهُنَّ عَوْدَ بَازِلُ

أما إذا خاطب يحيى ، فالعلاقة بينه وبين المعز علاقة العبد بمولاه :

[طويل]

60/61 وَمِثْلُكَ مَنْ أَرْضَى الْخَلِيفَةَ سَعِيَهُ فَإِنْ رَضِيَ الْمَوْلَى فَقَدْ نَصَحَ الْعَبْدُ

(1) الأنصار من أوس وخزرج كانوا أزديين أيضاً .

تشيع السلاح أيضاً

وينسبُ التبعيّة نفسَها إلى سيف يحيى : فهو سيفٌ شيعيٌّ يعرفُ إمام الزمان ، كما هو مفروضٌ على كلِّ مُنسبٍ إلى العقيدة ، ويكي الحسين وشهداء الطفّ : [كامل] .

... في كفّ يحيى منه أبيضُ مُرهفٌ عرفَ المعزَّ حقيقةً فتشيعاً وجرى الفرندُ بصفحتيه، كأنما ذكرَ القتلَ بكرِبلَاءِ فدُمعا⁽¹⁾

ويوالي ذا الفقار سيفَ المعزّ ، كما يوالي صاحبه الإمام : [مخلع] حامله للمعزّ عبدٌ والسيفُ عبدٌ لذي الفقار⁽²⁾

وهناك تفسير ثالث يمكن تقديمه لتبرير انحسار المعاني الشيعة بالمسيلة : وهو أن معظم قصائد بني حمدون كانت محلّية ظرفية ، فهي إمّا تهنئة لبابلالٍ من مرض ، أو بالفراغ من تشييد قصر ، أو بالعودة من غزوة مظفّرة ، وإمّا تفجّع على فقيد في الأسرة ، وإمّا دعوة إلى مجلس أنس . ولا تدعو الظروف التي تُشَدُّ فيها إلى التحليق في الأجواء العقائدية العليا .

مدائح الشيبانيّ

ما قلناه في خصوص شعر المسيلة يمكن أن نقوله أيضاً في مدائح أبي الفرج الشيبانيّ : هذه القصائد السّتُ لا تحمل هي أيضاً كثيراً من شعارات الدعوة ، باستثناء البائية التي ورد فيها شيءٌ من الإلحاح على تبعيّة هذا القائد البكريّ للمعزّ ، إلّا أنها تبعيّة قائدٍ عسكريٍّ جرّد سيفه للدفاع عن الدعوة والدولة . وسيفه هو أيضاً شبيهٌ في مضائه بذِي الفقار ، بل يستمدّ قوّته من ذي

(1) تبين المعاني ... ص 396 . والفرندُ بريقُ السيف ولمعانه .

(2) تبين المعاني ... ص 262 .

الفقار : [بسيط] .

66/60 لِلَّهِ مَا تَنْتَضِي مِنْ ذِي الْفَقَارِ، وَمَا تَشُدُّ مِنْ عَضْدِ الرَّأْيِ الْإِمَامِيَّ

وَلِأَنَّ نُصْرَةَ الشَّيْبَانِيَّ لِلْأُسْرَةِ الْفَاطِمِيَّةِ نَابِعَةٌ مِنْ تَشْيَعِهِ الصَّادِقِ الَّذِي أَمَدَهُ
بِالْحَنْكَةِ السِّيَاسِيَّةِ :

40/60 شَيْعِيٌّ أَمْلَاكِ بَكْرٍ إِنْ هُمْ انْتَسَبُوا وَلَسْتُ تَلْقَى أَدِيباً غَيْرَ شَيْعِيٍّ

41 مَنْ أَصْلَحَ الْمَغْرِبَ الْأَقْصَى بَلَا أَدَبٍ غَيْرِ التَّشْيَعِ وَالِدِينَ الْحَنِيفِيِّ

فَصَارَ لَهُ سِلَاحَانُ : الْحَدِيدُ الْبَاتِرُ وَالرَّأْيُ الثَّاقِبُ :

57/60 رَامٍ بِسَهْمَيْنِ : مَبْرِيٍّ يَسْدِدُهُ وَصَائِبٍ عَلَوِيٍّ غَيْرِ مَبْرِيٍّ

وَلِأَنَّ ذَكَرَ الشَّاعِرَ لِعَمَلِيَّاتِ الشَّيْبَانِيَّ الْحَرْبِيَّةِ فِي الْمَغْرِبِ الْأَقْصَى حَمَلْنَا
عَلَى افْتِرَاضِ أَنَّ هَذَا الْقَائِدَ رُبَّمَا كَانَ وَالِيَا لِلْمَعَزِّ عَلَى مَقَاطِعَةِ تَاهَرْتِ ، وَقَدْ
ذَكَرَتْ بَعْضُ الْمَصَادِرِ أَنَّ أَجْنَاداً مِنْ بَكْرِ بْنِ وَائِلٍ ، وَشَيْبَانَ فِرْعَ مِنْ بَكْرِ ،
كَانَتْ قَدْ اسْتَوْطَنْتْ جِهَةً تَاهَرْتِ مِنْذُ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ . فَإِنْ صَدَقَ ظَنُّنَا ، وَفِي
اِنْتِظَارِ أَنْ نَكْتَشِفَ يَوْماً مَزِيداً مِنَ الْمَعْلُومَاتِ عَنْ هَذَا الْقَائِدِ الْمَجْهُولِ ، فَلَا
مَنْعَ مِنْ أَنْ نَبَرَّرَ هُنَا أَيْضاً خَفَوْتَ الْمَعَانِي الْإِسْمَاعِيلِيَّةِ فِي الْقِصَائِدِ الْخَمْسِ
الْأُخْرَى ، بِبُعْدِ الشَّيْبَانِيَّ عَنْ عَاصِمَةِ الْخِلَافَةِ وَتَمَتُّعِهِ هُوَ أَيْضاً بِنَوْعٍ مِنَ
الْإِسْتِقْلَالِ . وَلَا نَسْتَبْعِدُ أَنْ يَكُونَ أَبُو الْفَرَجِ هَذَا مِنْ أَوَّلِ مَمْدُوحِي الشَّاعِرِ ،
بَيْنَ جَوْهَرِ بَفَاسَ ، وَبَنِي حَمْدُونَ بِالْمَسِيلَةِ .

مدحة أفلح الناشب النونية

هذه المدحة ، بالعكس ، تطفح بالشعارات الإسماعيلية ، وهي لا
تترجم عن معتقد الممدوح فحسب ، بل عن تحزب الشاعر أيضاً وقد حوّل
المقدمة التقليدية الى إعلان عن تعلّقه بالحزب الذي ينتمي اليه والي برقة :

[كامل]

12-11/55 حِزْبُ الإِمَامِ مِنَ الْوَرَى حِزْبِي إِذَا عُدُّوا ، وَخُلَصَانُ الْهُدَى خُلَصَانِي
لَا تَبْعُدَنَّ عِصَابَةَ شَيْعِيَّةٍ ظَفِرُوا بِبُغْيَتِهِمْ مِنَ الرَّحْمَانِ

أَمَّا أَفْلَحُ ، فَلَا يُقَاسُ أَيُّ تَابِعٍ لِلْأُئِمَّةِ بِوَلَائِهِ هُوَ ، كَمَا لَا تَقَاسُ
سَطُورُ الْمَتْنِ فِي دِقَّتِهَا بِعَنْوَانِ الْكِتَابِ فِي وَضُوحِهِ وَتَمَيِّزِهِ :

83/55 يَا سَيْفَ عَتَرَةِ هَاشِمٍ ، وَسِنَانِهَا وَشَهَايَهَا فِي حَالِكَ الْأُدْجَانِ
85 . . كُلِّ الدَّعَاةِ إِلَى الْهُدَى كَالسُّطْرِ فِي بَطْنِ الْكِتَابِ ، وَأَنْتَ كَالْعَنْوَانِ

ونجد في هذه القصيدة من معاني التقديس للإمام ما لا نجده في مدائح
الشييعاني ولا الأخوين الأندلسيين ، مثل الإصداح بأن الإمام هو وارث الدنيا
وسيد الإنس والجن :

16 قَدْ شَرَّفَ اللَّهُ الْوَرَى بِزَمَانِهِ حَتَّى الْكَوَاكِبُ وَالْوَرَى سَيَّانِ
17 وَكَفَى بَمَنْ مِيرَاثِهِ الدُّنْيَا وَمَنْ خُلِقَتْ لَهُ ، وَعَبِيدُهُ الثَّقَلَانِ

فهي ، في معانيها المذهبية ، تفوق مدحة جوهر الحائية . فلذلك نميل
إلى تأريخها بما بعد دخول الشاعر القيروان وإطلاعه التام على تعاليم الدعوة .
وقد تكون من آخر ما نظم ، وهو في طريقه إلى مصر للالتحاق بالمعز . وبهذا
يكون الاتصال بالإمام في القيروان هو البرزخ الفاصل بين طورين من حياته :
طور الشاعر المداح المتنقل من أمير إلى آخر ، ولكن في فلك دولة لها مذهبها
وعقيدتها وشعاراتها ، فيظهر في شعره ، إن قليلاً وإن كثيراً ، صدى هذا
المعتقد . وطور الشاعر الرسمي الذي وعى تعاليم الدعوة كل الوعي فجعلها
محور شعره يصدق بها للأنصار والخصوم معاً .

هذا الصدى ، وهذه المقولات هي التي سندرسها الآن .

التأكيد على النسب الفاطمي

انتساب الدولة الى فاطمة الزهراء له أبعاد سياسية : فهو تأكيد بحق ذريتها في إرث جدّهم ، لا الإرث المادّي فحسب ، بل الإرث المعنوي ، أي إمرة المسلمين الزمنية وإمامة المؤمنين الروحية . وهو أيضاً تأكيد على اختصاصهم وحدهم بهذا الحق ، دون سائر الهاشميين كبنّي العباس ، وحتى دون سائر ذرية عليّ من غير فاطمة كأتباع محمد بن الحنفية وغيرهم . والشاعر ، لإظهار هذه النسبة الشريفة المخصوصة ، يذكر تارة اسم بنت الرسول بلفظه : [كامل]

27/24 أبناء فاطم، هل لنا في حشرنا لجأ سواكم عاصم ومجار؟
ويذكرها تارة أخرى باللقب الذي عُرفت به فيما بعد عند الشيعة ، وهو لقب « البتول » ، أي العذراء المطهرة ، تشبيهاً لها بالصورة التنزيهية التي توصفُ بها مريم في القرآن : فكما أنجبت مريم عيسى عليه السلام وبقيت مع ذلك عذراء ، أنجبت فاطمة الحسين (والحسن) وبقيت متبلةً : [طويل]

136/47 ألا سائلوا عنه البتول فتخبروا أكانت له أمّا، وكان لها ابناً!
وقد يذكرها بلقب « الزهراء » الذي يشترك في قبوله السنة والشيعة ، ويؤكد فخر الأسرة بالانتساب إلى الأمّهات ، على غير عادة العرب . وقد التمسنا في الأبيات التي ختم بها رثاء أمّ بني حمدون وأعلى فيها من شأن الأمّهات وجعلهنّ أكفاءً للآباء ، التمسنا فيها بادرة تبرير لانتساب الدولة إلى فاطمة ، أمّ الأئمة ، بل ربّما علامة فخر بهذه الظاهرة التي قد يعدّها الخصوم منقصةً . وللتأكيد على أنّه لا حياة في الانتساب الى الأمّ ، يعزّز الزهراء بالـ « عواتك » ، أي عواتك بني سليم ، اللائي اشتركن بزواجهنّ إمّا في بني هاشم أو في بني النجار ، في إنجاب محمد النبي⁽¹⁾ : [طويل] .

(1) في خصوص العواتك الثلاث ، انظر البلاذري : نسب الأشراف 532/1 وأيضاً تعليق زاهد علي على البيت .

24/37 له نسب الزهراء دُنِيَا يَخْصُهُ وسألف ما ضَمَّت عليه العواتكُ

ويختصر المراحل أحياناً فيصبح أبناء فاطمة أبناء النبي مباشرةً : [كامل]

79/1 أعززت دين الله يا ابن نبيّه فاليوم فيه تخمط وإباء

أو يجعل النبي أباً للمعز كما رأينا ، وتارة جداً : [كامل]

46/9 فكأن جدك في فوارس هاشمٍ منهم بحيث يرى الحسين ذبيحاً

وأحياناً ينمي الأسرة إلى أبيهم علي مباشرةً : [كامل]

5/40 متكشف عن عزيمة علويةٍ للكفر منها رنةٌ وعويلُ

وحتى الى أبي طالب فيستخدم نسبة « الطالبين » الجامعة : [طويل]

34/22 وردَّ حقوق الطالبين من زكَّ صناعته في آله وزكا الذخرُ

أو يتوسط بالحسن والحسين ، فيكتفي علياً بأبي السبطين : [طويل]

89/13 فليت أبا السبطين ، والتربُّ دونه يرى كيف تُبدي حكمه وتعيدُ

و « أبو السبطين » كنايةٌ فخارٍ يحتجُّ بها الشاعر ضدَّ بني العباس :

فأبناء علي قد أشار إليهم القرآن ونزلت فيهم آيات . أمّا العباس فالمعروف عنه

أنه قاوم النبي وأسير في بدر فرق له محمد (صلى الله عليه وسلم) فأطلقه : [طويل]

17/22 أفي ابن أبي السبطين ، أم في طليقكم تنزلت الآيات والسور الغرُّ؟

وقد يجمع النسبتين ، نسبة الأم ونسبة الأب في كنايتين أخريتين :

المصطفى ، وهو محمد ، والمرضى ، وهو علي . ولنلاحظ عَرَضاً أَنَّ

الألقاب المستخرجة من مادة الرضا جاريةٌ عند عموم الشيعة : فأحد الأئمة عند

الاثني عشرية يُدعى عليّ الرضا ، وبعض نقباء العلويين ببغداد يُدعون

الشريف الرضي والشريف المرتضى : [متقارب]

59/58 هو الوارث الأرض عن أبوين : أب مصطفى ، وأب مُرتضى

وأحياناً يعمّم الكناية ، فيُنمّي الأسرة مباشرة الى النبوة والوحي : [كامل]

19/41 هذا ابنٌ وحي الله ، تأخذُ هديها عنه الملائكُ بكرةً وأصيلاً
88 ... أبني النبوة ، هل نبادرُ غايةً ونقول فيكم غيرَ ما قد قيلاً؟

بين الميثب للنسب الفاطمي والقادح فيه

بهذا التنوع في ذكر نسب الفاطميين ، وبهذا الاستظهار المتواصل بقرابة النبي المباشرة المخصصة بهم دون غيرهم ، يرمي الشاعر ، لا إلى إقناع الأنصار ، فهم بعدُ مقتنعون ، بل إلى دفع التهم المختلفة التي أُلصقت بنسب عبيد الله المهديّ مؤسس الأسرة ، ومنها تكذيب أهل القيروان لانحدارهم من فاطمة ، فاكْتَفَوْا بنسبة الدولة الى مؤسسها وقالوا : الدولة العبيديّة أو دولة بني عبيد ، كما فعل ابن حماد في أخباره .

فهذا ابن شدّاد الصنهاجي صاحب تاريخ القيروان المفقود ينمي عبيد الله إلى أبٍ يهودي في خاتمة خبرٍ طويل نقله ابن الأثير ثم المقرئزي : « ... وعهد الحسين - ولم يكن له ولدٌ - إلى ابن اليهودي ، وهو عبيد الله ، وعرفه أسرار الدعوة من قولٍ وفعلٍ »⁽¹⁾ . واعترض ابن الأثير على هذا القدح فقال : « ... وهذه الأقوال فيها ما فيها . فيا ليت شعري ، ما الذي حمل أبا عبد الله الشيعي وغيره ممّن قام في إظهار هذه الدعوة حتى يُخرجوا هذا الأمر من أنفسهم ويسلموه الى ولدٍ يهودي ؟ »⁽²⁾ .

وجمع القادرُ العبّاسي سنة 1011/402 ببغداد لجنة من علماء الأنساب فيها علويّون معروفون كالشريفين الرضي⁽³⁾ والمرتضى فشهدت له « خوفاً

(1) المقرئزي : اتعاظ 46-57 . وبالخصوص ، تعليقات المرحوم جمال الدين الشيال .

(2) الكامل 129/6 . حوادث سنة 296 . والمقرئزي : اتعاظ ... 57 .

(3) إلّا أن الشريف الرضي ، حسب ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة 13/ « امتنع من تسطير خطه وقال : لا أكتب ، وأخافُ دعاة صاحب مصر » .

وتَقِيَّةٌ « بَأَنَّ الحاكم بأمر الله المنتصب بالقاهرة آنذاك » وَمَنْ تَقَدَّمَ مِنْ سَلَفِهِ
الأرجاس الأنجاس ، أَدْعِيَاءُ خَوَارِجُ لَا نَسَبَ لَهُمْ فِي وَلَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
(رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) ، وَأَنَّ مَا أَدَّعَوْهُ مِنَ الْإِنْتِسَابِ إِلَيْهِ زُورٌ وَبَاطِلٌ . . . وَأَنَّهُمْ
كُفَّارُ فُسَاقٍ زَنَادِقَةٌ ، مُلْحَدُونَ مَعْطَلُونَ ، وَلِلْإِسْلَامِ جَاهِدُونَ ، وَلِمَذْهَبِ التَّنَوُّيَّةِ
وَالْمَجُوسِيَّةِ مَعْتَقِدُونَ ، قَدْ عَطَّلُوا الْحُدُودَ ، وَأَبَاحُوا الْفُرُوجَ ، وَأَحْلَوْا
الْجُمُورَ ، وَسَفَكُوا الدَّمَاءَ ، وَسَبُّوا الْأَنْبِيَاءَ وَلَعَنُوا السَّلَفَ وَأَدَّعَا الرِّبَوِيَّةَ ⁽¹⁾ .
وقد أكثر القوم وبالغوا إذ رمَوْهم بكلِّ موبقةٍ . وكأنَّهم نقلُوا هذه السلسلة
الطويلة من الآثام عن ابن شدَّاد في كتابه المفقود . والمؤرِّخ الصنهاجي قد
يكون جمَعَ ما رَوَّجَتْه الأوساط المالكية بالقيروان من تُهمٍ في الأسرة العبيدية
منذ انتصابها بإفريقية . ذلك أنَّ أوَّلَ من اتَّهمهم بالإشراك ورماهم بالزندقة
هو ، فيما نعلم ، الشاعر القيرواني أبو القاسم الفزاري (ت 956/345) إذ
يقول : [كامل]

عَبَدُوا مُلُوكَهُمْ ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ نَالُوا بِهِمْ سَبَبَ النِّجَاةِ عُمُومًا
وَتَمَكَّنَ الشَّيْطَانُ مِنْ خَطَوَاتِهِمْ فَأَرَاهُمُ عِوَجَ الضَّلَالِ قَوِيْمًا
. . . أَمِنَ الْيَهُودُ؟ أَمْ النَّصَارَى؟ أَمْ هُمْ دَهْرِيَّةٌ جَعَلُوا الْحَدِيثَ قَدِيمًا
. . . أَمْ هُمْ زَنَادِقَةٌ مَعْطَلَةٌ رَأَوْا أَنَّ لَا عَذَابَ غَدًا وَلَا تَنْعِيمًا؟ ⁽²⁾

وَأَوَّلَ مَنْ اتَّهَمَهُمْ بِانْتِهَاكِ الْحَرَمَاتِ وَشَرَبِ الْخُمُورِ وَاضْطِهَادِ الْأَتْقِيَاءِ
الصالحين شاعر قيرواني آخر معاصر لَهُ يدعى «سهل الوراق» : [كامل]

مَتَهَمَكَا فِي خَمْرِهِ وَسَمَاعِهِ مَتَرَدِّدَا فِي الْغَيِّ وَالشُّبُهَاتِ
. . . يَا أَبْنَ الْأَرَاذِلِ وَالْمَجُوسِ ، أَيَا أَبْنَ مِنْ هَتَكَ الْفُرُوجِ وَضَيَّعَ الصَّلَوَاتِ
. . . هَدَمَ الْمَسَاجِدَ وَابْتَنَاهَا مَنَزَهَا لِمَضَارِبِ الْعِيدَانِ وَالنِّيَاثِ

(1) اتعاظ 59 . وابن الأثير 263/7 (حوادث سنة 402) ، على أنه لم ينقل نصَّ المحضر . وإنَّما

نقله الشيخ عبد الوهاب النجار في الهوامش .

(2) حوَلِيَّاتُ الْجَامِعَةِ التُّونِسِيَّةِ 1973/10 ص 126 .

وأحلّ دارَ البحرِ في أغلالِهِ مَنْ كان ذا تقوى وذا صلوات⁽³⁾

فالشبه قويٌّ بين هجاء الشاعرين القيروانيين واحتجاج المحضر البغداديّ . ومهما يكن من أمر ، فإنّ هذا المحضر لم يحظَ بالقبول عند كثيرٍ من المؤرّخين . فالمقرّيزيّ المتشيع أعلن عند نقله فقرات ابن شدّاد « البراءة من عهدة طعنه في نسب عبيد الله » وابن خلدون السّنيّ لم يصادق على القدح والاتهام فقال : « ولا عبرة بمن أنكر هذا النسب من أهل القيروان وغيرهم ، وبالمحضر الذي ثبت ببغداد أيام القادر »⁽¹⁾ .

إرث الرسول إرثٌ مادّيّ ومعنويّ

بتبنيته للنسب الفاطميّ يجيب الشاعرُ في الواقع الدولتين المنافستين القائمتين ببغداد وقرطبة ، ويجيب بوجه عامّ كلّ الذين يرفضون شرعيةَ الوراثّة عن رسول الله ، تلك الوراثّة المزدوجة في جانبَيْها السياسيّ والروحيّ . أمّا الجانب السياسيّ فسيكون موضوع الفصل التاسع . بقي الجانب المعنويّ . فالإرثُ الروحيّ عن رسول الله ضامنٌ للأئمة « الترعة العليا » ، أي الدرجات العليا عند الله : [كامل]

ورث المقيم بيثرب، فالمنبرُ الـ أعلى له ، والترعةُ العليا⁽²⁾ 46/1

وهو الذي جعلهم مفضّلين على جميع البشر : [كامل]

آتاكمُ القدس الذي لم يُؤتِه بشراً، وأنفَذَ فيكمُ التفضيلاً 90/41

بشهادة القرآن وملائكة السماء : [كامل]

(3) حوليات الجامعة التونسية 1973/10 ص 147 .

(1) تاريخ ابن خلدون 31/4 .

(2) المقيم بيثرب هو رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنبر والترعة كناية عن مسجده وقبره حسب زاهد عليّ . وقال آخرون : الترعة العليا هي الجنة .

53/9 نَطَقْتُ بِكَ السَّبْعَ الْمِثْنِي أَلْسِنًا فَكَفَيْتُنَا التَّعْرِيزَ والتَّصْرِيحًا⁽¹⁾
59 ... شَهِدْتُ بِمَفْخَرِكَ السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَتَنَزَّلَ الْقُرْآنُ فِيكَ مَدِيحًا

وما بعد شهادة القرآن من شهادة ، فهل يسع الشعراء المساكين - مهما بلغت طاقتهم في التعبير - أن يباروا القرآن في تعداد مناقب الأئمة ؟ كلا ! فكلامهم لا يكون إلا تكراراً لشهادة الكتاب : [كامل]

85/53 قَدْ قَالَ فِيكَ اللَّهُ مَا أَنَا قَائِلٌ
فَكَأَنَّ كُلَّ قَصِيدَةٍ تَضْمِينُ

وكلُّ محاولة للتجديد في هذا المعنى مألها الفشل : [طويل]

24/3 وهل يستوي وَحْيِي مِنَ اللَّهِ مُنْزَلٌ وَقَافِيَةٌ فِي الْغَابِرِينَ شَرُودٌ؟

فليخجل المتطاولون إذَنْ وَلَيْسَتْحُوا : ليس في الإمكان أن يحيطوا بصفات الإمام ، ولا أن يزيدوا على فضيلة القرآن فيه فضيلة : [كامل]

68/24 جَلَّتْ صِفَاتُكَ أَنْ تُحَدَّ بِمَقُولٍ مَا يَصْنَعُ الْمَصْدَاقُ وَالْمَكْثَارُ؟⁽²⁾

69 وَاللَّهُ خَصَّكَ بِالْقُرْآنِ وَفَضْلِهِ وَاحْجَلْتِي! مَا تَبْلُغُ الْأَشْعَارُ؟

ولا يقتصر الشاعر على شهادة القرآن ، بل يستظهر أيضاً ببقية الكتب المقدسة . فجميعها تُشيد بفضل الإمام : [كامل]

104/40 مَنْ يَشْهَدُ الْقُرْآنُ فِيهِ بِفَضْلِهِ وَتُصَدِّقُ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ

الإمام هو محور الخليفة

وقد نستغرب هذا القول في شأن الكتب السماوية ؛ وربما حملناه على

(1) السبع المِثْنِي من أسماء فاتحة الكتاب . وقد تعني القرآن جملةً .

(2) المَقُول : الفصيح اللين . واللسان البليغ أيضاً .

المبالغات العادية عند الشعراء ، والغلو اللفظي والمعنوي عند ابن هانيء خاصة . ولكن هذه المعاني كانت رائجة في المجالس الإسماعيلية وربما كانت مدونة في نصوصهم النظرية ، مثل هذا الابتغال المنسوب الى المعز نفسه : فهو يدعي فيه أنَّ الأنبياء ، بله سائر البشر ، قد خلقهم الله بسببه ، أي بنية خلق الإمام يوماً ما : « . . . إلهي ، أوجدت عني خلقك ، وصدرت عني دنياك في الذات والأسماء والصفات . . . إلهي ، ظهرت الموجودات كلها بي ، وأخترعت مني كل رسول ونبي . . . » (1) .

هذه القداسة التي تجعل الإمام قطب البشرية ومركز الكون ، يترجمها الشاعر في مشاهد فردوسية مما تعود الخيال العربي أن يتصوره ويتمناه ، كالماء الصافي ، والظل الوارف ، والنور الوضاء . ويستخدم عبارات روحية تجريدية كالقبس والمُجاجة والينبوع والشفاء : [كامل]

36-31/1 هُوَ عِلَّةُ الدُّنْيَا ، وَمَنْ خَلَقَتْ لَهُ وَلَعَلَّةٌ مَا ، كَانَتْ الْأَشْيَاءُ
مِنْ صَفْوِ مَاءِ الْوَحْيِ ، وَهُوَ مُجَاجَةٌ مِنْ حَوْضِ الْيَنْبُوعِ ، وَهُوَ شِفَاءُ
مِنْ أَيْكَةِ الْفِرْدَوْسِ ، حَيْثُ تَفْتَحَتْ ثَمَرَاتُهَا ، وَتَفِيأُ الْأَفْيَاءُ
مِنْ شُعْلَةِ الْقَبْسِ الَّتِي عُرِضَتْ عَلَى مُوسَى ، وَقَدْ حَارَتْ بِهِ الظُّلُمَاءُ
مِنْ مَعْدِنِ التَّقْدِيسِ ، وَهُوَ سُلَالَةٌ مِنْ جَوْهَرِ الْمَلَكُوتِ ، وَهُوَ ضِيَاءُ
مِنْ حَيْثُ يُقْتَبَسُ النَّهَارُ لِمَبْصَرٍ وَتُشَقُّ عَنْ مَكْنُونِهَا الْأَنْبَاءُ
وَنَحْنُ ، لَنْ أَعْجَبْنَا بِتَطْوِيعِ الشَّاعِرِ لُغَتَهُ لَطَرَقِ هَذِهِ الْمَعَانِي الْمَجْرَدَةِ
الَّتِي تَشْبَهُ إِلَى حَدٍّ بَعِيدِ النَّصُوصِ الصُّوفِيَّةِ ، نَتَسَاءَلُ عَنِ الْجُمْهُورِ الَّذِي يَتَقَبَّلُ
مِثْلَ هَذَا الشَّعْرِ . وَلَا نَخَالُهُ إِلَّا جُمْهُورَ الْأَنْصَارِ الْعَارِفِينَ بِأَسْرَارِ الدَّعْوَةِ ، وَالْأَتْبَاعِ
الْمُطَّلَعِينَ عَلَى عِلْمِ الْبَاطِنِ . أَمَّا الْجُمْهُورُ الْوَاسِعُ الَّذِي يَشْمَلُ الْقَرِيبَ مِنَ
الدَّعْوَةِ وَالْبَعِيدِ ، وَالْعَدُوَّ وَالْمَنَاصِرَ ، وَالْخَصْمَ وَالْمَحَايِدَ ، فَلَعَلَّ الدَّعَايَةَ
الرَّسْمِيَّةَ تَحْذَرُ أَنْ تَخَاطَبَهُ بِهَذِهِ الْأَفْكَارِ وَهَذِهِ الْأَلْفَافِ ، بَلْ تَوْثِّرُ الْخُطَابَ

(1) بُذ . . . 48- 49 . . . St . Guyard : Fragments . . .

الرصين المعتدل الذي يُطمئن النفوس ويُقنع العقول . هذا الدور يوكل عادةً إلى القاضي النعمان ، فنراه مثلاً يجادل في قضية السجود للأئمة فيشرح معناه ويميزه عن السجود لله ، ويُتَوَعَّ الحُجَج : « . . . رأينا أوصياء الأئمة ، وولاءَ عهدهم ، يقبلون الأرض في سلامهم عليهم بين أيديهم . . . فأتباعهم أحقُّ من اقتدى في ذلك بهم . . . والرعاع والأوباش والعوام ينكرون ذلك ، ويرونه سجوداً من دون الله لهم . . . وقد سجد إخوة يوسف وأبواه ليوسف فلم يعِبَ الله ذلك من فعلهم . . . »⁽¹⁾ . ولا يكتفي بهذا القياس على يعقوب وأبنائه ، ولا تكفيه الحجّة المنقولة عن القرآن ، فيضيف في موضع آخر حجّة جديدة⁽²⁾ : أن تقبيل الأرض بين يدي الإمام ليس سجوداً على الحقيقة ، وبهذا الميز تنتفي القضية !

لكن النعمان شبّه في كلامه - ضمناً - الإمام بالنبّي ، ممّا قد يدلّ على أن الدعاية الفاطمية تساوي الأئمة بالرسل . لذلك تتبّع أسم الإمام دائماً عبارة : صلى الله عليه وآله ، وهي تصلية لا تختلف عن تصلية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلّا بحذف عبارة التسليم ، فترد في المخطوطات مختصرة في ثلاثة أحرف عوض أربعة : (صلع) . أما في الوثائق الرسمية فترد تامّة اللفظ ، مثلما نقرأها في مستهلّ رسالة جوهر إلى أهل مصر بعد الفتح : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب ، عبد أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر . . . »⁽³⁾ . وفي أوّل جمعة أقيمت بالفسطاط في جامع عمرو ، دعا الخطيب بالصلاة على المعز ، ويضيف الشاهد أنه قرأ الدعاء « من رُقعة » ، كأنّ جوهرًا هو الذي أنفذ إليه الدعاء مكتوباً : « . . . اللهم صلّ على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة وسليل العترة الهاديّة المهدية ، عبد الله الإمام معدّ أبي تميم المعزّ لدين الله أمير المؤمنين ، كما صلّيت على

(1) ك . الهمة 105 .

(2) ك . المجالس والمسائرات 58 - 60 .

(3) المقرئزي : اتعاظ الحنفاء 148 .

آبائه الطاهرين ، وأسلافه الأئمة الراشدين . . . »⁽¹⁾ .

ولا يفوت شاعرنا طبعاً أن يسجل هو أيضاً صلاة الله والملائكة على
الأئمة : [طويل] .

42/37 تُرَدُّ الى الفردوس منكم أرومةً يُصَلِّي عليكم ربُّها والملائكُ
فضلاً عن صلاة الناس قاطبةً ، وهي فرض دائم ، وينضاف اليه
التسليم : [طويل] .

71/47 فلا برحٌ تترى عليكم من الورى صلاةً مُصلٍ أو سلامٌ مسلمٍ
حتى الكائنات الجوامد تحب الإمام وتشتاق لرؤيته ، إلا أن الشاعر
يتنخب منها الأماكن القدسية كمناسك الحج وأباطح مكة : [كامل] .

43/1 هذا الذي عطف عليه مكة وشعابها، والركن والبطحاء
44 هذا الأغرُّ الأزهرُ المتألقُ المتدفقُ المتبلجُ الوضاء

ولقائل أن يلاحظ أن هذا المعنى - وبهذا اللفظ تقريباً - قد طرقه الفرزدق
في مدح عليّ زين العابدين الإمام الرابع ، في البيت المشهور :

هذا الذي تعرفُ البطحاء وطأته والبيت يعرفه، والحل والحرم⁽²⁾

وطرقه أبو نواس أيضاً في مدح هارون الرشيد :

حتى إذا واجهن أقبال الصفا حن الحطيم وأطت الأركان⁽³⁾

وأنّ الشاعرين - وما أبعدهما عن التشيع ! - لم يُعابا بالبيتين . فنقول :
وبأولى وأخرى ، لا يُعابُ شاعرنا ، وهو شيعي متحزبٌ يُعلن في كلّ مناسبة

(1) المقرئزي : اتعاظ الحنفاء 163 .

(2) البيت مفقود من ديوانه في طبعة الصاوي ، مذكور في ملاحق مقدّمة ك . الشعر والشعراء لابن

قتيبة التي ترجمها ونشرها Gaudefroy - Demombynes (هامش 19 وملحق 1) .

(3) ديوانه - بيروت 1962 ص 642 . والضمير يعود الى رواحل الخليفة .

تعلُّقه بالدعوة الفاطمية ويطمحُ الى دخول قصر الخليفة كما يطمح المؤمن الى الفوز بالجنة ، ويعتبر دخوله في خدمة الإمام وعداً بنيل الفردوس : [كامل] .

هل لي إلى الفردوس من إذنٍ، وقد 15/9

شارفتُ باباً دونها مفتوحاً؟

قدسية الإمام

الفرقُ بين شاعرنا والشعراء الآخرين ، مهما غلوا في المديح ، هو أنه ينسب الى المعز صفاتٍ تفوق طينة البشر ، هي أدق من أن تدركها الأفهامُ وألطف من أن تعيها العقولُ : [كامل] .

84/1 قد جالت الأوهامُ فيك، فدقَّت الأ فكارُ عنك، فجَلَّت الآلاء⁽¹⁾

هي صفات مستمدة من وحي الله وهدايته ، بل هي الصفات التي ينسبها الناس الى المولى سبحانه وتعالى ولا يتحرَّج الشيعة من أن ينسبوها الى غير الله . ذلك أنهم ، مثل المعتزلة ، ينفون أن تكون لله الواحد الأحد المتوحد صفات خارجة عن ذاته . وعلى هذا الاساس وصفتهم فتوى بغداد بأنهم « ملحدون معطلون » . فإن كانوا من المعطلة ، أي من نفاة الصفات ، فلا مانع عندهم من أن ينسبوا الى الأئمة صفة الواحد والقهار ، ولا كفر إذن عندهم في هذا البيت الذي جمع للمعز أربعة من الأسماء الحُسنى : [كامل]

19/9 ندعوه منتقماً، عزيزاً، قادراً غفَّار موبقة الذنوب، صَفُوحاً

وقد احتاط الشاعر بكلمة « ندعوه » : فالمقولة خاصة بالانصار الْمُقْتَنِعِينَ والأتباع العارفين الذين يرون في الإمام دليلاً على وجود الخالق

(1) وفي هذا المعنى يقول علي الرضا (ت 817/202) الإمام الثامن عند الاثني عشرية : « فَمَنْ ذَا يبلِّغ معرفة الإمام ؟ ... هيهات ! هيهات ! ضَلَّتْ العقول ، وتاهت الحلوم . وحارت الألباب ! » انظر : أحمد أمين : ضحى الإسلام 216/3 وقد نقل الفقرة عن الكافي للكليني .

وحكْمَتِهِ : [كامل]

113/40 واللّه مدلولٌ عليه بصنعه فينا ، وأنت على الدليل دليلٌ

والمعزّ نفسه يشاطر هذا الاعتقاد ، حسبما يظهر من هذه المناجاة التي اكتفى ابن هانئ بتحويل مضمونها الى الشعر : « ... إلهي ، أنا اسمك ، وموجودُ اسمك ، وأنا البشيرُ اليك ، والدّالُّ عليك ، والدّالُّ على من دلّ عليك ... »⁽¹⁾ .

فالإمام ، وهو الصنعة المخلوقة والحجّة الدّالة في آنٍ واحدٍ - وعبارة « صنعه فينا » لا تدع شكّا في توحيد ابن هانئ للمولى عزّ وجلّ - صار دليلاً بما أودعه اللّه فيه من علمٍ جمّ وحدثٍ ثاقبٍ يرفع عن بصيرته حُجُبَ المغيّبات : [طويل] .

20/11 وليست ظهاراً يُحجبُ الغيبُ دونها ولكنها قُدسيّةٌ فيك ترسّخُ⁽²⁾

وكشفُ الحجبِ ميزةٌ ميّز بها اللّه الأئمةَ دون سواهم : [طويل] .
59/3 ولله علمٌ ليس يُحجبُ دونكم ولكنّه عن سائر الناس محجوبٌ وهي خاصيّة يرثونها كابراً عن كابرٍ ، فالإمام ينظر الى أحد أبنائه ساعة يولد فيعرف فيه فوراً أمارات الإمامة ، ولا يعرف فيه ذلك عن فُرَاسَةٍ فقط أو بالظنّ والحدس ، وإنّما يعلّمه بعلمٍ ربّانيّ متنقّل من إمام إلى إمام . وهكذا علّم المنصور أنّ معداً ابنه سيكون ملكاً فريداً وهو لا يزال في المهد صبيّاً : [طويل] .

49/22 رأى أن سيُسمّى مالك الأرض كلّها فلما رآه قال : ذا الصمدُ الوترُ
50 وما ذاك أخذاً بالفراسة وحدها ولا أنّه فيها إلى الظنّ مضطرّ
51 ولكنّ موجوداً من الأثر الذي تلقّاه من جبرٍ ضنينٍ به جبرُ
52 وكنزاً من العلم الربوبيّ ، إنّه هو العلم حقّاً ، لا القيافة والزجرُ

(1) نُبذ ... 170 St. Guyard : Fragments ...

(2) الظهار ظاهر الشيء الذي يلوح للناظر فيحجب عنه الباطن .

علم الإمام

فليس علم الأئمة تنبؤاً ولا فراسةً ولا زجر طير ، إنما هو ملكة فطرهم الله عليها ، تولد معهم ، وبها يعلمون ما سيقع من أحداث في مستقبل الزمان ، وخاصة الأحداث التي تهتم آل البيت . على أن بعض الطوائف من الشيعة أبت إلا أن تجسم هذه الملكة في أثر مادي منقول ، فقالوا بـ « الجفر » ، ذلكم الكتاب الذي رواه بعض رؤوس الزيدية عن جعفر الصادق ونسخه على جلد ثور صغير - والجفر هو ولد الشاة والمعزى والبقرة - « وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص » . ويضيف ابن خلدون أن ذلك العلم « وقع لجعفر ونظائره من رجالاتهم عن طريق الكرامة والكشف الذي يقع لمثلهم من الأولياء . . . وقد صح عن جعفر الصادق أنه كان يحذر بعض قرابته بوقائع تكون لهم ، فتصح كما يقول⁽¹⁾ . والقاضي النعمان ، لئن لم يذكر كتاب الجفر بلفظه ، فإنه ذكر شيئاً شبيهاً به ، وهو « قلم » يتوارثه الأئمة يكتبون به أسرارهم ، وبيانه وشرحه تحته⁽²⁾ ، ولم يوضحه القاضي لأنه سر ينبغي أن يبقى مكتوماً ، إلا عن الأئمة . وصيانة العلم عن غير مستحقه ضرورة يتفق عليها النعمان وشاعرنا ، فيقول النعمان نقلاً عن المعز : « إنا لو كشفنا كل شيء لكم ، وأوضحناه لسائركم ، لبطل التفضيل بينكم ، ولنال الفضل مستحقه وغير مستحقه . . ولكن أحدكم لا يرضيه إلا أن يأتي على كل ما عندنا ويحويه ، ولم يجعل الله (عز وجل) ذلك له ولا لغيره دوننا⁽³⁾ . ويقول ابن هانيء : [طويل]

إذا كانت الأبواب يقصر شأؤها
فظلم لسر الله إن لم يُكتم

177/47

(1) المقدمة 273 . وانظر فصل « الجفر » في دائرة المعارف الإسلامية .

(2) المجالس والمسائرات 130 .

(3) المجالس والمسائرات 104 و 511 .

هذا العلم لا ينتقل من إمام إلى إمام بالدرس والتحصيل ، بل هو سجية طبيعية وسليقة فطرية : فالمعز مثلاً « لم نعلم له في الطفولة مؤدباً عالماً فنقول : أفاد عنه ، ولا بعد ذلك من جليس ولا مصاحب كذلك يُحسِّن شيئاً فنقول : أفاد منه ، ولا كانت له رحلة ولا طلب »⁽¹⁾ . وهو عند الشاعر عالم عليم بنفح من الله لا يتلقن درس : [طويل]

30/47 غَدُوا ناكسي أبصارهم عن خليفة عليم بسر الله غير معلّم
31 وَرُوح هُدَى في جسم نور يمدّه شعاع من الأعلى الذي لم يُجسّم

ولكن هذا القبس الذي يستمدّه الأئمة من الله قد يحمل « العامة » ، أي أهل السنة ، على اتهامهم بادعاء علم الغيب . ويبدو أن هذا الاستنتاج لم يكن فاشياً عند الخصوم فحسب ، بل عند بعض الموالين للدعوة أيضاً ، فاضطر القاضي النعمان ، وهو الفقيه الرسمي الذي عليه أن يجادل ويُقنع ويشرح ويدفع ، ويجابه الخصوم ، ولا سيما مالكية القيروان أتباع مدرسة سحنون⁽²⁾ ، إلى تنزيه الأئمة عن أدعاء معرفة الغيب ، فيقول نقلاً عن المعز : « نحن عباد من عباد الله مخلوقون مربوبون ، لا علم لنا إلا ما علمنا وصار إلينا عن نبيّه جدّنا محمد (ص) ، ممّا أودعه الله إياه وأورثناه ممّن بعده وأودعناه ، لا نحيط من علمه إلا بما شاء »⁽³⁾ .

ويقول في كتاب آخر ، من كلامه هو : « ... إنا لا نقول ما قاله الغلاة الضالّون المبطلون الصادّون عن أولياء الله ، الدافعون إمامتهم ، الزاعمون أنهم يعلمون غيب الله ، وما تُخفي صدور عباده »⁽⁴⁾ .

هذا ما يقوله الفقيه المجادل . أمّا شاعرنا ، فلا حاجة له بمدارة فقهاء

(1) المجالس والمسائرات 148 .

(2) انظر : برنشويك : الفقه الفاطمي 13 ، R . Brunschwig : Fiqh fatimide .

(3) المجالس والمسائرات 523 .

(4) ك . الهمة 53 .

القيروان ، ولا باستدراجهم الى مذهبه . فلا تحفظَ عنده ولا اعتدال ، لأنه من جهة رجلٍ متشبع بمبادئ الدعوة مقتنع بشرعيتها وصدقها ، ولأنه من جهة أخرى شاعر فنان شيمته التوسع والتضخيم . فمن معرفته بمقولات الدعوة ، الإشارة الضمنية في الآيات التالية الى القاعدة الأصولية عند الإسماعيليين في امتناع وجود إمامين في زمنٍ واحدٍ⁽¹⁾ . فإذا قرّر الله نقل الإمامة ، دعا إليه الإمام السابق ، وحول إلى اللاحق جميع الصفات والآيات ، كالوصاية على الخليقة جمعاء ، والعلم المكنون ، وتأويل ما نزلت به الكتب السماوية : [كامل]

104/41 حتى إذا استرعاك أمر عباده أدنى اليه أباك إسماعيلاً⁽²⁾

107 ... وورثته البرهان والتبيان والفرقان والتوراة والإنجيل

108 وعلمت من مكنون علم الله ما لم يؤت جبريلاً وميكائيلاً

ومن خيال الفنان ، تصوير المقام الرفيع الذي يتمتع به المنصور لدى ربه بعد رفعه إليه : فهو يتفياً ظلال الجنان وقد صار مثل إبراهيم خليلاً لرب السماوات : [كامل]

105/41 من بين حجب النور حيث تبوأ آباؤه ظل الجنان ظليلاً

106 أدى أمانته وزيد من الرضى قرباً ، فجاوره الإلاه خليلاً

ومن الأمرين معاً ، اعتبار الإمام شفيعاً للبشرية وسيطاً بينها وبين ربه :

[كامل]

115/41 لو لم تكن سبب النجاة لأهلها لم يغن إيمان العباد فتيلاً

واعتباره أيضاً سيداً للزمان يتحكم فيه كما يشاء : [كامل]

95/1 لا تسألن عن الزمان ، فإنه في راحتك يدور كيف تشاء

(1) المجالس والمساربات 468 و 514 هامش 1 .

(2) إسماعيل هو المنصور الخليفة الثالث .

شفاعة الإمام تنال السابقين واللاحقين

ولا يبعد الأئمة ولا يبالغون إن هم قالوا أن آدم خُلِقَ بسببهم : « إن الله تعالى ، لما خلق آدم ، نظر فرأى في ساق العرش مكتوباً : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، أيدته بعليٍّ وأورثته به . فقد ذكرنا الله (عز وجل) قبل أن يخلق آدم . . . ولو شئنا أن نقول : إنا كنا مع آدم ، لقلنا»⁽¹⁾ . هذا الرأي ، يترجمه ابن هانئ شعراً فيطبقه على المعز ويجعله علّة الدنيا وشفيع آدم ويونس عند ربّ العرش : [كامل]

23/53 هذا معدّ والخلائق كلّها هذا المعز متوجّاً والدين هذا ضميرُ النشأة الأولى التي بدأ الإلّاه ، وغييها المكنون من أجل هذا قدّر المقدور في أم الكتاب ، وكوّن التكوين وبذا تلقى آدم من ربه عفواً ، وفاءً ليونس اليقطين

وقد يستغرب المرء هذا الصعود التراجعيّ في الزمن حتى تشمل شفاعة المعز آدم والمخلوقات الأولى . والتفسير يكمن في نظرية الإسماعيلية في الخلق . هذه النظرية تقول : ان العالم بأسره ، أي الأرض والسماء ، والأفلاك والبشر ، والزمان والآفاق ، إنما خلقت لتكون في المستقبل إطاراً لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وذريّته . فكما لا نستغرب أن يُصنّع المهدّ ويهيأ قبل أن يولد الصبيّ ، فكذلك ينبغي أن لا نستغرب كون الأئمة علّة لسائر الكائنات التي أوجدها الله قبلهم . وقد بسط زاهد عليّ الشارح الإسماعيليّ لديوان ابن هانئ ، هذه النظرية في شيء من الاقتضاب ، فقال معتزلاً بما تبعث عليه هذه المقولة من التعجب والتساؤل : « لا شك في أن آدم ويونس وموسى كانوا [أي وجدوا] قبل الخليفة المعزّ بزمان طويل ومضت بينه وبينهم

(1) المجالس والمسائرات 210 .

آلاف السنين . فكيف يمكن أن يكون المعزّ وسيلة لهم غُفِرَتْ بها ذنوبهم وانجَلَتْ بها همومهم ؟ » ثم أدلى بالجواب : « إِنَّ مُحَمَّدًا والأئمة من ذرّيته أفضلُ جميع البشر ، وإن نُورهم خُلِقَ قَبْلَ خَلْقِ العالم ، حتى يقالُ إِنَّ اللَّهَ تعالى أخذ من بني آدم ميثاقَ ولاية الأئمة » ⁽¹⁾ . فليس يصعب إذن على واحدٍ من الإسماعيلية أن يقبلَ هذا التأثير العكسي من المعزّ في آدم : [متقارب]

67/58 لآدم من سرّكم موضع به استوجب العفو لما عصي

ولا يصعب عليه ، بأولى وأحرى ، أن يفهم كيف تشهد التوراة والإنجيل ، فضلاً عن القرآن ، بعلم المعزّ وكراماته . وإذا ما اقتنع بهذه النظرية وعرف أن الإمام موجود بالقوّة ، سابقٌ بوجوده هذا وجودَ الخلائق ، وإن كان وجودها وجوداً بالفعل ، أمكنه بالمثل أن يتصوّر امكانَ بقاء الإمام بعد فناء الخلائق ، أي أن يرث الأرض : [طويل]

58/3 وأنت معدّ وارث الأرض كلّها فقد حُمّ مقدورٌ وقد خطّ مكتوب

وأن يقتنع بامتلاكه حقّ الشفاعة للخلق كلّهم : [كامل]

83/53 فارزق عبادك منك فضل شفاعة واقرب بهم زلّفى فأنت مكين

وبقدرته على تفجير الماء من الصخر وإحياء الموتى مثل موسى وعيسى . غير أن الشاعر يحتاط هنا فيفترض إمكانية هذه المعجزات بحرف الشرط «لو» : [كامل]

52/24 لو تلمسون الصخر لا تَبْجَسَ بِهِ وتفجرت وتدفقت أنهار
أو كان منكم للرفات مخاطب لبوا وظنوا أنه إنشار

(1) تبين المعاني - المقدّمة 57 .

معرفة الإمام واجبة

هذه الصفات في الإمام تستوجب من الأتباع ، بَلْ من كافة الناس ، أن يعرفوا إمام زمانهم ويطيعوه . ويطيب للشريعة في هذا المضمار أن يستظهروا بالحديث المنسوب الى الرسول صلى الله عليه وسلم : « من مات ولم يعرف إمامَ زمانه مات ميتةً جاهلية »⁽¹⁾ . ومعرفة الإمام لا تعني فقط رؤيته بالبصر أو معرفة شخصه وتعيينه باسمه ، بل هي أيضاً معرفة كنهه وإدراك صفاته العالية ، ولا يتسنى هذا إلا لمن عرفه بالبصيرة لا بالبصر فقط وآمن به ووالاه « والنفوس لا تنجو من جاهليتها إلا بمعرفة الإمام وولايته »⁽²⁾ . ويلج القاضي النعمان على واجب الطاعة : « . . . وإن كانت درجة النبوة فوق درجة الإمامة ، وفضل الأنبياء أعظم من فضل الأئمة ، فإن الطاعة واحدة موصولة قد قرنّها الله تعالى بطاعته » . يقول : موصولة ، أي متصلة متواصلة من الإمام الى الرسول الى الله . وفي المقابل ، فمن لم يطع الإمام فكأنه لم يطع الرسول وبالتالي عصى الله ، فأيمانه باطل والجنة في وجهه موصدة : « . . . فلم يقبل الله من مطيع طاعته إلا بطاعة من افترض عليه طاعته من أوليائه ، ولم يُدخل في جملة المؤمنين به إلا من سلم لمن أمر بالتسليم اليه من أصفياؤه »⁽³⁾ . ويقول هنا : التسليم ، أي الإيمان التام دون نقاش ظاهر ولا تساؤل باطن . هذا الرضوخ التام لمشيئة الإمام هو الضامن للنجاة ، حسب ما يقرره جعفر الصادق في هذا العهد : « أما والله فإنكم بتوليكم إيانا ، كلكم من أهل الجنة ، وأنا لضامنون لكم ذلك عن الله »⁽⁴⁾ . وكذا يقول الشاعر : [كامل]

(1) ذكره زاهد عليّ ولم يحل الى كتب الحديث . وأطبب الأميني : الغدير 360/10 في الاستشهاد له .

(2) زاهد عليّ : تبين . . المقدمة 56 . وانظر : الحبيب الفقي : Les idées philosophiques de l'Ismaélisme, Tunis 1981, 216.

(3) ك . الهمّة ، 39 .

(4) القاضي النعمان : ك . المجالس والمساربات 402 .

5/24 هذا الذي تُرجى النجاة بحبه وبه يُحطُّ الإصرُّ والأوزارُ
6 هذا الذي تجدي شفاعته غداً حقاً ، وتخمد أن تراه النارُ

فلا دينَ لمن لا يحبَّ الإمام ، ومن أبغضه فماله الخسران المبين :

[طويل]

45/22 إمامٌ رأيتُ الدينَ مرتبطاً به فطاعته فوزٌ ، وعصيانه خسر

لأن طاعة الإمام هي طاعة الله ، فليس التشابه بين مدح الإمام وحمد
الله مجرد تقارب لفظي : [طويل]

46/22 أرى مدحه كالحمد لله ، إنه قنوتٌ وتسبيحٌ يحط به الوزرُ

وهذه الطاعة كما قلنا ينبغي أن تكون ظاهرة وباطنة : « ينبغي لكافة
الناس تعظيمهم وإجلالهم في أعيانهم وصدورهم ، والتذلل والتواضع
لهم . . . واعتقاد ذلك التعظيم والإجلال والهيبة »⁽¹⁾ . . . لذلك صور لنا
الشاعر جنود المعز ، أولئك الأبطال المغاوير ، وهم يمرّون أمامه خاشعي
الرؤوس ناكسي الأبصار لا يجسرون على النظر اليه وقد ملئت له قلوبهم
بالمحبة الخاشعة الصامته .

اشترك هذه المعاني عند ابن هانيء وتميم بن المعز

لئن اشتركت هذه المعاني المذهبية بين قاضي الدولة الفاطمية وشاعر
المعز ، أي بين الفقيه المنظر المجادل والشاعر الفنان المناصر ، كما رأينا في
بحر هذا الفصل ، فإنها تشترك أيضاً بين ابن هانيء وشاعر فاطمي أصلاً ، أي
من الأسرة نفسها ، وهو تميم ابن الخليفة المعز . فهذه أبياتٌ مدح بها أخاه ،
الخليفة العزيز بالله في مصر ، تشبه الى حد بعيد معاني شاعرنا ولغته . فاللغة

(1) القاضي النعمان : ك . الهمة 45 .

صوفيّة : هناك المجاجة ، والظلّ والينبوع ، وهنا الروح القدسيّ ، والنور اللطيف ، والجوهر النير . أمّا المعاني ، فربّما زادت في التقديس على ما يقوله صاحبنا . وهو أمرٌ على جانب من الغرابة لأنّ تميماً كان وليّ عهد المعزّ ومبوّباً للإمامة فعزل لفائدة أخويه عبد الله ثمّ العزيز ، ورغم ذلك يقول فيمنّ عَوْضُهُ : [بسيط]

روح من القدس في جسم من البشر	ما أنت دون ملوك العالمين سوى
تناهياً جازَ حدّ الشمس والقمر	نور لطيف تناهى منك جوهره
خلق الهيولي ، وبسط الأرض والمدر	معنى من العلة الأولى التي سبقت
وانت لله فيهم خير مؤتمر	فأنت بالله دون الخلق متصل
وأنت خيرته العراء من مضر	وأنت آيته من نسل مرسله
مثنوى ، وكنت ملك الأنجم الزهر	لو شئت لم ترض بالدنيا وساكنها
بأنها عنك في عجز وفي حصر ⁽¹⁾	ولو تفاظنت الألباب فيك درت

وشاعرنا ، حتّى وإن همّ بتجاوز الحدود المعقولة ، فهو يخفف الإمكانية بحرف افتراض ، وكأنّه يشعر بأنّ الغلوّ منه قد يؤخذ مأخذ المروق والكفر :
[طويل]

174/47 ولو أنّني أجري إلى حيث لا مدى من القول، لم أخرج ولم أتأثم

وفعلاً ، فهو لا يتحرّج من أن يعتبر أنّ حياته الماضية ، أي قبل أن يتصل بالمعزّ ، كانت حياة خاسرة وأنّ إيمانه كان ناقصاً ، بل باطلاً . فانتقاله الى المعزّ فتح بصيرته وأنقذه من الضلال : [بسيط]

20/12 رأيْتُ موضعَ برهانٍ يبينُ، وما	رأيْتُ موضعَ تكييفٍ وتحديدٍ
21 وكان مُنقَذَ نفسي من عَمَائِهَا	فقلْتُ فيه بعلمٍ لا بتقليدٍ
24 ما أجزَلَ الله دُخْرِي قبل رُؤْيِيهِ	ولا انتفعتُ بإيمانٍ وتوحيدٍ

(1) ديوانه 164 .

الإمام واجب الوجود

بقيت نتيجة حتمية لكل هذه الصفات التي ترفع الإمام عن صف البشر ، وتجعله شافعاً للسابقين واللاحقين ووسيطاً ضرورياً بين العباد وخالقهم : وهي أن الإمام واجب الوجود ، مثل العلة الأولى . والشاعر لا يُغفل هذه المصادرة ، بل يرددها ويحتج لها ببراهين مختلفة . فتارة يترجم الآية الكريمة : ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾⁽¹⁾ بما يؤكد أنه لا بد للأمة الإسلامية ، بل للبشرية قاطبة ، من إمام ينير السبيل وينهى عن الضلال ، ويعظ ويزجر : [بسيط]

54/44 وليس يُنكَرُ من هَادٍ لَأُمَّتِهِ غَوْلُ المَوَاحِدِ لِلْبُقْيَا عَلَى الْجَمَلِ

والمعز نفسه يحتج بهذه الآية لإثبات وجوب الإمام ولتبرير سلطانه على الأرواح والأبدان ، إلا أنه يلج على وظيفة الهداية : « إِنَّا ندعوهم الى الله وان صَدُّوا عن السبيل ، ونَقُومُهُمْ وَإِنْ آثَرُوا المِيل . . . فنحن والله هُذَاتُهُمْ ، في كُلِّ عَصْرِ مَنَا هَادٍ لِمَنْ كَانَ فِي عَصْرِهِ مِنْهُمْ ، والله نحنُ أعلام الحق ، ونحن هُذَا الخلق »⁽²⁾ .

وتارة يرمز الى وظيفة التنسيق بين أجناس البشر باحتياجهم إلى مترجم يشرح كلام هؤلاء لهؤلاء ، ما دامت المشيئة الإلهية تقضي بأن تختلف لغات الناس وتباين ألسنتهم : [طويل]

178/47 إذا كان تفريقُ اللغاتِ لعلَّةٍ فلا بُدَّ فيها من وسيطٍ مترجمٍ

ويحتج أحياناً بآية كونية : فكما أن الجبال الرواسي يثقلها تمسك الأرض وتمنع التففت والتشتت ، فكذلك الإمام جامع للبشرية ضامن

(1) الرعد ، 7 .

(2) ك . المجالس والمساربات 118 .

لتوحيدها : [طويل]

179/47 وآية هذا أن دحا الله أرضه ولكنّها لم ترس من غير معلّم

عصمة الإمام

هذا الإمام الواجب الوجود هو أيضاً مُطلق النفوذ ، له حقّ القتل ، قتل الأفراد لصيانة الجماعة ، وقد ذكرنا البيت الذي بسط فيه هذه الفكرة ، وهي فكرة لا تختصّ بالعقلية الشيعية ، إذ يُنسب إلى عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنّه قد يُقدّم على قتل الثلث لإصلاح الثلثين إذا دعت الحاجة إلى مثل هذه الصرامة . ألا أنّ عمرَ وهو صاحب أوّل رسالة في القضاء العادل ، ما كان ليقتل قبل المحاكمة والاستتابة وضمان حقوق المتهم وربّما كان يصفح ويعفو . أما الشيعة الإسماعيلية فعندهم أن الانتقاض على الإمام وإنكار أحكامه إثمٌ كَبَارٌ لأنّ الإمام لا ينطق عن الهوى وأحكامه لا يعترىها نقصٌ من ظلم أو حقد أو تسرع . والمعزّ نفسه يؤكّد للنعمان بأنّه « ممنوع من الظلم والتعدي »⁽¹⁾ . هذا التنزيه عن الظلم هو العصمة التي تنسبها طوائف الشيعة الى الأئمة الممنوعين من كلّ نقيصة لأنهم يتمتّعون بهداية مسترسلة من الله . فأحكامهم السياسية مثلاً ، من إبرام هدنة مع الإمبراطور البيزنطيّ ، أو رفض الإصغاء الى مبعوث المنافس الأمويّ ، أو العفو على نائر زناتيّ ، هي في نظر الأتباع قرارات رشيدة حكيمة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها . بنحو هذا المعنى يؤيّد شاعرنا عزلَ تميم عن ولاية العهد وتعويضه بأخيه عبد الله : [بسيط]

68/43 ولاختيارك فضلُ الوحي ، إنك لا تأتي المكارم إلا من عليّ فعل
مستهدياً بدليل الله تتبّعهُ وقادحاً لزناد الحكمة الأول

(1) المجالس والمساربات 433 .

الإمام يُعَيِّنُ بالنَّصِّ

نفوذ الإمام إذن نفوذ مُطلَقٌ ، لا في الرعايا فحسب ، بل حتّى في الأسرة المالكة . فله أن يولي وأن يعزل ، دون اتّباع قاعدة الأسبقية في الولادة . والتعيين يقع بالنّصّ ، أي بتصريح سرّي أو علنيّ ، منطوق أو مكتوب . وفكرة النّصّ قديمة ترجع الى اعتقادهم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث الغدير قد نصّ على خلافة عليّ من بعده . فكذلك ينصّ إمام الزمان على خليفته دون انتخاب ولا مشورة ، حتّى الاستشارة الضيقة المحصورة في أفراد الأسرة الحاكمة لا وجود لها⁽¹⁾ .

والحكم الفاطميّ مستمدّ ، كما رأينا في أوّل هذا الفصل ، من شرعية دينية تاريخية ، هي شرعية آل بيت الرسول مؤسس الدولة الإسلامية . والانتماء إلى الرسول يمرّ ضرورة بفاطمة وحدها . فالفاطميّون مخصوصون دون سواهم بالنسب الشريف ، كما يؤكّد المعزّ للنعمان : « وسيلتّنّا الى الله جدّنا محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الخلق عند الله . فمن ذا يتوسّل بمثله ؟ أم من ذا يحلّ محلّنا منه ؟ إنّ الله أحلّنا منه محلّاً لم يُشرك معنا فيه غيرنا . . . فنحن صفوته من خلقه ، وأماؤه على عبادِهِ ، وأئمّتهم ، وأولو الأمر فيهم »⁽²⁾ . والمعزّ هنا يقصد أبناء عمومته العبّاسيين . أمّا شاعرنا ، فيتجاوز الهاشميين الى قریش كلّها حتّى يطرح من الحساب ، لا عبد شمس فحسب ، بل تيمّاً وعدياً رهط أبي بكر وعمر : [متقارب]

61/58 فما لقریشٍ وميراثکُم وقد فرغَ الله ممّا قضی ؟

(1) يظهر أن بعض هذه التعيينات قد أحدثت اضطراباً في العائلة الفاطمية وانقساماً . انظر سيرة

الاستاذ جوذر 215 .

(2) المجالس والمسايرات 402 .

يتصل بهذه المعاني العقائدية المذهبية قسم كبير من شعر صاحبنا يتعلّق
بجهاد المعزّ في سبيل الدين ، مواصلةً لجهاد محمد صلى الله عليه وسلم ضدّ
الكفار . وجهاد المعزّ لا يتّجه إلى النصارى الروم فحسب ، بل إلى المنافسين
والمتمرّدين من أهل الإسلام : فخلقاء بغداد ، وخلقاء قرطبة ، والمارقون
الخوارج في المغرب ، كلّهم كفّار في نظر الدعوة وفي شعر الشاعر ، وقاتلهم
مشروع بل واجب . وسنعرض لهذا الشعر الحربيّ بالتفصيل في الفصل
الموالي .

الفصل السابع

معاني الشاعر وأغراضه

المعاني السياسية

يتمثل الجانب الثاني من تشييع ابن هانئ للدولة الفاطمية ، في تحامله العنيف ضد أعداء الفاطميين في الداخل والخارج . وهم ثلاثة أصناف : صنفان ينتميان الى الإسلام ولكنّ مناوأتهم للأسرة الشيعية تجعلهم في صفّ الكفّار : هؤلاء هم العبّاسيون ببغداد والأمويّون بالأندلس . وينضمّ الى الأمويّين أعداء الداخل ، وهم زعماء القبائل الزناتية الذين لم ينجح الحكم الشيعي في استدراجهم اليه ولا في القضاء النهائي على ثوراتهم المتكرّرة المتجدّدة . وهذه القبائل البربرية تدين بالمذهب الخارجي ، وهي مع ذلك تحظى من حكّام الأندلس بالدعم الماديّ والسند المعنويّ ، ممّا جعلها في الواقع حليفة لهم . لذلك نعرض لتحامل الشاعر على الثوار الداخلين أثناء درسنا لاحتجاجاته ضد الأمويّين .

والصنف الثالث من الأعداء تمثله الامبراطورية البيزنطية التي كسبت قوّة جديدة وأحرزت انتصارات في الشام منذ أن اعتلى عرش القسطنطينية الدماسق من الأسرة المقدونية ، فصار خطر الروم على دار الإسلام وشيكاً ملازماً ، لا سيّما وأنهم يسعون الى تخليص جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ، والحوض الغربي من البحر المتوسط ، من النفوذ الفاطمي أي من حكم الإسلام .

فوجب على المعز أن يجاهدهم ، ووجب على الشاعر أن يشيد بهذا الجهاد ، وإن كان في الحقيقة لا يميز بين قتال الروم وقتال الأمويين والعباسيين والبربر المتمردين: فكأنهم في نظره كفار وقتالهم جهاد .

ويتفاوت حق الشاعر على هؤلاء الخصوم في الكثرة والعنف . ففي المرتبة الأولى من الكثرة يأتي خلفاء بغداد ، وقد تعرض لهم الشاعر في أربع عشرة قصيدة من القصائد الأربع والعشرين التي مدح بها المعز . ويأتي الأمويون في المرتبة الأولى من عنف اللهجة في عشر قصائد ، ثم البيزنطيون في سبع . إلا أن التحامل على هؤلاء وهؤلاء يتداخل في القصيدة الواحدة دون ميز أو ترتيب ، فلا يصح أن نضم القصائد الى بعضها بعضاً فنقول : هذه ضد العباسيين فقط ، وهذه ضد الأمويين فقط . وإنما نصنفها بصفة تقريبية معتمدين على نسبة التداول .

التحامل على الأمويين

بمجرد أن حلّ بالمغرب ، أعلن الشاعر ، في مدحة جوهر الحائية ، وهي أول شعره المغربي ، انتماءه الى الدعوة الفاطمية وتسخير طاقته لإعلاء كلمتها ، فحفلت القصيدة بالشعارات الإسماعيلية كما رأينا في الفصل الماضي . ولكنها حفلت أيضاً بالمواقف السياسية : فقد تهجم فيها على زعماء المتمردين على الحكم الشيعي ، وخاصة ابن واسول وآل موسى بن أبي العافية ، وقد وقعوا في أسر جوهر ، هاجمهم وتشقى منهم وأشاد بحلم جوهر نحوهم . ولكن هذه الإشارة إلى صفح القائد لا تخلو من غموض : نفهم تخميناً أنه سرح آل ابن أبي العافية حين تضرعوا اليه بعد أن سد عليهم المنافذ . ويستعمل الشاعر كلمة « سيف » التي قد تُقرأ بمعنيين ونطقين : السيف بالفتح ويكون معنى الرحلة التي قصدوها هي الانقطاع عن الشغب والابتعاد عن سلاح جوهر . والسيف بالكسر ، أي ساحل البحر ، فيكون المعنى : قصدوا مبارحة المغرب ، ولكن الى أين ؟ إلى الأندلس ؟ وفي هذه

الصورة ، كيف يسمح جوهر لأعداء مولاه أن يلتحقوا بعده ؟ : [طويل]

56/10 وفي آل موسى قد شئت وقائعا أهبته لهم تلك الزعازع لققا⁽¹⁾

59 . . صفحت عن الجانين منا ورافة وكنت حريّا أن تئن وتصفحنا

60 وقد أزمعوا عن ذلك السيف رحلة فملكك أولاهم عنا مئسرحا

ونفهم أيضاً أنه أبقى على ابن واسول بطلب من شخص يدعوه «ابن أبي سفيان» ، وافترضنا أنه قد يعني عبد الرحمان الناصر . ولكن هنا أيضاً نتساءل : كيف يقبل جوهر شفاعة خصم المعز اللدود في الأسير ؟ ثم أن افترضنا مردود بكون الناصر ، لا سفيانياً ، بل مروانياً :

54/10 رأى ابن أبي سفيان فيها رشاده وعفى على أثر الفساد وأصلحا

55 دعاك الى تأمينه فقبلته ولو لم تداركه بعارفة طحا⁽²⁾

فإن صح تأويلنا لهذه الأبيات ، تبين لنا أن الشاعر قد فهم سريعاً حقيقة الصراع بين الدولتين : فهو صراع بوسائط متناحرة ، الزناتيون من جانب المروانيين ، وصنهاجة وكتامة في حزب الفاطميين . وقد أشرنا الى موقف جعفر بن حمدون أمير المسيلة وما فيه من ريبة بسبب كراهيته لبني زيري وغيرته من طموحهم وخوفه على منصبه في الدولة ، فكان يداري منافسيهم من زناته وربما شجعهم في الخفاء .

وتعنف لهجة الشاعر ضد حكام قرطبة في مدائحه للمعز ، خصوصاً في الفترة الأولى ، اذ لا تزال مشاغل الخليفة منصرفة الى شؤون المغرب ولم تتجه عزمته بعد نحو المشرق . ففي القصيدة التاسعة التي افترضنا أنه أرسلها إليه

(1) أهبته : دعوت وحشت . الزعازع : الزلازل والمصائب . واللقح من الإبل : الكثيرة الولادة . والمعنى : أرسلت عليهم المصائب حصبا متواليات .

(2) الضمير في «فيها» يعود على الوقائع التي غلبت هذا الشخص المجهول فأعادته الى رشده . والعارفة هي المنة والمعروف والطحو الهلاك . وتداركه مضارع مجزوم محذوف إحدى التاءين . والآخر بضمّتين : أثر الجرح .

من المسيلة ، يشير الى مصيبة عظيمة نزلت ببني أمية فلبسوا لها أثواب العار والفضيحة : [كامل]

- 40/9 وأُمِّيَّةٌ تُخْفِي السُّؤَالَ ، وما لمن أودى به الطوفانُ يذكر نوحًا ؟
42 ... تتجاوبُ الدنيا عليهم مأثماً فكأنما صَبَحَتْهُمْ تصبيحاً
43 لبسوا معاييهم ورزءَ فقيدهم كاللابساتِ على الحداد مسوحاً

ولكنه يشير أيضاً الى دُعر بني أمية من المعز حتى صاروا يرون خياله في كل مكان :

- 41 بُهِتُوا فهم يتوهمونك بارزاً والتاج مؤثلقاً عليك لموحاً
فلا ندري ما المقصود بالفقيد : مجموع الأعوان والعساكر الذين خسروهم في محاربة المعز ؟⁽¹⁾ أم فرداً عزيزاً كالخليفة الناصر مثلاً ، وقد مات سنة 350 ، وشاعرنا لا يزال في بلاط بني حمدون ؟ ويحملنا على هذا التخريج الثاني تحريضه المعز على انتهاز الفرصة للقضاء عليهم قضاء مبرماً بجنود معززين بالملائكة :

- 44/9 أنفذ قضاء الله في أعدائه لتراح من أوتارها وتريحاً
45 بالسابقين الأولين يؤثمهم جبريل يعتنق الكماة مُشيحاً
وذكر جبريل لا يأتي هنا اعتباطاً : فالشاعر يمثل قتال المعز للأمويين بقتال الرسول صلى الله عليه وسلم للمشركين يوم بدر . ذلك أن حكّام قرطبة لا فرق بينهم وبين أجدادهم الذين قاوموا محمداً ، بل لا فرق بينهم وبين أجدادهم الذين غمّسوا أيديهم الأثمة في مجزرة كربلاء . وإن هذا الخلط التاريخي بين وقعتين تفصل بينهما قرابة ستين عاماً ، لغلط مقصود : يريد الشاعر به أن يقنع الإمام بأن الظرف مؤاتٍ وأن ساعة الثار لشهداء الطف قد دقت :

(1) قد تفيد صيغة « فعيل » الجمع : « وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ » (التحريم 4) .

حقد الأمويين على آل البيت حقد قديم

وكما يتصرّف في التواريخ يتصرّف أيضاً في حقيقة الوقائع : فقد قصر أنصار الرسول على الهاشميين فقط ، سواء في تذكيره بيدر أو في تخيله مشهد كربلاء . وهذا الحصر أيضاً مقصود : فيه يتمكّن من طرح بقية قريش من الحسبان ، وخصوصاً بني عبد شمس رهط الأمويين ، ويؤكد بذلك اختصاص آل البيت وحدهم بالشرعية الخلافة . كما يتمكّن من ضمّ الأمويين الحاليين الى أجدادهم ، في شركهم ومقاومتهم للدعوة المحمدية الحنيفة . فكما حسدت العبشمية بني هاشم على حلول النبوة فيهم وتمتتها في أسرهم حتى يحافظوا على امتيازاتهم الاجتماعية والسياسية في قريش⁽¹⁾ فإنّ عبشمية اليوم تحسد الفاطميين على تأسيسهم دولة من آل البيت بافريقية . وهكذا لم يتغيّر شيء في سلوك هؤلاء وأولائك : الكفر والحسد والنفاق من جهة ، والشرعية الواضحة والإخلاص للدين والطهارة والتقوى في الجهة الأخرى . ولكنّ الشاعر ، بوضعه الخصومة الحالية على صعيد الأضغان القديمة ، لا ينتبه الى أنّ التهمة نفسها قد توجّه الى أصحابه : فهم أيضاً يحقدون على المروانيين لا بسبب الصراع الحالي فقط ، بل بموجب الأضغان المتراكمة منذ بدر . وإنّ تذكيره بمصرع الحسين وبمقاتل الطالبين عامّة ، وإلحاحه على آثام الأمويين المتواصلة يجرّ الى أصحابه أيضاً تهمة التأثير بالأحقاد الماضية والمنافسات الجاهلية . ولكن لا عليه : فلئن كان العبشمية من قريش مثل الهاشميين ، فشتان بين الرهطين : هؤلاء مسك صافٍ طاهر ، وأولائك عود فقد أريجه وعطر تبخرت ريحه فصار مادة متعفنة : [طويل]

(1) انظر كلمة العباس عم الرسول لأبي سفيان وهما ينظران الى جموع المهاجرين والأنصار يوم فتح مكة : إنها النبوة ! [فصل « جفر » في دائرة المعارف الإسلامية] .

46/11 لعمرى لئن كانت قريشاً بزعمها فإننا وجدنا طينة المسك تسنخ⁽¹⁾

ويعود في هذه القصيدة الحادية عشرة ، وهي معاصرة للتاسعة في رأينا ، الى الرزء الجسيم الذي أصاب بني مروان ، فيصف وقعه الشديد عليهم ، يستخدم الصورة الجاهلية التي تمثل روح الشخص القتل هدرأ بطائر شؤم يعكف على قبره مؤلولاً حتى يؤخذ بثأره . هذا الطائر الصدي ، أو هذه الهامة كما يسمونها، تصرخ اليوم وتستسقي على قبر مرواني ، لعله قبر الناصر كما أسلفنا :

33/11 لقد سارت الركبان بالنبل الذي يشيب له طفل وينصأت أجلخ

34 وضجت له الأصنام ، إن ضجيجها صدى من بني مروان حران يصرخ⁽²⁾

فكان هذا الملك مات كمدأ بعد الهزائم التي ألحقها به المعز ، وكأن قومه يطلبون الثأر ، ولكن مهلاً ، فإن أجلمهم سيحل عن قريب لأن تحرك المعز نحوهم مشروط بوحى منزل إليه :

16/11 فمهلاً عده ! ما على الله معتب وليس لما يأتي به الوحي منسخ

وها إن أسطوله على أهبة العبور اليهم :

23/11 وقد وفد الأسطول والبحر ، طالبي ندى ، مزمعي هيجاء ، هذا لذا أخ

وصمتان في تاريخ بني مروان

هنا نتوقف قليلاً عند لقب « المروانيين » الذي يطيب للشاعر أن يطلقه على الأسرة الأندلسية . فهو لقب تشويه عنده لأنه يشير به الى وصمتين في

(1) سنخ (باب فتح) الماء والطيب وغيره : فسد وأنتن .

(2) الأجلخ : الضعيف الفاني من الشيوخ . والصدى هو الهامة أي روح القتل وحران : عطشان .

وانظر في خصوص إيمان الجاهليين بالهامة والصدى رسالة زميلنا محمد عبد السلام : ص 78

Le thème de la mort, واللسان [صدي] .

حياة هذه الأسرة : الأولى هي عداوة جدّهم الحكم بن العاص للرسول وتهكمه به في جاهليّته وحتى بعد إسلامه حتى إنّ النبيّ والشيخين من بعد قد نفّوه الى الطائف ومنعوه من البقاء بالمدينة أو بمكة ، فكان بذلك « لعين » رسول الله ، أي طريذه ، وسَمِيَتْ سلالته ابتداء من مروان بن الحكم بـ « آل الطريد » . ولم يرجع الحَكَم الى مكة والمدينة إلّا في خلافة عثمان ، فكان إرجاعه منبع التهمة اليه في الميل مع قرابته .

أمّا الوصمة الثانية فتتمثّل في استيلاء الفرع المروانيّ من أسرة عبد شمس على الخلافة بعد معاوية وذريّته : فقد سلب مروان بن الحكم الخلافة من عقب معاوية ، فصارت خلافتهم مسلوبةً مرّتين : من آل البيت أوّلاً بعد التحكيم ، ومن الفرع السفينانيّ ثانياً بعد وفاة معاوية الثاني⁽¹⁾ .

ويضيف اليهم نقائص أخرى ، منها الجبنُ وسوء تدبير الملك ، وخرقُ السياسة : يُلقون بجنودهم الى التهلكة إذ يقابلون بها جيش المعزّ الظافر ، وينقلبون بعد الهزيمة خاسئين . ويتساءل الشاعر في تهكم مُلَحٍّ عَمَّن يدبّر دولّتهم : الحَكَامُ أم الحظايا والسراريّ ؟ [طويل]

21/28 كَتَابْتُ شَتَى النَصْرِ رُعْنَ أُمِيَّةً فَأَوْجُهَا لِلْخِزْيِ أَثْفِيَّةً سَفْعُ⁽²⁾
23 ... أَلَا لَيْتَ شَعْرِي عَنْهُمْ ، أَمْلُوكُهُمْ تَدَبَّرُ أَمْرًا ، أَمْ إِمَاؤُهُمُ اللَّكْعُ ؟

ولا يتورّع عن الهجاء البذيء : إن تتوالّ عليهم الهزائم فلقلّة تمرّسهم بالحرب ، ولئن تلوّث ثيابهم بالدم ، فليس من دم الحرب ، لا من طعن ولا من ضرب ، وإنما هي دماء المحيض عند هؤلاء الذكران الجبناء [طويل] :

52/37 ولم تَدَمْ فِي حَرْبٍ دُرُوعُ أُمِيَّةٍ وَلَكِنْهُمْ فِيهَا الْإِمَاءُ الْعَوَارِكُ⁽³⁾

(1) انظر رسالة الدشراوي : 225 . Le califat fatimide .

(2) الأسفع والسفعاء : الأسود المحروق .

(3) الدروع هنا قد تعني القمصان والغلائل زيادة في التشبيه لهم بالنساء . وَعَرَّكَتِ الْمَرْأَةُ (باب نصر) : حاضت .

وهي سخرية مفرطة لا تتناسب مع الواقع التاريخي : فالقوة الأموية لم تكن على هذا الجانب من الوهن ، بدليل أن جوهرًا لم يقدر على افتكاك سبتة وطنجة منهم ، وأن الأسطول الأموي لم يسكت عن حملة المراكب الفاطمية ضد المرية سنة 956/345 فقد نزل بشواطئ إفريقية وخرب وأحرق وسبي .

ثم إن المعز لم يفكر حقيقة في اقتحام الأندلس . فلذلك لا يسعنا إلا اتّهام الغلو الشعري عند صاحبنا حين نسمعه يتندّر بجهل الأمويين بفنون الحرب ويسخر من جنهم :

وما عرفت كَرَّ الجيادِ أَمِيَّةٌ ولا حملت بَرَّ القنا وهو شابك 50/37
ولا جردوا نصلاً تُخاف شَبَاتُهُ ولكن فولاذاً غداً وهو أنك⁽¹⁾ 51

أو يعرض بسوء احتياطهم في منع ذخيرتهم الحربية أن تسقط في أيدي الفاطميين : [طويل] .

تجافوا عن الحصن المشيد بناؤه وضاق بهم عن عزم أجنادهم وسع 24/28
وقد نفذت فيه ذخائر ملوكهم ومبا لم يكن ضراً فأكثره نفع 25

هذه السخرية الثقيلة لا تغنيا في شيء لأنها تغطي التدقيقات التاريخية والمكانية الواجبة دون أن تعوّضها : فما هذا الحصن الذي تركه الأمويون للفاطميين ؟ ومتى كان جلاء المروانيين عنه ؟ ونفس الغموض يسود إشارته الى « ثغر » مرواني عجزوا عن صونه من الزحف الفاطمي : [طويل]

لقيت بني مروان جانب ثغرهم وحظّهم من ذلك خسّر وتيبب 40/3

فأي ثغر يعني ؟ ثغر بحري ؟ فيكون في البيت اشارة الى نزول جديد من الأسطول الفاطمي على سواحل الأندلس ، أي تكرار لعملية المرية ؟ أم هو فقط حصن من حصون المغرب الأقصى لم يثبت لحصار الفاطميين ؟

(1) الأنك هو الرصاص اللين أو القصدير (اللسان) .

وتتكرّر الإشارة الى الثغر بدون توضيح ، وإلى العدو دون تعيينه ، فلا نَعْرِفُ هل يعني المقاومة المسيحية داخل اسبانيا وقد بدأت حملات « الاسترجاع » ، فيكون اتّهام الشاعر موجّهاً الى تقصير الأمويين في الدّفاع عن بيضة الإسلام في أرضهم ، أي إخلالهم بفرض الجهاد . يدعونا إلى هذا التأويل إشاراتُه بانتصارات الجيش الفاطميّ ضدّ « الهرقل » أي الإمبراطور البيزنطيّ ، في القصيدة نفسها التي ينتقص فيها الأمويين :

42/3 وقد عجزوا في ثغرهم عن عدوّهم بحيث تجول المُقَرَّبَاتُ اليَعَابِيُّ(1)

43 وجيشك يعتاد الهرقل بسيفه ومن دونه اليَمّ الغطامط واللّوب(2)

أو يشير الى محاولة فاشلة من الأمويين دون أن يدقّق نوعها فيكتفي بالتشبيه الساخر : [بسيط]

24/26 خابت أُميّة منه بالذي طلبت كما يخيب برأس الأقرع المُشْطُ

الأضغانُ القديمة : السقيفة ، بدر ، كربلاء

هذه الأبيات الهجائية ، الساخرة تارةً والعنيفة غالباً ، تحملنا على الاعتقاد أن عداوة الفاطميين لحكّام قرطبة - كما تظهر على لسان شاعرهم الرسمي - لم تكن وليدة الوضع السياسي والعسكري في النصف الأوّل من القرن الرابع ، أي أنها لم تكن تتغذّى فقط بالمنافسة السياسيّة على امتلاك المغرب وفرض الحكم الشيعي على سكّانه . صحيح أنّ الخصومة العقائدية دوراً في هذه الحملات العسكرية والكلامية : صحيح أيضاً أنّ الدعوة الإسماعيلية لا تقبل وجودَ إمامة منافسة على برّ العدو الشماليّة ، ولكنّ عنف اللهجة عند الشاعر وإشاراتِه المتواصلة الى آثام بني أُميّة في حقّ الطالبين

(1) المُقَرَّبَات : الخيل المقرّبة من البيت استعداداً للحرب . واليعوب منها القويّ السريع .

(2) الغطامط الكثير الموج ، واللّوب ج لوبّة : الحرّة أي الأرض الغليظة الصعبة .

تضعُ هذه العداوة في مرتبة تاريخية قديمة : فهي عداوة عريقة لها جذور في
حادثة الانتزاع في سقيفة بني ساعدة وفي مجزرة كربلاء ، مروراً بوقعة بدر
وبمقتل علي في مسجد الكوفة .

فكلما تحدّث عن شرعية الخلافة تذكّر السقيفة وتوسّع في الحملة ، فلم
يُعدّ يتوجّه الى العبشميّة فقط ، بل يضمّ إليهم كافّة قريش : فهم مسؤولون
جميعاً عن هذه السرقة الأصليّة ، أي اغتصاب الخلافة من عليّ . ويرفض
الشاعر نظريّة شرعية المفضول مع وجود الأفضل التي بها قبل المسلمون ،
وحتى بعض الشيعة منهم ، خلافة أبي بكر - المفضول - رغم وجود الأفضل
أي عليّ ، فيستنكر أن يُعادل الفاضلُ ، أي المكتمل الصفات الموفي بجميع
الشروط ، بالمفضول ، أي الشخص الذي لا شرعية له سوى أنّه اختير وفُضِّل
على غيره ، ويجمع في احتجاجه رفضه لشرعية أبي بكر وتهكّمه بمزاعم بني
أميّة في استحقاق الخلافة : [كامل]

95/41 خَلَدْتُمْ فِي الْعَبْشَمِيَّةِ لَعْنَةً خُلِقَتْ - وَمَا خُلِقُوا لَهَا - تَعْجِلاً

97 .. فِي مَنْ يَظُنُّونَ الْإِمَامَةَ مِنْهُمْ إِنْ حُصِّلَتْ أَنْسَابُهُمْ تَحْصِيلاً ؟

98 مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ لَمْ يَنَالُوا سَعِيَهُمْ مِنْ فَاضِلٍ عَدَلُوا بِهِ مَفْضُولاً

ولئن استغرب المرء إقحام العبشميّة في خصومة السقيفة ، ولم يكن لهم
فيها دور بارزٌ ، فالشاعر يجيبه بأنّ بني أميّة متعودون على المكر والخديعة :
مثال احتيالهم ما فعله عمرو بن العاص في وقعة صفّين حين سقط من فرسه ،
واستعدّ عليّ للإجهاز عليه : رفع آنذاك ثوبه وكشف عورته فارتدّ عنه عليّ⁽¹⁾ .
بهذا التذكير يوسّع الشاعر المقارنة بين الفاطميّين وبني أميّة : الحياء والجدّ
والوقار والحلم هنا ، والخبث والمكر والخديعة والتوسّل الكاذب ونكرانُ
الجميل هناك : [كامل]

53/53 أَلْقَتْ بِأَيْدِي الذِّلِّ مُلْقَى عَمْرِهَا بِالثُّوبِ إِذْ فَعَرَتْ لَهُ صَفِّينُ

(1) المنقري : وقعة صفّين 463 .

والخديعة صفة مشتركة عند « بني لؤي » أي قريش قاطبة : فقد اتَّفَقُوا جميعاً على نزع الخلافة من الوصي واستخفُّوا بما قرَّره له الرسول ، واستهانوا بشهادة مناسك مكة ومشاعرها :

64/53 أبني لؤي ، أين فضلُ قديمكم ؟ بل أين حلِمُ كالجبال رصينُ ؟
65 نازعتُم حقَّ الوصيِّ ، ودونهُ حَرَمٌ ، وججرُ مانعٌ ، وحجون
70 ... لو تسألون القبرَ يومَ فرحتُم لأجاب إن محمداً محزونُ

وإذا ذكر كربلاء ، ازدادت لهجته عنفاً فيحرِّض الفاطميين على الأخذ بثأر شهدائهم ، بل يلوم الفاطميين على قبول مبعوثيهم والإجابة عن رسائلهم : فكيف ينسَوَ عداوتهم للرسول وقتالهم له في بدر ؟ [طويل]

55/37 أَللَّهُ تَلُو كَتَبَكُم ، وشيوخُها بيدِرِ رميمٌ ، والدماء صوائك ؟⁽¹⁾

تلك العداوة التي لم تصدر عن خلافٍ في العقيدة كما يتوهم الناس بل عن حسدٍ وغيرة : فقد غبطوكم النبوة وحسدوكم على السلطان الروحي والديني الذي أتاكم به الوحي ، فتأمروا على انتزاع الإمامة منكم :

56/37 هم لحظوكم ، والنبوة فيكم كما لحظ الشَّيْبُ النساءَ الفواركُ

وها إن الدنيا دالت فعاد إليكم الأمر ، فعليكم الآن بالانتقام من هؤلاء الغاصبين ، قتلة الحسين :

58/37 بني هاشم ! قد أنجز الله وعده وأطلع فيكم شمسَهُ ، وهي دالكُ
59 ونادت بشارات الحسين كتاب تَمْطِي شِرَاعاً في قناها المعاركُ

وكان من المتوقع أن تخفَّ حدة اللهجة مع تحوُّل مشاغل المعز من

(1) أَللَّهُ : أناشدكم الله ، في معنى الاحتجاج ، وفي نسخة : أبى الله . والدم الصائك : اليابس .

المغرب إلى الشرق العباسي فيحول الشاعر سبابه من الأمويين إلى العباسيين .
 وفعلاً نلاحظ شيئاً من هذا التبديل في القصائد التي تتعرض لفتح مصر أو
 للحرب ضد الروم : فالقصائد 22 و 24 و 27 و 40 لم تذكر قط بني أمية . ولكن
 مشاغل اليوم لا تنسيه العداوة الأصلية الراسخة . وهكذا تعود الحملة على
 الأمويين على أشدها في آخر مدحة للمعز ، وهي القصيدة 47 التي بها توج ابن
 هانيء خدمته للدعوة وختم حياته . ففيها يبلغ الاحتجاج العقائدي ذروته
 فيجمع الشاعر في لعنة عنيفة موحدة أصحاب السقيفة وسفاكي كربلاء
 ويحرض المعز في حماس لا مثيل له على الانتقام والأخذ بالثأر : [طويل]

127/47 فلا حَمَلْتُ فُرسَانَ حربٍ جِيادُها إذا لم تَزُرْهُمْ من كُـمَيْتٍ وأَدْهَمِ
 128 ولا عَذَبَ المَاءَ القَرَّاحَ لشارِبٍ وفي الأرض مِروانِيَّةً غَيْرُ أَيْمِ

فقد دَقَّت ساعة المُحاسبة وصار للدولة الفاطمية أيامها المجيدة ،
 فليكن لها « يومٌ هاشمي » تقابل به « يوم يزيد » المشؤوم :

129 ألا إِنَّ يَوماً هاشِميّاً أَظْلَهُم يُطِيرُ فَرَّاشَ الهامِ عن كُلِّ مَجْثَمِ
 130 كيوم يزيد ، والسبايا طريدةً على كُلِّ مَوَّارِ المِلاطِ عَثْمُثَمِ⁽¹⁾

ويذكر المعز بمشاهد الطف الفظيعة حتى لا تكلّ عزيمة في الأخذ
 بثارات الحسين وبنات الأئمة :

131 وقد غَصَّت البيداءُ بالعيسِ ، فوقها كرائمُ أبناءِ النبيِّ المَكْرَمِ

فلا تسامَحَ مع من أعتدى على حرَمِ النبيِّ ، ولا رَحمةً لمن لم يرحم
 نساءَ الحسين وهنَّ يصرخن ويتضرعن حتّى لانت لهنَّ قلوب المطايا ، ولكن
 قلوب القتلة الأمويين لم تلتن :

(1) فراش الهام : الرؤوس والمجثم أصل الرأس ، والعثمثم : البعير الشديد ومار ملاطاة تحركا واضطربا من تعب وخوف ونحوه .

132 دُعِرْنَ بأبناء الضُّبَابِ وأعوجَ فأكْبَيْنَ أبناءَ الجَدِيلِ وَشَدَّقَمَ⁽¹⁾
... فما في حريمٍ بعدها من تحرَجَ ولا هَتَكَ سِتْرٍ بعدها بمُحَرَّمٍ

فليقف لهم المعزّ وقفة الموتور وليستأصل شأفة هؤلاء المجرمين :

135 فإن يتخرَّم خيرٌ سبطي محمّدٍ فإنّ وليّ الثأرِ لم يتخرَّمِ
137 ... ألا إنّ وترأ فيهم غيرُ ضائعٍ وطلّابٍ وتر منكم غيرُ نومٍ

ويُهوّن الأمر على المعزّ : فما أيسرَ القضاء عليهم ، لأنهم تعودوا
بعادات الترف والانحلال وبعدوا عن شيم البطولة والجدّ :

138 فلم يبق للمقدارِ إلّا تعلّةٌ لديك مداها ، فاحسم الداءَ يُحَسَمِ !
140 ... سيوفٌ كأغمام السيوف ، ودولةٌ تشنّى دلالاً كالقضيبي المنعم
141 فتمشون في وشي الدروع سوابغاً ويمشون في وشي البرود المُنَمَّم

وتتوسّع ضغينة الشاعر وتصعد الى التاريخ الأوّل فتشمل في لعنة واحدة
سارقي الإمامة يوم السقيفة ، ولا يستثني منهم أبا بكر التيميّ ، وسفاكي دماء
العترة المنتخبة يوم الطفّ :

144 وأولى بلوم من أميّة كلّها وإن جلّ أمرٌ من ملام ولؤمٍ
145 أناسٌ همّ الداءُ الدفينُ الذي سرى الى رِمَمٍ بالطفّ مِنْكُمْ وأعظمِ
146 همّ قدحوا تلك الزناد التي وَرَتْ ولو لم تُشَبَّ النار لم تتضرَّمِ
147 وهم رشّحوا تيمّاً لإرث نبيهم وما كان تيميّ إليه بمُنَمَّم

ويجعل من هذا الانتزاع الأصليّ السببَ المباشر في مقتل عليّ : فعن
ذاك البغي الأوّل انجرت كافة المظالم التي تلاحقت على أبناء فاطمة ،

(1) شدقم وجديل فحلان مشهوران من إبل المناذرة . والضباب وأعوج من أسماء الخيل العتيقة عند العرب ، ويقال إنهما فرسان لغنيّ قبيلة طفيل وهو من وصافي الخيل .

والضعفينة العصبية الجاهلية هي التي طاردتهم في بدر وكربلاء ، على السواء :

153 بأسياف ذاك البغي أول سلّها أصيب عليّ ، لا بسيف ابن ملجم

154 وبالحدق حدق الجاهلية ، إنه إلى الآن لم يظعن ولم يتصرّم

155 وبالثار في بدر أريقت دماؤكم وقيد اليكم كل أجرد صليد⁽¹⁾

مبررات التحامل ضد بني أمية

لنا أن نتساءل عن أسباب هذا العنف إزاء الأمويين كما تساءل غيرنا من الدارسين . فقد فسره المستشرق كريم⁽²⁾ بأنه صدى للسياسة الفاطمية نحو الدولتين المنافستين : فالعباسية في نظره لا تشكّل خطراً كبيراً على الفاطميين لأنّ خلفاء بني العباس سجناء محصورون في قصورهم ببغداد ولم يعد لهم وزن سياسي كبير في منتصف القرن الرابع . أما الدولة الأندلسية فقد حافظت على قوتها وهيبتها ، حتى بعد وفاة عبد الرحمان الناصر ، بدليل الحملات العسكرية التي ينظمها خلفه الحكم الثاني في الأطراف المغربية . فلذلك يدعو الشاعر صاحبه الى استئصال الجرثومة الأموية .

ونحن لا نستبعد هذا التفسير ، ولكن نجعله في مرتبة ثانية من اهتمام المعزّ ، ونقول : إنّ القضاء النهائي على بني أمية كان ولا يزال في نية الخليفة الفاطمي ، بالرغم من انتقال الدولة الى مصر ، وتحول المشاغل شطر المشرق . ولكن ، فيما يخصّ شاعرنا ، نحفظ برأينا في أنّ المبرر الأساسي لهذه الشدة وهذا الحدق القويّ هو تراكم الضغائن التي خلّفتها فعائل الأمويين ضدّ آل البيت في قلب كلّ شيعي ، وبالتالي في قلب شاعرنا ، وقد انضافت اليها عنده أحقاد خصوصية تولدت عن مضايقتهم له بإشبيلية أو غيرها من مدن

(1) الصليد من الخيل الشديد القوائم .

(2) Von Kremer: Ibn Hānī', Z DMG 24

الأندلس في زمن الشباب .

ولنذكر بما ذهب اليه بعض الدارسين المعاصرين ، ومنهم زاهد عليّ
ناشر الديوان ، حين عزوا مصرّع الشاعر ببرقة الى أيدٍ أمويّة ، لأنّ حكّام قرطبة
في نظرهم ضاقوا ذرعاً بحملات الشاعر العنيفة فدبروا له هذه الجريمة
السياسيّة . وقد دفعنا هذا الرأي أثناء حديثنا عن ظروف موته⁽¹⁾ .

التهجّم على العباسيّين

لا تقلّ حدّة ابن هانئ ازاء العباسيّين عنها إزاء بني أميّة . وحبّة الشاعر
ضدّهم - وهي بدون شكّ حبّة الدعوة الفاطميّة الرسميّة - تتمثّل في كونهم
خائنوا التضامن العائليّ الذي كان ينبغي أن يجمعهم مع العلويّين في الأسرة
الهاشميّة . فقد خانوهم باغتصابهم الخلافة بدورهم ، وكانوا توصّلوا إلى
افتكاكها من بني أميّة بمساعدة العلويّين . وإزاء هذه الخدعة لا يسع الفاطميّين
الآ أن يرفضوا القرابة التي تربطهم بأبناء عمّهم العباس . وهذا ما يحتجّ به
الشاعر عليهم ، ولكنّه لا يستطيع أن يجرّد بني العباس من هاشميّتهم ، وهذا
الاشتراك في هاشم يقلقه ، فيلتمس حلاً للتخلّص من هذه الأصرة المقيّنة :
وهو أن يجعلهم في أسفل درك من النسب الهاشمي بالمقارنة مع أبناء فاطمة
وهم في أعلى درجاته : [متقارب]

وإن كان يجمعكم غالبٌ فإنّ الوشائظ غيرُ الذريّ⁽²⁾

65/58

ويشعر ابن هانئ بضعف حجّته ، حين جعلهم من الملحّقين أو
المقحّمين أنفسهم في النسب الذي منه انحدر الرسول وأحفاده ، فلذلك

(1) قال بهذا الرأي أحمد أمين : ظهر الإسلام 135/3 . وذكره أبو القاسم محمد كرو في دراسته عن

« ابن هانئ المغربي » ، (تونس 1967) ولم يأخذ به .

(2) الوشيظ في القوم ، وهو وشيظة فيهم : الملحّق بهم الدخيل عليهم .

تخطى هاشماً وعبد مناف وقصياً فصعد الى غالب ؛ ولو أسعفه واقع النسب ،
لصعد بهم إلى فهر واكتفى بنسبتهم الى الطينة « التي تسنخ » من قریش كما
فعل بني عبد شمس .

العباسيون أبناء الطليق

لذلك لا يتمادى في هذا الاحتجاج ويتحول الى حجة أخرى هي في
نظره أخزى للعباسيين : وهي وصمة الأسر التي علقبت بجدهم العباس بن عبد
المطلب في وقعة بدر. فقد شارك في محاربة الرسول في صفوف المشركين
ووقع في الأسر وبقي يثن في قيوده حتى رق له النبي فأمر باطلاق سراحه . ومن
ذلك اليوم سمى « الطليق » كما سمى الحكم « الطريد » وصار العباسيون أبناء
الطليق كما سمى المروانيون أبناء اللعين أو الطريد ؛ بل يختصر الشاعر
المراحل : فكما أن المعزّ عنده هو ابن الرسول فإن العباسي المنتصب ببغداد
والأموي المتسلط على قرطبة هما الطليق والطريد ، يغطّان في نومهما ولا
يهتمّهما من أمر الإسلام شيء ، في حين أنّ المعزّ يبيت ساهراً يفكر في الدفاع
عن بيضة الدين وقد ثلّم الروم ثغورها الشامية : [طويل]

61/13 غَضِبَتْ لَهُ أَنْ ثُلَّ بِالشَّامِ عَرْشُهُ وَعَادَكَ مِنْ ذِكْرِ الْعَوَاصِمِ عَيْدُ⁽¹⁾
62 فَبِتُّ لَهُ دُونَ الْأَنَامِ مُسَهَّداً وَنَامَ طَلِيقٌ خَائِنٌ وَطَرِيدُ

هذه النسبة التي ينعت بها الفاطميون أبناء عمّهم ، هذه الوصمة التي
تشهد عليهم بالعداء الأول للدين الحنيف ، هي كافية في نظر الشاعر لدفع أيّ
حقّ في إمرة المسلمين عن الأسرة العباسية ، ويدعمها بأن يجعل تلقب
العباس بالطليق من عمل الرسول نفسه ، فبهذه الكناية أبعد سلالة العباس عن
بيته وفصلهم عن العترة المنتخبة : [متقارب]

(1) الضمير في « له » و « عرشه » يعود على دين محمد في بيت سابق . والعواصم هي منطقة
أنطاكية وقد احتلها الروم . والعيد هنا ما يعاود الإنسان ويتأبّه من هموم وأحزان .

بمكة سمى الطليق الطليق ففرق بين القصي والدني 63/58

شهيدي على ذاك حكم النب ي بين المقام وبين الصفا 64

وهذا البيت الثاني لا يخلو من غموض : فما هو الحكم الذي أصدره الرسول بمكة بين مقام ابراهيم وهضبة الصفا ؟ هل كانت قوله فيها تفضيل لعلي أو وصية له كوصية الغدير التي يستظهر بها الشيعة الى اليوم ، ويرون فيها إقراراً لذرية فاطمة باستحقاقهم دون غيرهم خلافة الرسول على الأمة الإسلامية ، وتعلقوا بها وعظموها حتى جعلوا من يوم ذكرائها -18 ذي الحجة من كل سنة - عيداً كبيراً « يُحيون ليلة الذكرى بالصلاة ويصلون في صبيحتها ركعتين قبل الزوال ، وشعارهم فيها لبس الجديد وعتق الرقاب وبر الأجنب والذبايح⁽¹⁾ » .

ويدعم الشاعر وصية الغدير بما يزعمه من شهادة القرآن للعترة المنتخبة ، وهيئات أن يحرز العباس مثل هذا التفضيل ! [طويل]

17/22 أفي ابن أبي السبطين أم في طليقكم تنزلت الآيات والسور الغر ؟

وهي مقارنة معتادة عند شعراء الشيعة من فاطميين وغيرهم . فهذا الخليفة العزيز يستظهر ببنوتهم للرسول ويحتج على بني العباس باغتصابهم إرث النبي الراجع الى أبناء فاطمة وبعجزهم - وهم الأسارى عند قوادهم من الأكراد أو الديلم - عن القيام بواجب الجهاد : [طويل] .

أنا ابن رسول الله غير مدافع تنقلت في الأنوار من قبل آدم
لي الشرف العالي الذي خضعت له رقاب بني حواء من كل عالم
بنا فتحت أبواب كل هداية ومنا بحمد الله خير الخواتم

(1) في موضوع الغدير ، انظر : النويري : نهاية الأرب 1/177 ، والفقرة منه ، نقلاً عن كتاب «الغدير في القرآن والسنة والأدب» للأميني ، وهي موسوعة في كل ما قيل في حديث الغدير ، أو حديث الإخاء أو المؤاخاة .

فقل لبني العباس معُ ضَعُفُ ملكهم بأنَّهُمُ أسرى بأيدي الأعاجم
غَصَبْتُم بني مروان ما غَصَبوه من موارِثنا، سحقاً لظالم ظالمٍ (1)

وهذا أخوه تميم يجري المقارنة مباشرةً بين علي والعباس ، بين بطل الإسلام
في بدر وبين حليف المشركين ، بين العالم بتأويل القرآن والصادّ عن تعاليمه ،
ويختتم بتفضيل أبناء البنت على أبناء العمومة ، [متقارب]

عَبَّاسُهَا كَأبي حربها عليّ ، وقَاتِلِ نَصَابِهَا ؟
عَبَّاسُكُمْ كَانَ فِي بَدْرِهِ يَذُودُ الْكَتَائِبَ عَنْ غَابِهَا ؟
عَبَّاسُكُمْ شَرَحَ الْمَشْكَلاتِ وَفَتَّحَ مَقْفَلَ أَبْوَابِهَا ؟
وَمَنْ لَكُمْ يَا بَنِي عَمِّهِ بِمِثْلِ الْبَتُولِ وَأَنْجَابِهَا ؟ (2)

ولا تقتصر هذه الحجة على الشعراء الشيعة ، بل نجدُها عند شعراء غير
معدودين في زمرة الشيعة الرسمية ، وإنّما عرفوا بعطفهم على العلويين عامّة ، ولا
سيّما في هذا القرن الرابع الذي انتشر فيه التشيع فطبع العصر كله بطابعه . فهذا أبو
فراس الحمداني (ت 968/357) أمير منبج من قبل سيف الدولة يُجري هو أيضاً
المقارنة ويحتجّ لهم بالانتساب المباشر الى النبي : [بسيط]

لَا يُطْغِينُ بَنِي الْعَبَّاسِ مَلِكُهُمْ بَنُو عَلِيٍّ مُوَالِيَهُمْ ، وَإِنْ زَعَمُوا
أَتَفْخَرُونَ عَلَيْهِمْ ، لَا أَبَا لَكُمْ حَتَّى كَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ جَدُّكُمْ ؟
... قَامَ النَّبِيُّ بِهَا يَوْمَ الْغَدِيرِ لَهُمْ وَاللَّهِ يَشْهَدُ وَالْأَمْلَاقُ وَالْأُمَمُ
... ثُمَّ ادَّعَاهَا بَنُو الْعَبَّاسِ إِرْثُهُمْ وَمَا لَهُمْ قَدَمٌ فِيهَا وَلَا قَدَمٌ (3)

العباسيون عبيد بالوراثة

وتكتسي المفاضلة عند شاعرنا وجهةً أخرى : لَمَّا كَانَتْ أَعْظَمُ حُجَّةٍ عَلَى

(1) محمد كامل حسين : في أدب ... 163 .

(2) ديوانه 80 . وانظر كذلك ص 20 من الديوان مقارنة طويلة بين الأسرتين .

(3) ديوانه 256 .

العباسيين هي انتسابهم المباشر الى الرسول عن طريق فاطمة ، فاطمة الزهراء ، فاطمة البتول ، وهي النسبة التي أكسبت الأئمة هالة القداسة علاوة على إرث النبي ، فإنَّ الشاعر ينتقص في المقابل أمَّ العباس « نتيلة » ويقول : شتان بين نتيلة هذه وفاطمة بنت محمد ! وزيادة في التحقير ، يزعم أن نتيلة هذه كانت أمةً من رقيق قریش ، وهذا الرق المزعوم⁽¹⁾ يحمله على إجراء قياس بين عبوديتها وبين أسر العباس في بدر ، فيستنتج منه أن نتيلة أورثت العباس ، لا حقَّ الخلافة كما فعلت فاطمة لأبنائها ، بل عادة الرق والعبودية : [طويل]

18/22 بني نتيلة ، ما أورث الله نتيلةً وما نسلتْ ، هل يستوي العبد والحرّ ؟
19 وأنى بهذا ، وهي أعدتْ برقها أباكم ، فيأياكم ودعوى هي الكفر !

ومعلوم أن العبودية تقوم حائلاً دون الوصول الى الإمامة : فالإمام ينبغي أن يكون حراً ، والعباسيون ، بحكم هذا الرق الموروث ، ليسوا أهلاً لخلافة المسلمين . وهكذا تتظاهر هذه الحجج التاريخية : العبودية المفترضة ، ثمّ عداوة العباس للإسلام في بدر وقبل بدر وأسرهم وإطلاقه ، والتفاوت بين النسب المباشر عن طريق البنت والنسب البعيد عن طريق العمومة ، تتضافر لصرف العباسيين عن الخلافة .

انخذالهم أمام الروم

ولكنَّ الشاعر لا يقف عند هذا الحدِّ التاريخيِّ القديم ، بل يتجاوزه إلى الموقف الراهن فيقابل بين تخاذل العباسيين ازاء العدو البيزنطي وجهاد الفاطميين براً وبحراً لحماية الدين . وإنما قصروا في واجب الجهاد لأنهم ألقوا عادات اللهو والمجون والترف ، بينما يشتغل أبناء فاطمة بإعداد السلاح لمواجهة العدو : [كامل]

(1) لا ذكر له في ترجمة أسد الغابة 164/3 ، بل تضيف في شأنها: هي أول عربية كست البيت الحرير والديباج .

97/40 تلهيك صلصلة العوالي كلما ألهمت أولائك قينة وشمول
98 وبذاك حسبك: أن تجرر لامة وبحسب قوم أن تجرر ذيول

وإن الهزائم التي لحقت جيش الإسلام بالشام لا تعزى الى قوة العدو الرومي بقدر ما تعزى الى عجز العباسيين عن المقاومة ، والى اضطراب دولتهم وتحكم مواليتهم في ملكهم . ففي حين يطمأ الروم أرض الإسلام ، يقضي العباسيون أوقاتهم على جنوب الراحة ، بين الكؤوس والقيان :
[طويل]

46/3 ومن عجب أن تشجر الروم بالقنا فتوطأ أغمار وهضب شناخيب
47 ونوم بني العباس فوق جنوبهم ولا نصر الا قينة وأكاويب⁽¹⁾

وهذا التقصير أوهم الامبراطور أن جميع ملوك المسلمين هم على شاكلة أصحاب بغداد ، فطمع في الوصول إلى الأراضي المقدسة دون تعب . لكن اهيئات ! ليس الأئمة الصادقون مثل الأشباح المترنحة ببغداد ، وما المعز بالخليفة المغلوب ولا بالملك الأسير بين الأتراك والديالمة ، ولا ملكه بلقمة سائعة للدماسقة : [طويل]

32/3 ولكن ، لعل الجائليق يغره على حلب نهب هنالك منهوب
33 وتغر بأطراف الشام مضيع وتفريق أهواء مراض وتخريب

فلا غرو أن يستنجد الدين بابن النبوة ، وأن يستنصر العرب الأحرار سلاح المعز ، بعد أن أذلهم الموالي والحجاب . فيقول سلاح الإمام :
لبيك ! لبيك ! وقد مل الراحة في الأغمد : [طويل]

117/47 وقد سيمت بيض الطبي من جفونها وكانت متى تألف سوى الهام تسام
118 وقد غضبت للدين بأسط كفه إيهن في الأفاق كالمتظلم

(1) الشناخيب : الجبال الوعرة والأغمار حفر الماء .

119 وللعرب العرباء ذلتْ حدودُها وللفترة العمياء في الزمن العمي

120 وللعز في مصر يُردّ سريره إلى ناعبٍ بالبين ينْعَقُ أسْحَم⁽¹⁾

وتأهب للانتقام لكل مهضوم الجانب من هؤلاء المنتصبين المتسلطين العاجزين الذين شوّهوا وجه الإسلام : عزيز مصر صار غراباً أسود ، والدولة العباسية يدعي حمايتها ساعدٌ مقطوع الكف والذراع فلا يعضد شيئاً ، والقابهم هذه انما هي ادعاءات وأباطيل . أما العباسي ، فهو كما قال الآخر «لحم على وضم » وكذلك أمراؤه وولاته : دوابٌ سائمة يسوقها حجاب القصر :

121/47 وللملك في بغداد أن ردّ حكمه إلى عضدٍ في غير كف ومعصم

122 إلى شلو ميتٍ في ثياب خليفة وبضع لحام في إهابٍ مُورم

124 ... سوامٍ رتاعٍ بين جهلٍ وخيرة ومُلكٌ مضاعٍ بين تركٍ وديلم

المعز ناصر الدين

وببالغ الشاعر في التشنيع بعجزهم وخذلانهم للدين ، ويفرط في وصف قصورهم عن المقاومة وقعودهم عن الجهاد . ويقصد بهذا الغلو أن يبرز في المقابل عزيمة المعز وصدق نضاله ، ويظهر للعيان انتصاراته الباهرة على أعداء الدين ، ومن جهة أخرى ليجعل تحرك المعز نحو الشرق ، أي فتح مصر وما سيتبع من فتوحات ، استجابةً للمسلمين المهتدين بالغزو البيزنطي ، لا في الشام وفلسطين والعراق فقط ، بل في مصر أيضاً رغم بعدها النسبي عن الروم : [طويل]

68/27 وقد أشعرت أرض العراقين خيفةً تكاد لها دارُ السلام تضعضع

69 وأعطت فلسطين القياد ، وأهلها فلم يبقَ منها جانبٌ يتمنّع

70 وما الرملة المقصورة الحظو وحدها بأول أرض ما لها عنك مفرع

(1) : الغراب الناعق هو كافور .

71 وما ابن عبيد الله يدعوك وحدهُ غداة رأى أن ليس في القوس منزع⁽¹⁾

وها مصر قد تحرّرت من رعاتها العاجزين ، وصار أهل العراق والشام
يتمنّون خلاصاً مماثلاً يأمنون به غائلة العدو في الدين ، ويطمئنون على قبر
الرسول ومناسك الإسلام وقد أصبحت مهدّدة بالزحف البيزنطي . ويهول
الشاعر المشهد عن قصدٍ ويجعل الافتراض حقيقةً واقعةً وأمرًا مقضيًّا :
[كامل]

32/30 أيسرُ قومًا أن مكّة غودرت بمجرّ جيش الروم قاعاً صفصفا ؟
أو أن ملحودَ النبي ورمسه بمدارج الأقدام يُنسَفُ منسفاً ؟

ويعتدّ الهزائم التي نتجت عن إخلال العباسيين بواجب الجهاد لأنهم
صاروا عبيداً لمواليهم وخدماءً لحجّابهم ورضوا بالهوان وأبوا أن يوكّلوا الجهاد
الى أهله ، أي الى آل البيت :

20/30 ما لي رأيت الدين قل نصيره بالمشرقيين ، وذلّ حتى خوّفا ؟
21 هم صيروا خدماً تسوس أمورهم يا للزمان السوء كيف تصرّفا !
23 ... عبداً عبداً ، وتبع تبع فالفاضل المفضول ، والوجه القفا
26 ... هلاً استعان بأهل بيت محمد من لم يجد للذلّ عنكم مصرّفا ؟
27 يا ويلكم ! أفما لكم من صارخ الآ بغير ضاع أو دين عفا !
28 فمدينة من بعد أخرى تستبي وطريقة من بعد أخرى تعتقى
29 حتى لقد رجفت ديار ربيعة وتزلزلت أرض العراق تخوّفا
30 والشام قد أودى ، وأودى أهله الا قليلاً ، والحجاز على شفا

ولكن مهلاً ! إن الخلاص قريب : فجيوش المعز تحرّكت نحو أرض

الأجداد :

(1) ابن عبيد الله هو النقيب العلوي الذي كُلف بالتفاوض مع جوهر عند فتح مصر . ومنزع
القوس : إمكانية الرمي والحظر هو الحظ .

35/30 هذا المعزّ ابن النّبّي المصطفى سيّدب عن حرّم النّبّي المصطفى
41 ... فكأنّي بالجيش قد ضاقت به أرض الحجاز وبالمواسم زلّفا

ويتصوّر الشاعر زيارة المعزّ لقبر أبيه وصعوده منبره وارتدائه البردة
وتقلّده السيف ذا الفقار :

44/30 وازدرت قبر أبك قبر محمّد بملائك الله العلى مُتكنّفا

45 ورقيت مزقاه وقيمت مقامه في بردة تدرى الدموع الذرفا

46 متقلّداً سيفين : سيف الله من نصر، وسيفك ذا الفقار المرهفاً

*

أطلنا كما أطلّ الشاعر ، في الاستشهاد لهذا الجانب من الاحتجاج على
العبّاسيّين . ذلك أنّ حجة الانتساب المباشر الى الرسول تصبح حجة ثانوية
أمام هذه الحجة الدامغة : قصورهم عن القيام بواجبات الخلافة ، وأولها
الدفاع عن الإسلام ودفع خطر الروم المباشر ، والحال أنّهم أقرب الى أرض
العدوّ من المعزّ ، فكان عليهم أن يبادروا الى اقتحام بلادهم قبل أن
يداهمهم . ولكنّ انخذالهم جرّنا الى هذه النتيجة الغريبة : وهي أنّ المعزّ ،
على بعده عن الروم ، يهتّب مسرعاً للقيام بالواجب ، أما بنو العبّاس ، فهم ،
رغم متاخمتهم لهم ، يتحاشون الاحتكاك بهم : [طويل]

66/13 هم بُعدوا عنهم ، على قرب دارهم وجحفلك الداني ، وأنت بعيد

بنو العبّاس مجوس

هناك تهمة أخيرة يوجّهها ابن هانئ الى العبّاسيّين : وهي سيطرة
العنصر الفارسيّ عليهم في شؤون الدولة . وقد لا نغير اهتماماً لهذا الاتهام
الذي لا يضير المعنّين به لولا أنّ الشاعر يساوي ، في قياس متسرّع ، بين
الانتساب الى الجنس الفارسيّ واعتناق المجوسية . وهكذا يجمع عسفاً وظلماً

بين الترف الذي ينسبه الخيال الشعبي الى هارون الرشيد، وعبادة النار التي علقت بالأعاجم طيلة الخصومة بين العرب والموالي : [طويل]

40/37 لَكُمْ دَوْلَةُ الصَّدَقِ الَّتِي لَمْ يَقُمْ بِهَا نُتَيْلَةٌ ، وَالْأَيَّامُ هَوَجٌ رِكَائِكُ
41 إِمَامِيَّةٌ لَمْ يُخْزِ هَارُونُ سَعِيَهَا وَلَا أَشْرَكَتْ بِاللَّهِ فِيهَا الْبِرَامِكُ

وكان يمكنه ، والحق يقال ، أن يجد في أخبار الأمين مع أبي نواس ، وفي النزاع بين الأمين والمأمون ، وسيطرة الغلمان الأتراك على الخلفاء ابتداء من المتوكل ، مندوحةً عن هذه الأباطيل في خصوص خليفة عظيم كالرشيد ووزراء مقتدرين المعين مثل البرامكة .

وكان يمكنه أن يسلك مسلك أبي فراس الحمداني مثلاً ، حين تهكم بهذه الأسرة المالكة التي أنجبت ، فيمن أنجبت ، أميرةً مغنيّةً وأميراً يحترف الطرب [بسيط]

مِنْكُمْ عَلِيَّةٌ أُمُّ مِنْهُمْ ، وَكَانَ لَهُمْ شَيْخُ الْمَغْنَنِ إِبْرَاهِيمُ أُمُّ لَكُمْ ؟
تَبْدُو التَّلَاوَةُ مِنْ أَيْبَاتِهِمْ أَبَدًا وَفِي بَيْوتِكُمْ الْأَوْتَارُ وَالنَّغْمُ⁽¹⁾

التحامل على الروم

يخصّ الشاعر الأباطرة البيزنطيين بجانب وافرٍ من حملته الكلامية . ولكن الاحتجاج هنا مختلف . فلا ذكر للشرعية الخلافة مع هؤلاء الخصوم في الدين ، ولا للنسب الفاطمي أو القرابة من الرسول . وإنما الموضوع الذي يطرقه باستمرار هو الجهاد ، أي الحرب بين عقيدتين : الدين الطاهر والشرع الواضح من جهة ، ونحلة الشرك من جهة أخرى .

ولئن اتّصف الصراع بين الإسلام والروم النصاريّ عنده بهذه الهالة من

(1) ديوانه 259 .

القداسة ، وهي صدى لما يروج في الأوساط الفاطمية ، فإن الطرف البيزنطي لم يُهمل بدوره هذا السلاح الدعائي ، بل كان يعمل على إقناع الشعوب النصرانية بأنّ الحملات العسكرية التي يقودها الأباطرة ضدّ ثغور الشام والجزيرة إنّما هي نضالٌ في سبيل المسيحية وتمهيد لاسترجاع الأماكن المقدسة بفلسطين من أيدي المحتلين العرب . وكذلك تحرّكات الأسطول البيزنطي في الحوض الأوسط أو الغربيّ من البحر الأبيض المتوسط : فالغاية منها إبقاء سكّان إيطاليا وصقلية واقريطش على مسيحيّتهم وطرُد « الكفار » الأفارقة إلى بلادهم . ولا شك أنّ العالم النصرانيّ الأوروبيّ قد فهم أنّ هذه الحروب المتواصلة براً وبحراً بين الدولتين ، الإسلامية ، سواء كانت عباسيّة أو فاطميّة ، والنصرانيّة ، هي في الواقع تمهيد للحملات الصليبيّة التي تنطلق نحو المشرق ابتداء من القرن الخامس / الحادي عشر . وقد أكّد المؤرّخ ج. شلمبرجي في رسالته عن نفقور فقاس ، على هذه الصفة الجهاديّة التي اكتسها الصراع لدى الطرفين فقال : « كان الصراع بين الجنسين [العربيّ والإغريقيّ] وبين العقيدتين [الإسلام والنصرانيّة] متواصلاً ، لا على سفوح جبال الأناضول ، أو ضفاف الفرات فقط ، بل في إيطاليا الجنوبيّة وجزيرة صقلية أيضاً ، علاوة على سواحل جزيرة اقريطش⁽¹⁾ » . وكان يصحب الجيش الروميّ قساوسة يثبّتون عزيمة المقاتلين بخطبهم الحماسيّة ويتوسّلون بصلواتهم إلى الربّ حتى ينصر الجيش الروميّ⁽²⁾ .

الروم في لغة الشاعر

يؤكّد شاعرنا ، كلّما ذكر الروم ، على انتسابهم إلى العقيدة المنافسة . فالإمبراطور - وهو الذي تسمّيه النصوص الرسميّة « طاغية الروم »⁽³⁾ - هو عنده

(1) شلمبرجي G. Schlumberger: Un empereur...435 .

(2) الكتاب المذكور ص 446 .

(3) هكذا يدعوه القاضي النعمان بالخصوص في ك . المجالس والمسائرات .

« الجاثليق » ، وهو لقب يدلّ في الواقع ، لا على الانتساب الى النصرانية مطلقاً ، بل على رتبة كنسيّة عند النصارى المشرقيّين : فالجاثليق هو رئيس الكنيسة النسطورية ببغداد كما أثبتّه ماريوس كانار⁽¹⁾ . ولكنّه عند الشاعر لقب صاحب القسطنطينيّة . فالأسطول الفاطميّ يُعدّ نيرانه المحرقة لسفن الجاثليق وسفن المروانيّين على السواء : [طويل]

45/13 تشبّ لال الجاثليق سعيَرها وما هي من آل الطريد بعيد
وليس هذا التلقب وهماً من الشاعر أو خلطاً . فهو يستخدم اللفظ في معناه العامّ ، أي الانتساب الى النصرانيّة ، بدليل إطلاقه على صاحب حانٍ طرقوه ليلاً على غرار ما كان يصنعه أبو نواس : [رجز]

1/34 وشامخ العرنيين جاثليق مروّع بمثلنا مطروق
ويجنح في أكثر الأحيان الى اسم الجنس : الروم ، أي الإغريق أصحاب بيزنطة ، أو إلى لقب قائد الجيش « الدمستق » فيجمع تحت هذه الرتبة الرسميّة كافّة الجيوش الروميّة : [كامل]

56/44 لن يستفيق الروم من سكراتهم انّ الذي شربوا رحيق سلسل
63 .. حَسْبُ الدمستق منك ضربٌ أهرت هَدِلْ مشافره وطعنٌ أنجل⁽²⁾

ويطلق عليهم أحياناً لقباً أخرى ، إمّا محايدة كالبطاريق أو استهجانيّة مثل « الأعاجم » أو « المشركين » :

79/44 لم يبقَ فيها للأعاجم ملجأ يُلجأ إليه ولا جناب يُؤهل
82 ... ورجا البطارق أن تكون لثغرم باباً ، فغودر ، وهو عنهم مُقفل
85 ... ضِمنَ الدمستق منك منع حريمها هلاً امتناع حريمه لو يعقل؟
86 وأراد نصرَ المشركين بجحفل لجبٍ ، فأول ما أصيب الجحفل

(1) م . كانار : توسّع الفاطميّين ... تنبيه 145 ص 186 . L'impérialisme .

(2) أهرت : واسع الشدقين ، وهدل المشافر : مسترخيها . شبه الضرب بغير قويّ نهم أكل .

وقد يلجأ إلى الكناية فيقول « أرض قسطنطين » عوض القسطنطينية كنايةً
عن أرض الشرك : [بسيط]

45/12 لم يبق في أرض قسطنطين مشرقة إلا وقد خصّها ثكل بمفقود

أو يشير إلى لون بشرتهم فيطلق عليهم لقب « بني الأصفر » المتداول
عند العرب في شأنهم⁽¹⁾ : [طويل]

91/13 وأخذك قسراً من بني الأصفر الذي تذبذب كسرى عنه وهو عنيد

وربما صعد بهم إلى جدّهم الأعلى « هرقل » ، زمن البعثة المحمدية :

75 فإن هزّ أسياف الهرقل فإنّها إذا شئت أغلال له وقيد

أو إلى لقب « القيصر » المشترك بين روما الشرقية وروما الغربية :

65 وما سرّهم ما ساء أبناء قيصر وتلك ترات لم تزل وحقود

الروم أعداء في الدين

ولكن ، مهما تنوّعت عنده ألقابهم ، فهم أعداء في العقيدة وجهادهم
فرض . وهم أيضاً يضمرون لعقيدتنا العداوة ، بل يظهرونها اليوم وقد اتخذوا
الصليب شعاراً لهم إذا ما تحرّكوا لقتالنا . ولكن الله ينصر أوليائه على هذه
الفئة المشركة : [بسيط]

49/12 ألقى الدمستق بالصلبان حين رأى ما أنزل الله من نصر وتأييد

وينقلب الشاعر إلى مبشّر فيدعوهم إلى نبذ عقيدتهم التي تحملهم على

(1) يقول عدّي بن زيد ، ولكن في مدحهم والتحرّس عليهم [خفيف] :

وينو الأصفر الكرام ملوك الـ روم لم يبق منهم مذكور

ويقول أبو تمام في خاتمة قصيدة عمورية :

أبقت بني الأصفر المراض كاسمهم صفر الوجوه ، وجلت أوجه العرب

عبادة بشر يدعونه إلهاً وتزيّن لهم الرهبانيّة : [كامل]

59/44 فليعبدوا غير المسيح فليس في دين الترهّب عن سيفوك مزحلّ

وقد يظنّ أن هذه الدعوة إنّما هي تهكّم من الشاعر وتندّر ، ولكنّ لا نستبعد أن تكون صدىً لمسعى مماثل من الدعاية الرسميّة . ذلك أنّ المصادر الإسماعيليّة تنسب إلى المعزّ نفسه « رسالة مسيحيّة » قيل إنّها موجّهة إلى الإمبراطور تدعوه إلى الإسلام⁽¹⁾ . وهي في الواقع نصّ باطنيّ في أنّ الإمام يمكن أن يكون صورة الإله مجسّمة في شخصه البشريّ ، مثلما يعتقد النصارى أنّ المسيح هو الإله في هيئة بشريّة . ولعلّ هذا التمثيل للإمام بالمسيح هو الذي حملهم على نعتها بالرسالة المسيحيّة . وهي ، على كلّ حال ، لمؤلف غير المعزّ⁽²⁾ بالرغم من أنّ لهذا الخليفة دوراً هاماً في توجيه الدعاية الفاطميّة وربّما في تحرير النصوص المذهبيّة ، كما يشهد بذلك القاضي النعمان⁽³⁾ . وقد زعم باحث إسماعيليّ معاصر⁽⁴⁾ أنّ كتاب دعائم الإسلام الذي يجمع حصيلة الفقه الفاطميّ ، إنّما هو من تأليف المعزّ نفسه ، لا القاضي النعمان كما يظنّ الناس . وقد نقل اليينا القاضي النعمان فصولاً من رسائل المعزّ إلى طاغية الروم وجانباً من احتجاجه العقائديّ يشبه إلى حدّ بعيد الدعوة التبشيريّة .

هذه الدعوة تكتسي أحياناً عند الشاعر صبغة الإعلان المتصنّع والنخوة

المتغلّبة : [كامل]

69/40 فلتعلم الأعلاج علماً ثاقباً أنّ الصليب - وقد عززت - ذليلّ

(1) M.Canard:Sources... 289 . وكذلك Massignon: Essai...19 .

(2) انظر فهرس المكتبة الوطنية بباريس ، صنع De Slane تحت رقم 131 .

(3) المجالس والمسائرات 366- 369 .

(4) هو محمد حسن الاعظمي ناشر تمة الدعائم بعنوان «تأويل الدعائم» القاهرة 1969 ص 13 من المقدمة .

ولكنّ الشاعر قد يعترف ضمناً بأنّ الغلبة ليست دائماً من جانب المسلمين : فقد يُغلبون فيسرعون إلى المعزّ حتى يأخذ بثأرهم : [طويل] 95/13 إليك يقرّ المسلمون بأسرهم وقد وُتروا وتراً، وأنت مُقيد

وقد يضع الحرب ، حسب ملاحظة شلومبرجي ، على صعيد الصراع بين جنسين : العرب ، والأعاجم ، وكلمة العجم تُتخذ هنا في معنى أصحاب العجمة ، أي الذين لا ينطقون العربية : [كامل] 58/40 نحرّت بها العربُ الأعاجِمَ إنّها رَمَحَ أَمَقَ، ولهزم مصقول⁽¹⁾

الإشادة بانتصارات المعزّ عليهم

في هذا الصراع العقائديّ ، يهتمّ الشاعر خاصّة بالجانب العسكريّ فيشيد بانتصارات الأسطول الفاطميّ ، وهي انتصارات حقيقة لا يحتاج خيال الشاعر إلى تعظيمها كما كان يفعل بالتحركات المحدودة في المغربين الأوسط والأقصى .

وقد حلّلنا بعض هذه القصائد التي تعرّضت للوقائع البحريّة وافتخر فيها الشاعر بقوة السفن المعزّيّة . فبجهادها ملك العرب عنان البحر وافتكوا سيادة الأمواج من الروم بعد ألفي عام من سيطرتهم المطلقة كما يقول : [بسيط]

60/12 قد كانت الروم محذوراً كتائبها تُدني البلاد على شحط وتبعيد

63 ... وشاغبوا اليمّ ألفي حجّة كَمَلًا وهم فوارس قاريّاته السود

64 فالיום قد طُمِسَتْ فيه مسالكهم من كل لاحب نهج الفلك مقصود⁽²⁾

وسيشيد خاصّة بوقعة المجاز التي تبعّت مقتل القائد منويل فقاس ويصف الغنائم بإطنابٍ في تهكّم لاذع بالإمبراطور الذي أرسل عمّه منويل إلى

(1) أَمَقَ : طويل . لهزم : سيف قاطع .

(2) اللاحبُ : طريق لُحِبَ ولاحبة : واضحة . والقاريّات السفن المطلية بالقار ، أي الفطران .

الهلاك ، وأهدى هذه الأسلاب النفيسة الى المعز ، ويتندر بهذا الكرم غير المنتظر : [كامل]

31/40 وبعث بالأسطول يحمل عُدَّة فأتابنا بالعدَّة الأسطول
33 ... أدى إلينا ما جَمَعَتْ مَوْفَرًا ثم انثنى في اليم وهو جفول
34 ومضى يخفُّ على الجنائب حمْلُهُ ، ولقد يُرى بالجيش وهو ثقیل
35 نَقَلْتُهُ من بعد ما وفَّرْتُهُ : مَنْ لِعِمْرُك ما أتيت جزیلُ
36 إِيَّاهُ كذاك ! فَإِنَّه ما كان مِنْ بَرِّ الكرام فَإِنَّه مقبولُ !

على أنه يترك أحياناً لهجة التهكم إلى التشقي والشعور بالنخوة والتعالي
على هذا الإمبراطور الذي صار مضطراً إلى دفع جزية كالتي تفرض على
الذميين : [طويل]

77/13 وَيُعْطِي الْجَزَى والسَّلَمَ عن يدِ صاغِرٍ ويقضي ، وصدر الرُّمَحِ فيه قصيدُ
78 يَقْرَبُ قُرْبَاناً على وَجَلٍ فَإِنْ تَقَبَّلْتُهُ من مثله ، فَسَعِيدُ

فالبيزنطي يعطي المال ويعرض السِّلَمَ ، ولعلَّ الشاعر يشير إلى عروض
الدمستق التي تقدّم بها سفراؤه الى المعز ، ومن بينها استعدادُه لإطلاق سراح عددٍ
من الأسرى المسلمين الذين ظفروا بهم الروم في المشرق . وقد راقَتِ الفكرة للمعزِّ
لأنه رأى في ذلك اعترافاً بولايته على كافّة المسلمين ، شرقاً وغرباً . وقد ذكر بعضُ
هذه السفاراتِ القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات : « وأرسل ملك
الروم بأموال عظيمة وهدايا جليلة إلى أمير المؤمنين عليه السلام ، ورغب في التوقّف
عَمَّن بقي من الروم بأرض قلورية⁽¹⁾ ، على ما قطعه على نفسه يؤدّيه عنهم ، وأسرى
من أسارى أهل المشرق ليطلقهم في كلِّ عام لمدة يسيرة يسأل الهدنة
فيها . . . »⁽²⁾ . ولا نجزم بأن نصَّ القاضي النعمان يتعلّق بالفترة التي تهَمَّنَا ، أي

(1) قلورية مقاطعة بالجنوب الغربي من إيطاليا في قبالة مضيق مَسِينَا ، ويسمّيها المؤرخون المغاربة
« الأرض الكبيرة » .

(2) ص 167 وص 367 .

بعد سنة 964/353 ، فالسفارات البيزنطية لدى المعز قد تكررت وأبرمت هدنتان على الخصوص ، سنة 957/346 وسنة 968/357 . ولكن لا مانع من أن نفترض أن السفارة التي أوفدها الإمبراطور بقيادة شخص يدعى « نيكولا ووس »⁽¹⁾ بعد وقعة المجاز مباشرة كانت مُحَمَّلةً بعروض مماثلة لما ذكره القاضي النعمان ، خصوصاً إذا ما اعتمدنا على طلبهم الإبقاء على أهل قلورية ، وهم المهتدون قبل غيرهم بعد هزيمة مناصريهم .

علاوة على التهكم والتشفي يجنح الشاعر أيضاً إلى الهجاء الصريح فيرمي الروم بالجبن وبجهل فنون الحرب ، كما فعل ببني أمية . فإذا ما برز لهم جيش الإمام ، لا تفيدهم عساكرهم الجرارة ولا أسلحتهم المتنوعة الكثيرة لأن الرهبة تملكهم فيغادرون ساحة القتال كأن في نيتهم أن يكتفوا بلمس تربتها تحلاً من نذر نذروه : [كامل]

48/40 جاؤوا وحشوا الأرض منهم جحفل لجب ، وحشوا الخافقين صهيل

49 ثم انتنوا ، لا بالرماح تقصد باد ، ولا بالمرهفات فلول⁽²⁾

50 نزلوا بأرض لم يمسوا تربها حتى كأن وقوعهم تحليل

ويعود إلى السخرية منهم بهذه المقابلة بين ادلالهم بقوتهم وتكبرهم من جهة وجبنهم الفطري الذي سرعان ما يعود إلى البروز فيغطي شجاعتهم الكاذبة :

79/40 الأكثرين تخمطا وتكبراً ما لم تهز أسنة ونصول

80 حتى إذا ارتعص القنا ، وتلمظت حرب شروب للنفوس أكل

81 رجعوا فأبدوا ذلة ومهانة وإلى الجبله يرجع المجبول⁽³⁾

ويخصص الدمستق بالاستهزاء فينعي عليه جهله بالحرب وإلقاءه بقائد الأسطول الى الموت لأن منويل لم يسمح لهم بالفر حيث يجب الفر ، وكان

(1) الدشراوي : الخلافة الفاطمية بالمغرب ، 250 ، 291 .

(2) التقصد : تقصد الرمح وانقصد : انكسر .

(3) التخمط هو التكبر ، وارتعص : تحرك واضطرب واهتز .

الشاعر لم ينتبه الى ما في أبياته من اعتراف للجيش الرومي بالصمود :

- 25/40 قل للدمستق مُورد الجمع الذي ما أصدرته له قنا ونصول:
26 سل رهط منويل، وأنت غررتهُ: في أي معركة ثوى منويل؟
27 منع الجنود من القفول رواجعاً تبأ له بالمنديات قفول⁽¹⁾

جُبِن الدماسق وجهلهم بالحرب

ويتوسّع في الهجو، فينفي عنه صفة المُلك، كأنه يعلم أن الدمستق افتك الإمبراطورية من أصحابها الشرعيين إثر انقلاب عسكري. أولعله يحقره بين ملوك العصر، وخصوصاً بالمقارنة مع المعز، فهو قزم بين العمالقة :

- 37/40 رمث الملوك فلم بين لك بيتها شخص ولا سيما، وأنت ضئيل
38 أتقدمأ فيهم وأنت مؤخر؟ وتشبها بهم، وأنت دخيل؟
39 ماذا يؤمل جحدّر، في باعه قصر، وفي باع الخلافة طول؟

لكن هذه القصيدة الأربعين تطلّعنا على حقائق تاريخية لم يستطع الشاعر إخفاءها رغم قدرته على الهجو والانتقاص والاحتيال في تأويل الأحداث : ذلك أن جانباً من الأسرى المسلمين ربّما اعتنقوا دين النصرانية، إمّا عن رهبة أو عن رغبة، كما لاحظ ماريوس كانار، وقد نقل عن المسعودي أن بعض هؤلاء المرتدين جندوا في العساكر الرومية فكان منهم فيلق يضم اثني عشر ألف فارس من العرب⁽²⁾. ومهما يكن من أمر هؤلاء الأسرى الذين « برثوا من الإسلام » خوفاً من السيوف المسلطة على رقابهم، فإن الشاعر لا يقبل لهم هذا العذر ويلومهم على قلة صبرهم :

- 72/40 برثت من الإسلام تحت سيوفه ألا اعتداد الصبر، وهو جميل؟

(1) المنديات : ما تندي له الجبين من فضائح وهزائم ونحوها .

(2) ما . كانار : العلاقات Les relations...43 .

73 سَلَكْتَ سَبِيلَ الْمَلْحَدِينَ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى الْحَيَاةِ سَبِيلُ

ويؤكد لهم أنهم خسروا الدنيا والآخرة ، علاوة على الشرف المضاع :
75/40 فَالْحَرَّ قَدْ يَفْتَنِي الْحَيَاءُ حَفِيزَةً وَهُوَ الْجَنِيبُ إِلَى الرَّدَى الْمَمْلُوءُ

والخزي الذي لحقهم خزي مضاعف ، لأنهم استسلموا الى أعداء زائفي المسلطان مكذوبي الإقدام ، أشبه بالنوق اللقاح منهم بالفحول المصاعيب :

76/40 هَلْ كَانَ يُعْرِفُ لِلْبَطَارِقِ قَبْلَ ذَا بَأْسٍ ، وَرَأَيْ فِي الْجِلَادِ أَصِيلُ؟
77 أَنَّى لَهُمْ هِمَمٌ؟ وَمِنْ عَجَبٍ: مَتَى غَدَتِ اللَّقَاحُ الْخَوْرُ وَهِيَ فَحُولُ!

في هذه القصيدة الأربعين كما في غيرها يهتز الشاعر نخوة وتخمطاً كلما ذكر المعز في قوته والروم في هزائمهم المتوالية . ويوسع خياله إلى الافتراض غير المعقول ، إلا أنه من التصورات العادية في الملاحم والشعر الحماسي عامة : فالبحر أصبح من أنصار الإمام يغرق الأسطول الرومي ويلقي بعساكره إلى السيف الفاطمي : [كامل]

88/44 وَالْمَوْجُ مِنْ أَنْصَارِ بَأْسِكَ خَلَفَهَا فَالْمَوْجُ يَغْرِقُهَا ، وَسَيْفُكَ يَقْتُلُ⁽¹⁾

وشيوخ الروم من هيئته صاروا يوصون أبناءهم بمسالمة : [كامل]
55/1 جَهْلَ الْبَطَارِقُ أَنَّهُ الْمَلِكُ الَّذِي أَوْصَى الْبَنِينَ بِسِلْمِهِ الْآبَاءُ

ونسأؤهم يتشاءم من بكل مولود ذكر لأن ماله الحتمي هو القتل بالسلاح الإمامي ، فهن جميعاً نكالي ملأن « أرض قسطنطين » بصراخهن : [بسيط]

44/12 لَوْ كَانَ لِلرُّومِ عِلْمٌ بِالَّذِي لَقِيَتْ مَا هُنْتُكُ أَمْ بِطَرِيقِ بِمَوْلُودِ
45 لَمْ يَبْقَ فِي أَرْضِ قَسْطَنْطِينِ مُشْرِكَةٌ إِلَّا وَقَدْ خَصَّهَا تُكُلُ بِمَفْقُودِ
46 أَرْضُ أَقْمَتْ رَنِيناً فِي مَاتِمِهَا يُغْنِي الْحَمَائِمَ عَنْ سَجْعٍ وَتَغْرِيدِ

(1) ضمير التانيث يعود على الكتائب البيزنطية .

ومعلوم أن السخرية، والهُزء الثقيل والقهقهة المتشفية هي أيضاً من متطلبات الشعر الملحمي، إلى جانب السباب العالي والتقاذف الغليظ، حتى إنها صارت تُجمَع في الاصطلاح الغربي تحت اسم «الشتيمة الهوميرية»، نسبة إلى صاحب الإلياذة. وشاعرنا يلجأ بكثرة إلى هذا النوع من التهكم، فيتساءل مثلاً في براءة كاذبة: [طويل]

29/3 ولم أَرْ زَوَّاراً كسيفِكَ للعدى فهل عند هامِ الروم أهل وترحيب؟

غلبة الروم في المشرق تُعزى إلى انخزال العباسيين

هذه الشواهد الكثيرة من قصائده ضد الروم، لئن دلّت على أنّ الغرض الأساسي من الحرب هو الجهاد، فهي تدلّ أيضاً على اعتقاد الشاعر - ومن ورائه الأوساط الفاطمية - بأنّ الانتصارات التي أحرزها نقفور فقاس في الشام والجزيرة إنّما سمحت له بها الدولة العباسية بخذلانها وانصرافها عن واجب الجهاد، ممّا يبرّر عزم المعزّ على الإطاحة بخلافتهم الواهية كما اعتزم الإطاحة بحكّام قرطبة، وأولئك الذين تحالفوا صراحةً مع الروم المشركين واستنجدوا بأسطولهم ضدّ المعزّ⁽¹⁾. فالحروب التي يقودها ضدّ هؤلاء وأولئك، مثل الحملات التي قادها ضدّ المروانيين وأتباعهم، هي في الحقيقة جهادٌ واحدٌ يرمي إلى إحلال إمامة الحقّ على العالم الإسلاميّ بأسره، في انتظار أن يمتدّ سلطان الأئمة على الكون كلّ، لأنّ الله جعل لهم وراثته الأرض. وهكذا يرى الشاعر في تقبيل المعزّ التراب عند ورود البشري بانتصار المجاز، رمزاً لامتلاك الأرض وبادرةً نحو المال الموعود: [كامل]

24/40 أنت الذي تَرُثُ البلادَ لديهم فالأرضُ فألٌ والنسجودُ دليلُ

(1) يقول القاضي النعمان: كتب الناصر إلى طاغية الروم يسأله النصر... فأجابه إلى ذلك وجاءت أساطيل الروم من القسطنطينية ومراكب بني أمية من الأندلس (المجالس والمسارير،

الفصل العاشر

شاعريّة ابن هانئ

أشرنا في الفصلين السادس والسابع إلى الجوانب التقليديّة من شعر صاحبنا ، كما تظهر من الأغراض المطروقة أولاً ، وهي المدح والرثاء ، ثم من اتّباعه التقسيم القديم للقصيدة . لكنّ هذه التبعيّة لم تكن دائمة مطلقة . فكثيراً ما يتحرّر مثلاً من الاستهلال الغزليّ فيدخل الى المدح وثباً ، أو ، إذا بدأ باستهلال ، فقد يعوّض فيه الوقفة على الاطلاع بوصف مشهد ليليّ أو عارض من البرق والسحاب . وقد يعوّض الرحلة المعهودة الى الممدوح بوصف مجلس لهو أو بتأمّلات حكميّة في انقضاء الشبيبة وصروف الزمان .

¹ ورأينا أنّ شخصيّة الشاعر لا تكمن في القصائد الكبيرة الرسميّة بقدر ما تظهر في المقطوعات الصغيرة والأبيات المرتجلة التي يعبر فيها عن ميوله وآرائه وهواجسه في حرّية لا يكتبتها الوقوف امام الخليفة ورجال دولته .

ونعتمد في هذا الفصل دراسة شخصيّة ابن هانئ الشعريّة لنقف على ما يبدو عنده تقليديّاً مطبوعاً بطابع القدماء ، وما تظهر فيه سمات الطرافة والغنائيّة الصادقة .

الأغراض

لو اتّخذنا الأغراض معياراً ، لقلنا إنّ ابن هانئ مثال للشعراء

التقليديين . ذلك أن المدح يستأثر بالقسم الأوفر من الديوان : ثلاث وستون قصيدة من سبعين ، فإذا أضفنا إليها المراثي الثلاث - والرثاء كما يقول أبو هلال العسكري ، إنما هو مدح الميت⁽¹⁾ - صارت الأغلبية المطلقة لهذا الغرض القديم المعهود المعروف الذي به عاشت أمم من الشعراء ولا تزال .

أما القصائد الأربع الباقية ، فقد حللناها بإيجاز ، وتوقفنا قليلاً عند القصيدة السادسة والخمسين في الأكل ، فبيّنا قدرة الشاعر على الوصف الساخر وقلنا لعلّها تشير إلى حادثة واقعية ، سيّما وأن الشاعر ذكر رقادة ، وهي المدينة الوحيدة من إفريقية والمغرب التي ذكرت في كامل الديوان ؛ فقد يكون لقي هذا التثور المفتوح كما قال فطاب له أن يصف ما هاله منه من قدرة على الاتهام تفكّها وتندراً ، بعيداً عن كل رغبة أو رهبة . فلذلك لم نعتبرها هجاءً لفقدان الدافع ، من حقد أو ثار أو غضب .

المحاكاة الصريحة

والقصيدة التاسعة والأربعون تخرج أيضاً عن الشعر الرسمي إلا أنها تقليد محض : فهي نوع من « التمرين » يحاكي به الشاعر مغامرات عمر بن أبي ربيعة الغزلية فيجمع المعاني المعهودة ، من مراقبة للحي في انتظار الليل ، ثم ارتياع الحبيبة حين برز لها وسط الظلام وتسكينه لها بالضم والقبلات : [طويل]

11/49 طرقت فتاة الحي إذ نام أهلها وقد قام ليلُ العاشقين على قدّم
13 . . . فسكنت من إرعادها ، وهي هَوْنَةٌ ضعيفة طي الخصر ، في لحظها سقم

وانتبه الرقيب اليه عند الفجر حين وجب الفراق . فما العمل ؟ إذا كان

(1) ك . الصناعتين 137 .

المخزوميّ يجنح الى التنكر في مُطَرَفِ الأخت الصغرى وبردها⁽¹⁾ وإذا تعلّق الفرزدقُ بـ « أسباب طوالٍ » فتدلّى « من ثمانين قامّة »⁽²⁾ وأفلت من القوم ، فإنّ صاحبنا يأنف من هذه الحيل النسائيّة بل يجابه أهل الفتاة فيسلّ سيفه ويردي الرقيب قتيلاً . ولكنه في آخر القصيدة يعلمنا بأنّه لم يقتل أحداً وإنّما سار في كلّ هذه الرواية على نهج عمرو . ولعلّه يعني أمراً القيس وهو أيضاً صاحب مغامراتٍ مع العذراء ، والمرضع ، وربما خلط الشاعر بين أمرىء القيس وأبيه الذي يدعى « ابن عمرو حجر »⁽³⁾ .

وكذلك القصيدة الرابعة والثلاثون تقليد ومحاكاة . ولكنه هنا يجاري أبا نواس في مغامرة خمريّة الى حانة خارج البلد فيذكر غضب الخمار وقد أوقف من نومه ، وهو بالطبع من أهل الكتاب ، ثمّ طمعه في المال الوفير حين عرف الطّراق ، ثمّ إشعاع الخمرة وهي تنصبّ هادرةً من دَنّها المَبْزول ، رقيقةً لطيفةً مثل عقيدة الزناديق : [رجز]

7/34 لم يُبق منها الدنّ للراوق إلاّ كيّناً ليس بالحقيق
مثل يقين الملحد الزنديق كأنّه حشاشة المَشوق

ويختتم التمرين بنصائح سلوكيّة للندامي على غرار ما يدعو إليه أبو نواس من رفيق الصديق المنتشي :

21/34 لا تجزّين البرّ بالعقوق واغنّ عن العدو بالصديق
وواصل الصبوح بالغبوق !

هاتان قصيدتان لا تعبّران عن تجربة واقعيّة ، ولئن عبّرنا عن شيء ، فعن محاولة الشاعر في التخلص من قيود الشعر الرسميّ ، وتوقّه إلى خوض مثل

(1) ديوانه ص 100 .

(2) ديوانه ص 261 .

(3) « وهرّ تصيد قلوب الرجال ، وأفلك منها ابن عمرو حُجْر » ديوانه 95 .

هذه المغامرات التي يحرمُ منها منصبُه كشاعر مذهبيّ في بلاط الإمام . وقد تكونان أيضاً محاولةً منه في اختبار قدرته على النظم في القصص الغزليّ والخمريّ حتى يظهر بمظهر الشاعر المكتمل الآلة ، مثل كبار الأسلاف كعمر والفرزدق وأبي نواس .

وفي هذا الإطار بالذات ، أي موقف ابن هانئ من مشاهير الشعراء ، تندرج القصيدة الحادية والعشرون عن المتنبي . وهي غريبة من ناحيتين : أولاً ، لأنها لا تطرُق غرضاً واضحاً ، فهي في آن واحد نقد أدبيّ وهجاء وفخر . وهي غريبة أيضاً لأن صاحبنا فيها متذبذب إزاء المتنبي بين الانتقاص له والغيرة من منزلته في الشعر وعند المعاصرين ، وقد تنبّه الى هذا الاضطراب المستشرق الإسباني الكبير قارثيا - قوميث في دراسته القيّمة لهذه القصيدة .

لكنّ المقارنة بين المتنبي وابن هانئ ، وقد راجت عند القدماء والمحدثين ، تستدعي منا وقفة طويلة نرجئها إلى حين .

أداته الشعرية - القصيدة

نظم ابن هانئ شعره في قصائد متفاوتة الطول تتراوح بين أحد عشر بيتاً ومائة بيت . وتبلغ القصيدة السابعة والأربعون مائتي بيت . وقد علّلنا هذا الطول المفرط بافتراض أنها قد تكون أرسلت من الزاب الى مصر فكانت تتوجّه للقراءة المتأنية من الممدوح لا للإنشاد أمامه . وقد جمع فيها الشاعر كل المعاني المذهبية وكل الشعارات الإسماعيلية حتى لكأنها - وهي آخر ما نظم - وصيّه إلى من يأتي بعده من شعراء الدعوة . وبقية القصائد لا تتجاوز مائة بيت إلا نادراً : هي سبع من سبعين . والمدائح المعزية بوجه عام أطول من شعر المسيلة . وقد افترضنا أيضاً أن الشاعر ربّما كان أكثر تحرراً إزاء الأميرين

الأندلسيين منه إزاء الخليفة الفاطمي فيجيز لنفسه ، من تصرف في حجم المدحة وتنوع في الأغراض ، ما لا يتجاسر عليه مع الإمام . هذا مع إمكان افتراض آخر ، وهو أنَّ القصائد الطويلة قد تكون ، مثل الميمية الأخيرة ، نُظِّمَتْ لُتُقْرَأَ على الممدوح لا لينشدَها الناظم .

القوافي

يُقَسَّمُ المعرِّي في البسطة الضافية عن علم القوافي ، التي قدَّم بها لديوان اللزوميات ، يُقَسَّمُ القوافي إلى دُلِّلٍ ونُفَّرٍ وحُوشٍ : « فالدُّلُّ ما كُثِرَ على الألسن ، وهي عليه في القديم والحديث . والنُّفَرُ ما هو أَقَلُّ استعمالاً من غيره كالجيم والزاي ونحو ذلك . والحوشُ التي تُهَجَّرُ فلا تُسْتَعْمَلُ »⁽¹⁾ . وصاحبنا يبني قصائده على القوافي الدلِّل في الأغلب ، ولا يصل به حَبَّه للغريب إلى حدِّ تغليب النُّفَر أو الإكثار من القوافي الحوش . ولكنه لا يستنكف من استعمال الرويِّ الصعب . فإذا قارنَّا قوافيه بما عند شعراء معاصرين له أو متأخرين عنه قليلاً ، كأبي فراس والمتنبي وابن زيدون⁽²⁾ ، ظفرنا بالجدول التالي، الذي نحصي فيه عدد الأبيات المبنية على بعض الحروف غير المأنوسة :

(1) ج 37/1 .

(2) المتنبي بشرح العكبري .

أبو فراس ، طبعة صادر .

ابن زيدون ، طبعة رشيد الكيلاني ، القاهرة 1956 .

الرويّ	ابن هانئ	المتنبّي	أبو فراس	ابن زيدون
ث	36	0	5	8
ج	39	12	5	0
خ	64	0	0	0
ذ	2	0	0	0
ش	7	36	0	8
ص	46	0	0	0
الجملة	194	48	10	16

فكأنّه أقلُّ تحفظاً من هؤلاء الشعراء وأكثر جرأةً في التماس الجرس الغريب الذي قد تستقله الأذن وتمجّه النفس. على أنّ هذه النسبة العالية في القوافي «التفرّ» عنده لا تنفي أنّ نسبة القوافي الذلل متقاربة عنده وعندهم ففي المقدمة يأتي رويّ الميم تليه اللام والراء والنون الخ . . .

والقافية عنده مطلقة غالباً ، ولا يجنح إلى الرويّ الساكن إلّا في سبع قصائد ، أي عُشر الديوان تقريباً . ونحن لا نستنتج من هذا شيئاً ، سوى أنّه واثق من نفسه لا يخشى إقواءً أو صعوبة في إعراب أواخر الأبيات .

وختاماً لحديثنا عن القافية ، نقول إنّنا نرفض الرأي القائل بأن بعض الحروف أوفق من غيرها لبعض الأغراض . وقد أبدى هذه الفكرة الشيخ سليمان البستانيّ معرّب الإلياذة فقال إنّ القاف مثلاً أوفق للشعر الحماسيّ ، والراء واللام أصلح للوصف الخ . . . بل نتبع رأي المعرّي في أنّ الرويّ «أثبت حروف البيت، وعليه تبنى المنظومات، وهو يكون من أيّ حروف المعجم وقّع . . .»⁽¹⁾ . فحرية الشاعر في اختيار الرويّ تامة ولا تُحدّ إلّا بطبيعة الجرس الذي يرتضيه لشعره من جهة ، وهذه قضية ذوق واختيار ،

(1) مقدّمة اللزوميّات ص 6 . أما رأي البستاني فقد نقلناه عن صفاء خلوصي : فنّ . . . 257 .

وبوفرة المواد التي يكون الحرف المقصود لأمها ، ومعلوم أن الكلمات التي تختم بالطاء أو الخاء أو الغين نادرة قليلة إذا قيست بالكلمات التي لأمها باء أو دال أو ميم⁽¹⁾ .

الأوزان

يستخدم شاعرنا البحور المتينة الوفيرة المقاطع كالطويل والكامل والبسيط ، وهي التي تأتي عنده في المقدمة :

الطويل : 36 قصيدة ومقطوعة .

الكامل : 33 قصيدة ومقطوعة .

البسيط : 19 قصيدة ومقطوعة .

تليها في نسبة قليلة جداً :

الخفيف : 7 قصائد و 3 مقطوعات .

السريع : 5 قصائد و 4 مقطوعات .

المتقارب : 4 قصائد و مقطوعة واحدة .

الرمل : 4 قصائد ومقطوعتان .

المنسرح : 3 قصائد ومقطوعة واحدة .

الرجز : 3 منظومات ومقطوعتان .

الرمل : مقطوعة واحدة .

وقد تخلّى عن البحور القصيرة كالمجث والمضارع ، وأهمّل المعجزات ، حتّى مخّلع البسيط ، فلم ينظم عليها قطّ ، حتّى في الشعر البعيد عن الدعوة والمذهب ، كوصف مجلس أنس أو زهرة رمان أو تغزل بقينة أو غلام . وهنا أيضاً نرفض فكرة التخصّص . فكلّ الأوزان العربية - ما لم

(1) ابراهيم أنيس : موسيقى الشعر ص 247 ، وهو يُقرّ القلّة ويرفض التناثر الصوتي .

تنقص كمّية مقاطعها الى حدّ أن تصبح مجزوءة أو مشطوبة - صالحة لكل الأغراض . دليلنا عل هذا الشمول أنّ المراثي الثلاث نُظِمَت على الكامل فالرمل فالمتقارب ، وأنّ المتقارب نجده أيضاً في مدحة وفي مقطوعة في الشكوى .

ونبيّن «كلاسيكية» شاعرنا، أي أتباعه لسنة القدماء في اختيار الأوزان، من هذا الجدول الذي أضفنا اليه أوزان المفضّليات والمعلقات العشر ، علاوة على بحور الشعراء الثلاثة الذين اخترناهم نموذجاً للمقارنة :

البحور	ابن هانيء	المتنبّي	أبو فراس	ابن زيدون	المفضّليات	المعلقات
الطويل	36	58	65	35	45	3
الكامل	33	42	60	25	27	2
البيسط	19	45	32	25	19	3
الخفيف	7	21	15	15	3	1
السريع	5	8	11	11	5	
المتقارب	4	25	13	10	10	
الرّمل	4	2	7	18	3	
المنسرح	3	21	3	2	2	
الرجز	3	10	8	2		
الوافر	1	46	39	14	18	1
المجتنّ			5	6		
الهمز			7			

التقسيم الثلاثي للقصيدة

قَتَنَ نقاد القرن الثالث القسمَ الثلاثيَّ لقصيدة المدح ، فجعلوا من الوقوف على الأطلال وتذكّر الأحبة وذكر الرحلة الطويلة الى الممدوح ،

مراحل واجبة قبل الولوج الى المدح⁽¹⁾ . وقد ضاق الشعراء بهذه القواعد حتى رأينا المتنبي يسخر من هذا الغزل الواجب : [طويل]

إذا كان مدحُ فالنسيب المقدمُ أكلُ فصيحٍ قال شعراً متىّم ؟

وهي قواعد على الحقيقة تأخذ بالعامّ الأعمّ والمتداول المنتشر كجميع القوانين ، ولا تنفي الشذوذ والخروج عن السّنة المتّبعة . فكان فحول الأقدمين ينسبون حين يطيب لهم النسيب ، ويتركونه حين لا تنشط نفوسهم . وكذلك ابن هانيء ، ينسب أحياناً ، ويترك النسيب أحياناً ، أو يحوّل الاستهلال من الغزل الى الوصف ، كما يظهر من هذا التحليل لعشر من قصائده المعروفة :

1 - القصيدة 9 في مدح المعزّ . 59 بيتاً مطلعها [كامل] :

هل كان ضَمَعَ بالعبير الريحاً مُزَنُّ يَهْزُ البرقُ فيه صفيحاً ؟

من بيت 1 الى بيت 10 : نسيب : طيف الحبيب يزور الشاعر المُسَهَّد .

البيت 11 : اشارة خاطفة الى الرحلة الى الإمام بدون وصف .

الآيات 12 - 59 : مدح الخليفة بالمعاني التقليدية والمذهبية .

2 - القصيدة 35 في مدح المعزّ أيضاً . 41 بيتاً ومطلعها [خفيف] :

قمن في مأتمٍ على العشاق ولبسنَ الحدادَ في الأحداقِ

1 - 8 : نسيب : الشاعر يبكي رحيل الأحبة .

9 - 20 : ذكرى أيام الهناء . وصف أباريق الخمر .

21 - 41 : مدح الخليفة .

3 - القصيدة 40 في المعزّ . 114 بيتاً ومطلعها [كامل] :

(1) انظر مقدّمة الشعر والشعراء لابن قتيبة .

يَوْمٌ عَرِيضٌ فِي الْفَخَارِ طَوِيلٌ مَا تَنْقُضِي غَرْرَ لَهُ وَحْجُولُ
لَا نَسِيبَ فِيهَا وَلَا وَصْفَ لِلرَّاحِلَةِ . يَقْتَصِرُ الشَّاعِرُ عَلَى مَدْحِ الْإِمَامِ وَشَتْمِ
خَصْمِهِ .

4 - القصيدة 3 في المعزّ، 73 بيتاً ، مطلعها [طويل] :

أَقُولُ دُمِّيْ وَهِيَ الْحَسَانُ الرَّعَائِبُ وَمِنْ دُونَ أَسْتَارِ الْقَبَابِ مُحَارِبُ
19-1 : نَسِيبُ : لَوْعَةُ الشَّاعِرِ بَعْدَ تَرْحَلِ الْخَلِيطِ .
61-20 : مَدْحُ الْخَلِيفَةِ بِالشِّيمِ التَّقْلِيدِيَّةِ وَالْخِصَالِ الْإِمَامِيَّةِ مَعاً .
69-62 : شَكْوَى الشَّاعِرِ مِنَ الْحَسَادِ .
73-70 : عَوْدَةُ إِلَى الْمَدْحِ .

5 - القصيدة 58 في المعزّ . 86 بيتاً ، مطلعها [مقارب] :

تَقَدَّمَ خَطِي أَوْ تَأَخَّرَ خَطِي فَإِنَّ الشَّبَابَ مَشَى الْقَهْقَرَى
11-1 : نَسِيبُ .
28-12 : وَصْفُ الْخَيْلِ .
48-29 : شَغَفُ الْمَعَزِّ بِالصَّافِنَاتِ الْجَيَادِ .
86-49 : مَدْحُ الْمَعَزِّ سِيَاسِيّاً وَمَذْهَبِيّاً .

6 - القصيدة 27 في مدح جوهر . 105 أبيات ، مطلعها [طويل] :

رَأَيْتُ بَعَيْنِي فَوْقَ مَا كُنْتُ أَسْمَعُ
وَقَدْ رَاعَنِي يَوْمٌ مِنَ الْحَشْرِ أَرْوَعُ
14-1 : عَظَمَةُ هَذَا الْجَيْشِ فِي الْعِدَّةِ وَالْعَدِيدِ .
30-15 : وَصْفُ مَدَقِّقٍ لِلْعِتَادِ الْحَرْبِيِّ .
105-31 : مَدْحُ جَوْهَرٍ بِخِصَالِهِ الْإِدَارِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْحَرْبِيَّةِ ، الْإِشَادَةُ
بَوْلَايَةِ الْفَاطِمِيِّ .

7 - القصيدة 43 في المعز . 95 بيتاً ، مطلعها [بسيط] :

كدأبك آبن نبيّ الله لم يزلِ قتل الملوك ونقل الملك والدول
لا نسيب فيها ، وهي مخصّصة بأكملها للإشادة بالممدوح .

8 - القصيدة 63 في بني حمدون . 84 بيتاً ، مطلعها [طويل] :

ألا أيّها الوادي المقدّس بالندی وأهل الندى ، قلبي اليك مشوقُ

13-1 : تحية الشاعر لجعفر من بعيد .

33-14 : مدح يحيى بالتجربة الحربية .

50-34 : وصف خيل أهداها يحيى الى شقيقه .

66-51 : خصال جعفر .

75-67 : وفاء الشاعر للأخوين ، وشكره معروفهما .

84-76 : عود الى مدح بني حمدون .

فلا نسيب هنا أيضاً ، ولا وصف للراحلة .

9 - القصيدة 57 في إبراهيم بن جعفر . 100 بيت ، مطلعها [كامل] :

الشمسُ عنه كليلة أجفانها عبرى يضيق بسرّها كتمانها

38-1 : وصف القصر الذي بناه جعفر لابنه .

64-39 : قسم خمريّ : تحريض على خلع العذار .

93-65 : مدح إبراهيم ، وهو سليل جعفر في المجد .

100-94 : اعتراف بجميل بني حمدون .

فالنسيب متروك هنا أيضاً ، وكذلك وصف الرحلة والدابة .

10 - القصيدة 39 في يحيى بن حمدون . 43 بيتاً ، مطلعها [كامل] :

فتكاتُ طرفكِ أم سيوفُ أبيك ، وكؤوسُ خمريّ أم مراشفُ فيك؟

10-1 : نسيب .

33-11 : مدح يحيى ، سيف الدعوة المسلول .

38-34 : وصف الخيل .

43-39 : عود إلى خصال الممدوح الحريّة .

فالنسيب يحضر ويغيب في هذه المدائح العشر ، وكذلك القسم الوصفي ، إن وُجد ، فهو لا يتعلّق ضرورة بالرحلة إلى الممدوح ولا يصف الناقة ، بل يحوّل الشاعر إلى وصف مجلس لهو أو إلى وصف خيل أو وصف قصر ؛ وقد يُعرض عنه تماماً .

ولنحلّل الآن في شيء من التفصيل إحدى المراثي ، كمرثية حفيد جعفر ابن حمدون ، وهي دليّة ذات 97 بيتاً مطلعها [رمل] :

وهب الدهر نفيساً فاستردّ ربّما جاد لئيم فحسّد

13-1 : خواطر حكميّة حول الموت والحياة : خداع الدهر الذي يعطي بيد ويأخذ بالأخرى . شكوى الشاعر من الزمان الذي ابتلاه غير ما مرّة .

25-14 : مثال من خداع الدهر : أخذ هذا الطفل وهو صبيّ عاجز عن دفعه . ولو عاش لكان فيه فخر العرب جميعاً .

40-26 : لوعة أهله وذويه . حتى الأبطال المحنّكون يبيكونه بالدمع الغزير .

51-41 : لا قوّة تثبت أمام الموت ، ولا حتى قوّة جعفر الحريّة .
64-52 : دعوة إلى التصبّر : الموت مآل كلّ كائن . والنجل التحق بالجدّ وهكذا فالشبل رجع إلى الليث .

90-65 : الموت لا يترك حيّاً : لا القوي ولا الضعيف ، لا الطيّب ولا الخبيث ، الأسد في عرينه ، والنسر في وكره ، الطيبة الوديعه والأفعى المختلة ، كلّ لا يبيقيهم الحدثان .

97-91 : عود إلى الخواطر المتشائمة حول حتمية الهلاك وقصر الحياة .

وهكذا نرى أنّ تعلق ابن هانيء بمثال الأقدمين لا يمنعه من الخروج أحياناً عن جادّتهم فيسلك مسلك المولّدين الذين جدّدوا الشعر بمقدار ، مثل البحتري وأبي تمام والمنتبي . فهو يجمع بين الرصيد الثقافي الموروث عن الجاهليين والصنعة البلاغية التي برّز فيها أبو تمام ودونها ابن المعتز في كتاب « البديع » .

الصنعة البلاغية : الاستعارة وأصناف المجاز

يفرط ابن هانيء في استخدام أساليب المجاز ، من التشبيه العاديّ البسيط الى الاستعارة البعيدة الغور . وقد سبق أن ذكرنا بعض النماذج أثناء درسنا للمعاني والأغراض عنده . ونسوق الآن بعض الأمثلة الأخرى ، زيادةً في الاطلاع على أسلوب الشاعر . فهذه مثلاً وسيلة للتعبير عن قصر ليلة الوصال ، يحشر فيها الشاعر ثلاثة تشابه متتالية : [كامل]

- 19/1 لبست بياض الصبح حتّى خلّتها فيه نجاشياً عليه قباء
20 حتّى بدتْ ، والبدرُ في سربالها فكأنّها خيفانةٌ صدراءُ
21 ثمّ انتحى فيها الصديقُ ، فأدبرتُ فكأنّها وحشيّةٌ عفراءُ⁽¹⁾

وقد قصد الشاعر الى الشكوى من سرعة انقضاء الليل التي حملته على ذمّ كلّ الليالي بالمقارنة مع ليلة الوصل :

- 18/1 ذمّ الليالي بعدَ ليلتنا التي سلّفت ، كما ذمّ الفراق لقاءً

فعبّر عن هذه السرعة بالتشبيهين الأخيرين ، بالفرس ، وبالظبية ، وكان

(1) النجاشي : ملك الحبشة ويعني به الأسود . والبقاء الرداء . والخيفانة في الأصل الجراة وصارت تعني الفرس لدقّة مفاصله ، والصدراء ذات البياض على صدرها وانتحى : اتخذ مكانه والصديق : ضوء الفجر والوحشيّة : الغزالة .

تشبيه واحدٌ يكفيه ، ولكنّ تداخل البياض في السواد تدريجيّ ، فاضطرّ الى التمهيد بذكر الخيفانة فأطال المشهد وزاده تفصيلاً . أمّا تشبيه الظلام الممزوج بنور الصبح بالنجاشيّ الملتفّ بعباءة بيضاء ، مع الاستعارة في « لبست الليلة بياض الصبح » ، ففيه مقابلة بين بياض الوصل وسواد الفراق وقد سبقت له المقابلة بين سواد المقلة وبياض سائر العين في مطلع القصيدة ، ولكن في معنى آخر . وهكذا نجد في الأبيات الثلاثة الاستعارة والتشبيه والمقابلة ، إلى جانب المشهد المتواصل ، أي ما يسمّيه أهل البلاغة « التشبيه التمثيلي » . ونلاحظ عَرَضاً أنّ الشاعر نسيّ الشكوى بعد البيت الثامن عشرَ فاهتمّ بالوصف فقط ، كما طاب له أن يتخيّلهُ . والشاعر شغوف بوصف النجوم كما تشهد به القصيدة الحادية والثلاثون الآتي تحليلها . والشعر العربيّ بل اللغة نفسها بوجه عامّ ، يردّد بكثرة المقابلة بين البياض ، لون كل خير ، والسواد ، عنوان كل مصيبة : فلا غرابة أن يعود شاعرنا مراراً إلى وصف الليل وقد بدأت جحافلُهُ تفرّ أمام عسكر الصباح ويعمّق فكرة الصراع ويستفرغ صورة الحرب ، فيلاحظ تكاثر النجوم مع قدوم الفجر فيتخيّل أنّ الظلام ، وقد أعجله النورُ ، نشر تاجه في هربه كأنه ملك مهزوم : [كامل]

- 9/25 والفجرُ من تلك الملاءة صاحبٌ والليل في منقَدَ تلك الأقمصِ
 10 قد بات يطلني سنّاً ، حتّى إذا عجل الصباح به ، فلم يتربّص
 11 ألقى مؤلّفة النجوم قلائداً من كلّ إكليلٍ عليه مفصّص

وهنا يشكو بالعكس طول الليل ، ليل المسهّد، ويتوق الى الصبح الذي يجلي الهموم ، فأدخل مشاعره في البيت العاشر ، ولكنّه أعتمد كما في المثال السابق ، على استعارة الملبوس ، الملاءة للصبح والقمصان للظلام ، وعلى المقابلة البارزة في شكل تعادليّ بين شطري البيت التاسع .

وإلى مثل هذه المحسّنات المعنويّة وهذه الصور البديعيّة تنتسب مقدّمة القصيدة « الفلكيّة » التي عوض فيها النسيب بوصفٍ مطوّل لنجوم السماء

وأفلاكها ، وبتصويرٍ مدقّق للأشكال المختلفة التي تتخذها في القبة السوداء :
27 بيتاً - من 71 - لا يخلو واحدٌ من تشبيه أو استعارة أو مشهدٍ تمثيلي . وقد
أعطى « النغمة » منذ البيت الأول : فالليلة حسناء ذات شعرٍ دجوجي ، وقد
تقلّدت في أذنيها كوكبَ الجوزاء أخراًصاً برّاقه : [طويل]

1/31 أليتلنا إذ أرسلتُ وارداً وحفاً وبتنا نرى الجوزاء في أذنِها شتفاً⁽¹⁾

ويُثني بمشهدٍ خمريّ غزليّ يصف الساقى وقد لعبت به المدام هو أيضاً
فزادته تشنياً على تننّ :

3/31 أغنّ غضيضٌ خفّف اللينُ قدّه وثقلّت الصهباءُ أجفانهُ الوطفأ
4 ولم يُبقِ إرعاشُ المدام له يداً ولم يُبقِ إعناتُ الشّبي له عطفأ

ولكنه لا يطيل التغزل بهذا الغلام ويعود إلى وصف النجوم ، وكأنّه يريدُ
منه أن يكونُ برهاناً على قدرته الإبداعية ، ولا ننسى أن القصيدة هي أولُ
شعرٍ أنشده بالمسيلة ، فبقاؤه في خدمة الأخوين مشروط باستحسانهما لها .
فيضع الإطار العام ، وهو الصراع بين الليل والنهار ، والقتال المعهود بين
الظلمة والنور ، بين جحافل الظلام وجيش الصباح :

10/31 وقد ولّت الظلماء تقفو نجومها
وقد قام جيش الفجر لليل واصطفأ

ثم يأتي التفصيل ، كل كوكب ، وقد استعدّ للأفول ، يتخذ في السماء
التي خُطت بالبياض صورة يترجم لها الشاعر بتشبيه جديد ، بل غريب أحياناً
في بعض متعلقاته ، كهذه اليد التي لا يزال الظلام يخفيها فلم تظهر منها إلا
الإصبع المزدانة بالخاتم :

11/31 وولّت نجومٌ للشرّيا كأنّها خواتيمُ تبدو في بَنانٍ يدٍ تخفى

(1) الوارد : الشعر الطويل المنسبل .

وتعود الصورة الحربيّة ، فهذا الدبران يُتبع الثريّا بخيلِهِ وقد كانت الخيلُ
في كمين ، تستعدّ لنصرتها :

12/31 ومَرَّ على آثارها دبرانها كصاحب ردءٍ كُمنت خيلُهُ خلفاً

وكذلك الشعريّ تعبر على فرس ومعها المرزم كالفرس الجنيب ،
فيخترق الركب المجرّة كأنّه تهيبّ نثره الأسد وقد تعلّق به السماكان يرومان
قتله ، إلّا أنّ الأعزل منهما لا قبل له به فصار يقضم إصبعه حسرةً :

13/31 وأقبلت الشعريّ العبورُ مكبّةً بمرزَمها اليعبوبُ تجنبهُ طرفاً

14 وقد بادرتها أختها من ورائها لتخرق من ثنيّ مجرتها سجفًا

15 تخاف زئير الليث يقدّم نثره وبربر في الظلماء ينسفها نسفا

16 كأنّ السماكين اللذين تظاهرا على لبدتيه ضامنان له حتفا

17 فذا رامح يهوي إليه سنانه وذا أعزل قد عض أنمله لهفا

ويواصل التعداد والتفصيل ، كأنّه فلكيّ يلقي درساً أمام خريطةٍ من
السماء بنجومها ، ولكنه يزيل هذا الوهم بسلسلة « كأنّ » التي تبدأ بها الأحد
عشر بيتاً الموالية : فاداة التشبيه تُرجعها إلى الأدب والفنّ والخيال ، فنجم
الرقيب كالنسر يرقب من وكره الأفق ، أو ينقي ريشه ، وبنات نعش كما يدلّ
اسمهنّ طباء يحملن رشاً ميتاً إلى قبره :

18/31 كأنّ رقيب النجم أجدلّ مرقبٍ يقلّب تحت الليل في ريشه طرفاً

19 كأنّ بني نعش ونعشاً مطافلٌ بوجرة قد أضلّلن في مهمه خشفًا

وقد لمّحنا عرضاً إلى ضربٍ من المحسنات المعنويّة ، وهو أن يستخدم
الاسم الاصطلاحيّ في حقيقته اللغويّة ، فيتناسى الشاعر أنّ ذلك الاسم فقدّ
صفته المجازيّة وصار بمثابة العلم أو الاسم العاديّ ، إلّا أنّه يرجعه من جديد
إلى الحقيقة ويستعمله استعمالاً مجازيّاً ، كما يفعل المتنبيّ مثلاً بعبارة
« جناح » الجيش فيستخرج منها « الخوافي والقوادم » وقد أخذ الجناح - وهو

مجاز - مأخذ الحقيقة فذكر لوازم الريش⁽¹⁾ . وإلى مثل هذه الطريقة يجنح ابن هانئ في ذكر النجم الرامح فيجعل له رمحاً على الحقيقة ، والنجم الأعزل فيجرده من السلاح ، والرقيب على مرقبته وبنات نعش يحملن نعشاً الخ . . . ولا شك أن هذه الطريقة ، إذ تعود بالمجاز - الذي أصبح بالتداول حقيقة - إلى المجاز ، فيها شيء من الطرافة ، على شرط أن لا تكون مسترسلة دائماً .

ولنلاحظ أيضاً في البيت العشرين ذكر « وجرة » وهي بادية في جزيرة العرب ، مع أن المفروض أن صاحبنا يصف ليلاً مغرباً ، ولا المغرب ولا إفريقية يخلوان من الصحارى والبوادي والظباء . إلا أنه الرصيد الثقافي يعمل عمله في الذاكرة ، وسيكون لنا فيه حديث .

ثم يأتي دور سهيل في انفراده ، والسَّهْا في فتوره ، ومعلى القطب بين رأيته ، والنسر الواقع ، فيجرد منه صورة الريش المقطوع فلم يقدر على الطيران ، أما أخوه فقد صعد إلى القمر فاقتطع منه شطراً ، وبذلك فسّر صفتي الواقع والطائر :

- | | | |
|-------|--|---|
| 20/31 | كَأَنَّ سُهَيْلاً فِي مَطَالَعِ أَفْقِهِ | مُفَارِقِ الْفِ لَمْ يَجِدْ بَعْدَهُ الْفَأْ |
| 21 | كَأَنَّ سَهَاةَ عَاشِقٍ بَيْنَ عُودٍ | فَأَوْنَةً يَبْدُو، وَأَوْنَةً يَخْفَى |
| 22 | كَأَنَّ مَعْلَى قَطْبَهَا فَارِسٌ لَهُ | لِوَاءِ أَنْ مَرْكُوزَانَ، قَدْ كَرِهَ الزَّحْفَا |
| 23 | كَأَنَّ قَدَامَى النَّسْرِ، وَالنَّسْرُ وَقَعَ | قُصْبَصْنَ، فَلَمْ تَسْمُ الْخَوَافِي بِهِ ضَعْفَا |
| 24 | كَأَنَّ أَخَاهُ حِينَ دَوْمٍ طَائِراً | أَتَى دُونَ نَصْفِ الْبَدْرِ فَاخْتَطَفَ النِّصْفَا |

ويختم المشهد بعودة إلى القتال بين الليل والنهار ، فقد انهزم الظلام فترنح كالسكران ، ثم لاذ بالفرار أمام عسكر الفجر ، إلا أن الشاعر في هذه المرة مثل للمقابلة المعهودة بين البياض والسواد بصراع بين قائد تركي -

(1) في بيته المعروف :

ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم

والأتراك بيض - وقائد حبشي :

26/31 كأن ظلام الليل إذ مال ميلة
صريع مدام بات يشربها صرفا
27 كأن عمود الفجر خاقان عسكر
من الترك، نادى بالنجاشي فاستخفى

التشبيه المقلوب

بعد هذه الأبيات التي يتضمن كل واحد منها تشبيهاً في شكل صورة أو افتراض، يصل الشاعر الى المدح، مباشرة دون تدرج في التخلص. ولكن هذا الانتقال السريع ليس خاصية المولدين أو المحدثين، فقد يوجد عند القدماء أيضاً، وإن كان النقاد المنظرون يفضلون التخلص التدريجي. وقد بدأ شاعرنا بيت التخلص أيضاً بـ « كأن »، فهل اعتبر تكرار الأداة تخلصاً كافياً؟
إلا أن الأهم في البيت هو التشبيه المقلوب، فلواء الشمس، وقد انتصرت أخيراً على الظلام، هو الذي يشبه وجه الممدوح وقد تلاً حين أبصر بعدوه :

28/31 كأن لواء الشمس غرة جعفر رأى القرن فازدادت طلاقته ضعفاً

ومعلوم أن التشبيه المقلوب من الأساليب المحبوبة عند البلاغيين، لما يرون فيه من تقوية للمماثلة وتأكيد على وجه الشبه، بصورة تجعل الأمر المتحدث عنه أعظم في الصورة المقصودة من المثل الذي يتخذ عادةً معياراً لها. وشاعرنا يجنح كثيراً الى هذا التوكيد كأن يدعي أن البحر هو الذي يشبه الممدوح في جوده : [متقارب]

11/50 فأشبهك البحر إن قيل : ذا غطم، وهذا جواد خضم

والتوكيد والتقوية يجران عادةً الى الغلو، مثلما وقع في البيت التالي

الذي اشترك فيه التشبيه المقلوب مع المبالغة : [كامل]

29/53 لو كان في الطوفان جودٌ يمينه لم يُنَجِ نوحاً فلكه المشحونُ

وهنا قد خَفَّف المبالغة بحرف الافتراض ؛ ولكنه لا يلتبس دائماً مثل هذا التخفيف ، كأن يدَّعي أن جيش الممدوح غطى البحر بأسره : [كامل]
37/9 حتى إذا غَمَرَ البحارَ كتاباً ...

فلا تكفيه هذه المبالغة فيضيف افتراضاً لعله أقرب الى التفكه منه الى الجدّ ، وهو أن هذا الجيش لو شرب كل واحدٍ من أفرادهِ قطرة من البحر لَنَفِدَ ماؤه وجفّ :

... لو يرتشِفَن أجَاجَها لأمِيحَا

وأداة الشرط « لو » ، بوضعها الدلالي الذي جعلها « حرف امتناع لامتناع » ، أي تدلّ على صعوبة - بل استحالة - تحقيق الافتراض ، تسمح للشعراء بأنواع من المبالغة المشروعة ؛ فهذا المعزّ يتصرّف في الحظوظ والأعمار حتى لكأنه قادرٌ على إحياء الموتى :

22/9 نَعَشَ الجدودَ فلو يصفاحُ هالكاً ما وَسَدَّتُهُ يد المنون ضريحاً

ولكنّه يستغني أحياناً عن أداة التخفيف هذه ، فتأتي الفكرة غريبة بل ممجوجة : كأن يبرّر عُذوبة التقبيل بحلاوة الأفواه ، وحلاوتها مكتسبة من ذكرها لخِصال الممدوح : [كامل]

30/6 قد طَيَّبَ الأفواهَ طيبُ ثنائيه مِن أجلِ ذا نجدُ الثغورَ عذاباً

ولا شك أن هذا الإفراط في التخيّل وهذا الالتواء في التعبير عن الفكرة كانا محبّبين لدى الجمهور الذي يروج بينه هذا الشعر ، لا فرق بينه وبين جمهور بغداد أو حلب . فقد دخلت الصنعة الى المغرب أيضاً والأندلس ، وصارت من العادات والتقاليد التي يتبارى الشعراء في اتّباعها وفي توسيعها .

بهذا الميل الى التكلف نفسّر اعجاب النقاد طيلة عصور وعصور بهذا التشبيه الذي يبعث على الضحك ، حتى مع العلم أن العقرب هي خصلة الشعر :

وكانَ صفحةً خدّه وعذارُهُ تُفَاحُهُ رُمِيَتْ لَتَقْتُلَ عَقْرَبًا 46/4

الجناس

تتجاوز الصنعة حيّز التصوّر والخيالات إلى حيّز اللفظ ، فيختار الشاعر الكلمات التي يتكرّر فيها جرسٌ ما ، قصد إحداث وقع خاصّ في نفس السامع ، كالإكثار من حروف الإطباق للإشعار بضرب الطبول ونحوها ، أو من حروف الصفير للإيحاء بصلصلة السيوف . ذاك هو الجناس المستحبّ الذي يرمي الى تعزيز المعنى بالأصوات المناسبة والأجراس التي تخدمه . ولكن هيهات ، سرعان ما تركّوا هذه الغاية وصاروا يقصدون الجناس لذاته ، في نوع من البهلنة اللفظيّة ، خصوصاً إذا ما وافقت المجانسة الخطيّة مجانسة الأصوات : [طويل] .

ترفّع عنا سجدفه فكأنه يُحيي بيحي صُبْحَهُ المتبَلِّجا⁽¹⁾ 15/8

الثورية أو اللبس المقصود

وهو أن يستخدمَ الكلمةَ في مدلولين مختلفين فتذهب النفس الى أحدهما مع أن الشاعر أراد الآخر ، مثل الأزدواجيّة الحاصلة في كلمة « جفن » ، أهو جفن العين ، بقرينة الماء ، أي الدمع ، أم جفن السيف ، بقرينة السلم والأعناق [طويل] :

تُرَشِّفُهَا فِي السَّلمِ ماءً جَفُونُهَا فَتَجْزَأُ عَنْ مَاءِ الطَّلَى وَالْبَادِلِ⁽²⁾ 36/42

(1) يحيي مضارع حيّ ويحيى ابن حمدون هو ممدوحه .

(2) تجزأ عن : تغني أو تستغني عن . . . والبادل ج بأدلة صفحة العنق .

فيتوجّه البيت الى فهمين ممكنين : السيف تشربُ دموعها كمدًا ،
وكمُدّها ناتجٌ عن قعودها عن المعارك . أو هي تشرب دم أغمادها ، انتقاماً
لنفسها من بطالتها التي أثقلتها .

وبعد ، هذه النماذج من الصنعة ينبغي أن لا تحملنا على حشر ابن
هانيء في مدرسة البديع وجعله من أتباع أبي تمام وابن المعتز لا غير . فالتأنق
في التعبير والتلطف في تجديد الفكرة ليسا وليدَي القرن الثالث / التاسع ، بل
حتى الجاهليّون كانوا يسهرون ويقلبون ويحورون حتى يستوي لهم « الحوليُّ
المحكُّك » ، ويزعم ابن هانيء نفسه أنه جعل هؤلاء القدماء نُصب عينيه
فصاروا عنده المثال الذي يُحتذى . على أن إكثاره من هذه الأساليب
والمحسنات يخرجّه عن صفّ شعراء الفطرة والعفوية ويقربّه من شعراء العمل
والصنعة .

الازدواج داخل البيت

هو ضرب من الموازنة بين الصدر والعجز يفضي الى تقسيم البيت إلى
وحدتين معطوفتين متوازيتين في عدد الكلمات وموازينها ، متماثلتين في
المعنى أو مختلفتين . ويسميه البلاغيّون « ردّ الأعجاز على الصدور » . وهو
امتدادٌ للقاعدة العروضيّة التي توجب استقلال البيت عن سابقه وعن لاحقهِ .
فالاستقلال هنا يلحق الشطرين أيضاً ، فيختلفان أو يتشابهان في المعنى ،
ولكنهما يتساويان في الكميّة الصوتيّة : [رمل]

فلقد ذكّر مَنْ كان سها	ولقد نبّه مَنْ كان رَقْدُ	7/14
فإذا ما كدّر العيشَ نَمّا	وإذا ما طيّبَ الزادَ نَفْدُ	6

وقد يؤكّد الشعراء على المماثلة فيجعلون للصدر قافية كما للعجز . ألا
أن القاعدة المتّبعة هي أن لا تتماثل القافية في الضرب والعروض الا في مطلع
القصيد . ولكنّ القدامى كانوا يتصرفون بحريّة ، فربّما صرّعوا البيت - أي

جعلوا لشطريه نفس القافية - في داخل القصيدة ولا يصرّعون مطلعها . وقد ساق ابن رشيق منه نماذج عند الجاهليين والإسلاميين⁽¹⁾ .

هذا النوع من التصريع هو النوع البسيط المتداول . ولكن الشعراء تفتنوا وأغرقوا فقسّموا البيت ، لا إلى وحدتين متوازيتين فقط ، بل إلى ثلاث وحتى أربع وحدات ، وختّموا كل وحدة أحياناً بقافية مماثلة للقافية الختامية ، وابتهج أهل الصنعة بهذا الاكتشاف فرحبوا به وأطلقوا عليه اسم « التصريع » . وعند شاعرنا نجد منه أنواعاً ، من التقسيم الثنائي كما رأينا ، الى الثلاثي : [كامل]

15/53 والزاعِية شُرْع ، والمشرف يّة لَمْع ، والمُقربات صفوف⁽²⁾
الى الرباعي : [طويل] .

16/3 فؤادك خفاق ، ووكرُك نازح وروضُك مطلوب ، وبأنك مهضوب
وحتى السداسي ، مثلما في هذا البيت الذي يحكي بتقطّعه سرعة الحركة في أذني الفرس : [كامل]

15/30 فتقدّما وتنصّبا وتذلّقا وتلطّفا وتشرفّا وتحرفّا
ولا يكون النجاح حليفه دائماً ، بل يتورّط أحياناً في أبياتٍ لا قيمة لها إلا التراكم المعجمي الذي يضطرّه اليه طلب القافية الداخلية : [كامل] .

19/45 وعوابس وقوانس وفوارس وكوانس وأوانس وعقائل⁽³⁾
والتنوع يلحق المعاني أيضاً فربّما كان العطف بين الوجدتين يحمل مقابلةً كالمقابلة بين حالي الحرب والسلام عند المعزّ ، الا أنّهما حالتان تشابهان في أمر : السيول من الدم ، دم الأعداء أودم الأضاحي : [طويل]

(1) العمدة 175/1 . قال في الفرزدق : وكان قليلاً ما يصرّع او يلقي بالأ بالشعر .

(2) الزاعية الرماح . والمقربات هي الخيل .

(3) القوانس : الأسنة . الكوانس : الأطباء في كناسها .

25/3 فان تك حربٌ ، فالمفارقُ والطلّي وإن يك سلم ، فالشوى والعراقيب⁽¹⁾

أو ترميان الى نفس النتيجة ، كبيان عتق خيل المعزّ : [متقارب]

ومن رفقها أنها لا تُحسّر ومن عدّوها أنها لا تُرى 23/58

هذه الأساليب تُعجب النفس إذا وردت لمأماً بين الفينة والفينة ، وإذا رمث الى غرض معنويّ فحقّقته . أمّا إذا كثرت وتكرّرت واقتصرت على الرياضة اللفظيّة والبلهنة العروضيّة ، فانها تستثقل وتمجّجها النفس . هذا ما عبّر عنه أبو هلال العسكري بعد أن نقل نماذج من الترصيع المكروه عند القدماء كالخنساء وأبي صخر الهذليّ⁽²⁾ . وهذا ما يقع فيه صاحبنا أحياناً : ففي القصيدة الخمسين مثلاً ، صرّع ورصّع خمسة وعشرين بيتاً - من خمسة وسبعين - أي ثلث القصيدة !

لغة الشاعر . طلب الغريب

نبّه المرحوم زاهد علي ، شارح الديوان ، الى بعض المفردات من قاموس الشاعر « غير مقيّدة في كتب اللغة المتداولة⁽³⁾ » فأحصى منها ثلاثين كلمة . وهي في الحقيقة كلمات عربيّة ، وأوزانها توافق أوزان الصرف والاشتقاق ، إلّا أن المدلول الذي يسنده اليها الشاعر يخرج عن المتعارف ، مثل « التاح » - افتعل من لاح يلوح - في معنى المجرّد ، أو « استبدّ » في معنى : وَجَدَ بُدّاً مِنْ كَذَا ، أي وجد مخرجاً ، فـ « لا نستبدّ » في البيت التالي تعني عنده : لا نجد حيلة : [متقارب]

(1) الشوى : أطراف البدن .

(2) الصناعتين 392 . قال : « وقد تعاطى نفر من القدماء [هذا النوع] فظهر فيه أثر التكلف ، وبان عليه سمّة التعسف » . وعرف الترصيع بقوله : « أن يكون حشو البيت مسجوعاً » .

(3) تبين المعاني ص 59 من المقدمة .

91/14 كلنا نبشع من كأس الردى غير أنا لا نرانا نستبد

وهي نماذج ، إن صحّ شذوذها في المعنى - وهذا يقتضي بحثاً مدقّقاً مطوّلاً في لغة الشاعر ومقاييسها الصرفيّة مع مُقارنتها بالعُرفِ المَعْجَمِيّ - تدلّ على أنّ ابن هانئ ، مثل كلّ المبدعين ، لا يتهيب الابتكار الجريء وخلق المدلّولات التي لم تدوّنْها المعاجم .

ولكنّ الغريب الذي نقصده هو الكلمات المهجورة لثقل جرسها ونبوّ حروفها مع صحّة انتسابها الى لغة الضاد ، كأنّ الشاعر ، وقد أراد أن يفرض نفسه في جميع الأغراض والأساليب التي اشتهر بها القدماء ، تعمّد نوعاً من « التمارين الأسلوبية » فأخذ نفسه بصنع شعر بدويّ . وقد فاته أنّ شعراء الحماسة والهدليّين وأصحاب المعلّقات لم يعمدوا الى معتاص اللفظ ولم يقصدوا اليه قصداً ، بل كثيراً ما يأتي كلامهم سلساً مقبولاً محبوباً مع الجزالة والدقّة . وصاحبنا لا يكتفي بالكلمة الواحدة ، بل يثقل البيت بالثنتين والثلاث ، فيستغلّق الفهم وتشمئزّ الأذن : [طويل]

1/47 أصاغت فقلت : وقع أجرد شيطم وشامت فقلت : لمع أبيض مِخْدَم

مما دفع ابن رشيق الى الاستنكار فضمّ شاعرنا الى « أصحاب الجلبة والقعقة بلا طائل معنى . . . وليس تحت هذا كلّ الآ الفساد ، وخلاف المراد » ويأسف لترك ابن هانئ السليقة وجنوحه الى التكلّف فيضيف : « إذا عمل بطبعه وعلى سجيّته ، دخل في جملة الفضلاء . وإذا تكلّف الفخامة وسلك طريق الصنعة ، أضرب بنفسه وأتعب سامع شعره⁽¹⁾ » .

ولا شكّ أن الطبع خانّه ، والذوق خالفه ، حين نظم قصيدتين على رويّ الثاء والخاء ، فالتمس لهما القوافي فاضطرّ الى تجريد المعاجم من موادّها المختومة بهذين الحرفين ، فانتقى من الثاء أربعاً وعشرين مادّة - من

(1) العمدة 125/1 .

التسعين التي تذكرها المعاجم - واختار من الخاء ثلاثاً وأربعين من مائة وأربع عشرة ، أي اضطرّ الى استعمال ثلث المادّتين تقريباً ، ولم يعصمه الانتقاء من الوقوع في الحوشيّ النابي كالفرع الجُثاجِث ، أي الشعر الكثيف : [طويل] .

29/7 تورّعْتَ عن دنياك ، وهي غريرةٌ لها مبيسٌ برّد وفَرعٌ جُثاجِثٌ

أو الطخطخة ، في معنى ظلام الليل أو ضعف البصر : [طويل]

45/11 رجالٌ أضلّوا رائداً فهديتُم وجَلِيتُم عنه العماء وطخطخُوا

الرصيد الثقافي المشترك

إنّ تعلق ابن هانئ بالبداءة لا يتمثل فقط في شغفه باللفظ الجزل والكلمة القويّة وحتىّ الحوشيّة، وإنّما يتعدّى أيضاً الى العادات العربيّة والتقاليد الجاهليّة ، والأعلام المشهورين بشجاعتهم أو حلمهم أو كرمهم ، وأسماء الأماكن التي ردّدها الشعراء القدامى ، وحتىّ أعلام الخيل والإبل . هذا علاوة على التقاليد الأدبيّة التي صارت بكثرة التداول قواعد راسخة ، كالوقفة الباكية على الأطلال ، والرحلة المضنية الى الممدوح ، في حرّ الهجير ومخاطر الوحوش .

وقد سقنا، أثناء دراستنا لمقدمات قصائده في الفصل السابع، نماذج كثيرةً من هذا الذي نسمّيه الرصيد الثقافيّ لكل عربيّ له نصيب من العلم والمعرفة ، وقد قيل ان الثقافة هي ما يتبقّى في أغوار النفس بعد أن ينسى المرء كلّ ما تعلّمه . والعلم الذي يتلقاه الطالب العربيّ كان الى عهد غير بعيد يُستمدّ من « الميثولوجيّة » الجاهليّة والإسلاميّة ، أي من روايات أيام العرب وأمجاد القبائل وشجاعة المجاهدين الفاتحين ، وقيم الشعراء الفرسان والمثّل العليا السائدة عند شيوخ العشائر ، حتى صارت أسماء حاتم أو كعب بن مامة

أو هرم بن سنان أو كليب وائل أو بسطام بن قيس أعلاماً مندمجةً في الرصيد اللغويّ ، كأنها رموز للكرم والشجاعة والعزة⁽¹⁾ . فإذا صار الشاعر أو الكاتب الى مدح جوادٍ ذكر بصفةٍ آليّة حاتماً أو هرمأ ، وإذا أراد تمثيل الشجاعة استحضر في الحال صورة عنترة أو خالد العامريّ ، مثلما أنّ الشاعر المتغزل إذا ما وصف تثنّي محبوبته مثل قوامها بغصن البان ، وقد لا يعرف ما هو البان ولا رآه قط .

وليست هذه الصور الجاهزة ، أو « الكليشيات » كما يقولون استهجاناً ، ليست خاصّة بالحساسيّة العربيّة . فالمثقف الأوروبيّ يستحضر أيضاً بصفة شبه آليّة الرصيد الإغريقيّ - اللاتينيّ الذي تلقّاه في دروس « الإنسانيّات الكلاسيكيّة » . بقي أن الفرق بينه وبين المتأدّب العربي القديم يكمن في أنّ الفرنسي أو الإيطاليّ قد يستحضر أيضاً بطولاتٍ محلّيّة فرنسيّة أو إيطاليّة أو إسبانيّة ويراجع تاريخ بلاده وأمجاد وطنه . أمّا الإفريقيّ في القرن الرابع وحتى بعده ، أمّا المغربيّ وحتى الأندلسيّ ، فلا يحيل ذاكرته إلا الى الموروث الثقافيّ فإذا رام تشبيه رصانة الممدوح وحلمه لم يتّجه الى الجبال القريبة منه ، بل الى جبل رضوى الحجازيّ أو متالع الطائي . وإذا أشاد ابن هانيء بعظمة السفن المعزّيّة ، المنشآت في البحر كالأعلام ، فالعلم الذي يتبادر الى ذهنه ليس جبلاً مغربياً ، بل هو كبكب المحاذي لعرفات : [طويل]

39/13 وليس بأعلى كبكب ، وهو شاهقٌ وليس من الصّفاح ، وهو صلودٌ

وإذا عظم مناعة الحصن الذي افتتحه جعفر ، مثله بحصن السموأل وحول جبال كيانة الى بادية تيماء في جزيرة العرب : [طويل]

1/16 بلى ! هذه تيماء ، والأبلى الفردُ فسَلْ أجماثِ الأسدِ ما فعل الأسدُ !

(1) انظر في هذا الصدد تحقيقنا للقصيدّة الفزاريّة في الحوليات 1973/10 . وكذلك دراستنا لأدب أيام العرب : الحوليات 1980/20 .

والخيل لا تكون إلا من سلالة ذي العقّال وأعوج : [كامل]

25/24 من آل أعوج والصريح وداحس فيهن منها ميسم ونجار
وكذلك الحبيبة ، أسماء أو هند أو أروى ، لا تكون إلا أزدية مثله أو
طائية متمنعة أو عدوية شامخة .

ولسنا نعيب على الشاعر المغربي انصرافه عن محيطه ولا نتهمه بخيانة
وطنه ولا نرميه بالمسخ الثقافي ، فهو يستحضر ما لقنه ويرجع ما أعطيه ويعتبر
أنه يؤدي أمانة إلى أهلها ، والأهل هم كل الشعوب التي تغطيها الثقافة
العربية - الإسلامية . ولعله إن هو ذكر جبلاً بافريقية عوضاً عن يذبل ، أو نهراً
مغربياً بدلاً من الفرات أو النيل ، حكم على شعره بالمحدودية الإقليمية
الضيقة وصرفه عن الرواج وأغلق في وجهه الأفهام .

الميل إلى الأقدمين

اعتماداً على هذه الأزواجية بين القديم والحديث في شعر ابن هانيء ،
قد نكون محمولين على وضعه في منزلة وسطى بين مدرسة الجاهليين ومدرسة
المولدين أصحاب الصنعة . هذا بالرغم من رفضه هو أن ينسب إلى أبي تمام
وأضرابه من بعيد أو من قريب ، فقد أعلن عن ميوله الأدبية في قصيدة أشاد
فيها بفصاحة الممدوح ، فقال إنَّ بيانَ هذا البكري يؤهله أن يكون صنواً لا
للطائيين ولا حتى للفرزدق وجريز ، بل لفحول الأقدمين كعلقمة وامرئ
القيس : [بسيط]

20/60 ثقفتُ منه أديباً شاعراً لسناً
22 مستطعاً لجوابي من بديته
23 من لا يفاخر بالطائي في زمن
24 ولا الفرزدق ، والفخار له
شئى الأعارض محذور الأحاجي
فما يجاوبه مثل النواسي
ولا الخزاعي في عصر الخزاعي
ولا جريز ، ولا الراعي النميري

25 لكن بعلقمة الفحل الذي زعموا في الشعر، أو بامرئ القيس المراري

وكأنه نسي تقليده لأبي نواس في الرحلة الخمرية وللفرزدق أو عمر في المغامرة الغزلية . ولكن هذا التناقض معروف عادي عند من يُصدرون الشعارات والبيانات دون أن يوائموا بين المبادئ الطئانة وواقع تجربتهم الشعرية .

ويعود الى الإعلان عمن يُعجب بهم من الشعراء السابقين فيطرح الحجازيين وشعراء القرن الأول من حسابه ، ولا يرتضي قرناً له إلا عبید بن الأبرص : [كامل]

43/25 صنع يؤلف من نظام كواكب طلعت لغير كثير والأحوص
متبلجات قيل في أزديها ما قيل في أسدية ابن الأبرص

وحتى إن بدا منه بعض الترفع عن شاعر جاهلي كما في هذا البيت :

[متقارب]

28/58 ومن أجل ذلك لا غيره رأى الغنوي بها ما رأى

29 وكان يجيد صفات الجياد وإن بها اليوم عنه غنى

فإنما هو ترفع في الظاهر فقط ، فالتخريج الصحيح يبقى لطفي لصفته البارزة وهي الإجادة في وصف الخيل والاطلاع على كل خصالها ، إلا أن المعز أيضاً بها عارف وعليها عطوف فصارت في غنى عن الغنوي .

ابن هاني والمتنبّي

هذا موقف صاحبنا من شعراء صدر الإسلام والقرن الثالث ، وهذا إعجابه العلني بالفحول الأقدمين . أما موقفه من معاصره الكبير ، أبي الطيب المتنبّي ، فلا يخلو من غموض كما سنرى بعد قليل . وإن ما يتفقان فيه من

إجادة في المدح وغلو في المعاني ومتانة في التعبير وتوسّع في الخيال ، حمل
النقاد وأصحاب المختارات الى المقارنة بينهما ، بل جاوز بعضهم المقارنة
فاختلَقَ أو تخيّل لقاءً بين الشاعرين على شواطئ قابس⁽¹⁾ . فالتشابه في
الأغراض والأسلوب مبرّر أوّل للمقارنة بين شاعر سيف الدولة وشاعر المعزّ ،
ولكنّ المبرّر الحقيقيّ هو ميل المشاركة الى اعتبار أنفسهم أوصياء ثقافيين
على المغرب ، وشعور المغاربة بأنهم مدينون للمشرق ، وهو منبع الثقافة
العربيّة الإسلامية ، بكلّ ما لقنوه وحفظوه . وهكذا فعبارة « متنبّي الغرب »
التي أطلقّت على صاحبنا قد تؤوّل بتأويلين : تأويل الاستعلاء إذا كان أوّل
الناطقين بها مشرقياً ، وذلك بجعل المتنبيّ في موقع المشبّه به ، أي المعيار
الذي يقاس عليه والمثال الذي يحتذى . أو تأويل الغيرة والمنافسة إذا كانت
العبارة صادرة عن مغربيّ ، فكأنّه يباهي المشرق بهذا الشاعر الذي وصل إلى
مرتبة شاعرهم الكبير رغم اختلاف البيئة وحدائث السّنة الثقافيّة وعجمة المحيط
الخ . . . وعلى هذا النمط يمكن أن نبرّر أيضاً التماسّهم نظيراً للبحرّيّ تارةً
في ابن درّاج القسطلّيّ وأخرى في ابن زيدون القرطبيّ وحتى في عليّ الإيادي
التونسيّ . هذا الاستعلاء المشرقيّ قد مثّله قوله الصّاحب بن عبّاد حين تصفّح
كتاب العقد الأندلسي فقال ، مثل إخوة يوسف : ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾⁽²⁾ .
أمّا الشعور بالنقص والتبعية عند المغاربة فلم يطل ، بل سرعان ما انقلب الى
اعتزاز بالأمجاد المحليّة وتعلّق بفضائل الأندلس كما يظهر من كتابات ابن
حزم وابن بسّام والشقندي ؛ وتتخذ المباهاة أشكالاً فكّهة كتفضيل لسان الدين
نهر الشّنبيل الغرناطيّ على النيل المصريّ ، لأنّ حرف الشّين في حساب الجمل
يساوي ألفاً⁽³⁾ فأصبح للأندلس ألفُ نيل ! وقريباً منا ، فضّل بعضُ شعرائنا نهر
مجرّدة على النيل لا لشيءٍ إلا لأنّ النهر التونسيّ خلّو من التماسيح ، فالسباحة
فيه آمنة⁽⁴⁾ .

(1) شذرات الذهب لابن العماد 42/3 تحت سنة 362 . (2) يوسف ، 65 .

(3) إحاطة نشرة عنان 124 و 341 .

(4) ولعلّ شاعرنا أخذ الملحة من نفع الطيب 308/1 (الرفاعي) : « ونهرها نيل بلا تمساح ! » .

ومهما يكن من دوافع هذه المقارنة بين ابن هانيء والمتنبّي، فإن عبارة المماثلة هذه - وهي من كلام ابن خلكان في الأصل - قد أُسيء نقلها وأُسيء فهمها . فصاحب الوفيات اكتفى بأن قال: « وهو عند المغاربة كالمتنبّي عند المشاركة » فقارن بين منزلة الشاعرَيْن كلّ عند قومه ، لا بين الشاعرين ولا حَكَمَ بينهما ولا قابل الواحد بالآخر . ولكنّ العبارة نفقت وراجت حتى صار ابن هانيء يدعى متنبّي الغرب وبقي هذا اللقب لاصفاً به الى اليوم . ولكن لندرس بالتدقيق موقفه من صنوه أو منافسه !

القصيدة الحادية والعشرون في المتنبّي

لقد لَقَّتْنا النظر، بعد قارئاً - قومث، إلى أهمية هذه القصيدة، لتحديد موقف ابن هانيء من أبي الطيّب . وظروف نظمها مذكورة في التوطئة، ومفادها أنّ الشاعر استعار من أديب إفريقيّ نسخة من ديوان المتنبّي مصحوبة بشرح ولكنه أبطأ في إرجاعها وماثل، فغضب صاحبها واقتضاه بلهجة عنيفة . فنظم الشاعر الأبيات ، يلومه على اساءة الأدب ويتهمّ بقصوره عن فهم شعر المتنبّي فضلاً عن شرحه . والقصيدة بعد هذا لا تخلو من غموض ، وكثير من أبياتها يضطرنا إلى التأويل والافتراض .

يبدأ الشاعر بالإشارة إلى علوّ صيت الشاعر بإفريقيّة ، ولكنه صيت مبنيّ على سو فهم لشعره ، واندفاع نحو الشهرة العابرة . أما هو ، فلا يرسل الأحكام جزافاً واعتباطاً ولا ينساق مع الهوى السائد : [بسيط]

1/21 تنبّه المتنبّي فيكم عُصراً ولو رأى رأيكم في شعره كفراً⁽¹⁾
2 مهلاً ! فلا المتنبّي بالنبيّ، ولا أعدّ أمثاله في شعره السُورا
ثمّ يستغرب ادّعاء الخصم أنّه لَقِيَ المتنبّي وأخذ عنه الديوان مشافهةً ،

(1) اخترنا قراءة « تنبّه » عوض « تنبأ » وقد وردت القراءتان في النسخ .

مع أن الشرح الذي صنفه لا يخدم قط شهرة المتنبي نظراً لما فيه من تحريف للفظ والمعنى ، ومن تخريجاتٍ مضحكة :

- 3/21 تَهْتُم علينا بمرآه، وعلَّكم لم تدركوا منه لا عيناً ولا أثراً
4 هذا ، على أنكم لم تنصفوه ، ولا أورثتموه حميدَ الذكر إن ذكراً
5 ويلمِّه شاعراً أحمَلْتُمُوهُ ، وَلَمْ تُعلُّوا له عندنا ذكراً ولا خَطَرًا
6 فقد حمَلْتُم عليه في قصائده ما يضحكُ الثقلين ، الجنَّ والبشرًا
7 صَفَحْتُم اللفظ والمعنى عليه معاً في حالةٍ ، وزعمْتُم أنه حُصِراً
8 إذ تقسمون برأس العير أنكم شافهتموه ، فهل شافهْتُم الحجرًا ؟

ويؤكد على جهل هذا الشارح المدعي العلم ويسخر من شرحه المزعوم الذي كان يشني المتنبي عن قول الشعر ويزهده فيه لو قرأه :

- 9/21 فما يقول لنا القرطاس ويلُكم ؟ إِنَّا نرى عِظَةً فيكم ومعتَبَرًا
10 شعراً أحطُّم به علماً كأنكم فاوضْتُم العير في فحواه والحُمُرَا
11 فلو أصاخ اليكم سمعُ قائلِهِ ما بات يعمل في تحبيره الفِكْرَا⁽¹⁾
12 أريتموني مثالاً من روايتكم كالأعجمي أتى لا يفصح الخبرا

ثم يذكر أنه سهر عليه الليالي - على الشرح في رأينا - يُصلح ويقوم ويصوب، حتى كاد يستوي شرحاً مقبولاً، فإذا بالخصم يتقاضاه في إلحاح وعنجهية :

- 13/21 أصمَّ أعمى ، ولكّني سهرت له حتى رددتُ اليه السَّمع والبصراً
14 كانت معانيه ليلاً فامتعضتُ له حتى إذا ما بهرنَ الشَّمْس والقَمَرَا
15 ضجرتُم ، وأنانا من ملامكم ومن معاريضكم ما يشبه الضجراً
16 تترى رسائلكم فيه ورُسْلُكم إذا أتت زمراً أرْدفتُم زُمرا

(1) في جميع النسخ : لو يصيخ ، ولا يستقيم المضارع مع الإشارة في البيت 18 الى أن المتنبي مات . فلذلك حولنا الفعل الى الماضي . على أن هذا الإصلاح لا يعين الافتراض ضرورة للزمن الماضي .

17 فلو رأى ما دهاني من كتابكم وما دهي شعره منكم ، لما شعراً

18 ولو حرصتم على إحياء مَهجَتِهِ كما حرصتم على ديوانِهِ ، نُشراً

فاضطرّ إلى إرجاعه برمته - بعد أن حاول استبقاء أجزاء منه لمزيد من الشرح ؟ - فبقي منقوصاً مشوّهاً ، وعلى كلّ حال ، ما كان الخصمُ لينتفع به نظراً لضعف بصره بالشعر وسطحية تفكيره وفساد ذوقه :

19 هَبُوا الكتاب رددناه برمته فمن يردّ لكم أذهانكمُ أخراً ؟

20 لئن أعدتُ عليكم منه ما ظَهَرَ فما أعدتُ عليكم منه ما استترا

21 أعرتموني نفيساً منه في آدمٍ فَمَنْ لكم أن تعاروا البحث والنظراً!!

هذه القصيدة تدفعنا الى استخلاص الملاحظات التالية ، وقد سبق قارئاً - قوميث الى البعض منها :

1 - أن ديوان المتنبي قد وصل إلى افريقية مبكراً ، في حياة الشاعر أو بعد وفاته (965/354) بقليل .

2 - أن الأوساط الأدبية بإفريقية تعلّقت بالديوان وطلبت له الشروح وأعجبت بصاحبه ، وربّما زهدت بالتالي في الشعراء المحليين ، ومن بينهم ابن هانيء .

3 - أن شاعرنا ، رغم تحفظه إزاء شهرة المتنبي ، قد سهر الليالي في دراسة شعره وربّما اعتزم أن يؤلّف شرحاً على الديوان أو شرع فيه فعلاً ، حسب ما نفهم من الأبيات 13-14 و 19-20 . ولا ذكر لهذا الشرح عند المترجمين للشاعر ، فلعلّه لم يتجاوز حدّ النية والعزم . وعلى كلّ حال ، فإنّ ابن هانيء يعترف بأنّه درس هذا الديوان مدّة طويلة وسهر عليه وعالجّه ظاهراً وباطناً . وفي هذه الممارسة ما قد يفسّر الشبهة الكثير الذي يلاحظ في شعر الشاعرين ، أي يؤيد فكرة التأثير بالمتنبي ، إن لم نقل تقليد المتنبي .

4 - أن ابن هانيء متذبذب إزاء أبي الطيب : لا يشاطر الناس إعجابهم

المفرط به ، ولا يتجاسر على انتقاصه صراحةً .

5- لعلّ الاهتمام بالمتنبّي المتمثل في هذه القصيدة بالذات ، هو السبب في تلقيب شاعرنا بـ «متنبّي الغرب» ، بقطع النظر عن عبارة ابن خلّكان . فيكون اللقب صادراً عن اعتزاز من المغاربة بشاعرهم وتباه به - لكم متنبّيكم ولنا متنبّينا - وأيضاً عن خوفٍ من منافسةٍ ممكنةٍ من شعراء قادمين من المشرق . وهذا الخوف هو الذي ولّد في نظرنا خرافة اللقاء بين الشاعرين على خليج قابس . وبوادرُ المنافسة قد تمثّلت في المدحة التي أرسلها الصنوبريّ من حلب إلى جعفر بن حمدون .

6- ليس من السهل أن نبتّ في مسألة تأثر ابن هانئ بالمتنبّي . فما يلاحظ من تشابه في شعرهما ليس بالضرورة نقلاً أو تقليداً أو محاكاةً ، وإنما هو في بعض القصائد تشابهٌ في المعاني والأغراض تولّد عن تشابه في الظروف والحالات ، كالقصائد الجهاديّة مثلاً : فالخصم هو الروميّ هنا وهناك ، والدافع هو الجهاد ، والرمز هو التوحيد أو الشرك . على أنّ السلاح قد يختلف : فابن هانئ يلحّ في وصف الأسطول والنار الإغريقيّة . أما التشابه في الافتخار بالشاعريّة والشكوى من الحساد ، فليست هذه معاني خاصّة بالشاعرين ، بل لا يخلو شاعر محظوظ عند ممدوح من حساد ومنافسين ، وكذلك الأمر في التأمّلات الحكميّة - تلك التي سمّاها ابن هانئ « أمثلاً » ولم يعتبرها آياتٍ وسوراً - فهي من الرصيد الفلسفي المشترك عند كافّة البشر .

7- لكن ، لا يسعنا إلّا أن نتساءل ، عندما نقف على مماثلةٍ شبه تامّة ، لا في المضمون فقط ، بل وفي العبارة أيضاً كاستخدام صيغة « فَعول » في الأكل والشرب وإسنادها إلى جيش المسلمين عند الشاعرين :

المتنبّي : [طويل]

أغرّكُم طول الجيوش وعرضُها ؟ عليّ شَرُوبٌ للجيوش أكوُلُ !⁽¹⁾

(1) عليّ هو سيف الدولة ، والخطاب للروم .

ابن هانيء : [كامل]

80/40 حتى إذا ارتعص القنا، وتلمّظت حربُ شروب للنفوس أكلُ... .

أو الاتفاق في وصف جيش العدو بالكثرة والجلبة :

المتنبّي : [طويل]

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه وفي أذن الجوزاء منه زمازم

ابن هانيء : [كامل]

48/40 جاؤوا ، وحشو الأرض منهم جحفل لجبٌ ، وحشو الخافقين صهيل

نتساءل فحسب ، ولا ننتهم صاحبنا بالسطو على معاني غيره . ولا نستبعد على كل حال التأثير بديوانِ درسه بإمعانٍ .

على أن هناك فرقاً أساسياً بين الشاعرين : ابن هانيء شاعر عقيدة ومذهب، آمن بالدعوة الإسماعيلية فسخر لها طاقاته ولم يسخرها لغيرهما . أما المتنبّي فشاعر أمراء وملوك متعدّدين مختلفين، طلب النفوذ والجاه وسخر عبقريته لمدح من همّ دونه، طمعاً في الوصول إلى مبتغاه فلا قوّة تحرّكه غير الطموح الشخصي .

غنائيّة ابن هانيء

لعلنا ظلمنا الشاعر بإلحاحنا على الجوانب التقليديّة في شعره ، كأننا نفينا عنه كلّ حساسيّة ذاتيّة وكلّ طرافة . والحال أنّه ، على الرغم ممّا تضطرّه إليه وظيفته لدى المعزّ كشاعر رسميٍّ للدولة والدعوة ، من كبتٍ لعواطفه واقتصارٍ على ما يروق للممدوحين ، فإنّه يتخلّص بين الفينة والأخرى من كابوس المقولات الرسميّة فتبرز على صفحات الأبيات الإحساسات المكظومة ، كالشفقة والرحمة والحسرة . وقد وجدنا من هذه الحساسيّة مثلاً في مدحة جوهر التي تعرّض فيها إلى أسر ابن واسول ومقتل ابنه ، ذلكم

القضيب اليناع الذي قطع⁽¹⁾ : [طويل]

45/10 ولا كابينه أذكى شهاباً بمعرك

وأجمع في ثني العنان وأطمحاً

46 مَرَّتْ لك في الهيجاء ماءً شبابه

يدٌ فجَرَّتْ منه جداولٌ سِيحاً

47 وأثكلته منه القضيب تهصرت

أعاليه ، والروضُ المفوفُ صَوَّحاً⁽²⁾

هذا الترحم الخافت على الغصن المكسور والروض الذي جفّ دليلٌ على أنّ الشاعر قد تغلبه العاطفة فيتكلّم بقلبه غير آبه لما يكون من ممدوحه من تساؤل أو استنكار .

ولكنّ الغنائية ليست بالضرورة متنفساً للعاطفة المكبوتة . فحتّى في الإشادة بخصال الممدوح ، إذا كانت علاقة الشاعر به علاقة ودّ صادق وولاءٍ مطلق ، يمكن أن تبرز غنائية من نوع آخر : التعلّق المتين والخشوع الشبيه بعبادة المؤمن لربه أو خضوع العاشق لمحبوبه ، كما يظهر من هذا الدعاء الذي ختم به آخر قصائده : [طويل]

171/47 فلا برحت تترى عليكم من الورى

صلاةٌ مُصلٍّ أو سلامٌ مسلّم

ومن هذا الالتزام الذي لم تسمح له المقادير بتحقيقه :

182/47 واني، وإن شطّ المزار، لراجع إلى ودّ قلبٍ في ذراك مخيم

(1) انظر الفصل الخامس ص 162 .

(2) مرى يمري (باب ضرب) الدم : أجراه وتهصرت الأغصان : تهذلت وانكسرت وصوّخ النبث : يبس .

183 بأنصح من جيب المحب على النوى وأظهر من ثوب الحرام المهين⁽¹⁾

الحقد على خصوم الإمام

ومن الغناية كذلك، الضغينة على أعداء الفاطميين ، وهي كراهية لم يسلم منها حتى الشيخان أبو بكر وعمر . وقد رأينا في حملته العنيفة على أصحاب السقيفة ومشركي بدر وسفاكي كربلاء ، حقداً لا يمكن أن يكون مكذوباً مفتعلاً ، بل هو صادر عن نفس لا تزال تستفظع التنكيل الذي سلط على آل البيت منذ وفاة الرسول :

144/47 وأولى بلومٍ من أمية كلها
وإن جلَّ أمرٌ من ملامٍ ولومٍ
145 أناسٌ هم الداء الدفينُ الذي سرى
إلى رِمَمٍ بالطف منكم وأعظم
146 هم قَدَحُوا تلك الزناد التي ورت
ولو لم تُشَبَّ النارُ لم تتضرَّم⁽²⁾

التهكم بهم

ومن الغناية أيضاً التندر بالخصوم : المروانيون الذين لا يعرفون من الدماء إلا دم المحيض ، والعباسيون في انحلالهم بين القيان والغلمان وعجزهم عن كل حركة كأنهم لحم على وضم ، والروم الذين دأبوا على تنفيل

(1) جيب المحب هنا قلبه وصدره والرجل الحرام : المحرم والمهين : الذي يناجي ربه بالدعاء الخفي .

(2) انظر الفصل التاسع / 281 - 284 .

المعزّ بالهدايا المتتالية من جيوش وعتاد حتى اضطرّ الشاعر إلى حبّ الإمام
على قبولها من هذا الدمستق الجواد : [كامل]

46/40 ذَرُّهُ يَجْمَعُ أَلْفَ أَلْفِ كَتِيبَةٍ فهو التَّكْوُنُ وجمعه المفلول
65 وهو الذي يُهْدِي حُمَاةَ رِجَالِهِ نفلاً إليك، فهل لديك قَبُولُ؟

التأملاتُ الحكيميةُ

تنطقُ الغنائيةُ أيضاً في الأبيات الحكيمية التي تتخلّل المراثي وبعض المدائح،
من تساؤل في الحياة والموت، وشكوى من الدهر وصروفه، وتحسّر على
الشباب الذي يمضي، وهلع الإنسان أمام نهايته المحتومة. وهي معانٍ
معروفة متداولة، وخاصية الحكمة أن تنطق عن كلّ لسان في كل عصر
ومكان، ولقد سبق إليها فحولُ كلبيد بن ربيعة وأبي ذؤيب الهذلي. ولا
يكتفي شاعرنا بترديدها على وجه تقريريّ، بل يلتمس لها التمثيل والتصوير،
كما فعل في هذه المشاهد الحيوانية التي تشعر بأنّ الفناء مكتوب على كلّ حيٍّ
مهما كان قوياً ومهما اعتصم وتحصّن : [رمل]

66/14 لو مُعَافَىٍّ مِنْ خُطُوبٍ عَوْفِيٍّ لَقُوَّةٌ بَيْنَ هِضَابٍ وَنُجْدٍ
67 تَرْتَبِي مَرْهُوبَةً تَحْسِبُهَا كَوَكَبَ اللَّيْلِ عَلَى اللَّيْلِ رَصْدُ
68 تَلِكْ، أَوْ مُغْفِرَةً فِي حَالِي تَأْمَنُ الْإِنْسُ إِذَا الْوَحْشُ شَرَدَ
70 ... حَيْثُ لَا النَّازِلُ مَعْهُدٌ، وَلَا الْمَاءُ مُورُودٌ، وَلَا الْقَلْتُ ثَمَدُ
71 تَلِكْ، أَوْ وَحْشِيَّةٌ أَدْمَانَةٌ انْبَتَتْ أَنْقَاءَ رَمَلٍ وَعَقْدُ
74 ... وَهِيَ فِي ظِلِّ أَرَاكِ مَائِدٍ تَرْتَدِي الْمَرْدُ إِذَا ذَابَ الْوَمَدُ
82 ... تَلِكْ، أَوْ أَيْمٌ خَفِيفٌ وَطُوهُ يَرِبُ الْقُفُّ كَلُوءًا مَا هَجَدُ
83 بَاتَ يُذْنِي حُمَةً مِنْ حُمَةٍ وَهُوَ يَطْوِي مَسَدًا فَوْقَ مَسَدُ
87 .. ذَاكَ، أَوْ جَبَّارٌ غِيلٍ أَشْبِ طَرَدَ الْأَسَادَ عَنْهُ وَانْفَرَدَ

88 نازلٌ كُرسِيَّ أرضٍ، هابُهُ ملكُ الخابل فيها إذ مرُدٌ... (1)

لكنَّ هذه الخواطر ليست بعيدة الغور فلا يوصلها الشاعر الى التساؤل في كبرى القضايا الإنسانية كسبب وجوده في الكون ، ومنزلة أفعاله من حتمية الأقدار ، وازدواجية الخير والشر في الحياة الدنيا . فابن هانيء ليس فيلسوفاً ماورائياً، فكأنه حصر أفقه العقائدي في الإيمان بالدعوة الشيعية وربط مصيره بالأئمة ، فلا نجاة إلا بهم : [مقارب]

79/58 ليعرفك مَنْ أَنْتَ منجأته إذا ما اتقى الله حقَّ التُّقى
80 كأنَّ الهدى لم يكن كائناً إلى أن دُعيت مُعزَّ الهدى

تَدِينُهُ

وهو مع ذلك لم يكن بعيداً عن الدين، فكثير من معانيه وصوره وحتى تعبيره مستمدٌ من القرآن . وقد لا تكون هذه حجةً على إيمانه ، إذ حفظ القرآن ومعرفة علومه جزء لا يتجزأ من ثقافة المسلم ، ولا سيما في العصور المتقدمة . ولكن التضمين القرآني عنده يتكرر ويتردد بدرجة تنفي أن يكون مجرد استثمارٍ لرصيدٍ موروثٍ . نسمعه مثلاً يُقسَّم بالعصر على ولائه للممدوح : [طويل]

19/18 فلا تسألاني عن زماني الذي خلا
فوالعصر ! إني قبل يحيى لفي خسر !
أو يشبه حبَّ المعزِّ للخيل بحبِّ سليمان لها فيضمن الحادثة التي رواها

(1) اللقوة أنشئ التسر والمغفرة أنشئ الوعل تيس الجبال والأدمانة الطيبة والأئيم الأفعى وجبار الغيل : الأسد . عدّد هذه الحيوانات ووصفها في وداعتها أو قوتها أو خبثها ولكن ذلك لا يعصمها من الموت ولا يعافها من الخطوب . وانظر في عينية أبي ذؤيب مشاهد مماثلة .

القرآن [ص، 31 - 33]: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ، فَقَالَ : إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ . رُدُّوهَا عَلَيَّ ! فْفُطِّقْ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ۖ﴾ . مع فارقٍ واحدٍ ، وهو أَنَّ المعزَّ لا يطيبُ خاطره لمثل هذه التضحية : [خفيف]

39/35 أَنْتَ أَصْفَيْتَهُنَّ حُبَّ سُلَيْمٍ نَ قَدِيمًا لِلصَّافِنَاتِ الْعِتَاقِ
40 لَوْ رَأَى مَا رَأَيْتَ مِنْهَا إِلَى أَنْ تَتَوَارَى شَمْسٌ بِسَجْفِ الْغَسَاقِ
41 لَمْ يَقُلْ: رُدَّهَا عَلَيَّ! وَلَا يَطُ فُقْ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ

وفي مناسبة أخرى ، يستشهد بالتضامن بين موسى وأخيه هارون لحض
الأخوين الاميرين على التفاهم والإخاء : ﴿ قَالَ : رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ،
وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ
أَهْلِي هَارُونَ أَخِي أَشَدُّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِي ﴾ (طه 25-32) فيقول :

[طويل]

64/18 لعمري لقد أُيِّدْتَ يَوْمَ الْوَعَىٰ بِهِ
كما أُيِّدْتَ كَفَّاكَ بِالْأَنْمَلِ الْعَشْرِ

65 لَئِكَ نَاجَى اللَّهَ مُوسَى نَبِيُّهُ
فَنَادَى أَنْ أَسْرُحْ مَا يَضِيقُ بِهِ صَدْرِي

66 وَهَبْ لِي وَزيراً مِنْ أَخِي أَسْتَعِزَّ بِهِ
وَشُدِّ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي !

التغنى بالجمال

حاولنا فيما سبق أن نبين أن غنائية ابن هانيء قد تبرُّز حتى في القصائد المدحية : الإشادةُ بفضائل الإمام قد تنبع من محبة صادقة ، والتحامل على الخصوم قد يترجم عن كراهية فطرية . وقد لفتنا النظر الى ما يتخلل الاستهلاكات أحياناً من شعور بالجمال ، جمال دوحة منتصبه في الأرض

البراح ، أو جمال ناقةٍ قويّة القوائم وئيدة الخطو ، أو شعشعة البرق في سحابٍ بعيدٍ ، أو سكون ليلةٍ مقيّمةٍ . ونريد أن نختم هذا الفصل بأنموذجٍ بديعٍ من وصفه للخيل ، وله فيه باعٌ طويلٌ .

هذه الجياد يمثّلها بالحسان الوثائق من سلطانهنّ على القلوب
بجمالهنّ الذي لا تغلبه الأرديةُ المفوّقة : [طويل]

6/23 يمشينّ مشيَ الغانياتِ تهادياً عليهنّ زِيّ الغانياتِ مُشَهَّراً
7 وجرّرنّ أذيالَ الحسانِ سوابغاً فعلمنّ فيهنّ الحسانَ تبخُتراً

ثمّ يفصلُ ألوانهنّ في ثراءٍ لغويٍّ عجيبٍ ، لعلّه مستمدٌّ من المعاجم ،
ولكنّه رغم ذلك يعبر عن إدراكٍ حادٍ لجمال الألوان والأشكال :

11/23 وما خلّت أنّ الروضَ يختال ماشياً ولا أن أرى في أظهرِ الخيل عبقرأ

هذا المشهدُ الإجماليّ ، ثمّ يأتي التفصيل :

12/23 غداةً غدتّ عن أبلقٍ ، ومجزّعٍ وورّدٍ ، ويحمومٍ ، وأصدى ، وأشقراً
13 ومن أدرعٍ قد قُتّع الليلُ حالكاً على أنّه قد سُرِبِل الصّبحِ مسفراً
14 وأشعلَ ورديّ ، وأصفرَ مُذهّبٍ وأدهمَ وضّاحٍ ، وأشهبَ أقمرأ
15 وذو كُمتهٍ قد نازعَ الخمرَ لونها فما تدّعيه الخمرُ إلا تنمراً
16 مُحجّلةً غُراً ، وزهراً نواصعأ كأنّ قُباطياً عليها مُنشراً

مثلُ هذا الحُسنِ دليلٌ على حكمةِ الباري في خلقه ، وهكذا يقودنا
تأملُ الخليقةِ إلى الإيمان بالخالق :

20/23 أفكّه منها الطرفَ في كلِّ شاهدٍ بأنّ دليلَ الله في كلّ ما برأى

الفصل الحادي عشر

تأثير ابن هانئ

من المتوقع أن شاعراً سياسياً مذهبياً مثل ابن هانئ ، سخر طاقته الواسعة لخدمة دولة دخيلة ونحلة مارقة ، سيلقى من أهل افريقية والمغرب السنين السخط والانتقاص . ويُخشى أن تكون الأحكام فيه مختلطة فيغلب فيها العداء المذهبي الحياد والإنصاف . وقد بلغ التورع ، كما رأينا ، حدّ الطرح لبعض قصائده ، كالرابعة والعشرين الرائية ، من بعض نسخ الديوان .

وفي هذا الفصل نعتزم استعراض الأحكام التي قيلت في صاحبنا ، سواءً في معتقده أو في شاعريته . وفي قسم ثانٍ نتبّع سيرورة ديوانه في المغرب والمشرق . ثم ندرس ميراث الشاعر الأدبي ، أي تأثيره في الشعراء المعاصرين له أو اللاحقين ، كما نحاول البحث عن ورثة له بالفعل ، أي : هل كانت له أسرة؟ هل خلف عقيباً؟ وفي نهاية الفصل نشير إلى الصورة الهزلية التي اتخذتها شخصية ابن هانئ في بعض المصادر ، ونحاول تفسيرها .

الأحكام المذهبية

مرّ بنا حكم ابن شدّاد مؤرّخ القيروان ، وقد يشمل نقدّه المادح والممدوح معاً لأنّ المعزّ في نظره شجع شعراءه على الغلو⁽¹⁾ . ونقلنا أيضاً

(1) انظر الفصل الثامن ، 241 .

حكم ابن شرف. وهو، في قساوته، لا يُستغرب من أديب قيرواني نشأ في بيئة تلهج بعداء الشيعة، خصوصاً بعد أن خلع الحُكَّام الصنهاجيّون الولاء الفاطميّ. والكتاب الذين عابوا عليه غلوّه كثيرون، وأهواؤهم مختلفة ومشاكلهم؛ فلا يُتهمون جميعاً بالتقرب إلى أعداء الفاطميّين بالتهجّم على شاعر «المشاركة» المفضّل. هذا الحميدي في الجذوة وابن دحية في المغرب⁽¹⁾، وهما أندلسيّان يكتبان في المشرق، يتفقان على استنكار «غلوّه واستهتاره». وهذا ابن بسّام في الذخيرة⁽²⁾ يعلّق على بيت لابن مَقَانَا الأشبونّي، وهو: [خفيف]

وإذا ما رُفِعَتْ رايته خفقت بين جناحي جبرئين
فيلاحظ الشبه بينه وبين بيت ابن هانيء الذي استفظعه الكثير من النقاد:

[كامل]

29/41 أُمْدِيرَهَا مِنْ حَيْثُ دَارَ ، لَشَدَّ مَا زاحمتُ حول ركابه جبريلاً

ويقول: «حَسَدَ ابْنُ هَانِيءٍ فِي هِذْيَانِهِ ، وَتَقِيلُهُ فِي خِذْلَانِهِ» .

والمترجمون ليسوا به أرفق وكذلك العلماء⁽³⁾ . وابن خلّكان يأسف لما شاب الديوان «من الغلو في المدح والإفراط المفضي الى الكفر»⁽⁴⁾ . وتبعه الذهبي وأبو الفداء ومُتِمِّمُهُ ابن الشحنة⁽⁵⁾ .

وليس لدينا أحكام من مؤلفين شيعيين قدامى . غير أنه من المفروض أنّ رأيهم فيه ، لو وصلنا ، ما كان يختلف كثيراً عن رأي الشيعة المعاصرين من إسماعيلية واثني عشرية . فهم لا يرون في غلوّه كفراً ، ومعاني المدح في

(1) جذوة المقتبس ، ترجمة 157 . والمطرب ، 192 .

(2) 793/2 .

(3) الكامل - 46/7 .

(4) الوفيات - ترجمة 640 .

(5) روض المناظر - 31/2 . وتوفي ابن الشحنة سنة 1412/815 .

نظرهم تصدر عن اعتقاد صادق راسخ بمبادئ الشيعة . هذا زاهد عليّ ، شارح الديوان ، ينزّهه عن الكفر ، ويفسر العلوّ بخصوصيات التوحيد الإسماعيليّ الذي « ينزهه الباري المبدع عن جميع التّعوت والصفات » ويوقعونها « على المبدع الأول ، وهو الأمر والكلمة » . والإمام يقوم مقام الأمر والكلمة ، فلا حرج أن يطلق الشاعر على الإمام صفتيّ الواحد والقهّار⁽¹⁾ . على أن هذا الباحث الرصين يعترف ضمناً بإفراط الشاعر ، إذ يحتجّ بسنة الشعراء في المبالغة ، ولا سيما المتنبي .

وينحو الإسماعيليّ عارف تامر في دفاعه عنه نفس المنحى : فما يبدو للقارئ العاديّ مبالغة وغلّوا ، ليس كذلك ، إنّما هو صدى التكوين الفلسفيّ الذي يتلقاه كل إسماعيليّ⁽²⁾ .

كذلك حسن الصدر (ت 1934) يرى أنّه « صحيح الاعتقاد ، وهو بريء من كلّ سوء وغلّوا . وأنّه رجل شيعيّ مُجاهرٌ بالتشيع مبغض لخصوم عليّ عليه السلام . . . حتى قتل على التشيع »⁽³⁾ .

ومهما تباينت هذه الآراء ، فإن أصحابها يكادون يُجمعون على صدق الشاعر في ولائه واعتقاده . لم نرَ واحداً من القدماء اتّهمه بالتزوّف الكاذب جرياً وراء المال . ولكن هذه التهمة نجدها عند بعض الدارسين في عصرنا مثل حسن ابراهيم حسن في تأريخه للدولة الفاطميّة : « . . . إنّ ابن هانيء أصبح شيعياً متحمساً لهذا المذهب استدراكاً لكرم الفاطميّين ، لا حباً في عقائدهم واستمساكاً بها »⁽⁴⁾ .

(1) تبين المعاني ، المقدّمة 58 .

(2) عارف تامر : ابن هانيء ، دراسة - 62 وفصل ابن هانيء في دائرة معارف البستاني 112/4 .

(3) تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، 206 .

(4) ص 441 . وقد أعاد الفكرة نفسها في الدراسة التي ألفها مع طه أحمد شرف عن المعزّ ، ص

ومن يتفكّر في ندرة المطالب الماليّة في مدائحه - على عكس المتنبي مثلاً - ثم في قصّره مدّحه على المعزّ وقواده وولاته ، أي على قوم تجمعه بهم عقيدة واحدة ، ومن يدرس بالخصوص قصيدته الأخيرة ، تلك المطوّلة القويّة التي حمّلها وفاءه ومحبّته ، لا يسعه إلا أن ينزّهه عن الطمع والطموح والتظاهر بما لا يبطن .

الأحكام الأدبيّة

تنتزه الأحكام في خصوص شاعريّته عن التحامل المذهبيّ . فربّ ناع عليه كفره يعترف له في المقابل بمتانة التعبير وسعة الخيال وجمال الصور . ويتميّز بالإنصاف والاعتدال النقاد المحترفون مثل ابن شرف ، فلقد ذكر ما له وما عليه : « أما ابن هانيء ... فرعديّ الكلام ، سرديّ النظام ، متين المباني ، غير مكين المعاني ... إلّا أنّه إذا ظهرت معانيه ، في جزالة مبانيه ، رمى عن منجنيق ، يؤثّر في النّيق »⁽¹⁾ . فيعترف له بالإجادة إذا تمكّن من معالجة المعاني ، ويعيب عليه القعقعة اللفظيّة .

والجلبة اللفظيّة أيضاً مع التكلّف والصنعة ، هي ما عابه ابن رشيق : « وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة ؛ فإذا أخذ في الحلاوة والرقّة ، وعمل بطبعه وعلى سجيّته ، أشبه الناس ، ودخل في جملة الفضلاء ، وإذا تكلف الفخامة ، وسلك طريق الصنعة ، أضرّ بنفسه ، وأتعب سامع شعره »⁽²⁾ .

هذه المساوىء هي في نظر الفتح بن خاقان محاسن وفضائل ، فيطريه بدون تحفّظ : « علق خطير ، وروض أدب مطير . غاص في طلب الغريب حتى أخرج درّه المكنون ، وبهرج بافتنانه فيه كلّ الفنون ... اعتمد فيه

(1) مسائل الانتقاد، 40 . وفي رواية : « نجدّي الكلام » . والنيق قمة الجبل .

(2) العمدة 124/2 .

التهديب والتحرير، وأتبع في أغراضه الفرزدق مع جرير . فلذلك حسد العراق عليه المغرب وأخذت الشرق الغصة . « وإن في أسلوب الفتح نفسه لدليلاً على تغلب نزعة البهرج والتعمّل بكامل أقطار المغرب . وكان ذلك بعيد وفاة ابن هانيء فنسبت اليه هذه الأساليب وأسندت اليه طريقته . يقول ابن بسّام في ترجمة أحد شعراء المائة الخامسة : « وكان يميل الى طريقة محمد بن هانيء . على أن أكثر أهل وقتنا ، وجمهور شعراء عصرنا ، إليها يذهبون ، وعلى قلبه وجدتهم يضربون ⁽¹⁾ » . وقد ذكر زميلنا الشاذلي بو يحيى هذه الطريقة وحدّد نشوءها بزمان وفاة الشاعر ، فقال فيها وفي صاحبها : « ابتدّع هذا الشاعر أسلوباً جديداً سيّبعه الإفريقيّون طيلة أجيال . . . وصار شعره المحور الذي يتجمّع حوله الإنتاج الشعري ، وساعدت شهرته أهل المغرب على التخلص من مركّب النقص إزاء المشرق [إذ] صار بمقدور المغاربة أن ينجبوا مُتَنَبِّئاً ⁽²⁾ » .

هذا التحرّر من التبعية هو الذي عناه صاحب المطمح إذ ذكر غصّة الشرق وشرقه . ولكنه من جهة أخرى يعيب عليه تجرؤه على الدين ، فيقول ، غير آبه بالفارق الزمنيّ بين طرفي المقارنة : « سلك مسلك المعري ، وتجرّد من التدين وعري . وأبدى الغلو ، وتعدّى الحق المجلو ، فمجتّه الأنفس ، وأزعجته الأندلس ، فخرج على غير اختيار . . . ⁽³⁾ » وهكذا نظفر بسبب آخر لهجرته - أو طرده - من الأندلس : التناول على الدين والإفراط في التحرّر العقلي ، على غرار صاحب اللزوميات (الذي ولد بعد وفاته بعام) . وعلى ذكر أبي العلاء ، نذكر بأنّه هو أيضاً عاب عليه المبالغة : « كان من شعرائهم المُجيدّين ، وكان يغلو في مدح المعزّ غلوّاً عظيماً ⁽⁴⁾ » . كما عاب عليه ،

(1) الذخيرة 799/2 .

(2) Vie littéraire ، المقدمة 31 .

(3) مطمح الأنفس ، 84 .

(4) رسالة الغفران ، 453 .

حسب روايات المترجمين ، الجلبة اللفظية ، كالرحى تطحن القرون⁽¹⁾ ، والإغراق في الصنعة مع قلة المعنى فصارت أبياته أبعاداً ملفوفة في ورق الفضّة⁽²⁾ .

فالطريقة التي نسبت إليه لم تعجب إذن جميع الناس . هذا الحميدي مثل ابن رشيّق يعترف له بالموهبة القويّة ولكن يستقبح الجلبة ، وكذلك ابن دحية ، يغلب مساوئه على المحاسن : « ... ربّما صدرت عنه دررٌ تلحقه بالشعراء الكبار ... وبقية شعره قعاقع وجعاجع ، وثالثة الأثافي ، والرسوم البلاقع » .

هذا بخصوص اللفظ . فلننظر الآن في مواقفهم من صوره وخياله : ابن سعيد يعظّم صورة التفاحة والعقرب : [كامل] .

وكانَّ صفحة خدّه وعذاره تفّاحة رُميتْ لتقتلَ عقرباً 46/4

حتى جعل البيت في مختاراته المرقصات المطربات . ولكن ، في مختاراته الأخرى ، يفضّل عليه الشاعر الوزير ابن عمّار ويجري هذا التفضيل على ذكر القصيدة الفلكية ، فهو لم يستسغها ، رغم كثرة التشبيه فيها ، كما استساغ رائية ابن عمّار في عبّاد أمير اشبيلية⁽³⁾ . والغريب في الأمر أن كثيراً من المصادر تجعل من ابن عمار تلميذاً - في الشعر - لابن هانيء⁽⁴⁾ .

أحكام معاصرة

نجد نفس القسمة عند الدارسين المعاصرين . فالذين ينقدونه يتجهون

(1) ذكره ابن خلكان ، ترجمة 640 .

(2) ذكره الصفدي : الوافي ، عدد 240 . وقد فسّر الصفدي تحامل المعري عليه بتعصّبه للمتنبي دون غيره .

(3) رايات المبرزين . رقم 77 ص 55 .

(4) انظر عبد الواحد المراكشي - المعجب 111 .

الى مبالغاته وضجيج قاموسه وتكلفه المفرط . ذاك موقف منير ناجي في الدراسة التي خصّصها له وناقشها بمدرّيد ، وهي والحقّ يقال ، أغزر مادة وأنفذ بحثاً من دراسة الشيعي السوري عارف تامر ، إلا أن منير ناجي غلب السلبيات ، أو اعتبر من السلبيات ما لم يكن للشاعر فيه حيلة ، كقصر الشعر على المدح ، أو غلبة الرصيد الثقافي الموروث عن الشرق على معانيه وصوره ، أو انحسار غنائيته لأنّه لا همّ له إلا طلب المال⁽¹⁾ . وهي لعمري أحكام منحازة ، بدليل المقارنة الختامية التي يجريها بين ابن هانيء والمتنبي ؛ فالفضل والغلبة للمتنبّي طبعاً ، وكأنّ الباحث لم يعر أي اهتمام للميزة الأساسية عند شاعرنا ، ألا وهي التحزّب .

والذين يطرونه يعتمدون على خياله الزاخر ، ولغته الثرية وتراكيبه الممتينة ولين التعبير أو شدّته بحسب الموضوع والغرض . ذاك ما يفهم من هذا النص لقسطاكي الحمصي [ت 1941] الذي علّق به على أبيات من القصيدة السابعة والعشرين في وصف جيش جوهر : « لا يصف هذا الوصف إلا ابن هانيء متنبّي الغرب ، أو من هو مثله ، فيأتي على ذكر دقيق الموصوف وجليله ، ويقرب بعيدة ويحيط بمجموعه ، حتى يمثل لكل المشهودات كأنك تراها . . . بل يصف لك الأخلاق من لطيفة وكثيفة حتى تحسب أصحابها أشخاصاً ماثلةً بيّن يديك . . »⁽²⁾ .

واهتمّ فاسيلياف مؤرّخ الحرب بين بيزنطة والعرب ، بوصفه للأسطول ، فرأى فيه المبالغة والتوسّع⁽³⁾ ، وكريمر في دراسته عنه لاحظ القوّة في التعبير ، ووفرة الخيالات مع تصنّع نادر المثل⁽⁴⁾ .

(1) منير ناجي : ابن هانيء 231 .

(2) من كتابه « منهل الورد في علم الانتقاد » ص 198 ، نقلاً عن : عبد الحيّ دياب : التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد القاهرة 1968 ص 110 .

(3) فاسيلياف : بيزنطة والعرب 303 .

(4) كريمر : ابن هانيء ZD MG 1924 .

أما فصل « ابن هانئ » بدائرة المعارف الإسلامية ، الذي كتبه زميلنا فرحات الدشراوي ، فيرفع الشاعر الى مرتبة « أول شاعر عظيم بالمغرب » ويؤكد على ولائه الشيعي الذي به تفسر رُمُوزُهُ ويُبرَّرُ ميلُهُ الى الإفراط والمغالاة . ويبدو أن صاحب الفصل لم يعلم بوجود طبعة زاهد عليّ للديوان . ومن جهة أخرى ، كنا نتوقع من هذا الزميل وقد خصّص أطروحته للخلافة الفاطمية بالمغرب ، أن يعمّق دراسته لأغراض ابن هانئ ومعانيه حتى نزداد فهماً للأحداث والوقائع والسفارات والعلاقات في مدّة المعزّ ، لكنّه اهتمّ - وهو المؤرّخ - بالمصادر التاريخية خاصّة ، وهذا في نظرنا ظلم للمصادر الأدبيّة ، فقد تعين المؤرّخ على استجلاء ما قد يغمض عند المؤرّخين ، وحتى على اكتشاف ما لم يذكره ، كالذي افترضناه - ولعلنا توهمناه - من تعيين المعزّ لابنه عبد الله على ولاية إفريقية⁽¹⁾ .

سيرورة الديوان

لا ندري هل جمع ابن هانئ شعره في حياته ، شأن معاصره المتنبي . وإذا ما اعتبرنا أن أطول قصائده ، القصيدة السابعة والأربعين ، لم يفرغ من نظمها إلا قبيل مقتله بقليل ، أمكننا الافتراض بأنّ مختلف القصائد والمقطوعات لم تُجمع وترتّب إلا بعد وفاته بكثير ، خصوصاً وأنّ الوسط الإفريقيّ ، بعد رحيل المعزّ الى القاهرة وانتصاب الولاة الصنهاجيين بديلاً من الدولة الشيعيّة ، كان ينتظر أن تقطع الدولة الجديدة الصلة العقائديّة مع الفاطميين ، بل كان يحثّها على ذلك . وفي هذا الجوّ من العداء للشيعيّة والحنق عليهم ، لا نظنّ أن أحداً كان يجسر على جمع شعر داعيتهم ونصيرهم . فإذا اضطرّ الأديب المُنتقي ، والمؤلّف الجامع ، الى الاستشهاد بشيء من شعره ، اختار ما لا غلوّ فيه ولا تقديس : وهكذا لم ينتق منه الحصري في زهر الآداب إلا أوصافاً بريئة

(1) انظر الفصل الخامس 154 .

للخيل ، أو السفن ، فجمع ستة وثمانين بيتاً ، ولكن الأقل منها مأخوذ من المدائح المعزية .

أول إشارة إلى حجم الديوان نجدها عند الحميدي ، ولكنه لا يشعرنا هل رأى ذلك الشعر مجموعاً في ديوان . ونستنتج من نادرة رواها المقرئ⁽¹⁾ أن الديوان كان معروفاً بالأندلس في أواخر القرن الخامس : فقد كان ابن رزين (ت 496) ملك السهلة يستمع إلى قراءة من ديوان ابن هانيء ، فتعثر القارئ في فهم كلمة « حرام » فقسمها شطرين فضحك القوم .

وأول شهادة بوجود الديوان بإفريقية أتت من مخطوط تونس 1 . وقد ذكرنا مزايا هذه النسخة⁽²⁾ . وأهم ميزة لها أنها نُقلت عن نسختين : واحدة هي الأصل ، وتاريخها سنة 1211/608 . فهي أقدم نسخة تُذكر من الديوان . فقد جاء في خاتمة هذا المخطوط : « الحمد لله . ذكر محمد بن القاسم كاتب الأصل المنقول منه السفر المقابل منه هذا ، أن هذا ما صحّ لديه ووقع إليه من شعر أبي القاسم في عجز ربيع الآخر الذي من سنة ثمان وستمئة » .

والثانية نسخة تتضمن قصائد ومقطوعات خلت منها النسخة الأصل ، نسخة 608 ، فضمّ كاتب المخطوط هذه الزوائد إلى ما نقله عن نسخة 608 وعنون كلّ إضافة بعبارة « وقال من غير الأصل المنقول عنه » . فلذلك جاءت مخطوطة تونس 1 أكمل من غيرها .

ولعلّ الإضافات والزيادات نُقلت من نسخة أندلسية كالتی كانت عند ابن رزين : ذلك أن البيت الذي تعثر النديم في قراءته هو من إحدى المقطوعات الإضافية التي لا توجد في غير هذا المخطوط . فالنسخة الإفريقية - نسخة 608 - كانت ناقصة بالمقارنة مع نسخة ابن رزين : فهل يعني هذا أن النسخة -

(1) نفع الطيب 407/3 نادرة 198 .

(2) انظر الفصل الثاني ص 34 ، والحواليات 1969/6 ص 79 - 81 .

أو النسخ - الأندلسية كانت تتضمن شعراً لا يُوجد في النسخة - أو النسخ - الإفريقية ؟ فإن صحَّ هذا يوماً باكتشافات جديدة ، فهل يُعزى نقصان النسخة الإفريقية الى عملية تطهير من الشعر الماجن والأبيات المسفة⁽¹⁾ ؟

أم هل نفسّر زيادة النسخة الأندلسية بافتراض أنها ربّما تضمّنت شيئاً من الشعر الذي نظمّه صاحبنا في الأندلس ، وهو هذا الشعر الخليع بالذات ؟

وبعد ، فهذا افتراض لا يمكن تحقيقه بما لدينا من وثائق . وهو ، على كل حال ، يدعو إلى التفكير والتمحيص بقدر ما دعانا إليه افتراض منير ناجي في أن الأقسام الخمريّة من قصائده إنما هي شعره الأندلسي⁽²⁾ .

أما وجود الديوان بالمشرق ، فتشهد به ضمناً عبارة ياقوت إذ يلاحظ ، في خصوص القصيدة الثالثة والخمسين ، أنها أطول قصائده جميعاً ، فهي تربو على الثمانين بيتاً⁽³⁾ . والعبارة تدلّ أيضاً على أن هذا الديوان كان ناقصاً : فنحن نعلم أنه في صورته الحالية يتضمن خمس عشرة قصيدة تتجاوز كل واحدة ثمانين بيتاً . وجميع الشواهد التي ساقها ياقوت من شعر ابن هانيء مستخرجة من قصائد لا تتجاوز ثمانين بيتاً ، وكذلك الشأن في خصوص المختارات التي نقلها ابن خلكان وابن سعيد ، وجميع هؤلاء كانوا يكتبون في القرن السابع . ولكن لا نستنتج بالضرورة أن الشرق كان لا يعرف من الديوان إلا نسخاً جزئية . بل الأغلب على الظن أن ابن سعيد قد اطلع على نسخة كاملة تامة - أي مثل مخطوطة تونس 1 - لأنه في مغربه ينقل إحدى المقطوعات الإضافية التي انفرد بها مخطوط تونس 1 .

وفي القرن الموالي استخدم الدواداري وابن فضل الله العمري (ت 1348/748) نسخاً أكمل من نسخة ياقوت ، إذ ينقلان أبياتاً من القصيدة السابعة

(1) وهي التي نشرت بالحواليات 1972/9 ص 75 .

(2) انظر الفصل الثاني ص 51 .

(3) معجم الأدباء ، ترجمة 27 .

والأربعين ، أطول القصائد على الإطلاق . ثم إنَّ صاحب مسالك الأبصار ينقل⁽¹⁾ أبياتاً من القصيدة السبعين هي الأبيات التي نقلها الحصري في زهر الآداب . وكان الديوان يُعرض للبيع في أسواق القاهرة حسب خبر أورده ابن حجر (ت 1449/852) في خصوص فقيه تونسي يدعى ابن القوبع (ت 1337/738) كان يتصفَّح نسخة من الديوان بسوق الكتب⁽²⁾ .

وليس وجود الديوان في المكتبات أو الأسواق هو وحده الدليل على شهرة صاحبه . فذكر اسمه أو نقل شيء من أبياته أو تضمين شطر أو بيت من أبياته في قصيدة ، كلُّ هذا قد يعبر أيضاً عن ذبوع صيته بين الأدباء والمتعلِّمين . ويبدو أنَّ شهرته بلغت أوجها في العصور التي يصطلح على تسميتها بـ « عصور الانحطاط » ، لندرة النبهاء والمبدعين فيها .

وقد تكون شهرة سيئة ، كَأَن يُسْتَشْهَد بصاحبنا في أمور انحرافية ماجنة . هذا ما يجيب به بعض شعراء مصر لائمه : [خفيف]

أنا دعني وما تراه فساداً فإمامي فيما ارتكبتُ ابن هاني⁽³⁾

ولكنَّ الأغلب أن يذكر اسمه في معنى الإشادة والإطراء ، حتى يخيل إلينا أنَّ شعره أصبح منذ القرن الخامس مثلاً يحتذى ، كما يدلُّ عليه هذا البيت الذي أورده ابن سعيد مع البيت السابق : [وافر]

وندمان ينادمني بشعر يتيه به على شعر ابن هانيء

وصارت البلدان تتجاذبه بعد أن أزعجته ومجَّته . فقد رأينا الفتح بن خاقان يرجعه إلى بلاده فيقول : « زهت به الأندلس وتاهت ، وحاسنت

(1) مسالك الأبصار مخطوط 2327 ورقة 7 وجه .

(2) الدرر الكامنة 491/4 ، ترجمة 491 . وقد نقل الخبر الوزير السراج في الحلل السندسية 3/1 ص 699 .

(3) ابن سعيد : المغرب (قسم مصر) 246 .

ببدائعه الأشمس وزاهاً » . وكذلك يرى فيه الشقندي مفخرة للأندلس . في حين أن ابن حزم يطبق معياراً أكثر رصانة : ينسب الرجل إلى البلد الذي آواه حتى موته . فأبو علي القالي الوافد من المشرق إلى الأندلس ، يعتبر أندلسياً . أما ابن هانئ فينسب إلى ما هجر إليه ⁽¹⁾ .

وغلبت شهرته صيت الملوك والأمراء الذين مدحهم ، فصاروا يعرفون به كأن يقول المقرئ معروفاً جعفر بن حمدون : « وهو الذي مدحه ابن هانئ » ⁽²⁾ وهذا تفضيلٌ مشروع ، وإن كان لا يغني عن جوع ، لأصحاب الأقلام على أصحاب السيوف .

وكذلك التقليد والمحاكاة ، هُما عنوان الشهرة : فكم قلّدوا مثلاً القصيدة الحادية والثلاثين الفائية ! مثلما فعل أحد النّسّاك في عصر المقرئ : نظم قصيداً مطوّلاً في نعل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على وزن قصيدة النجوم ورويتها فقال في بعض أبياتها : [طويل]

وما أنا فيه كالذي قال هازلاً : أليتنا إذ أرسلت وارداً وحفاً ⁽²⁾

ويقول ابن بسّام إن أهل الأندلس كانوا معجبين بها خاصّة ، فانبرى كثير من الشعراء للنسج على منوالها ، « منهم أبو الربيع القضاعي في تشبيهات كثيرة « بكأن » احتذى فيها طريقة محمد بن هانئ الأندلسي وسلك سبيله فضل عنها » ⁽³⁾ . واعتذر الشقندي بطولها الذي ثناه عن نقلها برمتها ⁽⁴⁾ ونقل منها أبو البقاء الرندي (ت 1284/684) أبياتاً « من أحسن ما قيل في وصف البدر والهلال والنجوم » ⁽⁵⁾ .

(1) نفع الطيب 293/1 و 297 . و 164/3 .

(2) أزهار الرياض 275/3 .

(3) الذخيرة 508/3 .

(4) نفع الطيب 186/4 .

(5) قطعة من كتابه « الوافي بعلم القوافي » ، نشرها جعفر ماجد بالحواليات 1969/6 ص 181 .

وذاع صيت القصيدة في المشرق أيضاً فنظم ابن سنان الخفاجي (1073/466) قصيدة في الموضوع نفسه ، فانتقلت هذه الفائتة من المحاكاة الى المعارضات⁽¹⁾ . وصار يكتفى بذكرها إذا أشير إلى ابن هانيء . بل رأينا بعض المخطوطات تقتصر على نقلها دون غيرها .

وتليها في الشهرة القصيدة العشرون التي كثيراً ما استحسنوا مطلعها :

[كامل]

1/20 فتقت لكم ريحُ الجِلاَد بعنبر وأمدكم ريح الصبّاح المسفر
2 وجنيتم ثمرَ الوقائع يانعا بالنصر، من ورق الحديد الأخضر

أعجبوا بما فيها من استفراغ للصورة الحربيّة الممتزجة بمشهد الطبيعة : رؤوس الأعداء ثماراً أينعت ونضجت فقطفها الممدوح بسيوف عريضة كالورق النضر الأخضر ، مع المقابلة بين الثمر الناضج والحديد الذي لا يزال أخضر أي قوياً على قطوف أخرى موالية ، مع تضمين الإشارة القرآنية البعيدة في البيت الأول : وهي تسخير الرياح لخدمة الجيش الغالب ، وهو معنى جارٍ على لسان شاعرنا ، لا سيّما في الإشادة بالأسطول الفاطمي . هذا الرّصف لصور بلاغيّة كثيرة في بيت أو بيتين هو الذي جعلهم يلهجون بمثل هذا الشعر ويتسابقون إلى محاكاته . وهو الذي جعل ابن حِجّة الحمويّ [ت 1433/837] يفضلها حتى على «قفا نبك»⁽²⁾ ، وحمل شاعراً حليياً يدعى الكورانيّ (1646/1056) على أن يضمّنهما في شعره :

فُتق العِذار بخيّه فكأنما فتقت لكم ريحُ الجِلاَد بعنبر⁽³⁾

وصيت ابن هانيء بلغ الى شعراء عصرنا الحاضر : أحمد شوقي سمى

(1) الدواداري ، كنز الدرر 241/6 .

(2) خزنة ... 123 .

(3) المحبّي (ت 1700/1111) : ريحانة الالباء ، 617/2 .

بيته بالقاهرة « كرمه ابن هانيء » وهو الذي أصبح اليوم متحفاً يزار . والغناء الشعبي اتخذ شاعرنا مثلاً للحبّ الوفيّ وقرّنه بمجنون ليلى . يقول المغنيّ المغربيّ الحاج التهامي الهروشي في أغنية « محبوب القلب » :

نشبه في الحبّ قيس وابن سهل وابن هانيء

هذا ، وقد أشرنا إلى الشعراء الذين يتبعون « طريقة » ابن هانيء وقد ذكر منهم ابن بسّام طائفة مثل القضاعي والدارمي وابن البين ، كما ذكر المراكشي في المعجب أبا عبد الله محمد بن حبّوس الذي كان يطلب اللفظ الفخم والتراكيب المتينة والصور البليغة ، ولكنّه ، كما قال ، لا يصل إلى درجة ابن هانيء من الطبع والحلاوة⁽¹⁾ . وكذلك كان شاعر بني عبّاد ، ابن عمّار ، الذي مرّ ذكره .

عقب الشاعر

قلنا إن حياة هذا لرجل يكتنفها الغموض : فلا شيء ثابتاً صحيحاً عن فترتها الأندلسيّة ، وشعره بالبيرة او غرناطة او إشبيلية أهمل أو مُحي من الكتب ومن الذاكرة . ولسنا بأوفر حظاً في خصوص فترته المغربيّة والإفريقيّة : قبل كلّ شيء ، أين كان يقطن ؟ أبالمسيلة ؟ أم بالقيروان - المنصوريّة مع الخليفة ؟ كنّا نأمل أن نجد شيئاً من أخباره عند القاضي النعمان في كتاب المجالس والمسائرات الذي نُشر أخيراً ، وقلنا : هذا كتاب بمثابة المذكرات التي يسجل فيها كبير قضاة الدولة أقوال الإمام وتحركاته الخاصّة والعامة . ولكن خاب الأمل : لم يذكره مرّة واحدة ولا استشهد ببيت من شعره ! فحوّلنا أملنا الى كتاب الداعي ادريس « عيون الأخبار » الذي استخدم كتب النعمان كثيراً . فإذا به يورد كثيراً من شعر صاحبنا ، ولكن في غير ربط صحيح

(1) المعجب 183 .

بالأحداث : على سبيل المثال ، ينقل جانباً كبيراً من القصيدة الأربعين اللامية في الإشادة بانتصار المجاز ، ولكنه يلصقها بالوقعة القديمة التي دارت سنة 956/345 ، والشاعر آنذاك لم يغادر بعدُ بلاده . ثم هو لا يذكر شيئاً عن حياته في البلاط ، لا حادثة ، ولا إنشاد ، ولا مكافأة ، ولا خصومة ، ويقتصر على نقل التوطئات المبهمة التي نجدها في الديوان⁽¹⁾ .

وقد افترضنا ، بناء على أبياتٍ في قصيدته الأخيرة ، أنه كان يقطن بالزاب بصفة مسترسلة ، إذ أنه اعتذر على مفارقة المعزّ ببرقة - مؤقتاً - بواجب الرجوع الى الزاب بسبب « قطين في قصي من النوى » وقلنا : لعله يعني عياله ، ولو كان يسكن القيروان ، فما حاجته بالرجوع إلى المسيلة ، خصوصاً وقد فارقتها صاحبها منذ سنتين ؟

ثم ، هل كان له أسرة ؟ زوجة وأولاد وأهل ؟ نحن نعلم أن الشعراء والأدباء المتصلين بأصحاب السلطان لا يتسّطون في هذا الموضوع . فما علمنا مثلاً بأنّ المتنبّي أنجب ولداً إلا في حادثة قتله . أما شعره ، فلا شيء فيه من هذا ، وكذلك شعر صاحبنا .

فلذلك فوجئنا حين وجدنا في كتب الأدب أنّ له عقباً ، لا في معنى التلاميذ المقلّدين ، بل في معنى النسل ، وأن هذا النسل كان يحترف الشعر هو أيضاً : وأوّل ذكر لابن هانيء آخر ، نجده عند الثعالبي في تتمة اليتيمة⁽²⁾ حيث يورد بيتين منسوبين الى شاعر يُدعى جعفر بن هانيء الأندلسي . والبيتان مثبتان في مخطوط تونس 1 باسم محمد بن هانيء صاحبنا . فافترضنا أنّ الثعالبي قد يكون وهم وخلط بين جعفر بن هانيء هذا وشاعر مصري يدعى محمد (بن إبراهيم) بن هانيء ، خصوصاً وأنّ جعفر بن هانيء مجهول في جميع المصادر ، في حين أن محمد بن إبراهيم بن هانيء معروف ، نقل له

(1) عيون الأخبار ، السبع السادس الذي ننوي نشره عن قريب ان شاء الله .

(2) تتمة اليتيمة 34/1 .

العماد الأصفهاني في شعراء مصر طائفة غزيرة من الأبيات ، وهي أبيات على طريقة ابن هانيء ، لا سيما قصيدة فائية من جنس القصيدة الفلكية رَصَّعها هو أيضاً بسلسلة من التشابه المبدوءة بـ « كَأَنَّ » ، إلا أنها لا تصف النجوم ، بل الأزهار⁽¹⁾ .

ومحمد بن إبراهيم هذا ليس من ورثته في الأدب فحسب ، بل هو من عقبه الفعلي ، فهو ، حسب شهادة العماد ، سليل ابن هانيء الأندلسي المغربي ، مات في آخر مدَّة الوزير ابن رزَّيك ، أي قبل سنة 1164/560 . ويضيف صاحب الخريدة أنه همَّ بوضعه مع شعراء المغرب والأندلس ، ممَّا يحملنا على الظنِّ بأنَّ هذا الشاعر المصري لم يكن مصريَّ المولد والنشأة ، بل رحل الى خدمة الفاطميين بالقاهرة من موطنه الأندلس . هذا الأصل الأندلسي يدعّمه ما نجده عند ابن ظافر (1216/613) من صريح الإعلان بانتسابه إلى شاعرنا : « . . . ولو لم يكن له ممَّا يمثُّ به إلا انتسابه إلى أبي القاسم بن هانيء شاعر هذه الدولة ، ومُظهِر مفاخرها ، وناظِم مآثرها ، لكفى . فكيف ، وفيه هذا الأدب الغضُّ النضيرُ ، والشعرُ الذي لا ندُّ له ولا نظير ؟ »⁽²⁾ . وهكذا يكون ابن هانيء الحفيد أو « المحدث » كما يدعوه ابن ظافر ، قد حقَّق ما رامه جدّه الأعلى ، وهو الالتحاق بالدولة الفاطمية بالقاهرة .

وهناك حفيد آخر لشاعرنا ، كشف لنا عن نسبه المؤرِّخ ابن القنفذ القسنطيني (ت 1407/810) ، ألا وهو البهاء زهير شاعر الأيوبيين . قال : « وفي هذه السنة [1258/656] توفِّي بالقاهرة صاحب بهاء الدين زهير ابن محمد المهلبِّي ، الحجازيَّ المولد والمنشأ ، المصريَّ الدار . ويُذكر أنه من وَلَد محمد بن هانيء الأندلسيَّ شاعر بني عبيد المشهور ، وأن والده انتقل من سبته إلى مكَّة المشرفة ، وولد بها ، وبها نشأ وتأدَّب ، وسار إلى الديار

(1) الخريدة (مصر) 1/248 .

(2) بدائع البدائِه ، بولاق 1278/1860 ، ص 224 .

المصريّة . . . »⁽¹⁾ وابن قنفذ هو الوحيد الذي ذكر له هذا النسب ، ولكن ذكر مدينة سبته يحملنا على قبول قوله كما سيظهر بعد قليل ، بالرغم من أنّ مؤرّخي الدولة الأيوبيّة ، ودارسي شعرائها مثل جودت الركابي⁽²⁾ لم يؤيدوه . ولكنّ البهاء زهير مهلبيّ أزديّ مثل صاحبنا ، أفيكفي هذا الاشتراك لربطهما بنسبٍ مباشرٍ ؟

وهناك ابن هانئ ثالث ذكره المقرّي فيمن رحل من إشبيلية إلى سبته⁽³⁾ ، وهو فقيه مؤرّخ يدعى أبا عبد الله محمد بن هانئ اللخميّ السبتيّ . فهو يمّنيّ - لخمّيّ - وإشبيليّ الأصل مثل صاحبنا ، واستقرّ بسبته التي عاش بها والد البهاء زهير حسب قول ابن قنفذ . فهل كان هذا الفقيه حفيداً أيضاً لشاعر المعزّ ؟ ونلاحظ بهذا الصدد أن المستشرق الإسبانيّ بونس بوافس نسب إلى صاحبنا كتاباً في التاريخ ، وهو بدون شكّ من تأليف الفقيه السبتيّ⁽⁴⁾ .

تدهور شخصيّة ابن هانئ

بعد هذه الخواطر حول تأثير ابن هانئ الفعليّ ، يجدر بنا أن نتوقف قليلاً عند الصور الخرافيّة أو المضحكة التي انحدرت اليها صورته في كتب الأدب وعند المترجمين الذين قد لا يمتّصون ما يقع اليهم من أخبار فيقبلون ما يلفقه الخيال الشعبيّ حول الأعلام الذين اشتهروا بخاصيّة ما ، كالجاحظ وشغفه بالكتب ، وأبي نواس ومجونه ، وابن الرومي وطيرته ، والمعريّ وذاكرته العجيبة .

(1) الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصيّة ، 121 .

(2) في دراسته عن الشعر في العهد الأيوبيّ وفصل « بهاء الدين زهير » بدائرة المعارف الإسلامية .

(3) نفع الطيب 245/6 .

(4) Ensayo . . . ترجمة 37 و 273 (محمد بن علي بن هانئ) .

ففي جانب الروايات الخيالية ، نجد توطئة القصيدة الثالثة والخمسين التي يقول الديوان انها أول ما أنشده بالقيروان : [كامل]

1/53 هل من أعقبة عالج يبرين أم منهما بقر الحدوج العين؟⁽¹⁾

ويضيف أن المعز أمر للشاعر « بدست قيمته ستة آلاف دينار . فقال : يا امير المؤمنين ، ما لي موضع يسع الدست إذا بسط ، فأمر له ببناء قصر ، فغرم عليه ستة آلاف دينار ، وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار » . فهذه خمسة عشر ألفاً من الدنانير المعزّة ، وكانت ثقيلة بالمقارنة مع غيرها . وأعجب من هذا المبلغ أن يكافئ الممدوح شاعره لا نقداً بل بضاعة . وأعجب منه أن يبدأ بالزراي قبل الدار . وكنا نتوقع بعد هذا أن يعطيه الجارية والغلمان ويعمر له الدار !

وبعد ، نقبل من التوطئة أن القصيدة أول شعر له أمام المعز ، فتكون القصائد السابقة - كالحادية عشرة - أرسلت إلى المعز من المسيلة ، ولكن لا نقبل بقية الخبر بسبب مسحته العجيبة التي لا تتفق مع ما عرفناه من المعز ومن الشاعر معاً ، لا سيما وأن الديوان انفرد وحده بهذه الخرافة .

توطئة أخرى تقدّم لنا منه عجيبة وغريبة ، ولكن بقصد الإطراف ، هي توطئة القصيدة العشرين التي أعجبت الأدباء كثيراً كما بيّنا . ينفرد بهذه المقدمة مخطوطا تونس ت 2 رقم 15850 وتونس 3 رقم 15890 فيقولان : « وهي [القصيدة] التي امتحن بها وأنشدها ارتجالاً ومات حال إنشاده رحمه الله تعالى » ويضيفان : « ولها قصة » . وكنا نودّ أن نعرف هذه القصة الأخرى ، حتى نفهم كيف حيي بعدها حتى التحق بالمعز وعاشره مدة ثم صاحبه حتى برقة حيث لقي حتفه النهائي ، وحتى نفهم بالخصوص الدوافع إلى اختلاق

(1) عالج ويبرين موضعان بجزيرة العرب ، والأعقة ج عقيق : مسيل الماء . والبقر العين : الحسنات مثل البقر الوحشي والحدوج : هودج الطعائن .

مثل هذه الخرافة : هل أراد صاحبها أن يستدلّ على قدرة الشاعر في الارتجال ؟ ولكن ، أيّ قدرة ، إذا حمّله الجهد إلى القبر بمثل هذه السرعة ؟ أم أراد أن يستنكر قساوة الامتحان ؟ ولكن هل فرض عليه الممدوح هذا المقدار القاتل : ثمانية وثلاثين بيتاً في الحين والحال ؟

والرأي عندنا أنّ الرواية ليست لا شيعيّة ولا سنّية ، وإنّما هي محاولة لتجسيم صورة الشاعر الباهتة وتلوينها بشيء من السماكة والحركة ، إلّا أنّ الراوي لم يقدر المرمى فتجاوز الغرض .

أمّا الرواية الهزليّة ، فعند ابن سعيد وابن العماد . صاحب المغرب يصوّره لنا وهو يخاتل حاجب جعفر بن حمدون حتى يدخل على الأمير ، فيضطرّ إلى التّنكّر في زيّ بهلول فيستطرفه الحاجب - دون أن يعرفه - فيدفعه إلى مولاه حتى يضحكه وهناك يخلع ابن هانيء حمقه المستعار ويندفع منشداً قصيدة النجوم ، فيقول جعفر مبهوراً : أنت ابن هانيء !⁽¹⁾ واستظرف الخرافة الدواداري أيضاً فأثبتها في كنزه⁽²⁾ .

ابن العماد يخبرنا بلقاء بين ابن هانيء والمتنبّي : هنا أيضاً يتنكّر مواطننا في هيئة مسكين ذي أطمار يسوق أمامه شاة عجفاء ويعترض منافسه وهو قاصد أمير قابس تارك كافوراً فيقول له ، مشيراً إلى الدابة الهزيلة : هذا ما كافاني به على مدحي . فيفهم المتنبّي أن هذا البحر الذي وصفوه له إنّما هو ساقية ، فيعود أدراجه ، فيفرح ابن هانيء وقد أمن المنافسة⁽³⁾ . وقد بلغت الحكاية إلى مسمع اليافعيّ قبل أن تصل إلى صاحب الشذرات ، فاكتفى بأن قال : ما سمعنا أن المتنبّي دخل المغرب قطّ⁽⁴⁾ ، ولكنه لم يستغرب الخرافة .

(1) المغرب ، ترجمة 409 .

(2) كنز الدرر 241/6 .

(3) شذرات الذهب 41/3 .

(4) مرآة الجنان 1 / ورقة 230 .

وهكذا فالصورة التي تقدّمها الحكايتان من شخص ابن هانيء هي وسط بين نوادر جحا وأخبار أبي نواس . وابن العماد - عن قصد أو غير قصد - يكتفي صاحبنا بكنية أبي نواس « مثل الشاعر العراقي » ، وبهذا الخلط يتضح المسعى : شاعران يكتّيان بأبي نواس . وأبو نواس يحمل في الذهنية الشعبية شحنة من المُلح والنوادر ، فيتحوّل هذا الجانب الهزليّ بصفة طبيعية إلى النواسيّ المكذوب ، أي صاحبنا .

ولا نتهم أخيراً خصوماً له سنيّين ولا أنصاراً شيعيّين ، كأن نقول : الصور المضحكة هي انتقام من مؤلّفين قيروانيّين مالكيّين من هذا الذي آله الدخلاء المشاركة المارقين . أو نقول : إنّ الصور الخرافية كالهبات السنية أو الارتجال المتبوع بسكتة قلبية هي من صنع الشيعة ، تعظيماً لكرم المعزّ من جهة ولعبريّة شاعره من جهة أخرى .

لا نتهم أحداً ، بل نكتفي بالرأي الذي اقترحناه قبيل الساعة : هي محاولات مغالية - وبالتالي غير ناجحة - لإعطاء صورة محسوسة ملموسة فيها ألوان الحياة ، لهذا الشاعر الغامض المبهم الغريب .

الخاتمة

حين شرعنا في هذا العمل ، كانت تحدونا رغبتان : أن نلتمس أولاً من دراسة هذا الشعر المذهبيّ مزيداً من المعلومات عن الدولة التي نُظِم في الإشادة بها ، وذلك اعتماداً على التواصل الوثيق بين الأدب والتاريخ ، وخاصة في بيئتنا العربيّة الإسلاميّة .

ثمّ أن نبرّر - أو نزيّف - الشهرة الواسعة التي نالها هذا الشعر طيلة العصور التالية : فهل له من القيمة الذاتية ما يُثري الأدب العربيّ عامّة ، والمغربيّ خاصّة ؟ أم كان الإعجابُ بابن هانيء نتيجة لنزعة المباهاة الإقليميّة التي حاول بها المغاربة أن يتحرّروا من الشعور بالتبعية نحو الشرق ؟

وكنا نأمل أيضاً ، علاوة على هاتين الغائيتين ، أن نلقِيَ أضواءً جديدة على شخصيّة هذا الرجل الذي يكتنفه الغموض بالرغم من وصوله الى منصب الداعية الرسميّ لأعظم دولة إسلاميّة في القرن الرابع .

والآن ، وقد وصل عملنا الى نهايته ، يحق لنا أن نقيّم النتائج :

في خصوص ترجمته ، نقول انها نتائج متفاوتة : لم نصل إلى جديد فيما يخصّ الفترة الأندلسيّة من حياته وبقينا ، مثل سابقينا ، في دائرة الظنّ والتخمين ، في كلّ ما يهمّ شبابه ، وأسرته ، وهائناً أباه الداعي الغريب أو

المزعوم، وخروجه طوعاً أو كرهاً من إشبيلية . ولم نفهم بالخصوص كيف مُجّي شعره الأندلسي من الذاكرة حتى لم يبق لنا منه ، ولو بيت واحد ثابت ، مع أن إنتاجه الشعري بموطنه الأول كان ولا شك غزيراً ، كما تشهد له به المدحة الجيدة التي توجّه بها إلى جوهر حال وصوله الى برّ العدو .

أما الفترة الإفريقية ، فلئن وضّحنا بعض جوانبها ، فإنّ مناطق كثيرة منها لا تزال مبهمّة : مثلاً ، كم دامت إقامته بالمسيلة ؟ أي ، متى دخل في خدمة المعز ، حتى تحدّد بالضبط المدة التي صحب فيها الخليفة وعاصر الأحداث ؟ ثم ، ما هي حقيقة علاقته بالإمام ؟ هل كان يقطن بجانبه بالقيروان ، أم كان يأتيه لماماً من المسيلة ؟ وهل كان له ما يشدّه إلى المسيلة ، أي أهل ورهط وخلان ؟

كما بقي بعض ممدوحيه مجهولين لدينا بصفة تامّة : الشيباني وأحمد بن زائدة ، أو مفتقرين إلى مزيد من التعريف كأفلح الناشب أو طاهر والحسين الأميرين الفاطميين .

وبقينا نستغرب عزوفه عن مدح ولاية وقواد مشهورين مقتدرين كالأمراء الكلبيين بصقلية والصنهاجيين بأشير : البُعد المسافة بين الزاب وصقلية ؟ أم للعنصرية الخفية والصريحة بين العرب والبربر ؟

وفي المقابل ، تمكّنا ، على ضوء ما أسعفنا به مخطوط تونس 1 من قطع ذاتية مجهولة ، من كشف الجوانب المخفية من شخصيّة الشاعر ، كالانحراف المكبوت ، والشذوذ الجنسي ، والميل إلى اللهو ، والإسفاف في المطارحات الإخوانيّة ، ممّا يدعم الرأي القائل بأنّ قتله كان « في مشربة على صبي » أو أنّ موته كان بعد سكر شديد ضلّ معه الطريق .

أما شعره ، فقد حاولنا أن نظهر خاصيّته الأساسيّة : وهي الجانب السياسيّ العقائدي الذي يرفعه ، في مضمار الدعاية الحزبيّة ، إلى مستوى المؤلّفات « النظرية » المختصّة مثل كتب القاضي النعمان أو الداعي إدريس ،

ويجعل من صاحبه شاعراً مندرجاً عن جدارة في سلسلة الشعراء المذهبيين الذين خَدَمُوا قضية أو تعلقوا بفكرة ، ابتداءً من الثالث الأموي وخصومهم الزبيريين أو الخوارج ، إلى شعراء الوطنية والمقاومة اليوم ، وبرهنوا على أنَّ الشعر قادرٌ على الدفاع عن فكرة سامية والإقناع بقضية مشروعة ، بقدر ما هو قادر على التعبير عن عواطف القلوب وأحاسيس النفس . فشعر ابن هانيء ، في دفاعه عن شرعية الدولة الفاطمية ، واستدلاله على أحقيتها بإمرة المؤمنين ، وخصوصاً في حملته العنيفة ضدَّ الأعداء والمنافسين ، أقوى لهجةً وأشدَّ تأثيراً من قصائد التحسّر والتفجّع التي عرف بها الشعر الشيعي في أيامه الأولى . ولقائل أن يقول إنَّه كان في مأمنٍ من غضبِ هؤلاء الخصوم لا يحتاج الى تقيّة أو مداراة لأنَّه كان محروساً بدولة قويّة متألّقة منتصرة . ونجيب بأنَّ مثل هذا الشاعر كان يصرخ بنفس الشعارات ويصدع بنفس المبادئ ، في نفس القوّة ونفس العنف ، لو قدّر له أن يعيش تحت حكم عباسي أو أموي ، وقد فعل مع هؤلاء فأزعجوه ونفوه ، مثل اللاجئين السياسيين اليوم .

وفيما عدا ذلك ، فإنَّ شعره يلفت الانتباه بخاصيتين : ميل الشاعر إلى الجزالة في اللفظ والقوّة في التعبير ، ممّا حمل إليه تهمة التقوقع والجلبة الفارغة ، وشغفه بالصور والخيالات وكلّ أصناف الصنعة البلاغية ، ممّا يجعل منه رائداً لمدرسة البديع في المغرب .

هذه الصنعة ، هذا التطبّع من جهة ، وهذه القعقة اللفظية من جهة أخرى - وإن كانتا ظرفيتين عابرتين ، لا تشوبان كافّة شعره - تطمسان في الأغلب غنائية الشاعر فتبهت الجوانب الذاتية الفطرية الصادقة من حساسيته وتفكيره .

رمضان 1404 / جوان - حزيران 1984

الفهارس العامة

- 1 - فهرس الآيات المضمنة في الأبيات
- 2 - فهرس الأعلام والمفاهيم
- 3 - فهرس البلدان والأماكن
- 4 - فهرس الكتب المذكورة في المتن
- 5 - فهرس المراجع العربية وغير العربية
- 6 - فهرس المواضيع

1 - فهرس الآيات المضمنة في الأبيات

الصفحة	الآية	السورة
114	﴿ ... آلَانَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ... ﴾	يوسف ، 51
343	﴿ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ ... ﴾	ص ، 33-31
343 ، 187	﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ... ﴾	طه ، 32-25
145	﴿ ... كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... ﴾	البقرة ، 183
333	﴿ هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ... ﴾	يوسف ، 65
114	﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ ... ﴾	الأعراف ، 148
342	﴿ وَالْعَصْرِ ، إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ! ﴾	العصر ، 2-1
266 ، 128	﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾	الرعد ، 7

2 - فهرس الأعلام والمفاهيم

أسقطنا عبارات « ابن » و « أبو » و « بنو » . فابن هانيء يطلب في الهاء
وبنو حمدون في الحاء .

وأضربنا عن ذكر الأعلام الذين يتردد ذكرهم كابن هانيء والمعز ، أو
اكتفينا بالإحالة الى أهم الصفحات المتعلقة بهم ، مثل جوهر وبني حمدون .
وكذا نفعل بأسماء الأماكن .

وأقتصرنا على أسماء المتن دون الهوامش .

أ	آدم عليه السلام : 261، 262، 287 .
	بنو الأصفر : 297 .
ابن الأبار : 10، 14، 16، 35، 44، 101،	الأعشى : 27، 116 .
112-107، 132 .	أعوج (في س) : 331 .
إبراهيم بن جعفر بن حمدون : 180-191 .	أفلح الناشب : 92-96 .
إبراهيم الرياحي : 36، 37 .	الإلياذة : 310 .
الأبرقطي (أو : الأبروطي) : 158 .	أماري (ميكال) : 20، 171 .
الأبلق : 147، 192 .	أمرؤ القيس : 180، 206، 210، 307، 331،
ابن الأثير : 18، 132، 171، 174، 249 .	332 .
أحمد بن أبي بكر الجذامي : 117 .	الأميني : 151 .
أحمد بن دينار : 174 .	الإنجيل : 240، 260، 262 .
أحمد بن زائدة : 102-103 .	الإيادي (علي) : 7، 21، 82، 123، 157-8،
الأحوص : 332 .	176، 193، 200، 236، 333 .
الادارسة : 119 .	أبو أيوب بن مخلد : 85 .

ب

بابك الخزمي : 174 .

« البارود » : 175 .

البتول : 289 ، 288 ، 247 .

البحترى : 101 ، 174 ، 227-9 ، 317 ، 333 .

البرامكة : 294 .

ابن بسام : 182 ، 333 ، 346 ، 349 ، 356-8 .

البستاني (سليمان) : 310 .

البسوس (حرب) : 97 .

بشار : 208 .

ابن بشكوال : 10 .

أبو بكر الصديق : 280 ، 283 .

بكر بن وائل : 63 ، 97 ، 245 .

يلقين بن زيري : 60 ، 87 ، 104 ، 169 ، 194 .

البهاء زهير : 1-360 .

البهرة : 43 .

بهلول بن راشد : 194 .

بونس بوافس : 361 .

بويحيى (الشاذلي) : 349 .

بنو بويه : 166 .

بيرم الثاني : 38 .

ابن البين : 358 .

267 ، 288 .

التوراة : 260 ، 262 .

التيفاشي : 23 .

تيم (رهط أبي بكر) : 128 ، 268 ، 283 .

ث

الثعالبي : 197 ، 359 .

ج

الجالليق : 54 ، 290 ، 296 .

جبريل : 151 ، 260 ، 274 ، 346 .

ابن الجبلي : 145 .

جعفر بن هانيء : 199 ، 359 .

جرير : 331 ، 349 .

الجعفران : 118 .

جعفر بن حمدون : 83-88 ، 179-200 .

226-234 .

جعفر الصادق : 258 ، 263 .

جعفر بن فلاح : 19 ، 58 ، 80 ، 119 ، 166 .

199 .

جعفر بن منصور اليماني : 82 .

« الجعفر » : 258 .

جودز : 21 ، 86 ، 147 .

جوهر الصقلي : 88-92 .

ح

ابن حاتم الأزدي : 126 ، 129 .

الحاكم الفاطمي : 250 .

ابن حنوس : 358 .

بنو الحجاج : 115 ، 125 .

ابن حجر العسقلاني : 355 .

ت

تامر (عارف) : 347 ، 351 .

ابن تغري بردي : 19 ، 135 .

أبو تمام : 101 ، 200 ، 317 ، 325 ، 331 .

تميم بن المعز : 5-24 ، 122 ، 130 ، 132 .

134 ، 156 ، 169 ، 198 ، 242 ، 5-264 .

- حجر أكل المرار : 180، 307 .
 ابن حجة الحموي : 357 .
 « الحراقات » : 174 .
 الحرورية : انظر : الخوارج
 ابن حزم : 182، 333، 356 .
 حسن (حسن ابراهيم) : 347 .
 الحسنان : 5، 118، 152 .
 الحسن بن عمار الكلبي : 171 .
 الحسين : 247، 248، 275، 281، 282 .
 الحسيني (زيد بن المنصور) : 33 .
 الحسيني (عبد الرحمان) : 33 .
 الحصري : 21، 157، 352، 355 .
 ابن حفصون (عمر) : 125 .
 الحكم الثاني : 17، 18، 87، 185، 196،
 243، 284 .
 الحكم بن العاص : 277 .
 الحلواني الداعي : 85 .
 ابن حماد : 18، 48، 89، 153، 249 .
 بنو حمدون : 83-88، 180-196 .
 ابن حمديس : 176 .
 حميد الدين علي : 43 .
 الحميدي : 11، 13، 15، 346، 350، 353 .
 ابن حوقل : 126 .
 ابن حيّان : 17 .
- خ
- ابن خاقان (الفتح) : 13، 38، 43، 88، 114،
 116، 348، 355 .
 بنو خزر : 60، 81، 87، 3-162، 168-170،
 193 .
 ابن الخطيب (لسان الدين) : 15، 16، 18،
- 22، 44، 107، 112، 132، 135، 138،
 216، 333 .
 ابن خلدون : 19، 86، 120، 181، 251،
 258 .
 ابن خلّكان : 5، 6، 15-19، 23، 28، 41، 44،
 107، 111، 114، 122، 132، 134، 139،
 166، 334، 337، 346، 354 .
 الخنساء : 327 .
 الخوارج : 146، 191، 192 .
 أبو الخير (الزنديق) : 126 .
- د
- الدارمي : 358 .
 الداعي إدريس : 82، 358، 366 .
 الدبّاغ : 144، 157، 159 .
 ابن دحية : 15، 346، 350 .
 ابن درّاج : 11، 333 .
 الدشراوي : 78، 84، 169، 352 .
 دعبل الخزاعي : 7، 331 .
 الدلنجاوي : 36، 37 .
 « الدمستق » : 172، 296-302، 341 .
 الدواداري : 25، 133، 354، 363 .
 ابن أبي دينار : 20 .
- ذ
- الذهبي : 19، 20، 114، 346 .
 ذو الفقار : 98، 150-152، 5-244، 293 .
 أبو ذؤيب الهذلي : 230، 341 .
 ذو يزن : 25 .
- ر
- الراعي النميري : 331 .
 ابن الرايس : 159 .

- أبو الربيع القضاعي : 358, 356 .
 ابن رزيك : 360 .
 ابن رزين : 353, 137 .
 ابن رشيقي : 14, 16, 21, 110, 116, 134, 158, 326, 328, 348, 350 .
 الركابي (جودت) : 361 .
 «رمانة المسك» : 199 .
 الرندي : 356 .
 روح بن حاتم : 110 .
 ابن الرومي : 216, 361 .
 رينو (هـ) : 175 .

ز

- زاهد علي : 24, 31, 33, 35, 39, 41, 43, 44, 115, 133, 134, 198, 203, 261, 285, 327, 347, 352 .
 الزاوي (طاهر أحمد) : 92 .
 الزجاجي : 115 .
 ابن أبي زمور : 198 .
 زناته : 78, 86, 87, 103, 163, 168, 170, 190, 193, 194, 273 .
 الزهّار (لطف) : 42 .
 الزهرا ، (فاطمة) : 247, 248 .
 الزهراني : 23 .
 ابن زولاق : 91 .
 ابن زيدون : 309, 312, 333 .
 زيري بن مناد : 60, 80, 87, 194 .
 زين العابدين (علي) : 261 .

س

- السبائي (أبو إسحاق) : 146 .
 شوقي (أحمد) : 357 .

ع

- ابن أبي العافية (آل موسى) : 47، 117 .
 161، 272، 273 .
 ابن أبي عامر : 18 .
 «العامة» : 259 .
 عائشة : 115، 126 .
 بنو عبّاد : 350، 358 .
 العبّاس بن عبد المطلب : 248، 285-289 .
 عبد الرحمان الناصر : 53، 115، 125، 273 .
 274، 276، 284 .
 أبو عبد الله الداعي : 84، 85، 192، 249 .
 عبد الله بن سليمان : 24، 198 .
 عبد الله بن محمد (وال صنهاجي) :
 170 .
 عبد الله بن المعز : 168-170، 265، 267 .
 352 .
 عبد الوهاب (ح.ح.) : 22، 37، 38 .
 «العشميّة» (بنو أميّة) : 275، 280 .
 عبيد بن الأبرص : 332 .
 عبيد الله المهدي : 7، 18، 85، 92، 108 .
 125، 155، 235، 249، 251 .
 العتقي : 158 .
 عثمان بن أمين : 189 .
 عثمان (بن عفّان) : 277 .
 عدّي (رھط عمر) : 268 .
 ابن عذاري : 18، 124، 155 .
 أبو العرب : 125 .
 عروس المؤذن : 144 .
 العزيز الفاطمي : 130، 169، 264-5، 287 .
 العسكري (أبو هلال) : 306، 327 .
 عضد الدولة البويهّي : 291 .

- الشيّباني (أبو الفرج) : 96-100 .
 الشيخان : 126، 128، 130، 268، 277،
 340 .
 الشيرازي (هبة الله) : 145 .

ص

- الصاحب بن عبّاد : 333 .
 أبو صخر الهذلي : 327 .
 الصدر (حسن) : 347 .
 الصفدي : 19، 111 .
 صلاح الدين الأيوبي : 175 .
 صنهاجة : 78، 87، 90، 147، 176، 194،
 273، 366 .
 الصنوبري : 120، 337 .

ض

- الضبي : 11 .
 ابن أبي الضياف : 37 .
 ابن الضيف : 13 .

ط

- طاغية الروم (الدمستق) : 295، 298 .
 طاهر والحسين (أخوا المعز) : 82، 189،
 197، 366 .
 الطريد (أو اللعين) : 277، 286، 296 .
 طفيل الغنوي : 214، 332 .
 الطليق (العبّاس) : 248، 286 .
 الطمشيش : 199 .
 طيّء : 205 .

ظ

- ابن ظافر : 200، 360 .

العكبري : 23، 44، 45 .
 علقمة الفحل : 206، 331، 332 .
 علّم الإسلام الداعي : 144 .
 علي الإيادي : انظر : الإيادي .
 عليّ بن حمدون : انظر : بنو حمدون .
 عليّ بن أبي طالب : 78، 98، 126، 128،
 150-152، 235، 248، 250، 261، 268،
 280، 4-283، 8-287، 347 .

ق

علي بن يحيى الصنهاجي : 176 .
 عليّة بنت المهدي : 294 .
 العماد الأصفهاني : 13، 137، 360 .
 ابن العماد الحنبلي : 16، 32، 138،
 4-363 .
 عمّار بن ياسر : 124 .
 ابن عمّار (الشاعر الوزير) : 350، 358 .
 العُمّان : 5، 118 .
 عمر بن الخطاب : 267 .
 عمر بن أبي ربيعة : 203، 8-207، 8-306،
 332 .
 عمرو بن العاص : 280 .
 « العواتك » : 8-247 .
 عيسى عليه السلام : 242، 247، 262 .

ف

فاسيليف : 351 .
 فاطمة الزهراء : 79، 235، 8-247، 268،
 283، 285، 287، 289 .
 الفتح بن خاقان (الوزير العباسي) : 228 .
 أبو الفداء : 19، 346 .
 أبو فراس الحمداني : 23، 208، 288، 294،
 309، 312 .

الفرزدق : 208، 255، 307، 308، 331، 332،
 349 .
 ابن الغرضي : 10 .
 الفزاري الشاعر : 82، 158، 159، 250 .
 ابن فضل الله العمري : 354 .
 فوندرهايدن : 89 .

القادر العباسي : 249، 251 .
 قارثيا - قوميث : 6، 308، 334، 336 .
 « ابن قاضي برقة » : 96 .
 القاضي النعمان : 70، 90، 130، 147، 151،
 240، 242، 254، 258، 259، 263، 268،
 298، 300، 301، 358، 366 .
 القالي (أبو علي) : 356 .
 القائم الفاطمي : 85، 94، 120، 133، 143،
 158، 176 .
 ابن القطار : 82، 157 .
 ابن قتيبة : 206، 210 .
 القرامطة : 80 .
 بنو قرة : 93 .
 قسطاكي الحمصي : 351 .
 قسطنطين : 78، 303 .
 قعضب : 25 .

ك

الفلقشندي : 165 .
 ابن القنفذ : 360-362 .
 ابن القويح : 355 .

- ابن كافي (عامل برقة) : 145 .
 كانار (ماريوس) : 20، 85، 153، 193، 196، 296، 302 .
 الكلبيون : 80، 147، 171-2، 366 .
 كتامة : 90، 142، 192، 273 .
 كثير عزة : 332 .
 كريم (فون) : 284، 351 .
 كليب وائل : 97، 180، 330 .
 كندة : 180 .
 الكوراني : 357 .
- ل**
- لبد : 230 .
 لبيد : 230، 341 .
 اللعين : انظر : الطريد .
 لقمان : 230 .
- م**
- مارسي (جورج) : 228 .
 ماسي (هنري) : 165 .
 ماسينيون (لويس) : 6، 77 .
 مالك بن أنس : 126 .
 المالكي (أبو بكر) : 5-144، 157 .
 المتنبي : 332-338 .
 محمد بن إبراهيم بن هانيء : 19، 111، 137، 199، 359، 360 .
 محمد بن حمدون : انظر : بنو حمدون .
 محمد بن الحنفية : 247 .
 محمد بن القاسم (ناسخ) : 353 .
 المراكشي (عبد الواحد) : 358 .
 مرضي بن علي : 175 .
- مرغوليوث : 44 .
 مروان بن الحكم : 277 .
 المروزي : 159 .
 مريم بنت عمران : 247 .
 ابن مسرة : 125 .
 المسعودي : 302 .
 «المشاركة» : 12، 115، 126، 144، 146 .
 346 .
 «المظلة» : 143، 149 .
 معاوية بن أبي سفيان : 78، 179، 277 .
 ابن المعتز : 317، 325 .
 المعتزلة : 241، 256 .
 المعري : 114، 309، 310، 349، 361 .
 المعز الفاطمي : 75-83 .
 مغراوة : 78، 170، 193 .
 ابن مقانا : 346 .
 المقدسي : 126 .
 المقرئ : 14، 138، 353، 356، 361 .
 المقرئزي : 12، 19، 58-9، 64، 91، 101، 142-3، 154، 165، 169، 240، 249 .
 251 .
 ابن ملجم : 128، 284 .
 الممسي (أبو الفضل) : 146، 158 .
 المناذرة : 181 .
 المنصور الفاطمي : 77، 85-6، 143، 146، 151، 158، 180، 192-3، 240، 257 .
 260 .
 منويل فقاو : 53، 171، 173، 299-302 .
 ابن المذهب : 100-102 .
 المهلب بن أبي صفرة : 14، 109 .
 موسى عليه السلام : 187، 193، 253 .
 2-261، 343 .

ميكائيل : 260 .

ابن هانيء اللغمي : 361 .

هانيء (الأب) : 9-108، 124، 239، 365 .

الهرقل (الدمستق) : 172، 279، 297 .

هوميروس : 304 .

ن

ناجي (منير) : 51، 351، 354 .

«النار الإغريقية» : 2-171، 174، 337 .

نافع (قارئ المدينة) : 126 .

نتلة (أم العباس) : 289، 294 .

نقفور فقاس (الدمستق) : 20، 79، 171،

295، 304 .

أبو نواس : 8-27، 51، 200، 203، 255،

6-294، 8-307، 332، 361، 364 .

نوح (صاحب الفلك) : 184، 237، 323 .

نيكولاووس (سفير الروم) : 301 .

و

اليافعي : 7-16، 32، 363 .

ياقوت : 16، 18، 132، 134، 354 .

يحيى بن حمدون : انظر : بنو حمدون .

أبو يزيد صاحب الحمار : 77، 85، 125،

146، 158، 3-192 .

يزيد بن حاتم المهلبى : 110 .

يزيد بن معاوية : 282 .

يعقوب : 254 .

يوسف النبي : 254، 333 .

يونس (ذو النون) : 261 .

هـ

هارون (أخو موسى) : 187، 343 .

هارون الرشيد : 174، 255، 294 .

هاشم (عمر) : 42 .

«الهامة» : 276 .

ابن هانيء الحفيد : محمد بن إبراهيم .

3- فهرس البلدان والأماكن

- أ
- برقة : 132-136، 145، 197، 245،
285، 359، 362 .
برقة ثهمد : 206 .
البصرة (بالمغرب) : 189 .
بغداد : 7، 11، 56، 60، 121، 161،
181-2، 251، 256، 269، 271-2، 284،
286، 289، 296 .
بنغازي : 47، 135 .
بويشتر : 125 .
بولاق (طبعة) : 41 .
بيروت (طبغات) : 2-41، 46 .
بيزنطة (القسطنطينية) : 170 .
- أشير : 78، 366 .
البيرة : 14، 84، 88، 107 - 110، 125،
358 .
المرية : 278 .
أنطاكية : 56، 60 .
الأوراس : 81، 96، 147 .

ت

- ب
- التافيلالت : 117 .
تاهرت : 90، 97، 197، 239، 242، 245 .
تونس 1 (مخطوط) : 35 .
تونس 2، 3، 4 (مخطوط) : 36، 37، 362 .
تيماء : 192، 330 .
- باريس (مخطوط) : 28، 32 .
بجاية : 84 .
بدر (غزوة) : 151، 248، 274-5،
279-81، 284، 286، 288، 340 .

ح

ش

- حلب : 7، 20، 54، 80، 116، 120، 290 .
حيدر آباد : 31، 39، 43 .
الحيرة : 181 .

ص

- الصعيد : 93 .
صفين : 280 .
صقلية : 18، 20، 55، 79، 81، 89،
170-1، 174، 271، 295، 366 .

خ

- خزافي (يوم) : 180 .
الخصوص (وقعة) : 151 .
خم (غدير) : 143، 151، 268، 287-8 .

ط

- طبرمين : 171 .
الطف : 128، 202، 274، 282-3، 340 .
طنجة : 78، 90، 278 .

د

- الدلتا (البحيرة) : 93 .

ر

- رضوى (جبل) : 7، 147، 330 .
رقادة : 85، 92، 108، 164، 236-7 .
رمطة : 53، 55، 81، 171 .
الرملة : 291 .
ريو (رية) : 171 .

ع

- « العواصم » : 286 .

غ

- الغدير (انظر : خم)
غرناطة : 8-107، 358 .

س

- سبتة : 78، 90، 119، 278، 280، 360-1 .
سجلماسة : 163 .
سرت : 31، 39، 43 .
سردانية : 134، 138 .
السقيفة : 128، 279، 280-283، 340 .
سكون : 107 .
سلمية : 85 .
السهلة : 137، 353 .
سيناء : 193 .

ف

- فاس : 47، 59، 90، 117، 245 .
الفرات : 7، 237، 295، 331 .
فراقس : 61 .
الفسطاط : 116، 138، 139 .

ق

- قابس : 17، 132، 333، 337، 363 .

- القاهرة : 18 ، 61 ، 81 ، 89 ، 95 ، 134-138 ،
 165 ، 170 ، 189 ، 250 ، 355 .
 قرطبة : 14 ، 17 ، 53 ، 87 ، 103 ، 112 ،
 125 ، 134 ، 161 ، 189 ، 243 ، 251 ،
 269 ، 273-4 ، 279 ، 285 ، 304 .
 قريظش : 79 ، 295 .
 القسطينية : 89 ، 170 ، 271 ، 296-7 .
 قلورية : 81 ، 170-1 ، 300-1 .
 القيروان : ذكرت كثيراً : 48-58 ، 122-126 ،
 144-146 ، 191-196 ، 206 ، 239-249 ،
 260 .
 المسيلة (المسيلة) : 85 .
 المجاز (وقعة) : 171-174 .
 المسيلة : ذكرت كثيراً : 85 .
 مسينا (مجاز) : 20 ، 55 ، 81 ، 171 .
 المعاضيد (جبال) : 85 ، 192 .
 مكة المكرمة : 5-154 ، 168 ، 255 ، 277 ،
 281 ، 287 ، 292 ، 360 .
 مجردة : 333 .
 مدريد (مخطوط) : 28 ، 33 .
 المرج : 135 .
 المنصورية : ذكرت كثيراً .
 المهدية : 59 ، 108 ، 147 ، 155 ، 206 ، 240 .
 منى : 192 .

ن

- النيل : 58 ، 80 ، 91 ، 167 ، 331 ، 333 .

و

- «الواحات» : 93 .
 الوادي المالح : 158 .

ي

- يثرب : 186 ، 225 ، 251 ، 277 .
 يذبل (جبل) : 47 ، 331 .

ك

- كبك (جبل) : 147 ، 330 .
 كربلاء : 128 ، 244 ، 274-5 ، 279-282 ،
 284 ، 340 .

- الكوفة : 128 ، 280 .
 كيانه : 85 ، 191-2 ، 195 .

م

- متالع (جبل) : 330 .
 المتحف البريطاني (مخطوط) : 34 ، 43 .

4 - فهرس الكتب المذكورة في المتن

أ

- تبیین المعاني (زاهد علي): 43 .
 تنمة اليتيمة (الثعالبي): 199، 359 .
 تخلص الذهب (ابن الخطيب): 15 .
 التكملة لكتاب الصلة (ابن الأبار): 10، 14، 107 .
 إتحاف أهل الزمان (ابن أبي الضياف): 37 .
 الإحاطة (ابن الخطيب): 15، 16، 22 .
 أخبار ملوك بني عبید (ابن حمّاد): 18، 249 .

ج

- جذوة المقتبس (الحميدي): 11، 12، 14، 346 .
 الجمع بين الصحيحين (الحميدي): 13 .
 الجمع والبيان (ابن شدّاد): 16، 134، 139، 241 .
 إرشاد الأريب (ياقوت): 16 .
 الاستقصاء (الناصرى السلاوي): 20 .
 افتتاح الدعوة (القاضي النعمان): 84 .

ب

- بغية الملتبس (الضبي): 11 .
 البيان المغرب (ابن عذاري): 18 .

ت

- تاريخ الإسلام (الذهبي): 20 .
 تاريخ الدولة الفاطمية (حسن إ. حسن): 347 .
 تاريخ العلماء والرواة (ابن الفرضي): 10 .
 التبيان في شرح الديوان (العكبري): 45 .

ح

- الحلل السندسية (الوزير السراج): 20 .

خ

- خريدة القصر (العماد الاصفهاني): 137، 360 .
 خطط المقريري: 240 .

د

- دعائم الإسلام (القاضي النعمان): 143،
298 .
الديباج الخسرواني (التيفاشي): 23 .

ذ

- الذخيرة (ابن بسّام): 182، 346 .

ر

- رسالة في فضائل الأندلس (ابن حزم):
182 .
الرسالة الى الحسن القرمطي (المعز): 77 .
رسالة الشقندي: 182 .
الرسالة المسيحية: 77، 298 .
رياض النفوس (المالكي): 144، 158 .

ز

- زهر الآداب (الحصري): 21، 352، 355 .

س

- سيرة الأستاذ جودر: 21، 89، 92، 101، 142،
181، 185 .

ش

- شذرات الذهب (ابن العماد): 16، 363 .

ص

- ك. الصلة (ابن بشكوال): 10 .

ط

- طبقات أبي العرب: 125 .

ع

- العقد الفريد (ابن عبد ربّه): 333 .
العمدة (ابن رشيق): 21، 158 .
عيون الأخبار (الداعي إدريس): 82، 358 .
عيون التواريخ (ابن شاكر): 38 .

ف

- فهرسة ابن الخير: 112 .

ق

- قراصة الذهب (ابن رشيق): 14، 16، 110،
134 .
القصيدة الفزارية: 158 .
قلائد العقيان (الفتح بن خاقان): 14 .

ك

- الكامل (ابن الأثير): 18 .

ل

- اللزوميات: 309، 349 .

م

- المجالس والمسائرات (القاضي النعمان):
142، 300، 358 .
المجالس المستنصرية: 144 .
المجالس المؤيدية: 144 .
مرآة الجنان (اليافعي): 16 .
مسالك الأبصار (ابن فضل الله): 354 .
مسائل الانتقاد (ابن شرف): 16 .
المطرب من أشعار أهل المغرب (ابن
دحية): 15 .

مطمح الأنفس (ابن خاقان): 4-13، 38، 88،
349 .
المؤنس (ابن أبي دينار): 20، 92 .

ن

معالم الإيمان (الدبّاغ/ابن ناجي): 144 .
المعجب (عبد الواحد المراكشي): 358 .
المغرب في حلى المغرب (ابن سعيد):
15، 346، 353 .

و

المفضليات: 312 .
المقتبس (ابن حيّان): 8-17 .
الوافي بالوفيات (الصفدي): 19، 111 .
وفيات الأعيان (انظر: ابن خلكان في
فهرس الأعلام) .
موطأ مالك: 126 .

5 - فهرس المراجع العربية وغير العربية

باللغة العربية

رتبنا المراجع على أسماء مؤلفيها ترتيباً أبجدياً بقطع النظر عن « ابن » و« أبو ». فابن هانئ يأتي في الهاء ، وأبو الطيب في الطاء . وجعلنا بين قوسين سنة الوفاة .

أ

ابن الأبار (1260/658) :

- التكملة لكتاب الصلة ، مدريد 1889 .

- الحلة السيرة ، نشر حسين مؤنس ، القاهرة 1963 ، في جزأين .

ابن الأثير (1233/630)

- الكامل في التاريخ ، القاهرة 1353/1934 في 9 مجلدات .

إدريس عماد الدين الداعي (872/1468) : عيون الأخبار ، السبع السادس ، مخطوط .

الاصطخري (957/346)

المسالك والممالك ، القاهرة 1961 .

الأعظمي (محمد حسن) : الحقائق الخفية عن الشيعة الفاطمية والأثني عشرية ، القاهرة ، 1970 .

امروء القيس : ديوان ، نشر السندوبي ، القاهرة 1053 .

أمين (أحمد) : ظهر الاسلام ، 4 أجزاء ، القاهرة 1957 .

الأميني النجفي (عبد الحسين أحمد) : الغدير في الكتاب والسنة والأدب،

بيروت 1977

أنيس (ابراهيم) : موسيقى الشعر ، القاهرة ، 1965 .

ب

الباخرزي (1074/467) : دمية القصر، بغداد 1970 .

البحثري : ديوان ، نشر البرقوفي 1911/1329 .

- ديوان، نشر حسن كامل الصيرفي ، ذخائر العرب عدد 34 .

ابن بسّام (1147/542) :

الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق إحسان عبّاس ، تونس - ليبيا

1975 .

البكري (1094/487)

المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، الجزائر 1857 .

البلاذري : أنساب الأشراف ، تحقيق محمد حميد الله ، القاهرة 1959 .

ت

تامر (عارف) : - ابن هانيء ، سلسلة الأعلام ، بيروت 1961 .

- ابن هانيء ، فصل بدائرة معارف البستاني 112/4 .

ابن تغري بردي (1470/874) : النجوم الزاهرة ، القاهرة 1933 .

أبو تمام : ديوان ، تحقيق محمد عبده عزّام ، ذخائر العرب رقم 5 .

تميم بن المعزّ الفاطمي : ديوان ، القاهرة 1957 .

ث

الثعالبي (1038/429) : كتاب تتمة اليتيمة ، تحقيق عبّاس اقبال ، طهران

1934/1352 .

- يتيمة الدهر ، القاهرة 1934/1352 .

ج

جوذر (سيرة الأستاذ) ، نشر محمد كامل حسين ومحمد عبد الهادي

شعيرة . القاهرة ، د.ت .

ح

- ابن حجر العسقلاني (1448/852) :
الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة - حيدر آباد 1931/1350.
ابن حجة الحموي (1433/837): خزانة الأدب وغاية الأدب ، القاهرة 1887/1304.
ابن أبي حجلة التلمساني (1375/776)
سكردان السلطان (مع ك. المخلاة للعالملي) القاهرة 1957.
حسن (حسن إبراهيم): تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة 1967.
حسن (علي إبراهيم): تاريخ جوهر الصقلي ، القاهرة 1933.
محمد كامل حسين: في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، 1970 .
الحصري (1022/413): زهر الآداب ، القاهرة 1953.
ابن حماد (1230/628): أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، الجزائر 1927.
الحميدي (1095/488): جذوة المقتبس ، تحقيق محمد بن تاويت ، القاهرة 1952.
ابن حيّان (1076 / 469): المقتبس في أخبار بلد الأندلس ، نشر عبد الرحمان الحنجي ثم محمود علي مكّي (1973) ثم بدرو شلميتا (1979) .

خ

- ابن خاقان (الفتح - 1134/529) :
- قلائد العقيان ، نشر سليمان الحريري ، باريس 1860 .
- مطمح الأنفس ، القاهرة 1905/1325.
ابن الخطيب (1375/776) لسان الدين :
- الإحاطة في أخبار غرناطة ، نشر عبدالله عنان ، القاهرة
- أعمال الأعلام ، قسم نشره ح.ح. عبد الوهاب ، بالرمو 1910.
قسم نُشر بمدرّيد، 1956 (بتحقيق رفائيل مركاس).
الخفاجي (الشهاب - 1658/1069)

ريحانة الألباء ، نشر عبد الفتاح الحلو ، القاهرة 1967.

ابن خلدون (1406/808): ك. العبر ، بيروت 1958.

ابن خلكان (1282/781): وفيات الأعيان ، القاهرة 1948 .

خلوصي (صفاء) : فن التقطيع الشعري والقافية ، بيروت 1966 .

ابن خير (1179/575) : فهرسة ما رواه عن شيوخه ، مدريد 1894 .

د

الدبّاغ (1297/696)/ ابن ناجي : معالم الإيمان ، تونس 1902/1320 .

ابن دحية (1265/663) : المطرب من أشعار أهل المغرب ، القاهرة 1954 .

ابن الدواداري (1335/736) : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، نشر صلاح الدين المنجد ، القاهرة 1961 .

ابن أبي دينار (1698/1110) : المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، تونس 1868/1236 .

ذ

الذهبي (1348/748)

- تاريخ الإسلام ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس ، رقم 1581 .

- العبر في تاريخ من عبر ، الكويت 1961 .

ر

ابن رشيقي (1063/456)

- العمدة ، القاهرة 1955 .

- قراضة الذهب ، نشر الشاذلي بويحيى ، تونس 1972 .

ز

الزبيدي (989/379) :

طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة
1954 .

ابن زيدون : ديوان ، نشر رشيد الكيلاني ، القاهرة 1956 .

س

السراج (الوزير) [1736/1149] :

الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، نشر محمد الحبيب الهيلة ،
تونس 1974-1970 .

ابن سعيد المغربي (1286/685) :

- رايات المبرزين : نشر قارثيا قوميث ، مدريد 1942 .
- عنوان المرقصات ، نشر عبد القادر محداد ، الجزائر 1949 .
- المغرب في حلى المغرب ، نشر شوقي ضيف ، القاهرة 1955 .
- قسم منه خاص بمصر ، نشر زكي محمد حسن ، القاهرة 1953 .

ابن سهل الجياني : نوازل الأحكام . . . مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس
رقم 18394 .

ش

ابن شاکر الكتبي (1362/764) :

- عيون التواريخ ، مخطوط المكتبة الوطنية بباريس رقم 1588 .
- فوات الوفيات ، القاهرة 1957 .

ابن الشحنة (1412/813) : روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر (طبع
بهامش مروج الذهب) القاهرة 1885/1303 .

ابن شرف القيرواني (1067/460) : مسائل الانتقاد ، نشر شارل بلّا ، الجزائر
1953 .

ص

- الصدر (السيد الحسن) : تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام ، بيروت 1981 .
الصفدي (1363/764) : الوافي بالوفيات ، نشر ريتز ، فيسبادن 1962 ، ومخطوط
دار الكتب الوطنية بتونس رقم 13318 .
الصنوبري : ديوان ، نشر إحسان عباس ، بيروت 1970 .

ض

- الضبي (1203/599) : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس نشر كوديرا ،
مدريد 1884 .

ط

- الطالبي (محمد) : تراجم أغلبية ، تونس 1968 .
الطرازي (فيليب) : تاريخ الصحافة العربية ، بيروت 1914 .
الطرسوسي (مرضيّ) : ك. تبصرة الألباب ، نشر كلود كاهين ، صحيفة
الدراسات الشرقية (B.E.O.) مجلد 12 ، دمشق 1947-1948 .

ظ

- ابن ظافر الأزدي (1216/613) : بدائع البدائه ، بولاق 1860/1278 .

ع

- العاملي (1622/1031) : كتاب المخلاة ، القاهرة 1957 .
عبد الوهاب (ح.ح.) : تاريخ الأدب التونسي ، تونس 1966 .
ابن عذارى (1312/712) : البيان المغرب ، نشر ليثي بروفنسال وكولان ، ليدن
1951-1948 .
أبو العرب التميمي (945/333) : طبقات علماء إفريقية ، نشر محمد بن أبي
شنب ، الجزائر 1917/1332 .

- العسكريّ (1010/400) : ك . الصناعتين ، القاهرة 1971 .
- العماد الأصفهاني (1201/597) : خريدة القصر - (قسم شعراء مصر) ، القاهرة 1959 .
- (قسم شعراء المغرب) تونس 1972/1966 .
- ابن العماد الحنبليّ (1678/1089) : شذرات الذهب ، القاهرة 1931 .
- العمريّ (ابن فضل الله) [1348/748] :
- مسالك الأبصار ، نشر أحمد زكي ، القاهرة 1924 .
- قسم المغرب ، ترجمة ديمومبين ، باريس 1927 .
- الباب 17 : شعراء الجانب الغربيّ ، مخطوط المكتبة الوطنية باريس 1327 .
- عليّ (زاهد) الحيدرابادي : تبين المعاني في شرح ديوان ابن هانيء ، القاهرة 1933/1352 .

ف

- أبو الفداء (1331/732) : المختصر في أخبار البشر ، القاهرة 1907/1325 .
- أبو فراس الحمداني : ديوان ، بيروت 1966 .
- الفرزدق : ديوان ، نشر الصاوي ، القاهرة 1936/1354 .
- ابن الفرضيّ (1013/403) : تاريخ العلماء والرواة بالأندلس ، القاهرة 1954 .

ق

- ابن قتيبة (889/276) : الشعر والشعراء ، المقدمة ، نشر ديمومبين ، دمشق .
- القلقشندي (1418/821) : صبح الأعشى ، القاهرة 1972-1963 .
- القميّ (عبّاس) : الكنى والألقاب ، النجف 1970 .
- ابن قنفذ القسنطيني : الفارسيّة في مبادئ الدولة الحفصيّة ، تونس 1968 .
- الوفيات ، نشر بيريس 1939 .

ك

ابن كثير (1373/774) : البداية والنهاية ، القاهرة 1932 .

م

المالكي (1061/453) : رياض النفوس- ج 1 نشر حسين مؤنس ، القاهرة

1951 . ج 2 ، مخطوط القاهرة رقم 116 ، مخطوط باريس رقم 2153 .

- نشر البشير البكوش في 3 أجزاء ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت
1981- 1984 .

المتنبّي : الديوان بشرح العكبري ، القاهرة 1956 .

مجهول : ك . العيون والحدائق ، الجزء الرابع في قسمين ، تحقيق عمر
السعيد ، دمشق 1973 .

المحبّي : (1699/1111) : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ،
القاهرة 1967 .

- نفحة الريحانة ، نشر عبد الفتاح الحلو ، القاهرة 1967 .

المراكشي (عبد الواحد) (1250/647) : المعجب في تلخيص أخبار
المغرب ، القاهرة 1949 .

المقدّسي (988/378) : أحسن التقاسيم ، نشر شارل بلا - الجزائر 1950 .

المقري (1631/1041) : أزهار الرياض في أخبار عياض ، القاهرة 1942 .
- نفح الطيب ، القاهرة 1949 .

- نفح الطيب نشر احسان عبّاس ، بيروت 1968 .

المقريزي (1441/845) :

- اتعّاظ الحنفاء ، نشر جمال الدين الشّيال ، القاهرة 1948 .

- الخطط (المواعظ والاعتبار) . بولاق 1898/1316 .

- ك . الذهب المسبوك فيمن حجّ من الخلفاء والملوك ، نشر الشّيال ،
القاهرة 1955 .

- المعرّي (1057/449) : اللزوميّات ، بيروت .
 - رسالة الغفران ، تحقيق بنت الشاطيء ، القاهرة 1950 .
 مكّي (محمود علي) : التشيع في الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات
 الإسلامية بمديرية 2,1/1954 .
 ابن منظور (1311/711) : أخبار أبي نواس ، القاهرة 1924 .
 المنقري (نصر بن مزاحم) [828/212] : وقعة صفّين ، تحقيق عبد السلام
 هارون ، القاهرة 1365 .

ن

- ناجي (منير) : ابن هانيء الأندلسي ، بيروت 1962 .
 الناصريّ السلاويّ (أحمد) : ك. الاستقصاء ، الدار البيضاء ، 1954 .
 القاضي النعمان (974/363) : - افتتاح الدعوة ، نشر وداد القاضي ، بيروت
 1970 .
 - تأويل الدعائم ، نشر محمد حسن الأعظمي ، القاهرة 1969 .
 - دعائم الإسلام ، نشر آساف فيضي ، القاهرة . .
 - المجالس والمسائرات ، نشر كلية الآداب ، تونس 1978 .
 - ك. الهمة ، نشر محمد كامل حسين ، القاهرة 1951 .
 أبو نواس : ديوان ، بيروت 1962 .

ي

- اليافعيّ (عفيف الدين) [1367/768] :
 مرآة الجنان . . . مخطوط دار الكتب الوطنية ، تونس رقم . 13443
 13444 . وطبعة بيروت الثانية ، 1970 .
 ياقوت الحموي : (1230/627) :
 - إرشاد الأريب (معجم الأدباء) نشر الرفاعي ، القاهرة 1939 .

- Amari** (Michele): – B.A.S. (Biblioteca arabo-sicula), Leipzig 1957.
 – Su i fuochi di guerra... Roma 1871.
- Blachère** (Régis): – Histoire de la littérature arabe, Paris 1952-1966.
- Bouyahia** (Chedli): – La vie littéraire en Ifriqiya sous les Zirides, Tunis 1972.
- Brunschvig** (Robert): – Fiqh fatimide et Histoire de l'Ifriqiya, in Mélanges d'histoire et d'archéologie de l'Occident musulman, tome 2, Alger 1957.
 – Un aspect de la littérature historico-géographique de l'Islam; mélanges Gaudefroy-Demombynes, Paris 1945.
- Canard** (Marius):
 – L'autobiographie d'un chambellan du Mahdi 'Ubayd Allah, Hespéris 1952.
 – Cérémonial fatimide et cérémonial byzantin; Byzantion 21 (1951).
 – Une famille de partisans puis adversaires des Fatimides en Afrique du Nord, in Mél. d'Hist. et d'Archéol. de l'Occ. musulman, t. 2, Alger 1957.
 – Histoire de la dynastie des Hamdanides... Alger 1951.
 – L'impérialisme des Fatimides et leur propagande, A.E.I.O.A. 6/156.
 – La procession du Nouvel an chez les Fatimides, A.E.I.O.A. 1952.
 – Vie de l'ustadh Jawdhar, Alger 1958.
- Dachraoui** (Farhat):
 – Le califat fatimide au Maghreb, Tunis 1981.
 – La captivité d'Ibn Wāsūl... in: Cahiers de Tunisie 1956.
 – La Crète entre Byzance et mu'izz, in Cahiers de Tunisie, 1959.
 – Contribution à l'Histoire des Fatimides en Ifriqiya, Arabica 8.
 – Tentative d'infiltration chiite en Espagne musulmane, al-Andalus 23/1958.
- Fournel** (H.): – Les Berbers, Paris 1881.
- Garcia-Comez** (E.): – Poemas arabigo-andaluces, Madrid 1940.
 – Mutanabbi et Ibn Hāni; Mélanges W. Marçais; 1950.
- Guyard** (St.): – Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, Paris 1874.
- Idris** (H.-R.): – La Berbérie Orientale sous les Zirides, Paris 1962.
 – Contribution à l'Histoire de l'Ifriqiya, Revue des Etudes Islamiques 1935-36.
- Ivanow** (W.): – A guide to Ismaili literature, London 1933.
 – Ismaili traditions concerning the rise of Fatimids, Bombay 1942.
- Kremer** (A. von): – Ibn Hāni', in Z.D.M.G. 24.

- Lévi-Provençal (E.):** – Fragments sur les Berbères au moyen-âge, Rabat 1934.
- Histoire de l'Espagne musulmane; Paris 1950-53.
- Luya (A.):** – La Risāla d'al-Šaḡundī, Hesperis 22/1936.
- Marçais (G.):** – La Berbérie musulmane et l'Orient au moyen-âge, Paris 1946.
- Manuel d'art musulman, Paris 1926.
- Massé (H.)** – Le poème d'Ibn Hānī' sur la conquête de l'Égypte; Mélanges d'Hist. et d'Archéol. de l'Occident musulman, 1957.
- Massiera (P.):** M'sila du 10^e au 15^e siècle, Cahiers de Tunisie no. 85/ 86.
- Massignon (Louis):** – Esquisse d'une bibliographie garmate, 1922.
- Monès (Husayn):** – Le malékisme et l'échec des Fatimides en Ifriqiya; Mél. Lévi-Provençal, Paris.
- Pellat (Ch.):**– Ibn Hazm, bibliographe et apologiste de l'Esp. musul. al-Andalus 19/1954.
- Pérès (H.):** – La poésie à Fés sous les Almoravides, Hespéris 18/1 (1934).
- La poésie andalouse en arabe classique au 11^e siècle, Paris 1953.
- Pons Boigues (F.):** – Ensayo bio-bibliografico, Madrid 1898.
- Quatremère (M.):** – Mémoires historiques sur la dynastie des Fatimides Journal Asiatique, 1836.
- Vie du calife Moezz; Journal Asiatique 1836-37.
- Observations sur le feu grégeois, Journ. asiat. 1850.
- Reinaud (H.):** – De l'art militaire chez les Arabes, Paris 1848.
- Du feu grégeois; Mélanges H. Reinaud.
- Rikābi (J.):** – La poésie profane sous les Ayyubides, Paris 1949.
- Scalumberger (Gust):** – Un empereur byzantin au 10^e siècle: Nicéphore Phocas, Paris 1890.
- Vassiliev (A.A.):** – Byzance et les Arabes, Bruxelles 1935-50.
- Zbiss (Mustapha-Sulaymān):** – Mahdia et Sabra-Mansuriyya, Journal asiatique, 1956.

6 - فهرست المواضيع

- تمهيد 5
- الفصل الأول : مصادر ترجمة ابن هانيء 9
- كتب الرجال الأندلسية - 10 - كتب الرجال الشرقية - 16 -
- كتب التاريخ - 17 - كتب الأدب - 21 - المخطوطات - 22 17
- الفصل الثاني : ديوان ابن هانيء 31
- النسخ المخطوطة - 32 - النسخ التونسية - 34 - النسخ الأخرى - 39 -
- ترتيب القصائد في المخطوطات - 39 - طبقات الديوان - 41 - شرح
- زاهد علي - 43 - محاولة ترتيب القصائد ترتيباً زمنياً - 46 -
- القصائد الإفريقية - 52 - مدائح ولاية المعز - 62 .
- ملحق 1 : مخطوطات الديوان مرتبة ترتيباً زمنياً تقريباً 65
- ملحق 2 : قصائد الديوان مرتبة بالتقريب ترتيباً زمنياً 68
- الفصل الثالث : ممدوحو الشاعر 75
- المعز لدين الله - 75 - أمير الزاب - 83 - جوهر الصقلي - 88 - أفلح
- الناشب - 92 - أبو الفرج الشيباني - 96 - أبو عبد الله بن
- المهذب - 100 - أحمد بن زائدة - 102 - الوهراني - 103 .

107 الفصل الرابع : ترجمة ابن هانئ

هانئ أبوه - 108 - الأصل المهلبى - 109 - تاريخ ميلاد
الشاعر - 110 - نشأة الشاعر - 112 - أسباب تركه الأندلس - 114 -
ابن هانئ بالمغرب وإفريقية - 117 - تشيع ابن هانئ - 124 -
تضارب الأقوال في ظروف وفاته - 132 .

141 الفصل الخامس : الإشارات التاريخية في الديوان

الحياة ببلاط المعز - 141 - الاحتفالات وظهور الإمام - 148 -
المظلة - 149 - الخيل - 149 - السيف ذو الفقار - 150 - التاج - 152 -
العرش - 153 - مدى حظوة الشاعر لدى المعز - 156 - حروب
المعز : في المغرب - 160 - فتح مصر - 164 - تعيين ابنه عبد الله
على ولاية إفريقية والمغرب - 168 - الحرب ضدّ بيزنطة - 170 -
الأسطول الحربي ، النار الإغريقية - 172 .

179 الفصل السادس : الإشارات التاريخية (تابع : قصائد المسيلة

البلاط الحمدوني - 179 - حياة اللهو - 183 - أحداث البلاط - 184 -
الولاء الفاطمي - 186 - مدى الوفاق بين الأخوين - 187 - حملات
الأخوين ضدّ أعداء الخلافة - 190 - بقية شعره 197

203 الفصل السابع : أغراض ابن هانئ ومعانيه : المعاني التقليدية

المدح - 203 - الاستهلاات - 204 - وصف الراحلة والتخلص إلى
المدح - 210 - وصف الطبيعة - 214 - المجالس الخمرية - 217 -
شكوى الدهر - 219 - معاني المدح : الكرم - 221 - الحلم - 223 -
البأس والقوة - 225 - مدح الأمهات - 234 .

الثناء	229
الهجاء	235

239 الفصل الثامن : أغراض الشاعر ومعانيه (تابع) المعاني العقائدية المذهبية . .

تدرّجه في اعتناق المذهب - 239 - موقف أهل السنة من غلوّ الشاعر في ولائه - 240 - المعاني المذهبية في شعره المغربي - 242 - قصائد المسيلة - 243 - تشييع السلاح أيضاً - 244 - مدائح الشيباني - 244 - مدحة أفلح الناشب النونية - 245 - التأكيد على النسب الفاطمي - 247 - بين الميثب للنسب الفاطمي والقادح فيه - 249 - إرث الرسول مادّي ومعنوي - 251 - الإمام هو محور الخليقة - 252 - قدسيّة الإمام - 256 - علم الإمام - 258 - شفاعة الإمام تنال السابقين واللاحقين - 261 - معرفة الإمام واجبة - 263 - اشتراك هذه المعاني عند ابن هانئ وتميم بن المعزّ - 264 - الإمام واجب الوجود - 266 - عصمة الإمام - 267 - الإمام يعيّن بالنصّ - 268 .
--

271 الفصل التاسع : معاني الشاعر وأغراضه (تابع) - المعاني السياسيّة . . .

التحامل على الأمويين - 272 - حقد الأمويين على آل البيت حقد قديم - 275 - وصمتان في تاريخهم - 276 - الأضغان القديمة : السقيفة وبدر وكرلاء - 279 - مبررات التحامل على بني أمية - 284 - التهجم على العباسيين - 285 - بنو العباس أبناء الطليق - 286 - هم عبيد بالوراثة - 288 - انخذالهم أمام الروم - 289 - المعزّ ناصر الدين - 291 - الدولة العباسيّة دولة مجوسيّة - 293 - التحامل على الروم - 294 - الروم في لغة الشاعر - 295 - الروم أعداء في الدين - 297 - انتصارات المعزّ عليهم - 299 - جبن الدماسق
--

وجهلهم بالحرب - 302 - غلبة الروم في المشرق سببها خذلان بني
العبّاس - 304 .

305 الفصل العاشر : شاعريّة ابن هانئ .

الأغراض - 305 - المحاكاة الصريحة - 306 - أدوات الشعرية -
القصيدة - 308 - القوافي - 309 - الأوزان - 311 - التقسيم الثلاثي
للقصيدة - 312 - الصنعة البلاغيّة : أصناف المجاز - 317 - التشبيه
المقلوب - 322 - الجناس - 324 - التورية أو اللبس المقصود - 324 -
الازدواج داخل البيت - 325 - لغة الشاعر ، طلب الغريب - 327 -
الرصيد الثقافيّ المشترك - 329 - الميل الى الأقدمين - 331 - ابن
هانئ والمتنبّي - 332 - القصيدة الحادية والعشرون في
المتنبّي - 334 - غنائيّة ابن هانئ - 338 - الحقد على خصوم
الإمام - 340 - التهكم بهم - 340 - التأملات الحكميّة - 341 -
تديّنهُ - 342 - التغني بالجمال - 343 .

345 الفصل الحادي عشر : تأثير ابن هانئ .

الأحكام المذهبيّة - 345 - الأحكام الأدبية - 348 - أحكام
معاصرة - 350 - سيرورة الديوان - 352 - عقب الشاعر - 358 - تدهور
شخصيّة ابن هانئ - 361 .

365 الخاتمة

371 فهرس الآيات

373 فهرس الاعلام والمفاهيم

381 فهرس البلدان والأماكن

385 فهرس الكتب المذكورة في المتن

389 فهرس المراجع

401 فهرس المواضيع

وَلَرُّ الْعَرَبِ الْإِسْلَامِي / الْجَيْبُ الْمَسِي

شارع الصوراتي (المعماري) — الحمراء — بناية الأسود
تلفون : 340131 - 340132 — ص.ب. 113-5787 بيروت — لبنان

الرقم 85/1/3000/50

التنفيذ: أبجد غرافيكس

الطباعة: مؤسسة نزيه كركي
